أخبار الأذكياء

تأليف

جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي
القرشي البغدادي

بعناية

بسام عبد الوهاب الجابي

الجفان والجابي
للطباعة والنشر

دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

AL-JAFFAN & AL-JABI
Printers - publishers

JAFFAN TRADERS P.O.Box: 54170 - 3721 Limassol - CYPRUS
Fax: 357 - 5 - 591160 Phone: (05) 583345
http://www.jaffan.com/ - E-mail: hj@jaffan.com

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

AL-JAFFAN & AL-JABI
Printers - publishers

JAFFAN TRADERS P.O.Box: 54170 - 3721 Limassol - CYPRUS
Fax: 357 -.5 - 591160 Phone: (05) 583345
http://www.jaffan.com/ - E-mail: hj@jaffan.com

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت ـ لبنان ـ ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ ـ تلفون: ٧٠١٩٧٤

المقـدّمـة

الكاتب والكتاب

اسم المؤلف ونسبه :

هو جمال الدين أبو الفَرَج عبد الرَّحْمن بن أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن عُبَيْد الله ابن عبد الله بن حُمَّادَى[1] بن أحمد بن محمد بن جَعْفَر الجَوْزِي[2] ابن عبد الله بن القاسم[3] بن محمد بن عبد الله بن الفقيه عبد الرحمن بن الفقيه القاسم بن محمد بن خليفة رسول الله أبي بكر الصديق ، القُرَشِي التَّيمي البَكْرِيّ البغدادي الحنبلي ، الفقيه الواعظ ، المعروف بابن الجَوْزيّ .

وجاء في « ذيل طبقات الحنابلة » ١/٤٤٠ : قال ابن القطيعي : وحكي لي أنّه كان يُسمَّى « المبارك » إلى سنة عشرين وخمس مئة . وقال ابن الجوزي : وسمَّاني وأخويّ شيخنا ابن ناصر : عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرازق ؛ وإنما كنّا نعرف بالكنى .

تاريخ ومكان ولادته :

قال المُنْذِريّ : مولده تخميناً سنة ثمان وخمس مئة ، ويقال : سنة عشر وخمس مئة ، ويقال غير ذلك .

وقال سبطه ٨/٣٠٠ : ولد جدي ببغداد بدرب حبيب في سنة عشرة وخمس مئة تقريباً .

قال ابن خلّكان نقلاً عن ابن النجّار في « ذيل تاريخ بغداد » : كان أبو الفرج ابن الجَوْزي يقول : لا أتحقّقُ مولدي ، غير أنَّ والدي مات سنة أربع عشرة — أي : وخمس مئة — ، وقالت الوالدة : كان لك من العمر نحو ثلاث سنين .

(١) « التكملة لوفيات النقلة » ١/٣٩٤ . هكذا ضبطه ، وكذلك ابن خلّكان .

(٢) وإليه نسبة الجوزي .

(٣) أضاف بعضهم : « ابن النضر بن القاسم » ولعل هذه زيادة من بعض النساخ .

وذكر ابن رجب في « ذيل طبقات الحنابلة » ١/٤٠٠ أنه وَجَد هذا القول بخط ابن الجوزي نفسه ، ثم قال : فعلى هذا يكون مولده سنة إحدى عشرة أو اثنتي عشرة .

وقال ابن الجوزي نفسه في « صيد الخاطر » صفحة : ٢١٣ ، وفي « ذمّ الهوى » صفحة ٤ : فإن أبي مات وأنا لا أعقل ...

وقال ابن القَطِيعي كما في « ذيل طبقات الحنابلة » : سألته عن مولده ، فقال : ما أحقِّق الوقت ، إلّا أنني أعلم أنّي احتلمتُ سنة وفاة شيخنا ابن الزّاغوني ، وكان توفّي سنة سبع وعشرين .

قال ابن رَجَب : وهذا يؤذن أن مولده بعد العشرة ، ويؤكِّدُ ذلك أنَّه وُجِدَ بخطِّه تصنيفاً له في الوعظ وذكر فيه أنه صنّفه سنة ثمان وعشرين وخمس مئة ، وله من العمر سبع عشرة سنة .

أما مكان ولادته ، فكما ذُكِرَ سابقاً في دَرْب حبيب من نهر المعلّى في الجانب الشرقي من بغداد .

وأما ما ذكره بعضهم ، مثل جرجي زيدان وكارل بروكلمان من أنه وُلِدَ في واسط ، فلا يُلْتَفَتُ إليه .

نسبته :

وضَبْط نسبتِه « الجوزي » بفتح الجيم وسكون الواو بعدها زاي ، نسبة إلى مكان اختلف في تعيينه ، واتفقوا على أن أوّل من نُسِبَ إليه هو جدّه التاسع جعفر . وأمّا المكان ، فبعضهم قال : هو فُرْضَةٌ من فُرَض البَصْرة يقال لها : جَوْزة . والفُرْضة : ثلمةُ النهر أو محطّ السفن .

وقيل : كان في داره جوزة لم يكن بواسط جوزة سواها .

وقيل : هو منسوب إلى محلّة بالبصرة ، تُسمَّى : محلة الجَوْز .

وقيل : هو منسوب إلى « مشرعة الجوز » إحدى محالِّ بغداد ، بالجانب الغربي .

فالله أعلم بالصواب .

نشأته :

توفي والده كما سَلَفَ وعمره ثلاث سنوات ، يقول ابن الجَوْزي في « صيد الخاطر » صفحة

٢١٣ : فإن أبي مات وأنا لا أعقل به ، والأم لم تلتفت إليّ .

فنشأ يتيماً ، تكفله عمته ، فقامت بأعباء تربيته والعناية به ، ثم حملته إلى مسجد أبي الفضل ابن ناصر ، فاعتنى ابن ناصر به وعلّمه واهتمّ بتوجيهه .

يقول ابن الجوزي عن هذه الفترة : أذكُرُ نفسي ولي هِمَّةٌ عالية ، وأنا في المكتب ابن ست سنين ، وأنا قرين الصبيان الكبار ، قد رُزِقْتُ عقلاً وافراً في الصغر يزيد على عقل الشيوخ ، فما أذكرُ أنّي لعبْتُ في طريق مع الصبيان قطّ ، ولا ضحكْتُ ضحكاً جارِحاً ؛ حتى إنّي كُنْتُ ولي سبع سنين أو نحوها أحضر رحبة الجامع ، فلا أتخيّر حلقة مشعبذ ، بل أطلب المحدِّث ، فيتحدّث بالسِّيَر ، فأحفظ جميع ما أسمعه ، وأذهب إلى البيت فأكتبه .

ويقول[1] : ولقد وُفّق لي شيخنا أبو الفضل ابن ناصر رحمه الله ، وهو الذي تولى تسميعي الحديث من زمن الصغر ، وهو الذي جعله الله تعالى سبباً لإرشادي إلى العلم ، فإنه كان يجتهد معي ، وكان يحملني إلى الشيوخ ، فأسمعني « مسند الإمام أحمد ابن حنبل » وغيره من الكتب الكبار والأجزاء العوالي ، وأنا لا أعلم ما يراد مني ، ولا أدري ما العلم من الصغر ، وضبط لي مسموعاتي إلى أن بلغتُ ، وأثبت لي ما سمعت بخطّه ، وأخذ لي إجازات ، وعنه أخذت أكثر ما عرفت من علم الحديث ، ولازمتهُ إلى أن توفي رحمه الله ، فنلتُ منه معرفة الحديث والنقل ، ولم أستفد من أحد كاستفادتي منه .

ويقول أيضاً في « صيد الخاطر » ٦٧/١ : إنني رَجُلٌ حُبِّبَ إليّ العلمُ من زمن الطفولة ، فتشاغلت به ، ثم لم يحبّب إليّ فنٌّ واحد منه بل فنونه ، ثم لا تقتصر هِمّتي في فنّ على بعضه بل أروم استقصاءه .

واهتم أيضاً بقراءة القرآن وحفظه ، كما اهتمّ بحضور مجالس الوعظ ، يقول أبو شامة « الذيل على الروضتين » : ٢١ : كان يختم القرآن في كلّ سبعة أيّام ، ولا يخرج من بيته إلا إلى الجامع للجمعة وللمجلس .

ولكي ندرك شغفه وحبه للعلم ، يكفي أن نقرأ قوله في كتابه « لفتة الكبد » ص ٤٨ :

(١) « لفتة الكبد » : ١٢ ، و« مناقب الإمام أحمد بن حنبل » ٥٣٠—٥٣١ ، و« المشيخة » : ٥٣ و١٢٩ و« ذيل طبقات الحنابلة » ٤٠١/١ . والمقول التالي هو تلفيق من المصادر الأربعة السابقة .

واعلم يا بني ، أن أبي كان موسراً ، وخلَّف ألوفاً من المال ، فلما بلغت دفعوا لي عشرين ديناراً ودارَيْن ، وقالوا لي : هذه التركة كلّها . فأخذت الدنانير ، واشتريت بها كتباً من كتب العلم ، وبعت الدارَيْن ، وأنفقت ثمنهما في طلب العلم ، ولم يبق لي شيء من المال .

وقال في « صيد الخاطر » ص ٢١٣ : ولقد كنتُ في حلاوة طلبي للعلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل ، لأجل ما أطلب وأرجو ؛ كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة ، فأخرج إلى طلب الحديث ، وأقعد على نهر عيسى ، فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء ، فكلّما أكلت لقمة شربت عليها ، وعين هِمَّتي لا ترى إلا لذّة تحصيل العلم . فأثمر ذلك عندي أني عُرِفت بكثرة سماعي لحديث سير الرسول ﷺ وأحواله وآدابه ، وأحوال الصحابة وتابعيهم ؛ فصرتُ في معرفة طريقه كابن أجود ؛ وأثمر ذلك عندي من المعاملة ما لا يدرك بالعلم ، حتى أنني أذكر في زمان الصبوة ، ووقت الغُلمة والعُزْبة ، قُدْرَتي على أشياء ، كانت النفس تتوقُ إليها توقان العطشان إلى الماء الزلال ، ولم يمنعني عنها إلا ما أثمر عندي من العلم من خوف الله عزّ وجلّ .

ثم يقول : إنني أروم من العلم ما أتيقّن أنّي لا أصل إليه ، لأنّي أحبُّ نَيْلَ كُلِّ العلوم على اختلاف فنونها ، وأريد استقصاء كلِّ فرد ، وهذا أمرٌ يعجز العمر عن بعضه ، فإن عرض لي همة في فنّ قد بلغ منتهاه رأيته ناقصاً في غيره ، ولا أعدّ همته تامة .

ويقول مخاطباً ابنه ومحدِّثاً عن هذه الفترة : وما ذَلَّ أبوك في طلب العِلْمِ قَطّ ، ولا خرج يطوف في البلدان كغيره من الوعّاظ ، ولا بعث رقعة إلى أحد يطلب منه شيئاً قطّ ؛ وأموره تجري على السداد ﴿ ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ [٦٥ سورة الطلاق/الآيتان : ٢و٣][١] .

وأما عن علوّ همته في طلب العلم ، فيقول : وما آبْتُلِي الإنسان قطّ بأعظم من علوّ همّته ، فإن مَنْ عَلَتْ هِمَّتُه يختار المعالي ، وقد لا يساعد الزمان ، وقد تضعف الآلة ، فيبقى في عذاب ؛ وإنّي أُعْطيتُ من علوِّ الهمّة طَرَفاً ، فأنا فيه في عذاب[٢] .

---

(١) « لفتة الكبد » : ٤٨

(٢) « صيد الخاطر » : ٢١٥ .

ويقول : خُلِقَتْ لي همّةٌ عاليةٌ تطلب الغايات ، فَعَلَت السنُّ وما بَلَغْت ما أمَّلْتُ ، فأَخَذْتُ أسْأَلُ تطويلَ العمر ، وتقوية البدن ، وبلوغ الآمال(١) .

ويقول عن كثرة اطلاعه ومطالعاته : سبيل طالب الكمال في طلب العلم الاطلاعُ على الكتب التي تخلفت من المصنفات ، فليكثر من المطالعة ، فإنّه يرى من علوم القوم وعلو هممهم ما يشحذ خاطره ، ويحرّك عزيمته للجدّ ، وما يخلو كتاب من فائدة ثم يقول بعد ذلك : ولو قلت : إني طالعتُ عشرين ألف مجلد كان أكثر ، وأنا بعد في الطلب(٢) .

أساتذته ومشايخه :

جمع ابن الجوزي « مشيخةً » ضمّت معظم شيوخه وأساتذته ، وبعد أن أورد ست وثمانون شيخاً قال : هذا آخر المشايخ الأكابر ، وقد سمعت من جماعة غيرهم ، ولي إجازات من خلق يطول ذكرهم ، وقد سمعت من ثلاث نسوة .

ثم أَوْرَدَهُنّ .

وسأورد أسماء مشايخه مرتبة ألفبائياً مع ذكر ولادتهم ووفاتهم إن عُلِمَت ، مستخرجها من « مشيخته » مُتْبِعاً كلَّ اسم رقم الشيخ حسب وروده في « المشيخة » .

١ ــ إبراهيم بن دِينَار النَّهْرَوَانِي ، أبو حَكِيم (٤٨٠ــ٥٥٦ هـ) [٧٨] .

٢ ــ أحمد بن أحمد بن عبد الواحد المُتَوَكِّلِي ، أبو السعادات (٤٤١ــ٥٢١ هـ) [٦] .

٣ ــ أحمد بن الحسن بن أحمد بن عبد الله بن البَنَّا ، أبو غَالِب (٤٤٥ــ٥٢٧هـ) [٨] .

٤ ــ أحمد بن الحسن بن هِبَة الله بن الحسين المُقْرِىء الإِسْكَاف ، أبو الفضل ، يُعْرَف بابنِ العَالِمَة بِنْت الرّازي (٤٥٨ــ٥٣٠هـ) [٢٩] .

٥ ــ أحمد بن سعيد بن علي العِجْلِي ، أبو علي (٠٠٠ــ٥٣٥هـ) [٨٤] .

٦ ــ أحمد بن ظَفَر بن أحمد المَغَازِلِّي ، أبو بكر (٠٠٠ــ٥٣٢هـ) [٤٠] .

٧ ــ أحمد بن علي بن محمد بن المُجَلِّي ، أبو السعود (٤٥٣ــ٥٢٥هـ) [٢٦] .

٨ ــ أحمد بن محمد بن الحَسَن بن علي بن أحمد بن سُلَيْمان البَغْدَادِي ، أبو سعد (٤٣٣ــ٥٤٠هـ) [٢١] .

---

(١) « صيد الخاطر » : ٢٢٦ .

(٢) « صيد الخاطر » : ٣٧٥ ــ ٣٧٦ .

٩ ــ أحمد بن محمد بن الحسين بن عثمان المَذَارِيّ ، أبو المَعَالِي (٤٦٢ــ٥٤٦هـ) [٣٣] .

١٠ ــ أحمد بن محمد بن عبد العزيز العباسي الشَّرِيف ، أبو جعفر (٠٠٠ــ٥٥٤هـ) [٧٠] .

١١ ــ أحمد بن محمد بن عبد القاهر الطُّوسِي ، أبو نصر (٠٠٠ــ٥٢٥هـ) [٣١] .

١٢ ــ أحمد بن محمد بن علي بن محمود بن إبراهيم بن باخُرَّة الزَّوْزَنيّ ، أبو سعد (٤٤٩ــ٥٣٩هـ) [٢٠] .

١٣ ــ أحمد بن المُقَرِّب بن الحسين الفقيه الكَرْخي ، أبو بكر (٤٧٩ــ٥٦٣هـ) [٥٣] .

١٤ ــ إسماعيل ابن أبي صالح أحمد بن عبد الملك المُؤَذِّن النَّيسابوري ، أبو سعد (٤٥٢ــ٥٣٢هـ) [٣٠] .

١٥ ــ إسماعيل بن أحمد بن عمر بن الأشعث السَّمَرْقَنْدِي ، أبو القاسم (٤٥٤ــ٥٣٦هـ) [١٥] .

١٦ ــ بدر بن عبد الله الشِّيحِي ، أبو النجم ، مولى أبي منصور عبد المحسن وعتيقه (٠٠٠ــ٥٣٢هـ) [٢٢] .

١٧ ــ ثابت بن منصور بن المبارك الكِيْلِي ، أبو العز (٠٠٠ــ٥٢٩هـ) [٦٧] .

١٨ ــ جعفر بن زيد بن جامع الشامي الحَمَوي ، أبو زيد (٠٠٠ــ٥٥٤هـ) [٨٠] .

١٩ ــ الحسن بن أحمد بن محبوب القَزَّاز ، أبو علي (٠٠٠ــ٥٤٥هـ) [٦٤] .

٢٠ ــ الحسين بن علي بن أحمد الخَيَّاط المُقْرِىء ، أبو عبد الله (٤٥٨ــ٥٣٧هـ) [٢٧] .

٢١ ــ الحسين بن محمد بن خُسْرُو البَلْخِي ، أبو عبد الله (٠٠٠ــ٥٢٦هـ) [٧٣] .

٢٢ ــ الحسين بن محمد بن عبد الوهاب بن أحمد الدباس ، المقرىء ، المعروف بالبارع البغدادي ، أبو عبد الله (٤٤٣ــ٥٢٤هـ) [١٠] .

٢٣ ــ حَمْد أو أحمد بن منصور بن حَمْد الهَمْذَاني ، أبو نصر (٠٠٠ــ٥٣٣هـ) [٦٣] .

٢٤ ــ سعد الخير بن محمد بن سهل الأنصاري المغربي الأندلسي ، أبو الحسن (٠٠٠ــ٥٤١هـ) [٥٤] .

٢٥ ــ سعد الله بن علي بن محمد بن حمدي أو أحمدي ، أبو البركات (٠٠٠ــ٥٥٧هـ) [٨٢] .

٢٦ ــ سعيد بن أحمد بن الحسن بن البَنَّا ، أبو القاسم (٤٦٧ــ٥٥٠هـ) [٣٦] .

٢٧ ــ سلمان أو سليمان بن مسعود بن الحسين بن حامد القَصَّاب ، أبو محمد (٤٧٧ــ٥٥١هـ) [٧٤] .

٢٨ ــ شُهْدة الكاتبة بنت أحمد بن الفرج بن عمر الإبري (٤٨٢ــ٥٧٤هـ) [٣] .
٢٩ ــ صافي بن عبد أو عبيد الله الجَمَالي ، أبو الحسن وأبو سعيد (٠٠٠ــ٥٤٥هـ) [٤٥] .
٣٠ ــ طاهر بن محمد بن طاهر بن علي المَقْدِسي الأصل الرَّازِي المَوْلد ، الهَمَذَانِي الدار ؛ أبو زُرْعَة (٤٨١ــ٥٦٦هـ) [٥٥] .
٣١ ــ ظفر بن علي بن العباس الهَمَذَانِي ، أبو سعد (٠٠٠ــبعد ٥٣٤هـ) [٥٨] .
٣٢ ــ عباد بن حمد أو محمد بن طاهر بن عبد الله الحَسْنَابادي الأصفهاني ، أبو النجم (٠٠٠ــبعد ٥٢١هـ) [٢٣] .
٣٣ ــ عبد الأول بن عيسى بن شعيب بن إبراهيم الهَرَوِي السِّجْزِي ، أبو الوَقْت (٤٥٨ــ٥٥٣هـ) [٧] .
٣٤ ــ عبد الجبار بن إبراهيم بن عبد الوهاب بن محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى ، ابن مَنْدَه الأصفهاني ، أبو نصر (٠٠٠ــ٥٢١هـ) [٣٩] .
٣٥ ــ عبد الحق بن عبد الخالق بن أحمد بن عبد القادر بن يوسف ، أبو الحسين (٤٩٤ــ٥٧٥هـ) [٧٩] .
٣٦ ــ عبد الخالق بن أحمد بن عبد الصمد بن علي بن الحسين بن عثمان الشَّيْبَانِي المعروف بابن البَدَن ، أبو المعالي (٤٥٢ــ٥٣٨هـ) [٢٥] .
٣٧ ــ عبد الخالق بن أحمد بن عبد القادر بن يوسف ، أبو الفرج (٤٦٤ــ٥٤٨هـ) [٤٨] .
٣٨ ــ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الواحد القَزَّاز ، أبو منصور ، المعروف بابن زُرَيْق (٠٠٠ــ٥٣٥هـ) [٣٥] .
٣٩ ــ عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن الحسن الخلال ، أبو القاسم (٠٠٠ــبعد ٥٤٣هـ) [٥٩] .
٤٠ ــ عبد الله بن أبي عاصم الهَرَوي ، أبو نصر (٠٠٠ــ بعد ٥١٧هـ) [٦٢] .
٤١ ــ عبد الله بن علي المُقْرِىء ، أبو محمد ، المعروف بسِبْط الخَيَّاط (٤٦٤ــ٥٤١هـ) [٤٣] .
٤٢ ــ عبد الله بن محمد بن عبد الله الأصبهاني ، أبو القاسم (٤٤٨ــ٥٣٣هـ) [١٩] .
٤٣ ــ عبد الله بن محمد بن محمد بن عبد الله بن أحمد البَيْضَاوِي ، أبو الفتح (٠٠٠ــ٥٣٧هـ) [٣٧] .

٤٤ ــ عبد الملك بن أبي القاسم ابن أبي سهل الكَرُوخِي ، أبو الفتح (٤٦٢ــ٥٤٨هـ) [١٧] .

٤٥ ــ عبد الوهاب بن المُبَارَك بن أحمد بن الحسن الأَنْمَاطي ، أبو البركات (٤٦٢ــ٥٣٨هـ) [١٦] .

٤٦ ــ عبيد الله بن عبيد الله بن محمد بن نجا بن شاتيل الدَّبَّاس ، أبو الفتح (٠٠٠ــ٥٨١هـ) [٧٧] .

٤٧ ــ علي بن أحمد بن الحسن بن عبد الباقي الموحّد ، أبو الحسن ، المعروف بابن البَقْشَلان أو البَقْشَلام (٤٤٣ــ٥٣٠هـ) [١١] .

٤٨ ــ علي بن عبد العزيز بن عبد الله بن السَّمَّاك ، أبو الحسن (٠٠٠ــ٥٤٦هـ) [٦٩] .

٤٩ ــ علي بن عبد الواحد بن أحمد بن العباس الدِّينَوَري ، أبو الحسن (٠٠٠ــ٥٢١هـ) [٥] .

٥٠ ــ علي بن عُبيد بن نصر بن السَّري الزَّاغُوني ، أبو الحسن (٤٥٥ــ٥٢٧هـ) [١٣] .

٥١ ــ علي بن المبارك بن الحسين الخيّاط المُقْرِىء ، أبو الحسن (٠٠٠ــ٥٢٥هـ) [٣٨] .

٥٢ ــ علي بن محمد بن الحسين بن حسنون القَزَّاز ، أبو الحسن (٠٠٠ــ بعد ٥٢٩هـ) [٥٢] .

٥٣ ــ علي بن محمد بن أبي محمد الدَّبَّاس ، أبو الحسن (٤٧٠ــ٥٤٩هـ) [٤٧] .

٥٤ ــ علي بن يعلى بن عوض بن أميرجه بن حمزة العُمَري العَلَوِي الهَرَوِي ، أبو القاسم (٠٠٠ــ٥٢٧هـ) [٣٤] .

٥٥ ــ عمر بن ظفر بن أحمد المقرىء ، أبو حفص المَغَازِلي (٤٦١ــ٥٤٢هـ) [٤٦] .

٥٦ ــ عمر بن أبي الحسن محمد بن عبد الله البسطامي ، أبو شجاع (٠٠٠ــ٥٦٢هـ) [٤٩] .

٥٧ ــ عمر بن هَدِية بن سلامة بن جعفر الصوّاف البَزَّاز ، أبو حفص (٤٨٢ــ٥٧١هـ) [٧٦] .

٥٨ ــ عنبر بن عبد الله النَّجْمِي (٠٠٠ــ٥٢١هـ) [٨٥] .

٥٩ ــ فاطمة بنت أبي حكيم عبد الله بن إبراهيم الخُبْري (٠٠٠ــ٥٣٤هـ) [٢] .

٦٠ ــ فاطمة بنت محمد بن الحسين بن فضلويه الرّازِي البَزَّاز (٠٠٠ــ٥٢١هـ) [١] .

٦١ ــ المُبَارك بن أحمد بن عبد العزيز بن المعمر الخَزْرَجِي الأَنصاري ، أبو المُعَمّر

(٤٧٥—٥٤٩هـ) [٧١] .

٦٢ — المبارك بن بركة بن علي بن فتوح بن كمونة النَخَّاس ، أبو المعالي (٠٠٠— بعد ٥٣٣هـ) [٦٠] .

٦٣ — المبارك بن الحسين البَقْلِي ، أبو المعالي (٠٠٠—بعد ٥٢٩هـ) [٨٦] .

٦٤ — المبارك بن خَيْرُون بن عبد الملك بن الحسن بن خَيرُون ، أبو السعود (٠٠٠—٥٤٢هـ) [٦٥] .

٦٥ — المبارك بن علي الصَّيْرَفِي ، أبو طالب (٠٠٠—٥٦٤هـ) [٧٥] .

٦٦ — محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الدَّقَّاق ، أبو الحسن ، المعروف بابن صِرْما (٤٦٠—٥٣٨هـ) [٣٢] .

٦٧ — محمد بن الحسن بن علي بن الحسن المَاوَرْدِي ، أبو غالب (٤٥٠—٥٢٥هـ) [١٢] .

٦٨ — محمد بن الحسين بن علي بن إبراهيم الحاجي ، المعروف بالمَزْرَفِي ، أبو بكر (٤٣٩—٥٢٧هـ) [٣] .

٦٩ — محمد بن عبد الباقي بن أحمد بن سلمان ، المعروف بابن البطي ، أبو الفتح (٤٧٧—٥٦٤هـ) [٦١] .

٧٠ — محمد بن عبد الباقي بن محمد بن عبد الله الأنصاري الكَعْبي ، أبو بكر المعروف قاضي المارستان (٤٤٢—٥٣٥هـ) [٢] .

٧١ — محمد بن عبد الله بن حبيب العامري ، أبو بكر (٤٦٩—٥٣٠هـ) [٥٠] .

٧٢ — محمد بن عبد الله بن محمد البَيْضَاوِي القاضي ، أبو عبد الله (٠٠٠—٥٥٨هـ) [٧٢] .

٧٣ — محمد بن عبد الملك بن الحسن بن إبراهيم بن خَيرُوْن المقرىء ، أبو منصور (٤٥٤—٥٣٠هـ) [١٤] .

٧٤ — محمد بن عبيد الله بن الزَّاغُونِي ، أبو بكر (٤٦٨—٥٥٢هـ) [٤٤] .

٧٥ — محمد بن عمر بن يوسف الأُرْمَوِي ، أبو الفضل (٤٦٩—٥٤٧هـ) [٢٨] .

٧٦ — محمد بن السّلّال الوَرَّاق ، أبو عبد الله (٤٤٩—٥٤١هـ) [١٨] .

٧٧ — محمد بن محمد بن عبد الرحمن المَرْوَزِيّ ، أبو عبد الرحمن (٠٠٠— بعد ٥٦٠هـ) [٨١] .

٧٨ — محمد بن ناصر بن محمد بن علي السَّلَامِي الفارِسِيّ ، أبو الفضل (٤٦٧—٥٥٠هـ) [٤٢] .

٧٩ — محمد بن يحيى بن بَدَّال ، ويعرف بابن النَّفِيس ، أبو الفضل (٠٠٠—٥٥٢هـ) [٦٨] .

٨٠ — معمر بن عبد الواحد بن رجاء الأصفهاني ، أبو أحمد (٠٠٠—٥٦٤هـ) [٥٧] .

٨١ — مَوْهُوب بن أحمد بن محمد بن الخَضِرِ الْجَوَالِيقي ، أبو منصور (٤٦٥—٥٤٠هـ) [٤١] .

٨٢ — هِبة الله بن أحمد بن عمر الجريري البغدادي ، يعرف بابن الطَّبَر ، أبو القاسم (٤٣٥—٥٣١هـ) [٤] .

٨٣ — هبة الله بن الحسين بن علي بن الحاسب ، أبو القاسم (٠٠٠—٥٤٨هـ) [٥٦] .

٨٤ — هبة الله بن محمد بن عبد الواحد بن الحصين الشيباني البغدادي الكاتب الأزرق ، أبو القاسم (٤٣٢—٥٢٥هـ) [١] .

٨٥ — يحيى بن إبراهيم بن أحمد السَّلَمَاسِي ، أبو زكريا (٠٠٠—٥٥٠هـ) [٥١] .

٨٦ — يحيى بن ثابت بن بُنْدَار بن إبراهيم الدِّينَوَرِي المُقْرِىء ، أبو القاسم (٠٠٠—٥٦٥هـ) [٦٦] .

٨٧ — يحيى ابن أبي علي الحسن بن أحمد بن عبد الله بن البَنَّا ، أبو عبد الله (٤٥٣—٥٣١هـ) [٩] .

٨٨ — يحيى بن علي بن محمد بن الطَّرَّاح المُدِير ، أبو محمد (٤٥٩—٥٣٦هـ) [٢٤] .

٨٩ — يحيى بن محمد بن هبيرة ، أبو المُظَفَّر ، الوَزِير (٤٩٩—٥٦٠هـ) [٨٣] .

علمه :

اقتصر ابن الجَوْزي في تلقّي علومه على مشايخ بغداد أو مَنْ ٱلْتَقَى به من الوافدين إليها ، فلم يرْحلْ عنها فيما عدا رحلاته لأداء فريضة الحجّ[1] ، فقد سافر للمرة الأولى في سنة ٥٤١ هـ[2] هو وزوجه وأولاده ، كذلك سافر سنة ٥٥٣ هـ[3] .

واهتم ابن الجَوْزي بالدراسة والتحصيل — كما بُيِّنَ سابقاً — وكان اهتمامه بالحديث كبيراً ، وكذلك الأدب واللغة والتاريخ ، وأكبر دليل على ذلك تنوّع موضوعات مؤلفاته ، حتى وصف

(١) أما ما ذكره بروكلمان من أنه قام بعدة رحلات في سبيل التحصيل ، فهذا ليس له مسند .

(٢) « المنتظم » ١٠/٣٠ — ٣١ .

(٣) « المنتظم » ١٠/١٢٠ .

بـ « الحافظ » بل لعل استدراك الذهبي على هذا اللقب يبيّن سعة اطلاع ابن الجَوزي ، إذ يقول : لا يوصف ابن الجوزي بالحفظ عندنا باعتبار الصنعة ، بل باعتِبار كثرة اطلاعه وجمعه[1] .

مؤلفاته :

نشر الأستاذ عبد الحميد العلوجي كتابه « مؤلفات ابن الجوزي » ببغداد سنة ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٥ ؛ فجمع فيه كل ما وقف عليه منسوباً إلى ابن الجوزي ، وما زال كتابه يعدّ أوسع كتاب في بابه ، وإن كان يمكن الزيادة عليه من خلال المصادر الجديدة التي توفرت ، أو من خلال العثور على كتب أخرى مخطوطة لابن الجوزي لم تكن معروفة .

ذكر العلوجي أن مؤلفات ابن الجوزي تزيد على أربع مئة كتاب .

ومن المفيد هنا ذكر أسماء كتبه المطبوعة ، ومن يطلب ما وراء ذلك فليرجع لكتاب الأستاذ العلوجي ؛ وهذه الكتب هي :

١ ــ « إخبار أهل الرسوخ في الفقه والحديث بمقدار المنسوخ من الحديث » القاهرة ١٣٢٢ هـ ، بومبي دون تاريخ ، المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٤ هـ في صدر كتاب : « قبضة البيان في ناسخ ومنسوخ القرآن » للبزوري .

٢ ــ « أخبار الأذكياء » طبع طبعات عدة في القاهرة ودمشق وبيروت وغيرها ، وهو الكتاب الذي بين يديك .

٣ ــ « أخبار الحمقى والمغفلين » دمشق ١٣٥٧ ، ومصر ١٩٢٨ م ، وعدة طبعات في بيروت ، وصدر عن « الجفان والجابي » ليماسول ــ قبرص .

٤ ــ « أخبار الظِّراف والمتماجنين » دمشق ١٣٤٧ هـ ، والنجف ١٩٦٧ م ، وعدة طبعات في بيروت ، وصدر عن « الجفان والجابي » ليماسول ــ قبرص .

٥ ــ « أخبار النساء » دمشق ١٣٤٧ هـ ، وطبع في القاهرة وبيروت منسوباً لابن قيم الجوزية .

٦ ــ « بستان الواعظين ورياض السامعين » القاهرة ١٩٣٤ م و١٩٦٣ م .

٧ ــ « بكاء الناس على الشباب وجزعهم من الشيب » بغداد ١٩٧٢ م (مجلة المورد ، المجلد الثاني ، العدد الرابع) .

---

(١) « طبقات الحفاظ » للسيوطي .

٨ — « تاريخ عمر بن الخطاب » طبع في القاهرة ودمشق وبيروت .
٩ — « التاريخ والمواعظ » بغداد ١٣٤٨ هـ .
١٠ — « التبصرة » القاهرة ١٩٧٠ م .
١١ — « تبصرة الأخيار في نيل مصر وإخوانه من الأنهار » دمشق ١٣٤٤ هـ .
١٢ — « تحفة الواعظ ونزهة الملاحظ » بغداد ١٩٧٣ م (مجلة المورد ، المجلد الثالث ، العدد الثالث) .
١٣ — « التحقيق في أحاديث الخلاف » القاهرة ١٩٥٤ م .
١٤ — « تسهيل المنافع في الطب » عدة طبعات في القاهرة .
١٥ — « تقويم اللسان » القاهرة ١٩٦٦ م .
١٦ — « تلبيس إبليس » القاهرة ١٩٢٨ م ، وعدة طبعات في القاهرة ودمشق وبيروت .
١٧ — « تلقيح فهوم أهل الأثر في تاريخ المغازي والسير » دلهي ١٨٦٩ و١٩٢٧ م .
١٨ — « تنبيه النائم الغمر على حفظ مواسم العمر » الجوائب بإستانبول ١٨٨٥ م .
١٩ — « الثبات عند الممات » بيروت ١٤٠٦ .
٢٠ — « دفع شبه التشبيه والردّ على المجسّمة » دمشق ١٣٤٥ هـ .
٢١ — « ذم الهوى » القاهرة ١٩٦٢ م .
٢٢ — « الذهب المسبوك في سير الملوك » بيروت ١٩٨٥ م .
٢٣ — « روح الأرواح » القاهرة ١٣٠٩ هـ .
٢٤ — « رؤوس القوارير » القاهرة ١٩١٤ م .
٢٥ — « زاد المسير في علم التفسير » المكتب الإسلامي بدمشق وبيروت ١٩٦٧ م .
٢٦ — « سيرة عمر بن عبد العزيز » القاهرة ١٣٣١ هـ .
٢٧ — « الشفاء في مواعظ الملوك والخلفاء » القاهرة ١٩٧٨ م .
٢٨ — « صفة الصفوة » حيدر آباد بالهند ١٣٥٥—١٣٥٦ هـ ، وفي حلب وبيروت ودمشق .
٢٩ — « صيد الخاطر » دمشق ١٩٦٠ م و١٩٧٩ م و١٩٨٧ م .
٣٠ — « الطب الروحاني » دمشق ١٣٤٨ هـ .
٣١ — « العروس » أو « مولد النبي » له طبعات كثيرة .
٣٢ — « العلل المتناهية في الأحاديث الواهية » باكستان ١٤٠١ هـ .

٣٣ ــ « غريب الحديث » بيروت ١٤٠٥ هـ .

٣٤ ــ « فضائل القدس » بيروت ١٩٧٩ م .

٣٥ ــ « فنون الأفنان في عيون علوم القرآن » الدار البيضاء ١٩٧١ وبيروت ١٩٨٧ م .

٣٦ ــ « القرامطة » بيروت ١٩٦٨ م .

٣٧ ــ « القصاص والمذكرون » ١٩٧١ م .

٣٨ ــ « كتاب الخراج » ليدن ١٩٦٥ م .

٣٩ ــ « كتاب اللطف في الوعظ » بيروت ١٤٠٥ هـ .

٤٠ ــ « لَفتَةُ الكبد في نصيحة الولد » وصدر عن « الجفان والجابي للطباعة والنشر » ليماسول قبرص .

٤١ ــ « المجالس » مصر ١٩٧٠ .

٤٢ ــ « مختصر مناقب عمر بن عبد العزيز » ليبزغ ١٨٩٩ م ، والقاهرة ١٣٣١ هـ .

٤٣ ــ « المدهش » بغداد ١٣٤٨ وصوّر عدة مرات في القاهرة وبيروت .

٤٤ ــ « المشيخة » دار الغرب الإسلامي ببيروت ١٩٧٧ م .

٤٥ ــ « المصباح المضيء في خلافة المستضيء » بغداد ١٩٧٦ ــ ١٩٧٧ م .

٤٦ ــ « المصفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ » بغداد ١٩٧٧ م ، وبيروت ١٩٨٤ م .

٤٧ ــ « ملتقط الحكايات » القاهرة ١٣٠٩ هـ .

٤٨ ــ « مناقب أحمد بن حنبل » القاهرة ١٣٤٩ هـ و١٣٩٩ هـ .

٤٩ ــ « مناقب بغداد » بغداد ١٣٤٢ هـ .

٥٠ ــ « مناقب الحسن البصري » القاهرة ١٩٣١ وفي سورية عدة مرات .

٥١ ــ « المنتظم في تاريخ الملوك والأمم » حيدر آباد بالهند ١٩٣٨ ــ ١٩٤٠ م .

٥٢ ــ « الموضوعات في الأحاديث المرفوعات » القاهرة ١٩٦٦ ــ ١٩٦٨ م .

٥٣ ــ « الناموس في تلبيس إبليس » هو « تلبيس إبليس » السابق ، وكذلك « نقد العلم والعلماء » .

٥٤ ــ « نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر » بيروت ١٩٨٤ م .

٥٥ ــ « نواسخ القرآن » المدينة المنورة ١٤٠٤ هـ .

٥٦ ــ « الوفا بأحوال المصطفى » القاهرة ١٩٦٦ م .

٥٧ ــ « ياقوتة المواعظ والموعظة » القاهرة ١٣٠٩ هـ و١٣٢٢ هـ .

محنته :

تعرّض ابن الجوزي في آخر حياته لمحنة عصيبة ، وخير من لخصها وعرضها الأستاذ العلامة علي الطنطاوي في تقديمه لكتاب « صيد الخاطر » ؛ قال(١):

كان الوزير ابن يونس الحنبلي قد عقد مجلساً للركن عبد السلام ابن عبد القادر الجيلي(٢) ، وأُحْرِقت كتبه ، وكان فيها من الزندقة وعبادة النجوم ورأي الأوائل شيء كثيرٌ ، وذلك بمحضر من ابن الجوزي وغيره من العلماء ، وانتزع الوزير مدرسة جدّه وسلّمها إلى ابن الجوزي .

فلما ولي الوزارة ابن القصّاب ــ وكان رافضياً خبيثاً ــ سعى في القبض على ابن يونس ، وتتبّع أصحابه ؛ فقال له الركن : أين أنت من ابن الجوزي ؟ فإنّه ناصبيٌّ ومن أولاد أبي بكر الصدّيق ، فهو من أكبر أصحاب ابن يونس ، وأعطاه مدرسة جدّي ، وأُحْرِقَت كتبي بمشورته .

فكتب ابن القصاب إلى الخليفة الناصر ، وكان الناصر له ميل إلى الشّيعة ، ولم يكن له مَيلٌ آخر أيّامه إلى الشيخ أبي الفرج ، بل قد قيل : إنَّهُ كان يقصد أذاه ؛ وقيل : إن الشيخ ربما كان يُعرِّض في مجالسه بذَمِّ الناصر ، فأمر بتسليمه إلى الركن عبد السلام ، فجاء إلى دار الشيخ وشتمه وأغلظ عليه ، وختم على كتبه وداره ، وشَتَّت عياله .

فلما كان في أوّل الليل ، حُمِلَ في سفينةٍ وليس معه إلا عدوّه الركن ، وعلى الشيخ غلالة بلا سراويل ، وعلى رأسه تخفيفة ؛ فأُحْدِرَ إلى واسط ، وكان ناظرها شيعيّاً ؛ فقال له الركن : مكنّي من عدوّي لأرميه في المطمورة ؛ فَزَبَرَهُ ، فقال : يا زنديق ! أرميه بقولك ؟ هات خطّ الخليفة ؛ والله لو كان من أهل مذهبي لبذلتُ روحي ومالي في خدمته . فعاد الركنُ إلى بغداد .

قال ابن القادسي : لمّا حضروا واسط جمع الناس ، وادّعى ابن عبد القادر على الشيخ أنه تصرّف في وقف المدرسة ، واقتطع من مالها كذا وكذا ، وكذب فيما ادّعاه ، وأنكَرَ الشيخُ وصدق وبَرّ ، وأُفْرِد للشيخ دارٌ بدرب الديوان ، وأُفْرِد له من يخدمه . وبقي الشيخ محبوساً بواسط

(١) « صيد الخاطر » : ٢٣ .

(٢) هو عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلاني .

في دار بدرب الديوان ، وعلى بابها بواب ، وكان بعض الناس يدخلون عليه ، ويستمعون منه ، ويملي عليهم ؛ وكان يرسلُ أشعاراً كثيرة إلى بغداد .

وأقام بها خمس سنين يخدم نفسه بنفسه ، ويغسل ثوبه ، ويطبخ ، ويستقي الماء من البئر ، ولا يتمكّن من خروج إلى حمّام ولا غيره ؛ وقد قارب الثمانين . ويقال : إنه بقي خمسة أيّام في السفينة حتى وصل إلى واسط ، لم يأكل فيها طعاماً .

وذكر عنه أنه قال : قرأت بواسط مدة مقامي بها كل يوم ختمة ، ما قرأت فيها سورة يوسف من حزني على ولدي يوسف[١] .

والذي ذكره أبو الفرج ابن الحنبلي عن طلحة العلثي ، أن الشيخ كان يقرأ في تلك المدة ما بين المغرب والعشاء ثلاثة أجزاء أو أربعة من القرآن .

وبقي على ذلك من سنة تسعين إلى سنة خمس وتسعين ، فأُفرج عنه ؛ وقدم إلى بغداد ، وخرج خلق كثير يوم دخوله لتلقّيه ، وفرح به أهل بغداد فرحاً زائداً ، ونودي له بالجلوس يوم السبت ، فصلى الناس الجمعة ، وعبروا يأخذون مكانات موضع المجلس عند تربة أمّ الخليفة ، فوقع تلك الليلة مطر كثير ملأ الطرقات ، فأحضر في الليل فرّاشون وروزجارية[٢] ، فنَظَّفُوا موضع الجلوس وفرشوا فيه دقاق الحصى والبواري[٣] ، ومضى الناس وقت المطر إلى قَبْرِ معروف [الكرخي] تحت الساباط[٤] حتى سكن المطر . ثم جلس الشيخ بكرة السبت ، وعَبَر الخلق ، وحضر أرباب المدارس والصوفية ومشايخ الربط ، وامتلأت البرية حتى ما كان يصل صوت الشيخ إلى آخرهم .

وأعاد الخليفةُ الشيخَ إلى بغداد وخلع عليه ، وجلس عند تربة أم الخليفة للوعظ ، وأنشد :

شَقِينَا بالنَّوَى زَمَناً فَلَمّا ... تلاقَيْنَا كَأَنَّا مَا شَقِينَا
سَخِطْنَا عِنْدَمَا جَنَّتِ اللَّيَالِي ... فَمَا زَالَتْ بِنَا حَتَّى رَضِينَا

(١) أي على بعده عنه . وكان صغيراً ، إذ ولد سنة ٥٨٠ هـ .
(٢) لعل المقصود : روزجاروكش ، أي : الكنّاس الذي يكنس الشارع كل يوم .
(٣) جمع « بوريا » وهي : الحصير .
(٤) الساباط : ممر مسقوف .

سَعِدْنَا بالوُصُولِ وَكَمْ شَقِينا ... بِكَاسَاتِ الصُّدُودِ وَكَمْ فَنِينَا
فَمَنْ لَمْ يَحْيَ بَعْدَ المَوْتِ يَوْماً ... فَإِنَّا بَعْدَ مَامِتْنَا حَيِينَا

ولم يزل الشيخُ على عادته الأولى في الوعظ ونشر العلم وكتابته إلى أن مات .

ويقول سِبْطُه :

جلس جدّي يوم السبت سابع شهر رمضان [سنة سبع وتسعين وخمس مئة] تحت تربة أم الخليفة المجاورة لمعروف الكرْخي ، وكنت حاضراً ، فأنشد أبياتاً قطع عليها المجلس ، وهي هذه :

اللهَ أَسْأَلُ أَنْ يُطَوِّلَ مُدَّتِي ... وَأَنَالَ بالإِنْعَامِ مَافِي نِيَّتِي
لِي هِمَّةٌ فِي العِلْمِ مَا مِنْ مِثْلِهَا ... وَهِيَ الَّتِي جَنَتِ النُّحُولَ هِيَ الَّتِي
كَمْ كَانَ لِي مِنْ مَجْلِسٍ لَوْ شُبِّهَتْ ... حَالَاتُهُ لتَشَبَّهَتْ بالجَنَّةِ
أَشْتَاقُهُ لَمَّا مَضَتْ أَيَّامُهُ ... عِلَلاً وَتُعْذَرُ نَاقَةٌ إِنْ حَنَّتِ
يا هَلْ للَيْلات بِجَمْعٍ عَوْدَةٌ ؟ ... أَمْ هَلْ إلى وَادِي مِنىً مِنْ نَظْرَةِ
قَدْ كَانَ أَحْلَى مِنْ تَصَارِيفِ الصِّبَا ... وَمِنَ الحَمَامِ مُغَنِّياً في الأَيْكَةِ
فِيهِ البَدِيهَاتُ الَّتِي مَا نَالَهَا ... خَلْقٌ بِغَيْرِ مُخَمَّرٍ وَمُبَيَّتِ
بِرَجَاحَةٍ وَفَصَاحَةٍ وَمَلَاحَةٍ ... تَقْضِي لَهَا عَدْنَانُ بِالْعَرَبِيَّةِ
وَبَلَاغَةٍ وَبَرَاعَةٍ وَيَرَاعَةٍ ... ظَنَّ النَّبَاتِيُّ أَنَّهَا لَمْ تَنْبُتِ
وَإِشَارَةٍ تُبْكِي الجُنَيْدَ وَصَحْبَهُ ... فِي رِقَّةٍ مَا نَالَهَا ذُو الرِّقَّةِ

وفاته :

توفي ابن الجوزي بعد مرض دام خمسة أيام ، ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء في الثالث عشر من رمضان المبارك سنة سبع وتسعين وخمس مئة = ١٢٠٠ م ، في دار له قريبة من قبر معروف الكرخي بمحلة قطفتا ، في الجانب الغربي من مدينة السلام بغداد .

أجمعت المصادر على أن يوم وفاته كان يوماً مشهوداً ببغداد ، إذ ارتجّت قلوب الناس لنبأ وفاته ، وغُلِّقت الأسواق ، ونودي للصلاة عليه في جانبي بغداد ، وحملت جنازته على رؤوس الناس ، ثم ذهبوا به إلى جامع المنصور للصلاة عليه ، فصلى عليه ابنه أبو القاسم علي ، وضاق

الجامع على سعته بالناس ، فصُلِّي عليه مرتان ، ثم حُمِلَ إلى مقبرة باب حرب ، فَدُفِنَ هناك بالقرب من الإمام أحمد رحمهم الله .

قال سِبْطُه أبو المظفر : أوصى جدّي أن يكتب على قبره :

يَـا كَثِيـرَ الْعَفْـوِ عَمَّـنْ كَثُـرَ الـذَّنْبُ لَدَيْـهِ
جَاءَكَ الْمُـذْنِبُ يَرْجُـو الـصَّفْحَ عَـنْ جُـرْمِ يَدَيْـهِ
أَنَـا ضَيْـفٌ وَجَـزَاءُ الـضَّيْـفِ إِحْسَانٌ إِلَيْـهِ

هذا الكتاب

يندرج هذا الكتاب ضمن مجموعة من الكتب التي أَلَّفَها ابن الجوزي ، تهدف جمع النصوص على صعيد موضوعٍ واحد ؛ وكان موضوع كتابنا هو الذكاء والأذكياء ، بكلِّ الصور والأشكال والألوان ، إن كان من البشر أو الحيوان ؛ وقد بدأ كتابه مبتدءاً بالأنبياء ، ثم الأدنى فالأدنى إلى أن يصلَ إلى الحيوان .

ودور ابن الجوزي في كتابه دور الناقل الأمين ، الذي يورد الخبر كما هو دون تدخّل أو تعليق ، لذلك يمكن أن تعثر ضمن كتابه على بعض الأخبار التي تخالف ما يعتقده أو يقرّره في كتبه الأخرى .

ويحلو لبعضهم الزعم بأن بعضَهُم أضاف بعضَ الأخبار للكتاب لمناسبتها ، أو دسّاً على ابن الجوزي ليحمّله ما لا يقول به ؛ ولكن ذلك لا يضرّ الكتاب ما دام هدف الكاتب محقّق ، فغرض ابن الجوزي — كما يبدو لي — هو نقل القارىء إلى عالم الذكاء وإعمال الفكر ، كي يستفيد من خلال اطلاعه تلقيحَ ذهنِهِ وعقلِهِ بهذه الأخبار .

هذه الطبعة

طبع هذا الكتاب عدة مرات ، أطلعت على التالي منها :

— نسخة المطبعة الشرفية التي طبعت عام ١٣٠٤ هـ ، بتصحيح السيد حماد الفيومي العجماوي .
— نسخة قسطاكي الحمصي ، وإن كنتُ أهملتها غالباً ، لكثرة أخطائها ، صدرت عن المطبعة الميمنية بالقاهرة عام ١٣٠٦ هـ .
— نسخة محمد مرسي الخولي المطبوعة بالقاهرة سنة ١٩٧٠ ، الذي اعتمد مخطوطة محفوظة في دار الكتب المصرية ، كتبت سنة ٨٧٥ هـ .

اعتمدتُ النسخة المخطوطة المحفوظة في مكتبة الأسد بدمشق ، تحت رقم : ٥٨٣٧ ؛ أصلاً ؛

مؤلفة من سبع وعشرين ورقة ، قياسها ٢٤ × ١٥,٥ سم ، مجهولٌ ناسخها ، وتاريخ نسخها هو ١٧ رجب ٨٢٨ هـ كما نجده مثبتاً في نهاية الكتاب ، وأضفت إليها ما ورد زيادة عليها في النسخ المطبوعة .

ونظراً لكون الخلافات بين النسخ كثيرة جداً ، جعلت نصب عيني أن أخرج نصّاً صحيحاً مُنَقّحاً ، مستفيداً ممّا بين يديّ من أصول ، دون الإشارة إلى عملي ، خاصة أن موضوع الكتاب لا يسمح لي إرهاق القارىء بكثرة الفروق ، فموضوعه الإحماض وإدخال السرور للنفس وإيقاظ العقل والفهم ؛ فحرصت على الهدف ؛ وأما التعليقات ، فقد كانت مقتصرة على بيانٍ يساعد القارىء في فهم مغزى القصة أو معنى قد لا يجده القارىء في معجم متداول مثل : « مختار الصحاح » ، لذلك قد يمرّ لفظ أو كلمة لعل البعض يجدها غريبة ، إن راجع « المختار » فغالباً سيجدها .

ولما سبق آنفاً يمكنني القول عن هذه الطبعة : إنها تزيد على أي طبعة أخرى متوفرة بالأسواق أو طبعت قديماً ، بمقدار عشرين بالمئة من الأخبار .

هذا ، وإن عملي لم يكن بالسهل ، وإن لم أسجل وثائقه وحيثياته ، فيكفي أن أقول : إن بعض الفقرات أخذت مني أياماً وأسابيع كي يستقيم فهمها ، وعزائي أني وفَّرت للقارىء العربي نصاً تراثياً هو الأقرب للصحة والصواب .

وفي الختام ، أسأل الله الأجر والثواب ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين ..

دمشق ١٩٩٠/٣/٢٧ **بسام عبد الوهاب الجابي**

بسم الله الرحمن الرحيم

أخبار الأذكياء

تأليف

جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي
القُرشيّ البغداديّ

بعناية

بسّام عبد الوهّاب الجابي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أَحلَّنا محلةَ الفَهْم ، وحلَّانا حِلْية العلم ، ومَلَّكنا عِقالَ العقل ، وزيَّننا بنطقِ المنطق ، ونعوذُ به من كدَرِ صفاءِ الفِكر ، وعَكَرِ دِهْن الذِّهن ، وصلى الله على محمد المبعوثِ بجوامع الكَلِم إلى أَعقلِ الأُمم ؛ وعلى جميع أَتباعه ، والسائرين في مِنْهاج اتِّباعه ؛ وسلَّم تسليماً كثيراً .

أَما بعد ،

فإن أَجَلَّ الأَشياءَ موهبةُ العقل ، فإنَّه الآلةُ في تحصيل معرفة الإله ، وبه تُضبطُ المصالحُ وتُلْحَظ العواقبُ ، وتُدرك الغوامضُ وتُجمع الفضائلُ . ولما كان العقلاءُ يتفاوتون في موهبة العقل ، ويتباينون في تحصيل ما يثقِفُهُ من التَّجارب والعلم ، أَحببتُ أَن أَجمعَ كتاباً في أَخبار الأَذكياء الذين قويت فطنتُهم ، وتوقَّد ذكاؤهم ، لقُوَّة جوهريّة عقولهم ، وفي ذلك ثلاثة أَغراض :

أَحدُها : معرفةُ أَقدارِهمْ بذكْر أَحوالهم .

والثاني : تلقيحُ أَلْبابِ السَّامعينَ إِذا كان فيهم نوعُ استعدادٍ لنيْلِ تلك المرتبة ، وقد ثبت أَن رؤية العاقلِ ومخالطَتَهُ تفيدُ ذا اللُّبِّ ، فَسَماعُ أَخباره تقوم مقامَ إخباره . كما قال الرَّضيُّ [« الديوان » ١/٥٠٠] :

فَاتَنِي أَنْ أَرَى الدِّيَارَ بِطَرْفي   فَلَعلِّي أَرَى الدِّيَارَ بِسَمْعِي

وقد أَنبأَنا جماعةٌ من أَشياخنا ، قالوا : أَخبرنا مُضَر بن محمّد ، قال : سمعتُ يحيى بن أَكثم ، يقول : سمعتُ المأمون يقول لإبراهيم : لا شيءَ أَطيبُ من النَّظرِ في عقولِ الرجال .

والثالث : تأْديبُ المُعْجَبِ برأيه إذا سمع أَخبارَ من يَعْسرُ عليه لَحَاقُه ؛ والله الموفق .

باب
في
ذكر تراجم الكتاب

وهي ثلاثة وثلاثون باباً :

الباب الأوّل
في
ذكر فضل العقل

١ ــ أخبرنا أبو منصور عبد الرحمن بن محمد ، والقزّاز ، قالا : أنبأنا أبو بكر أحمدُ بن عليّ بن ثابت ، قال : أنا محمد بن أحمد بن رِزق ، قال : حدثنا جعفر بن محمد الخُلْدي ، قال : حدثنا الحارث بن أبي أسامة ، قال : حدثنا داود بن المُحَبَّر ، قال : حدثنا عبّاد بن كثير ، عن ابن جُرَيْج ، عن عَطَاءٍ ، عن ابن عبَّاس : أنه دخل على عائشةَ فقال : يا أُمَّ المؤمنين ! أرأيتِ الرَّجلَ يقلُّ قيامُه ويكثر رقادُه ، وآخَر يكثُر قيامُه ويقلُّ رقادُه ، أيّهما أحبُّ إليك ؟ قالت : سألتُ رسول الله ﷺ كما سألتني ، فقال : « أحسنهُما عَقْلاً » . قلتُ : يا رسولَ الله ! أسألك عن عبادتهما ؟ فقال : « يا عائشةُ ، إنما يُسْألان عن عُقولهما ، فمن كان أعقلَ كان أفضلَ في الدنيا والآخرة » .

* * * *

٢ ــ أخبرنا عبد الرَّحمنُ بن محمد ، قال : أنبأنا أبو بكر الخطيب ، قال : أخبرنا أحمدُ بن محمدِ بن غالب ، قال : أخبرنا أبو أحمد الحسين بن علي النَّيسَابُوريّ ، قال : حدثنا محمد بن المُسيَّب ، قال : حدّثنا موسى بن سليمان ، قال : حدثنا بقيَّةُ ، قال : حدثنا عبد الله بن عمرو ، عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة ، عن نافع ، عن ابن عُمر ، قال : قال رسولُ الله ﷺ : « لا تُعْجَبُوا بإسلام امرىء حتى تعرفوا عُقْدة عقله » .

* * * *

٣ ــ أخبرنا محمد بن أبي منصور ، قال : أخبرنا عبدُ القادرِ بن محمد بن يوسف ، قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الملك بن بِشْر ، قال : أخبرنا عليُّ بن عمر الدَارَقُطْنّي ، قال : حدثنا القاضي أبو طاهر محمدُ بن أحمد بن نصر ، قال : حدثنا جعفرُ الفِرْيَابي ، قال : حدثنا

أبو مروانَ هشامُ بن خالد الأزرق ، قال : حدثنا الحسنُ بن يحيى الخُشَني ، عن أبي عبد الله مولى بني أُميّة ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « أولُ شيءٍ خلقهُ الله القَلَم ، ثم خلق النُّونَ ، وهي الدواة ، ثم قال : اكتُبْ ، قال : وما أكْتُبُ ؟ قال : اكتبْ ما يكونُ وما هو كائنٌ إلى يوم القيامة ؛ ثم خَلَقَ العقلَ ، وقال : وعِزّتي لأُكَمِّلَنَّكَ فيمَن أحْبَبْتُ ، ولأُنْقِصَنَّكَ مِمّن أبْغَضْتُ » .

* * * *

٤ ـ أخبرنا محمد بن أبي منصور ، قال : أخبرنا المبارك بن عبد الجبَّارِ ، قال : أخبرنا أحمدُ بن عبد اللهِ الأنماطِي ، قال : أخبرنا أحمد بن الحسين المَرْوَزِيّ ، قال : أنبأنا أحمد بن الحارث ، قال : حدثنا جدِّي محمدُ بن عبد الكريم ، قال : حدثنا الهَيْثَمُ بن عَدِيّ ، قال : حدثنا الأعمشُ ، عن عمرو بن مُرَّة ، عن عبد الرحمن بن سابط ، عن ابن عبّاس ، قال : لما خلقَ الله العقلَ قال له : أدْبِر ؛ فأدبر ، ثم قال له : أقْبِل ؛ فأقبل ، فقال : وعِزَّتي ما خلقتُ خلقاً قطُّ أحسنَ منك ، فَبِكَ أُعْطِي ، وبِكَ آخُذُ ، وبِكَ أُعاقِبُ .

* * * *

٥ ـ أخبرنا محمد بن عبد الباقي ، قال : أنبأنا أحمدُ بن أحمد الحَدّاد ، قال : أنبأنا أبو نُعيم أحمدُ بن عبد الله ، قال : حدثنا محمد بن أحمد بن علي ، قال : حدثنا الحارث بن أبي أسامة ، قال : حدثنا داود بن المُحَبَّر ، قال : حدَّثنا عبَّادُ بن كثير ، عن إدريس ، عن وَهْب بن مُنَبِّه ، قال : إنِّي وجدتُ في بعض ما أنزل الله على أنبيائه أنَّ الشيطان لم يُكابدْ شيئاً أشدَّ عليه من مُؤمنٍ عاقل ، وأنه يكابِدُ مئة جاهلٍ فيستَجِرُّهُمْ حتى يركبَ رقابَهم ، فينقادون له حيث شاءَ ، ويكابدُ المؤمنَ العاقلَ فيتصعَّبُ عليه حتى لا ينالَ منه شيئاً من حاجته .

* * * *

٦ ـ وقال وَهْب : لإزالةُ الجبلِ صخرةً صخرةً ، وحجراً حجراً ؛ أيسرُ على الشيطانِ من مكابَدَةِ المؤمنِ العاقل ؛ لأنّه إذا كان مؤمناً عاقلاً ذا بصيرةٍ فهو أثقلُ على الشيطانِ من الجبال ، وأصعبُ من الحديد . وإنه ليزاوله بكلِّ حيلةٍ ، فإذا لم يقدر أن يستَزِلَّه ، قال : يا ويلهُ ما له ولهذا ؟ لا طاقةَ لي بهذا ، ويرفُضُه ، ويتحوّل إلى الجاهل فيستأسرُهُ ويتمكَّنُ من قياده حتى يسلمَهُ إلى الفضائح التي يتعجَّلُها في عاجلِ الدنيا ، كالجَلْد ، والرَّجْم ، والحَلْق ، وتسخيمِ الوُجُوهِ ،

والقطع ، والصَّلْب ؛ وإنَّ الرّجلين ليستويان في أعمال الْبِرِّ ويكون بينهما كما بَيْنَ المشرق والمغرب أَو أَبعد ، إذا كان أَحدُهما أَعقلَ من الآخَرِ .

* * * *

٧ ـ أَنبأَنا يحيى بن ثابت ، عن بُنْدار ، قال : أَخبرنا أَبي ، قال : أَخبرنا أَبو علي بن دَوْمَا ، قال : أَخبرنا محمد بن جعفر ، قال : أَخبرنا الحسن بن عليّ القَطَّان ، قال : أَخبرنا إسماعيلُ بن عيسى العَطَّار ، قال : أَنبأَنا إسحاقُ بن بِشْرٍ القُرَشيُّ ، قال : أَخبرنا إدريس ، عن جدّه وهب ابن مُنَبِّه ، أَن لقمان عليه السلام قال لابنه : يا بُنَيّ ! اعقلْ عن اللهِ عزَّ وجلَّ ، فإنَّ أَعقلَ الناسِ عن الله عزَّ وجلّ أَحسنُهُمْ عملاً ، وإن الشيطانَ ليفرُّ من العاقلِ وما يستطيعُ أَن يكابدَه ، يا بنيَّ ! ما عُبِدَ الله بشيءٍ أَفضلَ من العقل .

* * * *

٨ ـ أَخبرنا محمد بنِ أَبي القاسم ، قال : أَخبرنا أَحمدُ بن أَحمد ، قال : أَخبرنا أَحمدُ بن عبد الله الحافظ ، قال : حدَّثنا عبيد الله بن محمد العَيْشي ، قال : حدَّثنا وُهَيْب ، قال : أَخبرنا الجُرَيْرِي ، عن أَبي العلاء ، عن مُطَرِّف ، أَنه قال : ما أُوتي عبدٌ بعد الإيمان أَفضلَ من العقل .

* * * *

٩ ـ أَخبرنا محمد ، قال : أَخبرنا أَحمد ، قال : أَخبرنا أَحمد بن عبد الله ، قال : حدَّثنا محمد بن عليّ ، قال : حدَّثنا محمد بن الحسن بن الطُّفَيْل ، قال : حدَّثنا محمد بن أَبي السَّرِيّ ، قال : حدَّثنا داود ، عن خُلَيْد بن دَعْلَج ، قال : سمعتُ معاوية بن قُرَّة يقول : إنَّ القومَ لَيَحُجُّون ويَعْتَمِرونَ ويُجَاهدونَ ويُصَلُّونَ ويَصُومُون ، وما يُعْطَوْنَ يوم القيامةِ إلاَّ على قَدْرِ عقولِهم .

* * * *

١٠ ـ أَخبرنا أَبو المعمر الأَنصاريّ ، قال : أَخبرنا صاعد بن سَيَّار ، قال : أَخبرنا أَحمد ابن سهل الغَوْرَجي ، قال : أَخبرنا إسحاقُ بن إبراهيم الحافظ إجازةً ، قال : أَخبرنا الحسنُ بن أَحمد الفقيه ، قال : أَخبرنا محمد بن المسيّب ، قال : أَخبرنا عبد الله بن حُبَيْق ، قال : حدَّثنا عبد الله بن ضُرَيْس ،عن أَبي زكريا ، قال : إنَّ الرجل ليتلذَّذُ في الجَنةِ بقَدْرِ عَقْلِهِ .

* * * *

الباب الثاني
في
ذكر ماهية العقل ومحله

نقل إبراهيم الحربي ، عن أحمد بن حنبل ، أنه قال : العقلُ غريزة ، ومثله عن الحارث المُحَاسِبِي .

ورُوِيَ عن المُحَاسِبِيّ أيضاً أنه قال : هو نور .

وقال آخرون : هو قُوّةٌ يُفْصَل بها بين حقائقِ المعلومات .

وقال قوم : هو نوعٌ من العلوم الضرورية ، وهو العلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات .

وقال آخرون : هو جوهرٌ بسيط .

وقال آخرون : هو جسم شَفَّاف .

وسُئِلَ أعرابي عن العقل ، فقال : لُبٌّ اغتَنَمْتَهُ بِتَجْرِيبٍ .

واعلم أن التحقيقَ في هذا أن يُقال : هذا الاسم — أعني : العقل — يُطْلق بالاشتراك على أربعةِ مَعَانٍ :

أحدهما : الوصف الذي يفارقُ به الإنسانُ البهائمَ ، وهو الذي به استعدَّ لقبول العلومِ النَّظَرية ، وتدبير الصناعاتِ الخفيَّة الفكريَّة ، وهو الذي أراده مَنْ قال : هو غريزة ، وكأنه نورٌ يُقذف في القلب يستعدّ به لإدراكِ الأشياء .

والثاني : ما وُضع في الطِّباعِ من العلم بجواز الجائزات واستحالةِ المستحيلات .

والثالث : عُلوم تُستفاد من التجارب فتسمَّى عقلاً .

والرابع : أن تنتهي قوةُ الغريزة إلى أن تَقْمَعَ الشهوةَ الداعيةَ إلى اللَّذة العاجلة .

والناس يتفاوتُون في هذه الأحوال ، إلاَّ في القسم الثاني الذي هو العلم الضروريّ . وقد شرحنا هذا وذكرنا فضائل العقل في كتابنا المسمى بـ« منهاج القاصدين » . وهذه الإشارة تكفي ها هنا .

فصل
[في]
[اشتقاقه]

وأما اشتقاق في هذا الاسم – أعني العقلَ – فقال ثَعْلَبُ : أَصله من الامتناعِ ، يقال : عَقلتُ الناقةَ إذا منعتُها من السَّيْر ، وعُقِل بطنُ الرجلِ إذا حُبس .

فصل
[في]
[محله]

وأَما محلُّه ، فَنَقَلَ الفَضْلُ بن زياد ، عن أَحمد ؛ أَن محلَّه الدماغُ ، وهو قول أَبي حنيفة ، وذهب جماعةٌ من أَصحابنا إلى أَنه في القلب كما يروى عن الشافعيّ ، واستدلُّوا بقوله تعالى : ﴿ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [٢٢ سورة الحج / الآية : ٤٦] ، وقوله تعالى : ﴿ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ [٥٠ سورة ق / الآية : ٥٠] ، أَي : عقل ، فعبّر بالقلب عنه لأَنه محلُّه .

* * * *

الباب الثالث
في
بيان معنى الذهن والفهم والذكاء

حدُّ الذهن : قوةُ النفس المهيَّأة المستعدّة لاكتسابِ الآراء .

وحدُّ الفهم : جَوْدةُ التهيُّؤ لهذه القوة .

وحدّ الذكاء : جودة حَدْسٍ من هذه القوة يقعُ في زمان قصير غيرِ مُمْهِل ، فيعلمُ الذكيُّ معنى القول عند سماعه .

وبهذا حَدُّوا الفهم ، فإنهم قالوا : حدُّ الفهم العلمُ بمعنى القول عند سَمَاعِهِ .

وقال بعضُهم : حدّ الذكاء سرعةُ الفهم وحِدَّته ، والبلادةُ : جمودُ الفَهْم .

وقال الزَّجَّاج : الذَّكاءُ في اللغة تمامُ الشيء ، ومنه الذكاءُ في السّنّ ، وهو تمام السِّن ، ومنه الذكاءُ في الفهم ، وهو أن يكون فهماً تاماً سريعَ القبولِ ، وذكَّيت النار إذا أتممت إشْعَالَها .

* * * *

١ ــ أخبرنا أبو غالب أحمد بن الحسن بن البنَّاء ، وحدّثنا عنه المُباركُ بن عليّ ، قال : أخبرنا القاضي أبو يَعْلَى محمد بن الحسين ، قال : أخبرنا إسماعيلُ بن سُويد ، قال : أخبرنا أبو بكر بن الأنباريّ ، قال : قولهم : فلان ذكي ، معناه كامل الفطنة تامّها ، من قول العرب : قد ذكتِ النارُ تَذْكو إذا تَمَّ وُقودُها ، ويقال : أذكيتُها أنا . إذا أتممتُ وُقودَهَا ، ويقال : مِسْكٌ ذكِيٌّ إذا كان تامَّ الطِّيبِ كاملَ نَفاذِ الرِّيح . قال جَميل [« الديوان » : ٥٣] :

صَادَتْ فُؤَادِي بِعَيْنَيْهَا وَمُبْتَسَمٍ ... كَأَنَّـهُ حِيـنَ أَبْدَتْـهُ لَنَـا بَـرَدُ
عَذْبٌ كَأَنَّ ذَكِيَّ المِسْكِ خَالَطَهُ ... والزَّنْجَبِيلُ ومَـاءُ الْمُـزْنِ والشَّهَـدُ

ويقال : قد ذكَّيتَ الشاة إذا أتممتَ ذبحها وبلغتَ الحدَّ الواجِبَ فيه ، قال الشاعر :

نَعَمْ هُوَ أَذْكَاهَا وَأَنْتَ أَضَعْتَهَا ... وَأَلْهَاكَ عَنْهَا جِرْفَةٌ وفَطِيمُ

والعربُ تقول : جَرْيُ المُذَكِّيَاتِ غِلَاب ، أي : جَرْيُ المَسانّ مُغَالَبَةٌ ، وذلك أن المُذَكِّيَةَ من الخيل وهي التي تمت قُوّتُها وشبابُها تحْمل على الخَشِنِ من الأَرض للثِّقةِ بقوتها وصَلَابتها ، وأَنها ليست كالجِذَاع والصّغار التي تُطْلَب لها الرّخاوةُ من الأَرض لضعفها وصِغَرِها ، فإنها لا تثبت ثبات المذكيات ، وبعضهم يقول : جريُ المُذَكِّياتِ غِلَاءُ ، والغِلَاءُ جمع غَلْوة وهو مدى الرمية .

قال الشاعر في الذّكاءِ الذي معناه تمام الفطنة :

سَهْمُ الفُؤَادِ ذَكَاؤُهُ مَا مِثْلُهُ ... عِنْدَ الْعَزِيمَةِ في الأَنَامِ ذَكَاءُ

وقال زُهير [« الديوان » : ٦٩] في الذكاءِ الذي معناه تمامُ السِّنِّ :

ويَفْضُلُهَا إِذَا ٱجْتَهَدت عَلَيْهِ ... تَمَامُ السِّنِّ مِنْهُ وَالذَّكَاءُ

والذكاءُ في هذين المعنيين ممدودٌ ، والذَّكَاءُ : تمام اتِّقاد النار ، مقصور يكتب بالأَلف ، قال الشاعر [« اللسان » ١٧/٣١٤] :

وتُضْرِمُ في القَلْبِ ٱضْطِرَاماً كَأَنَّهُ ... ذَكَا النار تُرْفيه الرياحُ النوافحُ

ويقال : مِسْكٌ ذكيٌّ ومسكٌ ذكيةٌ ، والذي يذكِّرُ يقول : المسكُ مُذكّرٌ ، والذي يُؤنِّث يقول : ذهبتُ إلى الرائحة ؛ أَنشدنا أَبو العباس ، عن سلمة ، عن الفرّاء [« المذكر والمؤنث » : ٢٧]

لَقَد عَاجَلَتْنِي بِالسِّبَابِ وَثَوْبُهَا ... جَدِيدٌ وَمِنْ أَثْوَابِها المِسْكُ تَنْفَحُ

وقد أَراد به رائحةَ المسك .

قال ابن الأَنباري : أَخبرني أَبي ، قال : أَخبرنا أَبو هَفَّان المِهْزَمِيُّ ، قال : المسكُ والعنبر يؤنَّثانِ ويذكَّران .

* * * *

الباب الرابع
في
ذكر العلامات التي يُستدل بها على عقل العاقل وذكاء الذكي

قال مؤلف الكتاب : هذه العلاماتُ تنقسم قسمين :

أحدُهما : من حيثُ الصورة .

والثاني : من حيث المعنى والأفعال والأحوال

ذكر القسم الأول

قال الحكماءُ : الخَلْقُ المعتدل والبنية المتناسبة دليلٌ على قوة العقل وجَوْدَةِ الفطنة ، وإذا غَلُظَتِ الرّقبةُ دَلَّت على قوة الدِّماغ ووُفُورِه ، ومن كانت عينه تتحركُ بسرعة وحدَّةٍ فهو مكّارٌ محتالٌ لصّ ، وأحمدُ العيون الشُّهْلُ ، وإذا لم تكن الشَّهْلاءُ شديدةَ البريق ولا يظهرُ عليها صُفْرة ولا حُمْرة دلَّت على طبع جَيِّد ، وإذا كانت العينُ صغيرةً غائرةً فصاحبُها مكّارٌ حسود ، ومن كان نحيفَ الوجه فهو فَهِيمٌ مهتم بالأمور ، واللُّطْفُ في النِّحاف القصار أظهر ، والمعتدلُون في الطولِ صالحُو الحال .

* * * *

١ ــ أخبرنا محمدُ بن عبد الباقي ، قال : أخبرنا أحمد بن أحمد ، قال : أخبرنا أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني ، قال : حدَّثنا محمدُ بن علي ، قال : حدَّثنا الحسينُ بنُ عليٍّ بن نصر ، قال : حدَّثنا محمدُ بن عبد الكريم ، قال : حدَّثنا الهيثمُ بن عديّ ، قال : حدَّثنا ابن عَيّاش ، قال : حدَّثنا الشَّعْبي ، قال : حدَّثني عَجْلانُ ، قال : قال لي زِيَاد : أَدْخِلْ عليَّ رجلاً عاقلاً . قلتُ : لا أعرفُ من تعني . قال : لا يَخْفَى العاقلُ في وجهه وَقدِّه . فخرجتُ ، فإذا أنا برجلٍ حَسَنِ الوجه مديدِ القامة فصيح اللِّسان ، قلت : ادْخل ؛ فدخل ، فقال زياد : يا هذا إني قد

أردتُ مشاورتك في أمرٍ ، فما عندك ؟ قال : إني حَاقِنٌ ولا رَأْيَ لحاقن . قال : يا عجلان أدخله المُتَوَضَّأ ؛ فلما خرج قال : إني جائعٌ ولا رَأْيَ لجائع ، قال : يا عجلان ائته بالطعام ؛ فَأُتِيَ به ، فَطَعِم ، ثم قال : سَلْ عما بدا لك ، فما سأله عن شيءٍ إلاَّ وجد عنده بعضَ ما يريد .

* * * *

٢ ــ أخبرنا المحمدان ابنُ ناصر وابنُ عبد الباقي ، قالا : أخبرنا أحمد بن أحمد ، قال : أخبرنا أحمد بن عبد الله الحافظ ، قال : حدَّثنا عثمانُ بن محمد ، قال : أخبرنا أحمدُ بنُ محمدٍ ابن عيسى ، قال : سمعتُ يوسُف بن الحُسَيْن يقول : سمعتُ ذا النُّون يقول : من وُجِدَتْ فيه خمسُ خِصَال رجوتُ له السعادةَ ولو قبل موته بساعتين ، قيل : ما هي ؟ قال : استواءُ الخَلْقِ ، وخِفَّةُ الرُّوح ، وغَزَارةُ العقل ، وصفاءُ التوحيد ، وطيبُ المَوْلِدِ .

ذكر القسم الثاني وهو الاستدلال على العاقل بالأفعال والأحوال

قال المؤلف : يُستدلُّ على عقل العاقل بسكونه وسكوتِهِ وخَفْضِ بَصَرِهِ وحركاتِهِ في أماكنها اللائقةِ بها ، ومراقبته للعواقب فلا تستفزُّهُ شهوةٌ عاجلةٌ عقباها ضَرَر ، وتراه ينظر في القضاءِ فيتخيَّر الأَعْلى والأَحمَدَ عاقبةً من مَطْعم ومَشْربٍ ومَلْبسٍ وقولٍ وفعل ، ويتركُ ما يخافُ ضَرَرَهُ ، ويستعدُّ لما يجوزُ وقوعُه .

* * * *

٣ ــ أنبأنا يحيى بن ثابت ، عن بُنْدار ، قال : أخبرنا أبي ، قال : أخبرنا الحسنُ بن الحُسَين بن دَوْمَا ، قال : أخبرنا محمد بن جعفر ، قال : أخبرنا الحسن بن علي القَطَّان ، قال : أخبرنا إسماعيلُ بن عيسى العَطَّار ، قال : أخبرنا أبو حذيفة إسحاقُ بن بِشْرٍ القُرَشِيّ ، قال : أخبرنا جعفرُ بن الحارث ، عن شَهْرِ بنِ حَوْشَب ، قال : قال أبو الدَّرْدَاءِ : ألا أُنبئكُمْ بعلامةِ العاقل ؟ يتواضعُ لمن فَوْقه ، ولا يَزْدَري من دُونه ، ويمسكُ الفضلَ من منطقِهِ ، ويخالقُ الناسَ بأخلاقهم ، ويحتجزُ الإيمان فيما بينه وبين ربه عزَّ وجلّ ، فهو يمشي في الدنيا بالتقيَّةِ والكتمان .

* * * *

٤ ــ قال القرشيُّ : وأخبرني إدريسُ ، عن جدّه وهب بن مُنَبِّه : أَنَّ لقمانَ قال لابنه :

يا بنيّ ما يتمُّ عقلُ امرىءٍ حتى يكون فيه عَشْرُ خِصَال : الكبرُ منه مأمونٌ ، والرُّشْدُ فيه مأمولٌ ، يصيبُ من الدنيا القوتَ وفضلُ مالِهِ مبذولٌ ، التواضعُ أَحبُّ إليه من الشَّرف ، والذُّلُّ أَحبُّ إليه من العزِّ ، لا يسأَمُ من طلب الفقه طولَ دَهْرِهِ ، ولا يتبرَّمُ من طَلَبِ الحوائجِ مِنْ قِبَلِهِ ، يستكثرُ قليلَ المعروف من غيره ، ويستقلُّ كثيرَ المعروفِ من نَفْسه ، والخَصْلَة العاشرةُ التي سادَ بها مجدَه ، وأعلى ذِكرَه ؛ أن يرى جميعَ أَهل الدنيا خيراً منه وأَنه شرُّهُم ، وإن رأَى خيراً منه سرَّهُ ذلك وتمنى أَن يلحقَ به ، وإن رأَى شرّاً منه قال : لعلَّ هذا ينجو وَأَهْلَكُ أَنا ، فهنالك حين استكملَ العَقْلَ .

* * * *

٥ ـ قال القرشيُّ : وأَخبرني عثمانُ بن عبد الرحمن ، عن مكحول : أَنَّ لقمان قال لابنه : غايةُ الشَّرَفِ والسُّؤْدَدِ حُسْنُ العقل ، ومن حَسُنَ عقلهُ غَطَّى ذلك جميعَ ذنوبِه وأَصلح ذلك مَسَاويه ، ورَضِي عنه مولاهُ .

* * * *

٦ ـ أَخبرنا عبد الرحمن بن محمد ، قال : أَخبرنا أَحمد بن علي بن ثابت ، قال : أَخبرني أَبو الوليدِ الحسنُ بن محمد الدَّرْبَندِيُّ ، قال : أَخبرنا محمدُ بنُ أَبي بكر الوَرّاق ، قال : حدَّثنا أَبو أَحمد علي بن عبد اللهِ المَرْوزِيُّ ، قال : حدَّثنا شهابُ بن الحسن العُكْبُرِي ، قال : سمعتُ الأَصمعيَّ ، يقول : سمعت أَبَانَ بن جَرِير ، يقول : قال المهلبُ بنُ أَبي صُفْرَةَ : يعجبني أَن أَرى عقلَ الكريم زائداً على لسانه ، ولا يُعجبني أَن أَرى لسانَهُ زائداً على عقله .

* * * *

الباب الخامس
في
سياق المنقول من ذلك عن الأنبياءِ المتقدمين مما يدل على قوة الفطنة

معلوم أن فِطَنَ الأنبياءِ فوق الفطن ، ولكنا أحببنا أن لا نُخْلَي كتابَنا هذا من ذكر شيءٍ عنهم .

* * * *

فمن المنقول عن **إبراهيم الخليل** عليه الصلاة والسلام :

١ ــ أنبأنا محمدُ بنُ عبد الملك ، قال : أخبرنا أحمدُ بن علي بن ثابت ، قال : أخبرنا أبو الحسين بن رِزْقَوَيْه ، قال : أخبرنا عثمانُ بن أحمد الدَّقَّاق ، قال : أخبرنا الحسنُ بن عليٍّ القَطَّان ، قال : أخبرنا إسماعيل بن عيسى ، قال : أخبرنا أبو حذيفة إسحاق بن بشر ، عن جويبر ، عن الضَّحَّاك ، عن ابن عَبَّاس ، قال : لما رأَتْ سَارةُ إبراهيمَ قد شُغِفَ بأم إسماعيل غارت غيرةً شديدة ، وحلفت لتقطعنَّ عُضواً من أعضاءِ هَاجر ، فبلغ ذلك هَاجَرَ ، فلبستْ دِرْعاً وجرّت ذيلها ، فهي أول نساءِ العالمين جرّت الذَّيل ، وإنما فعلت ذلك لِتُعَفِّيَ أثرهَا في الطريق على سَارة ، فقال إبراهيم : هل لك في خير ؟ أن تعْفِي عنها وتَرْضِي بقضاءِ الله عزَّ وجلّ ، قالت : وكيف لي بما قد حَلَفْتُ ؟ قال : اخْفِضِيها فتكونُ سُنَّةَ النساءِ ، وتَبَرُّ يمينُك ، قالت : أفْعل ؛ فخفضَتها ، فمضتِ السُّنَّة للنِّساءِ بالخفض(١) منها .

* * * *

٢ ــ أخبرنا عبد الأول ، قال : أنبأنا الدَّاوُوديُّ ، قال : أخبرنا ابن أعين ، قال : حدَّثنا

---

(١) الخفض للنساء كالختان للرجال .

الفِرَبْرِي ، قال : حدَّثنا البُخَاري ، قال : حدَّثنا عبد اللهِ بن مُحمد ، قال : حدَّثنا عبد الرزَّاق ، قال : أخبرنا مَعْمَر ،عن أيوب السَّخْتياني ، وكثير بن كثير بن المطلب بن أبي وَدَاعَة ، يزيد أحدهما على الآخر ، عن سعيد بن جُبَير ، قال : قال ابن عباس : لما شبَّ إسماعيل تزوج امرأة من جُرْهُمَ ، فجاءَ إبراهيمُ فلم يجدْ إسماعيلَ ، فسأل امرأته ، فَقالت : خرج يستقي لنا . ثم سألها عن عيشهم ، فقالت : نحن بِشَرٍّ ، في ضيقٍ وشدّة ؛ وشكت إليه ، فقال : فإذا جاءَ زوجُك فاقرئي عليه السلام وقولي له : يُغيِّر عتبةَ بَابِه ، فلما جاءَ فأخبرته ، قال : ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقَكِ ؛ الحقي بأهلك .

قال المؤلف : وهذا الحديث يدل على فطنة إسماعيل أيضاً .

* * * *

ومن المنقول عن **سليمان عليه الصلاةُ والسلام** :

٣ ــ أخبرنا عبدُ اللهِ بن محمد ، قال : أخبرنا الحسن بن علي بن المذهب ، قال : أخبرنا أبو بكر بن مالك ، قال : أخبرنا عبد الله بن أحمد ، قال : حدَّثني أبي ، قال : حدَّثنا يونس ، قال : حدَّثنا ليث ، عن محمد بن أبي الزِّناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، عن رسول اللهِ ﷺ أنه قال : « خرجت امرأتان ومعهما صبيّانِ ، فعدا الذئب على أحدهما ، فأخذتا تختصمان في الصبي الباقي ، فاختصَمتَا إلى داود عليه الصلاة والسلام فقضى به للكبرى منهما ، فمرّتا على سليمان عليه السلام ، فقال : كيف أمركما ؟ فَقصَّتا عليه القصة ، فقال : ائتوني بالسكين أشقُّ الغلامَ بينكما . فقالت الصغرى : أتشقُّه ؟! قال : نعم . قالت : لا تفعل ، حظِّي منه لها ؛ فقال : هو ابنك ؛ فقضى به لها . أخرجاه في الصحيحين .

* * * *

٤ ــ أخبرنا محمد بن عبد الباقي ، قال : أخبرنا أحمد بن أحمد الحدّاد ، قال : أنبأنا أبو نعيم أحمدُ بن عبد الله ، قال : حدَّثنا الحسنُ بن محمد بن علي ، قال : حدَّثنا عبدُ الرحمنِ بنُ محمد ابن إدريس ، قال : حدَّثنا أحمدُ بن سِنَان ، قال : حدَّثنا وهبُ بن جَرِير ، قال : حدَّثنا أبي ، قال : سمعتُ عبد الله بن عُبَيْد بن عُمَيْر ، يقول : بعث سليمانُ عليه السلام إلى ماردٍ من مَرَدَةِ الجنّ ، فَأُتِي به ، فلما كان على باب سليمانَ أخذ عُوداً فَذَرعَهُ بذراعه ورمى به وراءَ الحائطِ ،

فوقع بين يَدَيْ سليمان ، فقال : ما هذا ؟ فأُخبر بما صنع الماردُ ؛ قال : أتدرونَ ما أراد ؟ قالوا : لا . قال يقول : اصنع ما شئتَ فإنك تصير إلى مثل هذا من الأرض .

* * * *

٥ ــ أخبرنا محمد بن عبد الباقي ، قال : أخبرنا أحمدُ بن أحمد ، قال : حدَّثنا أبو نعيم ، قال : حدَّثنا سليمانُ بن أحمد ، قال : حدَّثنا محمدُ بن هارون بن بكّار الدمشقيّ ، قال : حدَّثنا سعيدُ بن عبد العزيز ، عن مَكْحُول ، قال : قال أبو هريرة : بينما سليمانُ بن داود عليه السلام يَسعى في موكبه ، إذ مرّ بامرأة تصيح بابنها « يالادين » ، فوقف سليمانُ وقال : إن دين اللهِ ظاهر ؛ فأرسل إلى المرأة فسألها ، فقالت : إن زوجها سافر وله شريكٌ ، فزعم شريكه أنه مات وأوصى إن ولدتُ غلاماً أن أسميه « يالادين » ، فأرسل إلى الشريك فاعترف أنه قتله ، فقتله سليمانُ عليه السلام .

* * * *

٦ ــ حدثنا محمدُ بن كعب القُرَظِي قال : جاءَ رجلٌ إلى سليمانَ النبيِّ ﷺ فقال : يا نبيَّ اللهِ ! إن لي جيراناً يسرقون إوزِّي . فنادى : الصلاةُ جامعةٌ ، ثم خطبهم ، فقال في خطبته : وأحدكُمْ يسرقُ إوزَّ جَارِهِ ثم يدخلُ المسجدَ والرِّيشُ على رأسه ! فمسح رجلٌ برأسه ، فقال سليمانُ : خذوه فإنه صاحبكم .

* * * *

ومن المنقول **عن عيسى** عليه السلام :

٧ ــ إنَّ إبليسَ جاءَ إليه ، فقال له : ألستَ تزعمُ أنه لا يصيبُك إلا ما كتب الله لك ؟ قال : بلى . قال : فارمِ بنفسك من هذا الجبل ، فإنه إن قُدِّر لك السلامة تَسْلَم . فقال له : يا ملعون ! إنَّ لِلهِ عزَّ وجلّ أن يختبر عبادَهُ وليس للعبدِ أن يختبرَ ربَّهُ عزّ وجلّ .

* * * *

الباب السادس
في
سياق المنقول من ذلك عن الأُمم السالفة

فمن المنقول عن **لقمان** :

١ ــ حدّثنا مَكْحُولٌ أن لقمان الحكيم كان عبداً نوبياً أسودَ ، وكان قد أعطاه الله تعالى الحكمة ، وكان لرجل من بني إسرائيل اشتراه بثلاثين مثقالاً ونَش ــ يعني : نصف مثقال ــ ، وكان يعمل له ، وكان مولاه يلعب بالنَّرْدِ يقامرُ عليه ، وكان على بابه نهرٌ جارٍ ، فلعب يوماً بالنَّرْدِ على أن من قَمَرَ صَاحِبه شَرب الماءَ الذي في النهر كُلَّهُ أو افتدى منه ، وإن هو قمر صاحبه فعل به مثلَ ذلك .

قال : فقُمِر سَيِّدُ لقمَان ، فقال له القامرُ : اشرب ما في النهر وإلا فافتد منه ، قال : فسلني الفداءَ . قال : عينيك أفقأُهُما وجَمِيعَ ما تملك . قال : أمهلني يومي هذا ، قال : لك ذلك .

قال : فأمسى كئيباً حزيناً إذ جاءَه لقمان وقد حمل حُزْمَةً على ظهره ، فسلَّم على سيّده ، ثم وضع ما معه ورجع إلى سيده ، وكان سيدُهُ إذا رآه عَبَث به ويسمع منه الكلمة الحكيمة فيَعْجَبُ منه ، فلما جلس إليه قال لسيّده : مالي أراك كئيباً حزيناً ؟ فأعرض عنه ، فقال له الثانية مثل ذلك ، فأعرض عنه ، ثم قال له الثالثة مثل ذلك ، فأعرض عنه ، فقال له : أخبرني ، فلعلّ لك عندي فَرَجاً ؛ فقصّ عليه القصة ، فقال له لقمانُ : لا تَغْتَمّ ! فإنَّ لك عندي فَرَجاً ؛ قال له : وما هو ؟ قال : إذا أتاك الرجلُ فقال لك : اشرب ما في النهر ، فقل له : أشرب ما بين ضفتي النهر أو المدّ ؟ فإنه سيقول لك : اشرب ما بين الضِّفَّتَيْن ، فإذا قال لك ذلك ، فقل له : احبس عني المدّ حتى أشربَ ما بين الضِّفَّتَيْن ، فإنه لا يستطيع أن يحبسَ عنك المدّ ، وتكون قد خرجتَ مما ضمنتَ له ؛ فعرف سيده أنه قد صدق ، فطابتْ نفسُه ، فلما أصبح ، جاءَه الرجل ، فقال له : فِ لي بِشَرْطِي ؛ قال له : نعم ، أَشربُ ما بين الضِّفتين أو المدَّ ؟ قال :

لا ، بل ما بين الضِّفتين . قال : فاحبسْ عنِّي المَدَّ . قال : كيف أستطيعُ ؟

قال : فَخصَمهُ .

قال : فأعتقه مولاه .

* * * *

٢ ــ حدثنا محمد بن إسحاق ، قال : قال لقمانُ لابنه : يا بنيَّ إذا أردتَ أن تُؤاخيَ رجلاً فأَغْضِبْه قبل ذلك ، فإن أنصفكَ عند غَضَبِه وإلاَّ فاحْذَرْهُ .

* * * *

ومن ذلك ما نُقل عن عبد الله بن عامر الأزديِّ في الاحتيال للسَّلامةِ من سَيْلِ العَرِم :

٣ ــ أنبأنا محمد بن عبد الملك ، قال : أخبرنا أحمد بن علي بن ثابت ، قال : أخبرنا أبو الحسين بن رزقويه ، قال : أخبرنا عثمان بن أحمد الدقاق ، قال : أخبرنا الحسن بن علي القطان ، قال : أخبرنا إسماعيل بن عيسى ، قال : أخبرنا أبو حذيفة إسحاق بن بشر ، عن جويبر ، عن الضَّحَّاك ، عن ابن عباس ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ﴾ [٣٤ سورة سبأ / الآية : ١٥] قال : كَانَتْ لا تَنْقطعُ عنهم جنَّتُهُمْ شتاءً ولا صيفاً ، فكفروا ما أنعم الله عليهم ، فأرسل عليهم سَيْلَ العَرِم ، فَسَلَّط على الرَّدْم الذي بنوه على عيْنِ شربهم جُرَذاً له مخاليب من حديد وأنياب من حديد ، فأول من علم بذلك عبد الله بن عامر الأزدي ، وكان سيّدَهم ، وكان رَأى في المنام كأنه انشقّ عليه الرَّدْمَ فسال الوادي ، فأصبح مكروباً ؛ فانطلق نحو الردم ، فرأى الجُرَذ يحفر بمخاليب من حديد ويقرضُ بأنيابٍ من حَدِيد ، فانصرف إلى أهله ، فأخبر امرأته وأراها ذلك ، وأرسل إلى بنيه فقال : هل ترون ما رأيت ؟ قالوا : نعم ، قال : إنَّ هذا الأمر ليس لنا إليه سبيل ، اضمحلّتِ الحِيَلُ فيه ، لأنَّ الأمرَ للهِ وقد أذن في هلاكه ؛ فأتى بهرّةٍ والجُرَذُ يحفرُ لا يكترث بالهرَّة ، فلما رأت الهرَّةُ ذلك ولَّت هاربة ، فقال عبدُ اللهِ : احتالوا لأنفسكم ، قالوا : يا أبتِ ! كيف نحتال ؟ قال : إنِّي محتالٌ لكم بحيلةٍ .

قال : فدعا أصغرَ بنيه ، ثم قال له : إذا جلستُ اليوم في المجلس ــ وكان الناسُ يجتمعون

إليه وينتهون إلى رأيه — فإذا اجتمعوا أمرتُ أصغركم بأمرٍ فَلْيَغْفَلْ عنه ، فإذا شتمتُه فليهمَّ إلي فليلْطِمَنِي ولا تغيروا أنتم عليه ، فإذا رأى الجلساءُ أنكم لم تغيروا على أخيكم لم يَجْسُرْ أحدٌ منهم أن يَغيرَ عليه ، فأَحْلفُ أنا عند ذلك يميناً لا كفارة لها أن لا أقيم بين أَظْهُرِ قومٍ قام إليَّ أصغرُ بَنِيَّ فلطمني فلم يَغيروا عليه لذلك . قالوا : نفعل ذلك . فلما راح الناسُ إليه ، أَمَر ابنَه ببعض أمره ، فلها عنه ، ثم أمره ، فلها عنه ، ثم أمره ، فلها عنه ، فشتمه ، فقام إليه فلطم وجهه ، فعجبوا من جرأة ابنه ، فنكَّسوا رؤُوسهم ، وظنّوا أن وَلَدَه يغيرون عليه ، فلما لم يغير أحدٌ منهم ، قام الشيخ فحلف أن يتحوّل عنهم ويستبدلَ بداره ، فلا يقيم بين أَظْهُرِ قومٍ لم يغيروا على ابنه ، فقام القومُ معتذرين وقالوا : ما كُنَّا ظَنَنَّا أن وَلَدَك لا يغيرون عليه ، فذلك الذي مَنَعَنا ، قال : قد سبقَ منِّي مَا تَرَوْن ، وليس إلى غير التحويل سبيلٌ ؛ فعرض ضياعَه على البيع ، وكان النَّاس يتنافسون فيها ، واحتمل بِثَقَلِهِ وعياله فتحوّل عنهم ، فلم يلبث القومُ إلاَّ قليلاً حتى أَتى الجُرَذُ على الرَّدْم ، فاستأصله ، فلم يفاجأ القوم ليلة بعد ما هدأت العيون إذا هم بالسيل قد أقبل ، فاحتمل أنعامهم وأموالهم وخَرَّب ديارهم .

وقد جاءَت أخبارٌ عن القدماءِ ستراها في أبوابها إن شاءَ الله تعالى .

* * * *

الباب السابع
في
سياق المنقول من ذلك عن نبيّنا ﷺ

قال مؤلِّف الكتاب :

إنما نذكر عن نبيّنا ﷺ كلماتٍ تدلُّ على قوةِ الفطنة الفطرية ، فأَما ما حصل له بتلقّي الوحي وتثقيفه فذلك كثير ، وليس هو مرادُنا ها هنا ، إنما المرادُ القسم الأول .

* * * *

١ ــ أَخبرنا هبة الله بن محمد ، عن أَبي إِسحاق ، عن حارثة بن مُضَرِّب ، عن عليّ عليه السلام ، قال : لما سار رسولُ الله ﷺ إلى بدرٍ وجدْنا عندها رَجُلين ، رجلٌ من قريش ومولًى لعقبة بن أَبي مُعَيْط ، فأَما القرشيُّ فأَفْلتَ ، وأَما مولى عُقبة ، فأَخذناه ، فجعلنا نقولُ له : كم القومُ ؟ فيقول : هم ــ واللهِ ــ كثيرٌ عددهُم ، شديدٌ بأْسُهم ؛ فجعل المسلمون إِذا قال ذلك ضربوه ، حتى انتهوْا به إلى رسول الله ﷺ ، فقال له : « كم القومُ ؟ » فقال : هم ــ واللهِ ــ كثيرٌ عددهُم ، شديدٌ بأْسُهُم ؛ فجهد النبيُّ ﷺ أَن يخبره كم هم فأَبى ، ثم إِنَّ النبيّ ﷺ سأَله : « كم ينحرون من الجُزُر ؟ » فقال : عَشراً لكلّ يوم ، فقال النبي ﷺ : « القومُ أَلف ، كلُّ جَزُورٍ لمئة وتُبَّعِها » .

* * * *

٢ ــ أَخبرنا هبة الله بن محمد ، عن عبد الله بن كعب ، قال : سمعت كعبُ بن مالك ، يقول : كان رسولُ الله ﷺ قلَّما يريد غَزَاةً يغزوها إلاَّ وَرّى بغيرها . أَخرجاه في الصحيحين .

* * * *

٣ ــ أَخبرنا أَبو سعيد الخُدْريُّ ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يا أَيُّها الناسُ !

إنَّ الله عزَّ وجل يعرّض بالخمر سيُنْزِلُ فيها أمراً ، فمن كان عنده منها شيء فليبعْه فلينتفعْ به » .

قال : فما لبثنا إلاَّ يسيراً حتى قال ﷺ : « إن الله عزَّ وجل حرّم الخمر ، فمن أدركته هذه الآية وعنده منها شيء فلا يشربْهُ ولا يَبع » ، فاستقبل الناسُ بما كان عندَهم منها طُرُقَ المدينة فسفكوها . انفرد بإخراجه مسلم .

* * * *

٤ ــ أخبرنا هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أحدث أحدكم في الصلاة فليأخذْ بأنفِهِ ثم لينصرفْ » .

* * * *

٥ ــ أخبرنا محمد بن ناصر ، عن أبي هُرَيْرة رضي الله عنه ، قال : قال رجلٌ : يا رسول الله ! إن لي جاراً يؤذيني ، فقال : « انطلق وأخرج متاعَكَ إلى الطريق » ، فانطلق ، فأخرج متاعَهُ ، فاجتمع الناس عليه ، فقالوا : ما شأنُك ؟ قال : لي جارٌ يؤذيني ، فذكرتُ ذلك للنبي ﷺ فقال : انطلق وأخْرِج متاعَك إلى الطريق . فجعلوا يقولون : اللَّهم العنه ، اللَّهم أخْزِه . فبلغه ، فأتاه ، فقال : ارجع إلى منزلك ، فوالله لا أوذيك .

* * * *

٦ ــ أنبأنا محمد ... زَيد بن أسلم ، مولى عمر ، أن رجلاً قال لحُذَيْفة : يا حذيفة ! نشكو إلى الله صحبتكم رسولَ الله ، أدركتموه ولم ندركه ، ورأيتموه ولم نَره ، فقال حذيفةُ : ونحن نشكو إلى الله إيمانكم به ولم تَرَوْهُ ، والله ما تدري يا ابن أخي لو أدركته كيف كنتَ تكون ، لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الخندق في ليلة باردةٍ مظلمةٍ مطيرة ، وقد نزل أبو سفيان وأصحابُه بالعَرْصَة ، فقال رسول الله ﷺ : « مَنْ رَجُلٍ يذهب فيجيء لنا عِلْمَ القوم أدخله الله الجنةَ » . فما قام منا أحدٌ ، ثم قال : « مَنْ رَجُلٍ يذهب فيعلم لنا علم القوم جعله الله رفيقي يوم القيامة » . فوالله ما قام أحدٌ منا . فقال أبو بكر : يا رسول الله ! ابعث حُذَيْفة ، فقال رسول الله ﷺ : « يا حذيفة ! » فقلت : لبيك يا رسول الله بأبي وأمِي أنت ، فقال : « هل أنت ذاهب ؟ » فقلت : واللهِ ما بي أن أقتل ، ولكنني أخشى أن أُوسَر ، فقال : « إنك لن تؤسر » ، فقلت : مُرْني يا رسول الله بما شئت ، فقال : « اذهب حتى تدخُلَ بين ظَهْرَانَي

القوم ، فأْتِ قريشاً ، فقل : يا معشر قريش ! إنما يريد الناسُ إذا كان غد أن يقولوا : أين قريش ؟ أين قادةُ الناس ؟ أين رؤوسُ الناس ؟ فيقدمونكم فَتَصْلَون القتالَ ، فيكون القتلُ بكم . ثم ائت قَيْساً ، فقل : يا معشر قَيْس ! إنما يريدُ الناسُ إذا كان غد أن يقولوا : أين أحلاسُ الخيل ؟ أين الفرسانُ ؟ فيقدّمونَكم ، فتَصْلَوْنَ القتالَ ، فيكون القتلُ بكم » . فانطلقتُ حتى دخلتُ بين ظَهْرَانَي القومِ ، فجعلتُ أصطلي معهم على نيرانِهم ، وجعلت أَبُثُّ ذلك الحديثَ الذي أمرني به ، حتى إذا كان وِجَاهُ السَّحَرَ ، قام أبو سفيان ، فدعا اللاّتَ والعُزَّى وأشرك ، ثم قال : لينظر كلُّ رجلٍ مَنْ جَلِيسُه ، ومعي رجلٌ منهم يصطلي على النار ، فوثبتُ عليه ، فأخذتُ بيده مخافةَ أن يأخذَني ، فقلت : مَنْ أنت ؟ فقال : أنا فلان بن فلان ، فقلت : أولى لك ؛ فلما دنا الصبح ، نادَوْا : أين قريش ؟ أين رؤوس الناس ؟ فقالوا : أيهات ، هذا الذي أُتينا به البارحة ، ثم قالوا : أين بنو كنانة ؟ أين الرماة ؟ فقالوا : أيهات هذا الذي أُتينَا به البارحة . فتخاذلوا ، وبعث الله عليهم تلك الليلَةَ الريحَ ، فما تركت لهم بناءً إلاَّ هدمتْهُ ، ولا إناءً إلَّا أكفأته ، حتى لقد رأيتُ أبا سفيانَ وثب على جَملٍ له معقولٍ ، فجعل يستحثهُ ولا يستطيع أن يقومَ ، فجئت رسولَ الله ﷺ ، فجعلت أخبره عن أبي سفيان ، فجعل يضحكُ حتى بدت نواجذه ، وجعلت أنظر إلى أنيابه .

* * * *

٧ — أخبرنا ابن ناصر ... عن عاصم الأحول ، عن الحسن ، أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ برجل قد قَتَل حميماً له ، فقال له النبيُّ ﷺ : « أتأخـذُ الدِّيـةَ » قـال : لا . قـال : « أفتعفو ؟ » قال : لا . قال : « اذهب فاقْتُلْهُ » ، فلما جاوزه الرجلُ ، قال رسول الله ﷺ : « إن قَتَلَهُ فهو مثله » ، قال : فلحق الرجلَ رجلٌ فقال له : إن رسولَ الله ﷺ قالَ كذا ، فتركه ، فولى وهو يجر نِسْعَهُ[1] في عنقه .

قال ابن قُتَيْبة : لم يُرِدْ رسولُ الله ﷺ أنه مثله في المأثم واستيجاب النار إن قتله ، وكيف يريدُ هذا وقد أباح الله عزَّ وجل قتلَهُ بالقِصَاص ؟ ولكن كره رسولُ الله ﷺ أن يقتصَّ ، وأحبّ

(١) « النسع » : سَيْرٌ يُنسجُ عريضاً وطويلاً على هيئة أعِنّة النعال تشَدُّ به الرحال ، وتجعل زماماً للبعير ، وكأن ولي المقتول كان أوثق القاتل به .

له العفو ، فعرّض تعريضاً أوهمه به أنه إن قتله كان مثله في الإثم ليعفوَ عنه ، وكان مرادُه أنه يَقْتُل نفساً كما قتل الأولُ نَفْساً ، فهذا قاتل وهذا قاتل ، فقد استويا في قاتل وقاتل ، إلا أن الأول ظالمٌ والآخَر مُقْتَصّ .

قلت : وفي حديث رسول الله ﷺ من هذا كثير ، خصوصاً المعاريض ؛ فلنقتصر على هذه النبذة .

* * * *

الباب الثامن
في
سياق المنقول من ذلك عن أصحاب نبينا رضي الله عنهم أجمعين

فمن المنقول عن **أبي بكر الصديق** رضي الله عنه :

١ ــ أخبرنا ابن الحسين ... عن ثابت ، عن أنس ، قال : لما هاجر رسولُ الله ﷺ ، كان رسولُ الله يركب وأبو بكرٍ رديفَهُ ، وكان أبو بكر يعرف الطريقَ لاختلافه إلى الشام ، فكان يمرّ بالقوم فيقولون : مَنْ هذا بين يديك يا أبا بكر ؟ فيقول : هادٍ يهديني .

* * * *

٢ ــ أخبرنا المبارك ... عن الحسن قال : لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر من الغار لم يستقبلهما أحد يعرف أبا بكر إلا قال له : من هذا معك يا أبا بكر ؟ فيقول : دليل يدُلّني الطريق . وصدق والله أبو بكر .

* * * *

٣ ــ أخبرنا ابن الحصين ... عن أبي سعيد ، قال : خطب رسول الله ﷺ الناس ، فقال : « إن الله خَيَّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ذلك العبد ما عند الله عز وجل » .

قال : فبكى أبو بَكْر ، فعجبنا من بكائه أن خبّر رسول الله عن عَبْدٍ خُيِّر ، فكان رسولُ الله ﷺ هو المخيَّر ، وكان أبو بكر أعلمنا به .

* * * *

ومن المنقول عن **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه :

٤ ــ أخبرنا ابن المعمر ... عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، قال : قَدِمَتْ على عمر بن

الخطَّاب حُلَل من اليمن ، فقسّمها بين الناس ، فرأى فيها حُلَّةً رديئةً ، فقال : كيف أصنعُ بهذه ؟! إذا أعطيتها أحداً لم يقبلها إذا رأى هذا العيب فيها .

قال : فأخذها ، فطواها ، فجعلها تحت مجلسه ، وأخرج طَرَفَها ، ووضع الحُلَلَ بين يديه ، فجعل يَقْسِمُ بين الناس .

قال : فدخل الزُّبيرُ بنُ العوّام وهو على تلك الحال .

قال : فجعل ينظرُ إلى تلك الحُلَّةِ ، فقال له : ما هذه الحلَّة ؟ فقال عمر : دَعْ عنك هذه ، فقال : ما هيه ما هيه ما شأنُها ؟ فقال : دَعْها عنك ، قال : فأعطنيها ، قال : إنك لا ترضاها ، قال : بلى قد رضيتُها ؛ فلما توثَّق منه واشترط عليه أن يَقبلَها ولا يردَّها ؛ رمى بها إليه ، فلمّا أخذها الزُّبيرُ ونظر إليها إذا هي رديئة ، فقال : لا أُريدُها ، فقال عمر : أيهات ، قد فرغت منها ؛ فأجازها عليه ، وأبى أن يقبلها منه .

* * * *

٥ ـــ أخبرنا أبو بكر ... عن يَزِيد بن جَرِير ، عن أبيه ، أن عمر قال له ـــ والناس يتحامون العراقَ وقِتَالَ الأعاجم ـــ : سر بقومك ، فما قد غَلَبْتَ عليه فلك رُبُعُه ؛ فلمّا جُمعت الغنائم ـــ غنائم جلولاء ـــ ادّعى جريرٌ أن له رُبع ذلك كلّه ، فكتب سعد [بن أبي وقاص] إلى عمر بذلك ، فكتب عمر : صَدَق جرير ، قد قلتُ ذلك له ، فإن شاءَ أن يكون قَاتَلَ هو وقَوْمُه على جُعْلٍ فأعْطوه جُعْلَه ، وإن يكن إنما قاتل لله ولدينه ولحبيبه فهورجل من المسلمين ، له ما لهم وعليه ما عليهم ؛ فلما قَدِمَ الكتابُ على سعدٍ ، أَخْبَرَ جريراً بذلك ، فقال جرير : صدق أميرُ المؤمنين . لا حاجة لي به ، بل أنا رجلٌ من المسلمين .

* * * *

٦ ـــ أخبرنا عبد الوهّاب ... عن نافع ، عن ابن عمر ، قال : بينما عمر رضي الله عنه جالسٌ إذ رأى رجلاً ، فقال : قد كنت مرةً ذا فِرَاسة ، وليس لي رأيٌ إن لم يكن هذا الرجلُ ينظر ويقولُ في الكهانة شيئاً ، ادعُوهُ لي ؛ فدعوه ، فقال : هل كنت تنظرُ وتقول في الكهانة شيئاً ؟ فقال : نعم .

* * * *

٧ — وقد رُوِّينا عن عمر رضي الله عنه أنه خرج يَعُسُّ المدينة بالليل ، فرأى ناراً موقَدَة في خباءٍ ، فوقف ، وقال : يا أَهلَ الضوءِ ؛ وكَرِه أن يقول : يا أَهل النار ؛ وهذا من غاية الذكاءِ .

* * * *

٨ — ورُوِّينا عنه ، أنه قال لرجل عَرَّس : هل كان ؟ فقال : لا أُطال الله بقاءَك ، فقال عمر : قَدْ عُلِّمْتُم فلم تَتَعَلَّمُوا ، هَلَّا قُلْت : لا ، وَأَطَال الله بقَاءَك .

* * * *

ومن المنقول عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه :

٩ — أخبرنا عبد الوهّاب الحافظ ، عن أَبي البَخْتَري ، قال : جاءَ رجلٌ إلى علي بن أَبي طالب رضي الله عنه ، فأَطراه ، وكان يَبغُضُهُ ، فقال : إني ليس كما تقول وأنا فوق ما في نفسك .

* * * *

١٠ — [حُدِّثنا] عن عبد اللهِ بن سَلَمَة ، قال : سمعتُ علياً يقول بمَسْكِنَ(١): لا أُغسل رأسي بغُسل حتى آتيَ البَصْرة وأُحرِقها وأَسُوقَ الناسَ بعصاي إلى مصر .

قال : فأَتيتُ أَبا مسعودٍ البَدْرِيَّ ، فأَخبرته ، فقال : إن علياً يُوردُ الأُمور مواردَها ولا يَحسنون يصدرونها ، عليٌّ لا يغسل رأسه بغسل ولا يأْتي البصرة ولا يحرقها ولا يسوق الناس بعصاه إلى مصر ، عليٌّ رجلٌ أَصلع ! إنما رأْسه مثل الطست ، إنما حوله زُغَيْبات . أو قال : شُعَيْرات .

* * * *

١١ — أَنبأَنا محمد بن عبد الملك ... قال : أُخبرنا سماك بن حرب ، عن حَنَش بن المعتمر : أن رجلَيْن أَتيا امرأَةً من قريش ، فاستودعاها مئة دينار ، وقالا : لا تدفعيها إلى واحد منا دون صاحبه حتى نَجْتَمِع ، فلبثا حَوْلاً ؛ فجاءَ أَحدهما إليها ، فقال : إن صاحبي قد مات ،

(١) مَسْكِن : موضع بالكوفة ، قريب أَوَانا على نهر دُجَيل ، عند دير الجاثليق ؛ به كانت الوقعة بين عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير سنة ٧٢ هـ .

فادفعي إليَّ الدنانير ، فأَبَتْ ، وقالت : إنكما قلتما لا تدفعيها إلى واحد منا دونَ صاحبه ، فلستُ بدافعتها إليك . فَتَثَقَّل عليها بأَهلها وجيرانها ، فلم يزالوا بها حتى دفعتها إليه ، ثم لبثتْ حَوْلاً ، فجاء الآخرُ ، فقال : ادفعي إليَّ الدنانير ، فقالت : إن صاحبك جاءَني ، فزعم أَنك مُتَّ ، فدفعتُها إليه ؛ فاختصما إلى عمر بن الخطاب ، فأَراد أَن يقضي عليها ، فقالت : أَنشدُك الله أَن لا تقضي بيننا ، ارفعنا إلى عليّ ؛ فرفعهما إلى عليّ ، وعرف أَنهما قد مكرا بها ، فقال : أَليس قد قلتما : لا تدفعيها إلى واحدٍ منا دون صاحبه ؟ قال : بلى . قال : فإنَّ مالك عندنا ، فاذهب فجيء بصاحبك حتى ندفَعها إليكما .

* * * *

١٢ — أَخبرنا محمد ، عن أَبيه ، عن عليّ ،أَنه جِيءَ برجل حَلَف فقال : امرأَته طالقٌ إن لم يَطَأْها في شهر رمضان نهاراً ، فقال : يسافر بها ، ثم ليجامعها نهاراً .

* * * *

ومن المنقول عن **الحسن بن علي** عليهما السلام : قال مؤلف الكتاب :

١٣ — قرأْتُ بخطّ أَبي الوفاءِ بن عقيل ، قال : لما جيءَ بابن مُلْجَم إلى الحَسَن ، قال له : أُريد أَن أُسارَّك بكلمةٍ ، فأَبى الحسن ، وقال : إنه يريد أَن يَعَضَّ أُذني ، فقال ابن مُلْجَم : واللهِ لو مكَّنَنِي منها لأَخذتُها من صماخه .

قال ابن عقيل : انظر إلى حُسن رأْي هذا السيِّدِ الذي قد نزل به من المصيبة الفادحة ما يُذْهل الخَلْق ، وتَقَصِّيه إلى هذا الحدّ ؛ وانظر إلى ذلك اللعين كيف لم يشغله حاله عن استزادة محنته .

* * * *

ومن المنقول عن **الحسين** رضي الله عنه :

١٤ — أَنبأَنا أبو بكر محمد .. عن رَبَاحُ المَوْصِليّ ، قال : يُروى أَنَّ رجلاً ادّعى على الحسين بن عليّ مالاً ، وقدّمه إلى القاضي ، فقال الحسينُ : ليحلفْ عليَّ ما ادّعى ويأْخُذْه ، فقال الرجلُ : والله الذي لا إله إلاَّ هو ، فقال : قل : والله والله والله إن هذا الذي تدّعيه لك قِبَلِي . ففعل الرجلُ وقام فاختلفت رجلاه وسقط ميتاً ، فقيل للحسين في ذلك ، فقال : كرهتُ

أن يُمَجِّدَ الله فيحلُمَ عنه .

* * * *

ومن المنقول عن **العبّاس** عليه السلام :

١٥ ــ أخبرنا أبو رزين قال : سُئِل العباسُ : أنت أكبر أم النبيّ ﷺ ؟ فقال : هو أكبرُ منّي ، وأنا وُلِدْتُ قَبْله .

* * * *

١٦ ــ أخبرنا عِكْرمةُ ، عن ابن عبّاس قال : قيل لرسول الله ﷺ حين فرغ من بدر : عليك بالعير ليس دونها شيء ، فناداه العبّاسُ بن عبد المطلب وهو أسيرٌ في وَثَاقه : إنه لا يَصْلُح لك ، قال : ولم ؟ قال : لأنَّ الله تعالى إنما وعدك إحدى الطائفتين ، وقد أعطاك ما وعدك .

* * * *

١٧ ــ أنبأنا محمد بن عبد الملك .. عن مجاهد ، قال : بينما رسول الله ﷺ في أصحابه إذ وجد ريحاً ، فقال : « ليقُم صاحبُ هذه الريح فليتوضأ » ، فاستحيا الرجلُ ، ثم قال : « ليقم صاحب هذه الريح فليتوضأ ، فإن الله لا يستحيي من الحق » فقال العباس : ألا نقومُ يا رسولَ الله كلُّنا فنتوضأ ؟ .

قال المؤلف : هكذا رواه الفِرْيابي عن الأوزاعي مرسلاً ، ووصله عنه محمد بن مصعب القُرْمُساني ، فقال : عن مجاهد ، عن ابن عبّاس .

* * * *

وقد جرى مثل هذه القضية عند عمرَ رضيَ الله عنه :

١٨ ــ أخبرنا أبو بكر بن أبي طاهر ... عن الشعبيّ : أن عُمَراً كان في بيت ومعه جَريرُ ابن عبد الله ، فوجد عمرُ ريحاً ، فقال : عزمتُ على صاحب هذه الريح لما قام فتوضأ ، فقال جرير : يا أمير المؤمنين ! أوَ يتوضأُ القومُ جميعاً ؟ فقال عمر رضي الله عنه : رحمك الله ، نعم السيّد كنتَ في الجاهلية ونعم السيد أنت في الإسلام .

* * * *

ومن المنقولِ عن **عبد الله بن جعفر** :

١٩ ـــ أُخبرنا أبو مُلَيْكَة قال : قال ابنُ الزُّبير لابن جعفر : أَتذكر إِذ تلقيْنا رسولَ اللهِ ﷺ أنا وأَنت وابنُ عباس ؟ فقال : نعم ، فحَمَلَنا وتركك . أَخرجاه في « الصحيحين » .

* * * *

وقد روي لنا هذا بالعكس :

٢٠ ـــ عن عبد الله بنِ أَبي مُلَيْكَةَ ، قال : قال عبدُ اللهِ بن جعفر لابن الزُّبير : أَتذكرُ إِذْ تلقَّيْنا رسولَ الله ﷺ أَنا وأَنت وابن عباس ؟ قال : نعم فحملنا وتركك . انفرد بإخراج هذا مسلم .

قال مؤلِّفَ الكتاب : والظاهر أَنّه انقلب على الرَّاوي ، وعلى هذا تكون الغبطة لابن الزُّبَيْر .

* * * *

ومن المنقول عن **عبدِ اللهِ بن رَوَاحة** :

٢١ ـــ أَنبأَنا محمد بن عبد الملك ... عن عِكْرِمَةَ مولى ابن عبّاس ، أَن عبدَ اللهِ بن رَواحَة كان مضطجعاً إلى جنب امرأَته ، فخرج إلى الحجرة ، فواقع جاريةً له ، فاستنبهت المرأَةُ فلم تره ، فخرجتْ ، فإذا هو على بَطْنِ الجاريةِ ، فرجعت ، فأَخذتْ شفرةً ، فلقيها ومعها الشفرة ، فقال : مَهْيَم ؟ فقالت : مَهْيَم ! أَما إِني لو وجدتُك حيث كنتُ لوجَأْتُك بها ، قال : وأَين كنت ؟ قالت : على بطن الجارية . قال : ما كنتُ ، قالت : بلى ، قال : فإِنَّ رسول الله ﷺ نهى أَن يقرأَ أَحدُنا القرآنَ وهو جُنُب . فقالت : اقرأْ ، فقال :

أَتَانَـــا رَسُولُ اللهِ يَتْلُـــو كِتَابَـــهُ ... كَمَا لَاحَ مشهورٌ من الصُّبْحِ سَاطِعُ
أَرانـا الهُدَى بعـد العَمَـى فقُلُوبُنـا ... بِـــهِ مُوقِنَـــاتٌ أَنَّ ما قَـــالَ وَاقِـــعُ
يَبِيتُ يُجافِـي جَنْبَـهُ عَــنْ فِـراشِهِ ... إِذا اسْتَثْقَلَـتْ بالْكَافِريـنَ المَضَاجِـعُ

قالت : آمنتُ بالله وكذَّبتُ بَصَري . قال : فغدوتُ إلى النبي ﷺ فأَخبرته ، فضحك حتى بدت نواجذه .

* * * *

ومن المنقول عن **محمد بن مَسْلَمة** :

٢٢ ــ أنبأنا محمد بن عبد الباقي .. عن عمرو بن دينار ، عن جابراً بن عبد الله قال : قال رسولُ الله ﷺ : « من لكعبِ بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسُولَه » ، فقال محمدُ بن مَسْلَمةَ : أتحبّ أن أقتلَه يا رسول الله ؟ قال : « نعم » ، قال : أنا له يا رسولَ الله ، فائذَن لي أن أقول ، قال : « قُل » . فأتاه محمد بن مسلمة ، فقال : إن هذا رجلٌ قد أخذنا بالصدقة وقد عَنانا وقد مِللنا منه ؛ قال الخبيثُ لما سمعها : والله لتملّنه ــ أو لَتملُّنّ منه ــ وقد علمتُ أن أمركم سيصيرُ إلى هذا ، قال : إنا لا نستطيعُ أن نُسْلِمَه حتى ننظرَ ما يفعل ، وإنا نكره بعد أن اتَّبعناه حتى ننظرَ إلى أي شيءٍ يصيرُ أمرهُ ، وقد جئتُ لتُسْلِفَني تمراً ، قال : نعم ، على أن ترهنوني نساءَكم . قال محمدُ : أنرهنُك نساءَنا وأنت أجملُ العرب ؟ قال : فأولادَكم ، قال : فيُعَيِّرُ الناسُ أولادنَا بأنَّا رهنَّاهم بِوَسْقٍ أو وَسْقَيْن ــ وربما قال : فيُسَبُّ ابنُ أحدِنا ، فيقال : رُهِنَ بوَسْقٍ أو وَسْقَيْن ــ قال : فأيَّ شيءٍ ترهنوني ، قال : نَرْهنُك اللأْمة ــ يعني : السلاح ــ قال : نعم . فواعده أن يأتيَه ، فأقبلَ وأقبل معه أبُو نائلَة وهو أخو كَعْبٍ من الرضاعة ، وجاءَ معه برجلين آخرين ، فقال : إنّي مُسْتَمْكِنٌ من رمّته ، فإذا أدخلْتُ يدي في رأسه فدونكم الرجل ؛ فجاءوه ليلاً ، فأمر أصحابه ، فقاموا في ظِلِّ النّخْل ، وأتاه محمدٌ فناداهُ ، فقالت امرأتُهُ : أين تَخْرُجُ هذه السَّاعَةَ ؟ قال : إنَّما هو محمدٌ بنُ مَسْلَمة وأخي أبو نائلَة ، فنزل إليهم ملتحفاً في ثوبٍ واحد ويَنْفَحُ منه ريحُ الطِّيب ، فقال له محمدٌ : ما أحسنَ جَسَدَك وأطيبَ رِيحَك ! قال : إنَّ عندي ابنة فُلانٍ ، وهي أعْطَرُ العَرَب ، قال : أفتأْذنُ لي أن أشَمَّهُ ؟ قال : نعم . قال : فَأَدْخَلَ محمدٌ يَدَه في رأسه ، فَشَمَّه ، ثم قال له : أتَأْذَنُ لي أن أُشِمَّهُ أَصْحَابِي ؟ قال : نعم . قال : فَأَدْخَلها في رأسه ، ثم شَبَكَ يَدَهُ في رأسه قبضاً ، ثم قال لأصحابه : دونكم عدو الله ؛ فخرجوا عليه ، فقتلوه ، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره .

* * * *

٢٣ ــ أنبأنا محمد بن عبد الملك ... عن عِكْرِمَةَ ، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : بعثَ رسولُ الله ﷺ رجلاً من أصحابِه إلى رجلٍ من اليهود ليقتلَهُ ، فقال : يا رسولَ الله ، إني لن أستطيع ذلك إلا أن تَأْذَنَ لي ، فقال رسولُ الله ﷺ : « إنما الحربُ خُدْعَةٌ ، فاصنعْ ما تريد » .

* * * *

قال مؤلف الكتاب :

٢٤ ــ قلت : وقد رَوَيْنا عن الضَّحَّاك في اغتيالهم أبا رافع اليهودي ما يقارب هذه القصة ، فلم نر التطويل بذكرها .

* * * *

ومن المنقول عن **سُوَيْبِطِ بنِ سَعْدِ بن حَرْمَلَة** ، وقد شهد بدراً :

٢٥ ــ عن وهب بن عَبْدِ بن زَمْعَةَ ، قال : أخبرتنا أُمُّ سَلَمة ، قالت : خرج أبو بكر في تجارة إلى بُصْرَى قبل موت رسول الله ﷺ بعام ومعه نُعَيْمانُ وسُوَيْبِط بن حَرْمَلة ، وكانا شهدا بدراً ، وكان نُعَيْمان على الزَّاد ، وكان سويبطُ رجلاً مزَّاحاً ، فقال لِنُعَيْمان : أُطْعِمْني ، قال : حتى يجيءَ أبو بكر ، قال : أما لأُغيظَنَّك ، قال : فَمَرُّوا بقومٍ فقال لهم سويبطُ : أتشترون مني عبداً لي ؟ قالوا : نعم . قال : إنه عبدٌ له كلامٌ ، وهو قائل لكم : إني حُرٌّ ؛ فإن كنتم إذا قال لكم هذه المقالة تركتموه فلا تُفْسِدُوا عليَّ عبدي ! قالوا : لا بل نشتريه منك .

قال : فاشتروه بعشر قلائص[1] .

قال : ثم أَتَوْهُ ، فوضعوا في عُنقِه عِمَامة أو حَبْل ، فقال نُعَيْمانُ : إنَّ هذا يستهزىءُ بكم ، إني حرٌّ ولست بعبدٍ ، فقالوا : أُخبِرْنَا بخبرِك ؛ فانطلقوا به ، فجاءَ أبو بكر ، فأخبره بذلك ، فأتْبَعَ القومَ ، فردَّ عليهم القلائصَ وأخذ نُعَيْمانَ ، فلما قَدِمُوا على النبيِّ ﷺ أخبروه ، فضحك النبيُّ ﷺ وأصحابُه منه حولاً .

* * * *

ومن المنقول عن **معاوية بن أبي سفيان** :

٢٦ ــ أخبرنا المدائني ، عن ربيعة بن ماجد ، قال : قيل لمعاوية بن أبي سفيان : ما بَلَغ من عَقْلِك ؟ قال : ما وثقتُ بأحدٍ قطُّ .

* * * *

٢٧ ــ وقال ثعلبة : نظر معاويةُ يومَ صِفِّين إلى أحدِ جنبتي عَسْكَرِه وقد مالت ، فلمحها

(١) « القلائص » جمع قلوص ، وهي : الفتيّة من الإبل .

فاستَوتْ ، ثم نظر إلى الجنبة الأُخْرى وقد مالت ، فلمحها فاستَوَتْ ، فقال له رجلٌ من أَصحابه : أَهذا كنتَ دبَّرتَهُ من زمن عُثْمان ؟ فقال : هذا واللهِ كنتُ دبَّرتُهُ منذ زمنِ عُمَرَ ؛ رضي الله عَنْهم .

* * * *

٢٨ — قال مؤلف الكتاب : وبلغنا أَنَّ رجلاً جاء إلى حاجب معاوية ، فقال له : قل له على الباب أُخُوك لأَبيك وأُمِّك ، ثم قال له : ما أَعرفُ هذا ؟ ثم قال : ائذن له ؛ فدخل ، فقال له : أَيُّ الإخوةِ أَنْتَ ؟ فقال : ابنُ آدم وحواءَ ، فقال : يا غلام أَعْطِهِ درهماً ، فقال : تعطي أَخاك لأَبيك وأُمك درهماً ؟ فقال : لو أَعطيتُ كلَّ أَخٍ من آدمَ وحواءَ ما بلغَ إليك هذا .

* * * *

ومن المنقول عن **حذيفَة بنِ اليَمَانِ** :

٢٩ — حدّثنا محمد بن كعب القُرَظِي ، قال : قال فتى منَّا لحذيفـة : رأَيتَ رسولَ الله ﷺ ؟ قال : نعم . قال : والله لو أَدركناه ما تركناه يَمْشِي على الأَرض ، قال حُذَيْفَةُ : دعاني رسولُ اللهِ ﷺ ونحن بالخندق قال : « اذهب فاجلس في القوم فانظر ماذا يفعلون » فذهبتُ ، فدخلتُ في القوم والريح جنودُ الله عزَّ وجل تفعلُ ما تفعل ، لا تُقِرُّ لهم قِدْراً ولا ماءً ولا ناراً ، فقام أَبُو سفيانَ بن حرب فقال : يا معشرَ قريش ! لينظرْ كلُّ امرىءٍ مَنْ يُجَالس ، فقال حذيفةُ : فأَخذتُ بيد الرجل الذي إلى جنبي ، فقلت : له من أَنت ؟ فقال : أَنا فلان ابن فلان .

* * * *

ومن المنقول عن **المغيرة بن شُعبة** :

٣٠ — عن أَبي إسحاق ، عن أَبي الخليل ، قال : أَخبرنا عليّ ، قال : كان للمغيرة بـن شعبة رُمْحٌ ، فكُنَّا إذا خَرَجْنا مع رسول اللهِ ﷺ في غَزَاةٍ خَرَج به معه ، فيركزُهُ ، فيمرُّ الناسُ عليه فيحملونه ، فقلتُ : لئن أَتيتُ عَلَى النبيِّ ﷺ لأُخْبِرَنَّه ، فقال : إِنَّك إنْ فَعَلْتَ لم تُرْفَعْ ضَالَّةٌ .

* * * *

٣١ ــ حدثنا زيدُ بنُ أَسْلَم ، عن أَبيه ، أَنْ عمرَ بن الخطَّابِ رضي الله عنه استعمل المغيرةَ ابنَ شُعْبة على البَحْرين ، فكرهوه وأبغضوه .

قال : فعَزَلَهُ عنهم .

قال : فخافوا أَن يُرَدَّ عليهم ، فقال دُهْقَانُهم : إن فعلتُم ما آمركم به لم يُرَدَّ علينا ، قالوا : أْمُرنا بأَمرك ، قال : تجمعون مئة أَلف درهم حتى أَذهبَ بها إلى عُمَرَ ، وأَقول : إن المغيرة اختان هذا ، فدفَعَهُ إليّ . قال : فجمعوا له مئة أَلف درهم .

قال : فأَتى عُمر ، فقال : إن المغيرةَ اختان هذا ودفَعَهُ إليّ .

قال : فدعا عمر المغيرةَ ، فقال : ما يقولُ هذا ؟ قال : كذب أَصلحك الله ، إنّما كانت مئتي أَلفٍ ، قال : فما حَمَلك على ذلك ؟ قال : العيالُ والحاجةُ ، فقال : فقال عمر للعِلْج : ما تقولُ ؟ قال : لا والله لأَصْدُقَنَّك أَصلحك الله ، واللهِ ما دفع إليّ قليلاً ولا كثيراً .

قال : فقال عمرُ للمغيرة : ما أَردتَ إلى هَذا العِلْج ؟ قال : الخبيثُ كَذَب عليّ فأَحببتُ أَنْ أُخزِيَهُ .

* * * *

٣٢ ــ حدثنا مسلم بن صُبَيْح الكوفي ، قال : سمعت أَبي يقول : خطبَ المُغيرةُ بن شُعْبَة وفتى من العرب امرأَةً ، وكان الفتى ظريفاً جميلاً ، فأَرسلتْ إليهما المرأَةُ ، فقالت : إنكما قد خطَبْتُماني ، ولستُ أُجيبُ أَحداً منكما دون أَن أَراه وأَسْمَعَ كلامَهُ ، فاحْضُرا إن شئتما ؛ فحضَرَا ، فأَجلستهُما بحيث تراهما وتسمع كَلاَمَهُما ، فلما رآه المغيرة ، ونظر إلى جماله وشبابه وهيئته ؛ يَئِسَ منها ، وعلم أَنها لن تُؤْثِرَهُ عليه ، فأَقبل على الفتى ، فقال له : لقد أُوتيتَ جمالاً وحسناً وبياناً ، فهل عندك سوى ذلك ؟ قال : نعم ؛ فعدَّد محاسنَهُ ، ثم سَكَتَ . فقال له المغيرةُ : كيف حسابُك ؟ قال : ما يسقط عليَّ منه شيء ، وإني لأَسْتَدْركُ منه أَدقَّ من الخَرْدَلةِ . فقال له المغيرةُ : لكنّي أَضعُ البِدْرَةَ في زاوية البيت فينفقُها أَهلي على ما يريدون ، فما أَعلم بنفادِهَا حتى يسأَلوني غيرَها . فقالت المرأَةُ : واللهِ لهذا الشيخ الذي لا يحاسبُني أَحبُّ إليّ من هذا الذي يُحصِي عليَّ مثلَ صغيرِ الخَرْدل ؛ فتزوَّجتِ المُغيرة .

* * * *

ومن المنقول عن **عمرو بن العاص** :

٣٣ — قال ابن الكَلْبيّ : لما فتح عمرُو بن العاص قَيْسَارِيّة حتى نزل على غَزَّة ، فبعثَ إليه عِلْجُها أن أرسِلْ إليَّ رجلاً من أصحابك أكَلِّمْهُ ، ففكّر عمروٌ ، فقال : ما لهذا العلجُ أحدٌ غيري ؛ فقام حتى دخل على العِلْجِ ، فكلَّمه ، فَسَمِعَ كلاماً لم يسمعْ مثلَه قط ، فقال له العِلْجُ : حدِّثني ، هل من أصحابك أحدٌ مثلَك ؟ قال : لا تسألْ عَن هَواني عندهم ، إذ بعثُوني إليك وعرَّضُوني لما عَرَّضُوني ، فلا يدرُون ما تصنعُ بي ؟ قال : فأمر له بجائزةٍ وكُسْوةٍ ؛ وبعث إلى البوّاب : إذا مرّ بك فاضرب عُنقَهُ وخذ ما معه ، فمرّ برجل من النَّصارى من غسّان ، فعرفه ، فقال : يا عمرُو ! قد أحسنتَ الدَّخولَ فأحْسِنِ الخروج . فَرَجَعَ ، فقال له المَلِك : ما رَدَّك إلينا ؟ قال : نظرتُ فيما أعطيتَني فلم أجدْ ذلكِ لِيَسَعَ بني عَمّي ، فأردتُ أن آتيك بعشرةٍ منهم تُعطيهم هذه العطيّة ، فيكون معروفُكَ عند عشرة خيراً من أن يكون عند واحد ، قال : صدقتَ ، عَجِّلْ بهم ؛ وبعث إلى البوّاب : خَلِّ سبيله ؛ فخرج عمروٌ وهو يَتَلَفَّت ، حتَّى إذا أمِنَ ، قال : لا عدتُ لمثلها أبداً . فلما صالحه عمروٌ ، دخل عليه العِلجُ ، فقال له : أنتَ هُو ؟ قال : على ما كان من غَدْرِك .

* * * *

ومن المنقول عن **خزيمة بن ثابت** :

٣٤ — عن الزُّهريِّ ، قال : أخبرنا عمارةُ بن خزيمة الأنصاري ، أن عمَّه حدّثه أن النبيّ ﷺ ابتاع فرساً من أعرابيٍّ ، فاستتبعَهُ النبيُّ ﷺ ليقضيَه ثمن فَرَسه ، فأسرع النبيُّ ﷺ وأبطأ الأعرابيُّ ، فَطَفِقَ رجالٌ يعترضون الأعرابيَّ فيُسَاوِمُون الفرَس ، لا يشعرون أن النبـي ﷺ ابتاعه ، حتى زاد بعضهم للأعرابي في السَّوْمِ على ثمن الفرس الذي ابتاعه به النبيُّ ﷺ ، فنادى الأعرابيُّ النبيَّ ﷺ ، فقال : إنْ كنتَ مبتاعاً هذا الفرس فابتعْهُ وإلا بعتُه ؛ فقام النبيُّ ﷺ ، فقال : « أليسَ قد ابتعتُه منك ؟ » قال : لا ؛ فطفِقَ الناسُ يلوذون بالنبيِّ ﷺ والأعرابيِّ وهما يتراجعان . فطفِقَ الأعرابيُّ يقول : هَلُمّ شهيداً يشهدْ أنّي قد بايعتُك ؟ فمن جاءَ من المسلمين قال للأعرابيِّ : ويلَكْ ! إن النبيَّ ﷺ لا يقولُ إلاّ حقاً ؛ حتى جاءَ خُزَيْمةُ [بن ثابت] فاستمع لمراجعة النبيِّ ﷺ ومراجعةِ الأعرابي ، فطفق الأعرابي يقول : هَلُمَّ شهيداً يشهدْ أنّي قد بايعتُك ؟ فقال خُزَيْمَةُ : أنا أشهدُ أنّك قد بايعتَهُ ؛ فأقبل النبيُّ ﷺ على خزيمة ، فقال : « بم تَشْهَد ؟ »

فقال : بتصديقك يا رسول الله . فجعل النبيُّ ﷺ شهادةَ خُزَيْمة بشهادةِ رَجُلَيْنِ .

وفي رواية أُخرى : أَن النبيّ ﷺ قال لخُزَيْمَة : « لِمَ تَشْهَدْ ولَمْ تكنْ معَنا ؟ » قال : يا رسولَ اللهِ أَنا أُصَدِّقُك بخبر السماءِ ، أَفلا أُصدِّقُك بما تقول .

* * * *

ومن المنقول عن **الحَجَّاج بنِ عِلَاط** :

٣٥ ــ عن مَعْمَر ، عن ثابت البُنَاني ، قال : حدّثنا أَنَسُ بنُ مالك رضي الله عنهم ، قال : لمّا افتَتَحَ رسولُ اللهِ ﷺ خَيْبر ، قال الحَجَّاج بن عِلَاط : يا رسولَ اللهِ ! إن لي بمكة مالاً ، وإنَّ لي بها أَهلاً ، وإِني أُريدُ أَن آتيَهُمْ ، فأَنا في حلٍّ إن أَنا نِلْتُ منك أَو قلتُ شيئاً ؛ فأَذِنَ رسولُ اللهِ ﷺ أَن يقولَ ما شاءَ .

قال : فأَتى امرأَتَه حين قَدِمَ ، فقال : اجمعي لي ما كان عندك ، فإِنِّي أُريدُ أَن أَشتري من غنائم محمد وأَصحابه ، فإنهم قد استُبيحُوا وأُصيبَتْ أَموالُهم ، وفَشا ذلك بمكة ، فانقمع المسلمون ، وأَظهر المشركون سروراً وفرحاً .

قال : وبَلَغَ الخَبَرُ العباسَ بنَ عبد المطلب ، فقعد وجعل لا يستطيع أن يقوم .

قال مَعْمَر : وأَخبرني عثمان الجَزْرِي ، عن مِقْسَم ، قال : فأَخذ ابناً له كان يُشبَّهُ برسولِ اللهِ ﷺ . يقال له : قُثَم ، واستلقى ، فوضعَهُ على صدرِه وجعل يقولُ :

حِبِّي قُثَمْ ذُو الأَنف الأَشَمْ

ثم أَرسل غلاماً له إلى الحجاج بن عِلاَط ، فقال له : ويلَك ! ماذا جئتَ به ، وماذا تقولُ ؟ ما وعد الله خيرٌ مما جئتَ به .

قال : فقال الحجاجُ بن عِلاَط : اقرأْ على أَبي الفضل السّلَامَ ، وقل له : ليَخْلُ في بعض بيوتِه لآتيَهُ ، فإن الخبرَ على ما يَسُرُّهُ .

قال : فجاءَ غلامُه ، فلما بلغ البابَ ، قال : أَبْشِرْ يا أَبا الفضل .

قال : فوثبَ العباسُ فَرِحاً حتى قبَّل بين عينيه ، فأَخبره ما قال الحجّاج ، فأَعتقه .

قال : ثم جاءَ الحجاجُ ، فأَخبره أَن رسولَ اللهِ ﷺ قد افتتح خَيْبَرَ ، وغَنِمَ أَموالَهم ، وجَرَتْ سهامُ اللهِ في أَموالهم ، واصطفى صَفِيَّةَ بنت حُيَي ، واتخذها لنفسه ، وخيَّرها أَن يعتقَها وتكونَ

زوجةً أو تلحقَ بأهلها ، فاختارت رسول الله ﷺ ، ولكنّي جئتُ لمالٍ لي كان ها هُنا ، أردتُ أن أجمعَهُ فأذهبَ به ، فاستأذنتُ رسولَ الله ﷺ ، فأذنَ لي أن أقولَ ما شئتُ ، فأخفِ عنّي ثلاثاً ، ثم اذكرْ ما بَدَا لك .

قال : فجمعتْ امرأتُه ما كان عندها من حُلْيٍّ ومتاع فدفعتهُ إليه ، ثم انشمرَ به ، فلما كان بعد ثلاث ، أتى العباسُ امرأةَ الحجاج ، فقال : ما فعل زوجُك ؟ فأخبرتْه أن قد ذهب يوم كذا وكذا ، وقالتْ : لا يُحْزِنُكَ الله يا أبا الفضل ! لقد شَقَّ علينا الَّذي بَلَغَكَ ، قال : أجلْ ، لا يُحْزِنُني الله ، ولم يكن بحمدِ اللهِ إلاَّ ما أُحببنا ، فتح الله خيبرَ على رسوله ، وجَرَتْ سهامُ اللهِ في أمْوَالهم ، واصْطَفَى رسولُ اللهِ ﷺ صفيّة لنفسه ، فإن كان لَكِ في زَوْجِك حاجةً فالْحقي به ، قالت : أظنُّكَ واللهِ صادقاً ! قال : فإنّي واللهِ صادقٌ ، والأمرُ على ما أخبرتُكِ .

قال : ثم ذهبَ حتَّى أتى مَجالِسَ قُريشٍ ، وهم يقولُون إذا مَرَّ بهم : لا يصيبُك إلّا خيرٌ يا أبا الفَضْلِ ، قال : لم يُصِبْني إلّا خيرٌ بحمدِ اللهِ ، لقد أخبرني الحجَّاجُ بنُ عِلاطٍ أنَّ خيبرَ فتحها الله على رسوله ، وجَرَتْ سِهامُ اللهِ فيهم ، واصطفى رسولُ اللهِ ﷺ صَفِيَّةَ لنفسه ، وقد سألني أن أُخْفِي عنه ثلاثاً ، وإنَّما جاءَ ليأخذَ مالَهُ وما كان له من شيءٍ ها هُنا ، ثم يذهب . فردَّ الكآبةَ التي كانت بالمسلمين على المشركين ، وخرجَ المسلمون ممن كان دخل بيته مكتئباً ؛ حتى أتوا العباسَ ، فأخبرَهُم الخبرَ ، فسُرَّ المسلمون ، وردّ الله تعالى ما كان من كآبةٍ أو غيظٍ أو حُزْنٍ على المشركين .

* * * *

ومن المنقول عن **نُعَيْم بن مسعود** :

٣٦ ــ قال : أخبرنا ابنُ إسحاق ، قال : بينما الناسُ على خوفهم يوم الأحزاب أتى نُعَيْمُ ابنُ مسعودٍ إلى رسولِ الله ﷺ ، فحدَّثني رجلٌ عن عبد اللهِ بن كعب بن مالك ، قال : جاءَ نُعَيْمٌ بنُ مسعودٍ إلى رسول اللهِ ﷺ ، فقال : يا رسولَ الله ! إني قد أسلمتُ ولم يعلمْ بي أحد من قومي ، فمُرْني أمْرَك ؛ فقال له رسولُ الله ﷺ : « إنما أنتَ فينَا رجلٌ واحدٌ ، فخذِّلْ عنَّا ما استطعت ، فإنّما الحربُ خُدْعَة » . فانطلق نُعَيْمٌ حتى أتى بني قُرَيْظَةَ ، فقال لهم : يا معشَر قُرَيْظة ــ وكان لهُم نديماً في الجاهليَّة ــ إني لكم نديمٌ وصديقٌ ، قد عَرَفتُم ذلك ؟ قالوا : صدقتَ ، فقال : تعلمونَ ــ والله ــ ما أنتُم وقريشٌ وغَطَفَانُ من محمدٍ بمنزلةٍ واحدة ، إنَّ البلدَ

لبلدكُم ، به أموالكم ونساءُكُم وأبناءكم ، وإنَّ قريشاً وغَطَفَانَ بلادهُم غيرُها ، وإنما جاؤوا حتى نزلوا معكم ، فإن رَأَوْا فُرْصَةَ انتهزُوها ، وإنْ رَأَوْا غيرَ ذلك رجعوا إلى بلادهم وأموالهم ونسائهم وأبنائهم ، وخَلُّوا بينَكم وبينَ الرَّجُلِ ولا طاقةَ لكم به ؛ فإنْ هم فعلوا ذلك ، فلا تُقَاتِلوا معهم حتى تأخذوا منهم رَهْنَاً من أشرافهم تستوثقُونَ به ، ولا يَبْرحوا حتى يُنَاجِزُوا محمداً ؛ فقالوا : لقد أشرتَ برأيٍ ونُصْح . ثم ذهب إلى قريشٍ ، فأتى أبا سُفيانَ وأشرافَ قُرَيْش ، فقال : يا معشَر قُريش ! إنَّكم قد عرفتُم وُدِّي إياكم ، وفِراقي محمداً ودينَه ، وإنِّي قد جئتكُم بنصيحةٍ ، فاكْتُمُوا عَلَيَّ ، فقالوا : نفعلْ ، ما أنتَ عندنا بمُتَّهَم ، فقال : تعلمون أنَّ بني قريظة من يهودٍ ، قد نَدمُوا على ما صَنَعوا فيما بينهُم وبين محمد ، فبعثوا إليه : ألاَ يُرْضِيكَ أن نأخذَ لك من القوم رُهُناً من أشرافِهم فندفَعَهُم إليك ، فتضربَ أعناقَهُم ، ثم نكونَ معك حتى تخرجَهُم من بلادك ؟ فقال : بلى . فإن بعثوا إليكم يسألونَكُم نفراً من رجالكم فلا تعطوُهُم رجلاً واحداً ؛ واحذروا . ثم جاءَ غَطَفَانَ ، فقال : يا معشر غَطَفَان ، قد علمتُم أنِّي رجلٌ منكم ، قالوا : صدقتَ ، فقال لهم كما قال لهذا الحيِّ من قريش ؛ فلما أصبحوا بعث إليهم أبو سُفيانَ عِكْرِمَةَ بن أبي جَهْل في نفرٍ من قريشٍ : إنَّ أبا سفيان يقولُ لكم : يا معشرَ يهود ! إنَّ الكِرَاعَ والخُفَّ قد هَلَكا ، وإنَّا لسنا بدارِ مُقَام ، فاخرجُوا إلى محمدٍ حتَّى نناجزَه ؛ فبعثوا إليه : إنَّ اليوم السبتُ ، وهو يومٌ لا نعملُ فيه شيئاً ولسنا مع ذلك بالَّذِين نقاتلُ معكم حتى تُعطُونَا رهناً من رجالكم نستوثقُ بهم لا تذهبُوا وتَدَعُونا حتى نُناجزَ محمداً ؛ فقال أبو سفيان : قد — واللهِ — حَذَّرنا نُعَيْم ؛ فبعث إليهم أبو سفيان : إنا لا نعطيكُم رجلاً واحداً ، فإنْ شئتُم أن تَخْرُجوا فتقاتلوا وإن شئتم فَتقْعدُوا . فقالت يهود : هذا — واللهِ — الذي قال لنا نُعَيْم ، واللهِ ما أراد القومُ إلاَّ أن يقاتلوا محمداً ، فإن أصابوا فُرصةً انتهزُوها ، وإلاَّ مَضَوْا إلى بلادهم وخَلُّوا بيننا وبين الرُّجل . فبعثوا إليهم : إنا — واللهِ — لا نُقاتل معكم حتى تُعْطونا رَهْناً ؛ فأَبَوْا . وبعث الله تعالى الرِّيحَ على أبي سفيان وأصحابِهِ وَغَطَفَانَ ، فَخَذَلَهُم الله عَزَّ وجلّ .

* * * *

ومن المنقول عن **الأشعث بن قَيْس** :

٣٧ — عن الهيثم بن عديّ قال : أخبرنا ابن عبّاسٍ قال : خطب أميرُ المؤمنين عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه على الحسن ابنِهِ ، أُمَّ عمران بنتَ سعيدِ بن قَيْس الهَمَدَاني ، فقال سعيد :

فوقي أميرٌ ذو إمرة ، يعني : أُمَّها ، فقال : قم فآمِرْها ؛ فخرج من عنده ، فلقيَهُ الأشعثُ بنُ قيسٍ بالباب ، فأخبره الخبرَ ، فقال : ما تريدُ إلى الحسن ، يفخرُ عليها ، ولا ينصفُها ، ويسيء إليها ؛ فيقول : ابنُ رسولِ اللهِ ﷺ وابنُ أميرِ المؤمنين ، ولكن هل لك في ابنِ عَمِّها فهي له وهو لها ؟ قال : ومَنْ ذلك ؟ قال : محمد بن الأشعث ، قال : قد زوَّجْتُه . ودخل الأشعثُ على أمير المؤمنين عليٍّ رضي الله عنه فقال : يا أميرَ المؤمنين ! خطبتَ على الحَسَنِ ابنةَ سعيد ؟ قال : نعم . قال : فهل لك في أشرفِ منها بيتاً وأكرم منها حسباً ، وأتم منها جمالاً ، وأكثر مالاً ؟ قال : ومن هي ؟ قال : جَعْدَةُ بنتُ الأشعث بن قيس . قال : قد قاوَلْنا رجُلاً . قال : ليس إلى ذلك الذي قَاوَلْتَه سبيلٌ ، قال : إنَّهُ قد فارقني ليؤامِرَ أُمَّها ، فقال : قد زوَّجها من محمد ابن الأشعث ، قال : متى ؟ قال : الساعةَ بالباب ، قال : فزوّج الحسن جَعْدَة ؛ فلما لقي سعيدٌ الأشعثَ ، قال : يا أعورُ خدعْتَنِي ، قال : أنت أعورُ حين تستشيرُني في ابن رسولِ اللهِ ﷺ ، ألست أحمق ؟! ثم جاءَ الأشعثُ إلى الحسن ، فقال : يا أبا محمد ! ألا تزور أهلَك ؟ فلما أراد ذلك ، قال : لا تَمْشِين واللهِ إلاَّ على أرديةِ قومي . فأقامت له كِنْدَةُ سِمَاطين وجعلت له أرديتَهَا بساطاً من بابه إلى باب الأشْعث .

* * * *

ومن المنقول عن وَحْشِيِّ بنِ حَرْب :

٣٨ — عن عبد الله بن الفضل ، عن سليمان بن يَسَار ، قال : حدثنا جعفرُ بن عَمْرو الضَّمْرِيّ ، قال : خرجتُ مع عبيد اللهِ بن عَدِيّ بنِ الخِيَار ، فقال لي : هل لك في وحشيّ ؟ فجئنا حتى وقفنا عليه ، فسلَّمنا فردَّ السَّلامَ ، وعبيد اللهِ معتجرٌ بعمامته ، ما يَرَى وحشي إلاَّ عيْنيه ورجْليْه ، فقال عبدُ اللهِ : يا وحشيُّ ! أتعرفُني ؟ فنظر إليه ، ثم قال : لا — والله — إلاَّ أنِّي أعلم أن عديَّ بن الخِيَار تزوّج امرأةً ، فولدتْ له غلاماً ، فاسترضعه ، فحملتُ ذلك الغلامَ مع أُمّه ، وناولتُها إياه ، فكأني أنظر إلى قدميه .

* * * *

الباب التاسع
في
سياق المنقول من ذلك عن الخلفاء رضي الله عنهم

قال مؤلف الكتاب : قد ذكرنا طرفاً عن أَبي بكر الصدِّيق وعمرَ وعليّ والحَسَن والحُسين ومعاوية وابن الزُّبَير ، ونحن نذكر طرفاً مما نُقل إلينا عمن بعدهم من الخلفاء ، والله الموفق .

* * * *

فمن المنقول عن **عبد الملك بن مروان** :

١ ــ أَخبرنا ابنُ أَخي الأَصمعيّ ، عن عمه ، قال : وجَّه عبد الملك بن مروان عامراً الشَّعبي إلى مَلِك الرُّوم في بعض الأَمر له ، فاستكثر الشعبي ، فقال له : مِنْ أَهْلِ بيت المُلْك أَنْت ؟ قال : لا . فلما أَراد الرُّجوعَ إلى عبد الملك حمَّلهُ رُقْعةً لطيفةً ، وقال : إذا رجعتَ إلى صاحبك ، فأَبلغْتَهُ جميعَ ما يحتاجُ إلى معرفته من ناحيتِنا ، فادفع إليه هذه الرقعة . فلماصار الشَّعبيُّ إلى عبد الملك ذكرَ ما احتاجَ إلى ذِكْرِه ، ونهضَ من عِنْده ، فلمَّا خرج ذكرَ الرُّقْعَةَ ، فرجع ، فقال : يا أَميرَ المُؤمنين ! إِنَّه حمَّلني إليك رُقْعَةً ، نسيتُها حتَّى خرجتُ ، وكانت في آخر ما حمّلني ؛ فدفعها إليه ونهض ، فقرأَها عبد الملك .

قال : فأَمر بردِّه ، فقال : أَعَلِمْتَ ما في هذه الرقعة ؟ قال : لا ، قال : فيها : عجبتُ من العربِ كيف ملَّكتْ غير هذا ! أَفتدْري لِمَ كتبَ إليّ بمثل هذا ؟ قال : لا ، قال : حَسَدَني عليك ، فأَراد أَن يُغْرِيَني بقتلِكَ ، فقال الشعبيُّ : لو كان رآك يا أَميرَ المؤمنين ما استكثَرني ؛ فبلغَ ذلك مَلِكَ الرُّومِ ، ففكَّر في عبدِ الملك ، فقال : للهِ أَبوه ، والله ما أَردتُ إلا ذلك .

* * * *

ومن المنقول عن **هشام بن عبد الملك** :

قال هِشامُ لمؤدِّبِ وَلَدِه : إذا سمعتَ منه الكلمةَ العوراءَ في المجلس بين جماعةٍ فلا تُؤَنِّبهُ لتُخْجِله ، وعسى أن ينْصرُ خطأه فيكونَ نَصْرُه للخطأ أقبح من ابتدائه ؛ ولكن احفظها عليه ، فإذا خلا فَرُدَّهُ عنها .

* * * *

ومن المنقول عن **السَّفَّاح** :

٣ ــ أخبرنا سعيدٌ الباهليُّ عن أبيه ، قال : حدّثني مَنْ حَضَر مجلِسَ السفّاح وهو أحشد ما كان ببني هاشم والشيعة ووجوه الناس ، فدخل عبدُ اللهِ بن حُسَين بن حسن ومعه مُصْحف ، فقال : يا أمير المؤمنين ! أعْطِنَا حقَّنا الذي جعله الله لنا في هذا المصحف . فأشفق الناس أن يَعْجَلَ السَّفَّاحُ بشيءٍ إليه ، ولا يريدُون ذلك في شيخ بني هاشم ، أو يعيا لجوابه فيكون ذلك نقصاً عليه وعاراً ، فأقبل إليه غير مُغْضَب ولا مُنْزَعِج ، فقال : إنَّ جَدَّك علياً كان خيراً مني وأعدل ، وَلِيَ هذا الأمرَ ؛ فأعْطَى جدَّيك الحسنَ والحُسينَ ، وكانا خيراً منك شيئاً ، وكان الواجبُ أن أعطيَك مثله ؛ فإن كنتُ فعلتُ فقد أنصفتُك وإن كنتُ زدتُك فما هذا جزائي منك ! فما ردّ عبدُ اللهِ إليه جواباً وانصرف ، والناس يَعْجَبُون من جوابه له .

* * * *

٤ ــ وروى ثعلب ، عن ابن الأعرابي قال : أوَّلُ خطبةٍ خطبَها السَّفَّاحُ في قريةٍ يقال لها : العباسية ، فلمّا سار إلى موضع الشهادة من الخطبة ، قام رجل من آل أبي طالب في عنقه مصحف ، فقال : أُذكِّرُك الله الذي ذكرتَه إلّا أنصفتني من خَصْمِي ، وحكمتَ بيني وبينه بما في هذا المصحف ، فقال له : ومَنْ ظَلَمَك ؟ قال : أبو بكر الذي مَنَع فاطمة فَدكاً . قال : وهل كان بعده أحدٌ ؟ قال : نعم . قال : من ؟ قال : عمر . قال : فأقام على ظلمكم ؟ قال : نعم . قالَ : وهل كان بعده أحدٌ ؟ قال : نعم . قال : من ؟ قال : عثمانُ ، قال : وأقام على ظلمكم ؟ قال : نعم . قال : وهل كان بعده أحدٌ ؟ قال : نعم . قال : من ؟ قال : أمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب ، قال : وأقام على ظلمكم ؟ قال : فأسكِتَ الرَّجُلُ ، وجعل يلتفت إلى ورائه يطلب مَخْلَصاً . فقال له : والله الذي لا إله إلاّ هو ، لولا أنه أوَلُ مقامٍ قمتُهُ ثم لم أكن تقدّمت في هذا قبل لأخذتُ الذي فيه عيناك ؛ اقعُد ؛ وأقْبَلَ على الخُطْبة .

* * * *

ومن المنقول عن **المنصور** :

٥ ــ قال إسماعيلُ بنُ محمّد : قال : دخلَ ابنُ هرمة على أبي جَعْفرٍ ، فأنشَدهُ ، فقال : سَلْ حَاجَتكَ . قال : تكتبُ إلى عامِلِكَ بالمدينة متى وَجَدَني سَكْران لايُحدَّني . قال : هذا حَدٌّ ولا سبيل إلى إبْطَالِهِ . قال : مالي حاجةٌ غيرَ ذلك . قال : اكتُبْ إلى عاملنا بالمدينة : من أتاك بابن هرمةَ وهو سكرانُ فاجْلِدْهُ ثمانين واجلِدْ الذي جاءَ به مئة . قال : فكان الشُرَطُ يمرُّونَ به وهو سكرانَ ، فيقولونَ : من يشتري ثمانين بمئة ؟ فيمرُّونَ ويتركونَه .

* * * *

٦ ــ وبلغنا عن المنصور أنّه جلس في إحدى قِبابِ مدينته ، فرأى رَجُلاً مَلْهُوفاً مهموماً يجولُ في الطُّرقَات ، فأرسل من أتاه به ، فسأَلَهُ عن حالِهِ ، فأخبرهُ الرجلُ أنَّه خرج في تجارةٍ ، فأفاد مالاً ، وأنَّه رجع بالمال إلى منزلِهِ ، فدَفَعَهُ إلى أهْلِهِ ، فذكَرتِ امرأتُهُ أنَّ المالَ سُرِقَ من بيتها ولم يَر نَقْباً ولا تَسَلُّقاً . فقال له المنصور : منذ كم تَزَوَّجتَها ؟ قال : منذ سَنَة . قال : أفبكراً تزوجتَها ؟ قال : لا . قال : فلها ولدٌ من سواك ؟ قال : لا . قال : فشابَةٌ هي أم مُسِنَّة ؟ قال : بلِ حدثة . فدعا المنصور بقَارُورَةِ طِيبٍ كانت تُتَّخذُ له ، حادٌّ الرَّائحةِ ، غريبِ النَّوْع ، فدفعها إليه وقال له : تَطيَّبْ من هذا الطِّيب ، فإنه يُذْهِبُ هَمَّك . فلما خرج الرجل من عند المنصور ، قال المنصورُ لأربعة من ثِقاتِه : لِيَقْعُدْ على كلِّ باب من أبواب المدينةِ واحدٌ منكم ، فمن مَرَّ بكم فَشممتُم منه رائحةَ هذا الطِّيبِ ــ وأَشَمَّهُم منه ــ فليأتِني به . وخرج الرجلُ بالطِّيبِ ، فدفَعهُ إلى امرأته ، وقال لها : وهَبَهُ لي أميرُ المؤمنين ؛ فلما شَمَّتهُ بعثتْ إلى رجلٍ كانت تُحِبُّهُ ، وقد كانت دفَعتِ المالَ إليه ، فقالت له : تطيَّبْ من هذا الطِّيبِ ، فإنَّ أميرَ المؤمنين وهبَهُ لزَوْجِي ؛ فتطيَّبَ منه الرجلُ ، ومرَّ مُجْتَازاً ببعض أبواب المدينة ، فَشمَّ المُوكَّلُ بالباب رائحةَ الطِّيبِ منه ، فأخَذهُ ، فأتى به المنصور ، فقال له المنصورُ : من أين اسْتَفَدْتَ هذا الطِّيبَ ، فإنَّ رائحتَهُ غريبةٌ مُعْجِبَة ؟ قال : اشتريتُه . قال : أَخْبِرْنا ممن اشتريتَهُ ؛ فتلجلج الرجلُ ، وخَلَّط في كلامه ؛ فدعا المنصورُ صاحبَ شُرْطَتِهِ ، فقال له : خُذْ هذا الرجلَ إليك ، فإن أحضَر كذا وكذا من الدَّنانير فَخَلِّه يَذْهبْ حيثُ شاءَ ، وإن امتنع فاضرِبْه ألفَ سَوْط من غير مُؤامرة ؛ فلما خرجا من عنده دعا صاحبَ شُرْطته ، فقال : هوِّلْ عليه ، وجَرِّدْهُ ، ولا تُقْدِمنَّ بضَرْبِهِ حتى تُؤامرَني ؛ فخرج صاحبُ شُرطتهِ ، فلما جرّدَهُ وسَحَبَهُ أذْعَنَ بردِّ الدَّنانير وأحْضَرَها بهيئتَها . فأعلمَ المنصورَ بذلك ، فدعا صاحبَ الدَّنانيرِ ، فقال له : أرأيتُك إنْ رَدَدْتُ عليك الدنانير بهيْئَتِهَا أتحكِّمني في

امرأتك ؟ قال : نعم . قال : فهذه دَنَانِيرُكَ ، وقد طلَّقَتْ المرأَةَ عليك ؛ وخبَّره خَبَرَهَا .

* * * *

٧ — عن يعقوب بن جعفر أنه قال : ومما يُعْرَفُ ويُؤثَر من ذكاء المنصور ، أنه دخل المدينةَ ، فقال للرَّبيع : اطلب لي رجلاً يُعَرِّفني دُوْرَ النَّاس ، فإني أُحبُّ أن أعرفَ ذلك ؛ فجاءَ برجلٍ يُعَرِّفْهُ ، إلاَّ أنَّه لا يبدؤه حتَّى يسأَلَهُ المنصور ، فلما فارقه أمر له بأَلفِ دِرْهم ، فطالب بها الرَّجلُ الرَّبيعَ ، فقال : ما قال لي شيئاً ، وأنا أَهَبُ لك أَلفاً من عندي ، وسيركب فأَذْكِرهُ ؛ فركب معه ، فجعل يعرفه الدُّورَ ولا يَرَى مَوْضِعاً للكلام ، فلما أراد المنصورُ أن يُفارِقه ، قال له الرجلُ شعراً :

وأراكَ تَفعَلُ ما تَقُولُ وبعْضُهُمْ   مَذِقُ اللِّسَانِ يقولُ ما لا يَفْعَلُ

ثم إنه أراد الإمضاءَ ، فضحك وقال : أَعطِهِ الأَلفَ درْهَم الذي وعدتَهُ وأَلفاً آخر .

* * * *

٨ — وعن مبارك الطَّبريّ قال : سمعتُ أبا عُبَيد اللهِ يقولُ : خلا أبو جعفر يوماً مع يزيد ابن أبي أسيد ، فقال : يا يزيد ، ما ترى في قتل أبي مسلم ؟ فقال : أرى أن تقتله وتقرَّب إلى الله بدنة ؛ فواللهِ لا يَصْفُو ملكُكَ ولا تَهْنَأُ بعيشٍ ما بَقِي . قال : فنفر مِنِّي نَفْرَةً ظَنَنْتُ أنَّه سيأتي عليَّ ، ثم قال : قَطَعَ اللهُ لسانَك ، وأشمتَ بك عَدُوَّك ، أتُشِيرُ عليَّ بقتلِ أنصرِ النَّاسِ لنا وأثقلهم على عدوّنا ! أما واللهِ لولا حِفْظِي لما سَلَفَ منك وأَنْ أَعُدَّها هفوةً من هفواتِكَ لضربتُ عُنُقَك ؛ قم لا أقام اللهُ رِجْلَيْك . قال : فقمتُ وقد أُظلم بَصَرِي ، وتمنيت أن تسيخ الأرضُ بي . فلما كان بعد قتله ، قال لي : يا يَزيد ! أتذكرُ يوم شَاوَرْتُك ؟ قلت : نعم . قال : فواللهِ لقد كان ذلك رأياً وما لا أَشُكُّ فيه ، ولكنْ خَشِيتُ أن يظهرَ منك فتُفسدَ مكيدَتي .

* * * *

ومن المنقول عن **المهدي** :

٩ — عن القاسم بن محمد بن خلاَّد ، عن عليِّ بنِ صالح قال : كنتُ عند المهديِّ ، ودخل عليه شَرِيكُ بنُ عبدِ اللهِ القاضي ، فأراد أن يبخِّره ، فقال لخادم على رأسه : هات عُوداً للقاضي . فجاءَ الخادمُ بالعُودِ الذي يُغنَّى به ، فوضعه في حِجْر شَرِيك ، فقال : ما هذا يا أمير

المؤمنين ؟ قال : هذا أَخَذَهُ صاحبُ العَسَسِ البارحةَ ، فأَحببتُ أَن يكون كَسْرُه على يد القاضي ؛ فقال : جزاكَ الله خيراً يا أَمير المؤمنين ؛ فكسره . ثم أَفاضُوا في حديث حتى نُسِيَ الأَمْرُ ، ثم قال المهدي لشريك : ما تقولُ في رجلٍ أَمر وكيلاً له أَن يأْتِيَ بشيءٍ بعينه فأَتى بغيره ، فَتَلِفَ ذلك الشيءُ ؟ فقال : يَضْمَنُ يا أَمير المؤمنين . فقال للخادم : اضمن ما تَلِفَ ؛ فقاصّه .

* * * *

١٠ — محمد بن فضل قال : أَخبرنا بعضُ أَهل الأَدَبِ عن حَسَنٍ الوَصِيف ، قال : قعد المهديُّ قُعوداً عاماً للناس ، فدخل رجلٌ وفي يده نَعْلٌ مَلفُوفةٌ في مِنْديلٍ ، فقال : يا أَميرَ المؤمنين ! هذه نعلُ رسولِ اللهِ ﷺ قد أَهديتُها لك . فقال : هاتِهَا ، فدفعها إليه ، فقبّل باطِنَها ووَضَعَها على عَيْنَيْهِ ، وأَمر للرجل بعشرة آلاف درهم ، فلما أَخذها وانْصَرف ، قال لجُلَسَائِه : أَتَرَوْنَ أَنِّي لم أَعلَمْ أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لم يَرَهَا فضلاً عن أَن يكونَ لَبِسَها ، ولو كذَّبْنَاه قال للنَّاس : أَتيتُ أَميرَ المؤمنين بنعلِ رسولِ اللهِ ﷺ فردَّها عليّ ، وكان مَن يُصَدِّقُه أَكثر مِمَّن يَدْفَعُ خَبَرَهُ ، إذ كان مِنْ شأْنِ العامَّة مَيْلُهَا إلى أَشْكَالها والنُّصْرَةُ للضَّعيفِ على القَوِيِّ وإنْ كان ظالماً ، فاشترينا لسَانَهُ ، وقَبِلْنَا هَدِيَّتَهُ ، وصَدَّقْنا قولَهُ ؛ وَرَأَيْنا الَّذي فعلنَا أَنجحَ وأَرْجحَ .

* * * *

ومن المنقول عن **المأمون** رحمه الله :

١١ — قال المبرِّدُ : قال : حدَّثني عمارة بن عَقِيل ، قال : قال ابنُ أَبي حَفْصَةَ الشاعرُ : أَعَلِمْتَ أَنَّ أَميرَ المؤمنينَ — يعني المأمون — لا يُبْصِرُ الشِّعْرَ ؟ فقلتُ : مَنْ ذا يكونُ أَفْرسَ منه ، وإنا لنُنْشدُ أَوَّلَ البيت فيسبق إلى آخرِهِ من غير أَن يكون سمِعه ، قال : فإني أَنشدتُه بيتاً أَجَدْت فيه فلم أَرَه تحرَّك له ، وهذا البيت فَاسمَعْهُ :

أَضْحَى إمامُ الهُدَى المأْمونُ مُشْتَغِلاً ... بالدِّينِ والنَّاسُ بالدُّنْيَا مَشَاغِيلُ

فقلت له : ما زدتَهُ على أَن جعلتَهُ عجوزاً في مِحْرَابها في يده مِسْبَحة ، فمن يقوم بأَمر الدُّنيا إذا كان مشغولاً عنها وهو المُطَوِّقُ لها ، أَلا قُلت كما قال عمُّكَ جريرٌ لعبد العزيز بن الوليد :

فَلَا هُوَ في الدُّنْيَا مُضِيعٌ نَصِيبَهُ ... ولا عَرَضُ الدُّنْيا عن الدِّينِ شَاغِلُهُ

* * * *

قال مؤلف الكتاب :

١٢ — وبلغنا أن حَسَناً اللُّؤلُؤيَّ كان يُحدِّثُ المأمونَ والمأمونُ يومئذٍ أميرٌ ، فنعِسَ المأمونُ ، فقال له اللؤلؤيُّ : نمت أيُّها الأميرُ ؟ فاستيقظ المأمونُ ، وقال : سُوقِيٌّ والله ؛ يا غلام خُذْ بيدِهِ .

قال مؤلف الكتاب : قلت : وإنَّما قال ذلك لأنَّ هؤلاءِ إنما يُريدون الحديثَ ليناموا عليه ، فكان إيقاظُه غفلةً عما يُراد من الحديث وسوءَ أدَبٍ .

* * * *

ومن المنقول عن **المعتضد بالله** :

١٣ — عن أبي عبد الله محمد بنِ حَمْدُون ، قال : قال لي المعتضدُ باللهِ ليلةً ، وقد قُدِّم له عَشَاءٌ : لقِّمْنِي ، وكان الذي قُدِّم له فراريجُ ودَرَاريج ؛ فلقَّمتُه من صَدْرِ فرُّوج ، فقال : لا ؟ لقِّمني من فَخِذِه ؛ فلقَّمته لُقَماً ، ثم قال : هاتِ من الدَّرَاريج . فلقَّمتُه من أفْخَاذِها ؛ فقال : ويْحَك ! هوذا تَتَنَادَرُ عليَّ ؟! هات من صُدُورِها ، فقلت : يا مولاي ! رَكِبْتُ القياسَ ؛ فضحك ، فقلت : إلى كم أُضحِكُكَ ولا تُضْحِكُني ؟ قال : شِلِ المَطْرَحَ وخُذْ ما تحته .

قال : فشلْتَه ، فإذا دينارٌ واحد ، فقلت : آخذُ هذا ؟! قال : نعم . فقلت : بالله هوذا تتنادر أنْتَ السَّاعةَ عليَّ ! خليفةٌ يجيزُ نديمَه بدينارٍ ؟! فقال : ويلَك ! لا أجدُ لك في بيتِ المال حَقّاً أكثرَ من هذا ولا تسمحُ نفسي أن أُعطِيَكَ من مالي شيئاً ، ولكنْ هوذا أحتالُ لك بحيلة تأخذُ فيها خمسة آلاف دينارٍ ؛ فقبَّلتُ يدَه ، فقال : إذا كان غدٌ وجاءَني القاسم — يعني : ابن عبيد الله — فهو ذا أُسارُّكَ حين تقعُ عيني عليه سِراراً طويلاً ، ألتفتُ فيه إليه كالمُغْضَب ، وانظُرْ أنت إليه في خِلال ذلك كالمُتَخالِسِ لي نَظَرَ المُتَرَاثي له ، فإذا انقطع السِّرارُ تخرج ولا تَبْرحْ من الدِّهْليزِ أو يخرجَ ، فإذا خَرَجَ خاطَبَك بخطابٍ جميلٍ ، وأخذَكَ إلى دعوته ، ويسألُك عن حالِكَ فاشتكي الفقرَ والخَلَّة وقلَّة حظِّكَ منِّي وثقل ظهرِك بالدَّيْنِ والعِيَالِ وخُذْ ما يُعطيك ، واطْلُبْ كلَّ ما تقعُ عينُك عليه ؛ فإنَّه لا يمنعُك ، حتى تستوفي الخمسةَ آلاف دينار ؛ فإذا أخذتَها ، فيسألُك عمّا جرى بيننا ، فاصْدُقْه وإياك أن تكذبَه ، وعرِّفه أن ذلك حيلةٌ مِنِّي عليه حتى وصل إليك هذا ، وحَدِّثْه بالحديث كلّه ، على شَرْحِهِ ، وليكن إخبارك إيّاهُ بعد امتناعٍ شديدٍ وإحْلافٍ منه بالطَّلاقِ والعِتاق أنْ تَصْدُقَه ، وبعد أن تخْرِجَ من دارِهِ كلَّ ما يعطيكَ إيّاهُ

وتجعلُه في بَيْتِكَ ؛ فلما كان الغدُ حضر القاسمُ ، فحين رآه ابتدأ يُسَارِرْني ، وجرتِ القِصَّةُ على ما واضَعَنِي عليه ، فخرجتُ ، فإذا القاسمُ في الدِّهْليز ينتظِرُني ، فقال : يا أبا محمد ! ما هذا الجفاءُ ؟ لا تجيئُني ولا تزورُني ولا تسأَلُني حاجةً ؟ فاعتذرتُ إليه باتِّصالِ الخدمةِ عَلَيَّ ، فقال : ما ينبغي إلاَّ أَن تزورَني اليومَ وتتفرَّج ، فقلت : أَنا خادمُ الوزير ؛ فأَخذني إلى طيَّارةٍ[1] وجعل يسأَلُني عن حالي وأَخْباري ، وأَشكُو إليه الخَلَّةَ والإِضاقَةَ والدَّيْنَ والبَنَاتَ وجفاءَ الخليفةِ وإمساكَ يده ، فيتوجَّعُ ويقول : يا هذا ، مالي لك ، ولن يَضيقَ عليك ما يتسع عَلَيّ [ولا] أَن تجاوزَك نعمةٌ حصلتْ لي ، ولو عرَّفتني لعاونْتُك على إزالةِ هذا كلِّه عنك ؛ فشكرتُه ، وبلغْنا دارَهُ ، فصعِدَ و لم ينْظرْ في شيءٍ ، وقال : هذا يومٌ أَحتاجُ أَن أَختصَّ فيه بالسُّرور بأَبي محمد فلا يَقْطعْنِي أَحدٌ عنه ؛ وأَمر كُتَّابَهُ بالتَّشاغُل بالأَعمال ، وخلا بي في دار الخَلْوة ، وجعلَ يحادثُني ويَبْسُطُنِي ، وقُدِّمَتِ الفاكهةُ ، فجعل يُلْقِمُني بيده ، وجاءَ الطعامُ ، فكان هذا سبيلَهُ ؛ فلما جلس للشُّرب وقَّع لي بثلاثةِ آلاف دينار فأَخذتُها للوقت ، وأَحضر ثياباً وطِيباً ومركوباً ، فأَخذت ذلك كلَّه ، وكان بين يديَّ صينيَّةُ فِضَّة فيها مِغْسَل فِضَّة وخرداذي[2] بِلَّور وكوز وقدح بِلَّور ؛ فأَمر بحمله إلى طيّارتي ، وأَقبلت كلما رأَيت شيئاً حسناً له قيمةٌ وافرةٌ طلبتُه ، وحَمَلَ إلَيّ فرشاً نفيساً ، وقال : هذا لِلبَنات ؛ فلما تقوّض أَهلُ المجلس خَلاَ بي ، وقال : يا أَبا محمد ! أَنت عالم بحقوقِ أَبي عليك ، ومودَّتي لك ، فقلت : أَنا خادمُ الوزير ، فقال : أُريد أَن أَسأَلَكَ عن شيءٍ وتحلف لي أَنَّك تَصْدُقني عنه ، فقلت : السمعُ والطاعة ؛ فأَحلَفني باللهِ والطَّلاقِ والعتاقِ على الصِّدق ، ثم قال لي : بأَيّ شيءٍ سارَّك الخليفةُ اليوم في أَمري ؟ فصَدَقْتُه عن كلِّ ما جرى حرفاً بحرف ، فقال : فرَّجت عني ، ولكون هذا هكذا مع سلامة نيَّته لي أَسهل عليّ . فشكرتُه ، وانصرفتُ إلى بيتي ، فلمّا كان من الغد ، باكرتُ المعتضد باللهِ ، فقال : هاتِ حديثَك . فسقْتُه عليه ، فقال : احفظ الدَّنانيرَ ولاَ يَقَعُ لك أَنِّي أَعملُ مثلَها بسرعة .

* * * *

١٤ ــ أَنبأَنا أبو بكر بن محمد بن عبد الباقي ، عن أَبي القاسم علي بن المحسِّن ، عن أَبيه ، قال : بلغني أَنَّ المعتضد بالله كان يوماً جالساً في بيتٍ يُبْنَى له يُشاهِدُ الصُّنَّاعَ ، فرأَى في جملتهم غلاماً أَسودَ مُنْكَرَ الخَلْقِ ، شديد المَرَح ، يصعدُ على السَّلالِيم مِرْقَاتَيْنِ مِرْقَاتين ، ويحملُ ضِعفَ

(١) « الطيارة » : سفينة شراعية صغيرة .

(٢) « خرداذي » : آنية من البلور يوضع فيها الشراب عادة .

ما يحملونَه ، فأنكر أمرَهُ ، فأحضَرَهُ ، وسأله عن سبب ذلك ، فَلجْلَجَ ، فقال لابن حمدون ، وكان حاضراً : أيّ شيءٍ يقعُ لك في أمرِه ؟ فقال : ومَنْ هذا حتى صَرَفْت فِكرَك إليه ؟ ولعلّه لا عيالَ له ، فهو خالي القلب ، قال : ويْحَك ! قد خمَّنْتُ في أمرِه تخميناً ما أحسبه باطلاً ، إما أن يكونَ معه دنانيرُ قد ظفر بها دَفْعةً من غير وَجْهها ، أو يكونَ لصاً يتستّر بالعمل في الطّين ؛ فلاحاهُ ابن حَمدُون في ذلك ، فقال : عليّ بالأسْوَدِ ؛ فأُحْضِر ، فقال : هاتوا المقارِعَ ؛ فضربَهُ نحو مئة مقرعة ، فقرّره ، وحلف إن لم يَصْدُقْهُ ضرب عُنُقَه ، وأحضر السَّيْفَ والنِّطْع ، فقال الأسود : لِيَ الأمانُ ؟ فقال : لك الأمانُ إلاَّ ما يجب عليك فيه من حَدٍّ ؛ فلم يفهم ما قال له ، وظنَّ أنه قد أمَّنه ، فقال : أنا كنتُ أعمل في أتاتين الآجُر سنين ، وكنت منذ شهور هناك جالساً ، فاجتاز بي رجلٌ في وَسَطِه هِمْيَانٌ ، فتبعته ، فجاءَ إلى بعض الأتاتين ، فجلس وهو لا يعلمُ مكاني ، فحلّ الهميان ، وأخرج منه ديناراً ، فتأملتُه ، فإذا كلُّه دنانير ، فبادرتُه وكتّفْتُه وشدَدْتُ فاه ، وأخذتُ الهميان ، وحملته على كتفي ، وطرحته في نقرة الأتون وطيَّنْتُه ، فلما كان بعد ذلك أخرجتُ عِظَامَهُ وطرحتُها في دِجْلَة ، والدنانيرُ معي يَقْوَى بها قلبي . فأنفذ المعتضدُ من أحضر الدّنانيرَ من منزله ، وإذا على الهِمْيَانِ مكتوبٌ لفلانِ بنِ فُلان ، فنُودي في البلدةِ باسمه ، فجاءَت امرأةٌ فقالت : هذا زوجي ، ولي منه هذا الطفل ، خرجَ في وقت كذا ومعه هِمْيَانٌ فيه ألف دينار ، فغاب إلى الآن ؛ فسلَّم الدنانير إليها ، وأمرها أن تعتدَّ ، وضربَ عُنُق الأسودِ ، وأمر أن تُحمل جثّتُهُ إلى ذلك الأتُون .

* * * *

١٥ ــ قال المُحَسِّن : وبلغني أنَّ المعتضدَ بالله قام في الليل لحاجةٍ ، فرأى بعضَ الغلمان المُرْدان قد نهض من ظهرِ غُلَامٍ أمردَ ودب على أربعته حتى اندسَّ بين الغلمان ، فجاءَ المعتضدُ ، فجعل يضعُ يده على فؤاد واحدٍ بعد واحدٍ ، إلى أن وَضَع يده على فؤاد ذلك الفاعل ، فإذا به يخفق خَفقَاناً شديداً ، فركله برجله فقعد ، واستدعى آلاتِ العقوبةِ ، فأقرَّ ، فقتله .

* * * *

١٦ ــ قال المحسِّن : وبلغنا عن المعتضد باللهِ أنّ خادماً مِنْ خَدَمِه جاءَ يوماً ، فأخبره أنه كان قائماً على شاطىء دِجْلة في دارِ الخليفة ، فرأى صيَّاداً وقد طرح شبكتَهُ ، فثقُلَتْ بشيءٍ ، فَجَذَبها ، فأخْرَجها ، فإذا فيها جِرَابٌ ؛ وأنه قدَّرهُ مالاً ، فأخذهُ وفَتَحه ، فإذا فيه آجُرٌّ ، وبين الآجُرّ كَفٌّ مخضوبَةٌ بحِنَّاء .

قال : فأحضر الجِرَابَ والكَفَّ والآجُر ، فهال المعتضد ذلك ، وقال : قُلْ للصيَّاد يُعاوِدُ طَرْحَ الشبكةِ فوق الموضع وأسفله وما قَارَبهُ .

قال : ففعل ، فخرج جِرابٌ آخَرَ فيه رِجْل .

قال : فطلبوا ، فلم يخرجْ شيء آخرُ ، فاغتمّ المعتضِدُ ، فقال : معنا في البلدِ من يقتلُ إنساناً ويُقطِّعُ أعضاءَهُ ويُغرقُه ، ولا أعرف به ! ما هذا مُلْكٌ .

قال : وأقام يومَه كلَّه ما طَعِمَ طَعاماً ، فلما كان من الغَدِ أحضر ثِقَةً له وأعطاه الجرابَ فارغاً ، وقال له : طُفْ به على كلّ من يعمل الجُرُبَ ببغداد ؛ فإنْ عرفَهُ منهم رجلٌ ، فَسَلْهُ على من باعه ؛ فإذا دَلَّكَ عليه ، فَسِلِ المُشْتَرِي ؛ مَنَ اشْتَرَاه مِنه ، ولا تُقِرَّ على خَبره أحداً .

قال : فغاب الرجلُ ، وجاءَه بعد ثلاثة أيام ، فزعم أنه لم يزل يتطلَّبُ في الدَّباغِين وأصحابِ الجُرُبِ إلى أن عرف صَانِعَهُ ، وسأله عنه ، فَذَكَرَ أنَّه بَاعَهُ على عطَّارٍ بِسُوقِ يَحْيى ؛ وأنَّه مَضَى إلى العَطَّارِ ، وَعَرَضَهُ عليه ، فقال : وَيْحَكَ ! كيف وقع هذا الجرابُ في يدك ؟ فقلت : أو تَعْرِفُه ؟ قال : نعم ، اشترى مِنّي فُلَانٌ الهاشميُّ منذ ثلاثة أيَّامٍ عشرةَ جُرُبٍ ، لا أدري لأيِّ شيءٍ أَرَادَها ؛ وهذا منها . فقلت له : وَمنْ فلانٌ الهاشميّ ؟ فقال : رجلٌ من وَلَدِ عَلِيِّ بن رَيْطَةَ من وَلَدِ المَهْدِيِّ ؛ يقال له : فلانٌ ؛ عظيمٌ ، إلَّا أنه شرُّ الناس وأظْلَمُهُم وأفسدُهُمْ لِحُرَمِ المسلمين ، وأشدهم تَشَوُّفاً إلى مكايدِهم ، وليس في الدنيا مَن يُنْهِي خَبَرَهُ إلى المعتضِدِ خَوْفاً من شَرِّه ، ولَفرطِ تمكُّنِه من الدَّوْلةِ والمال ؛ و لم يزل يحدِّثُني وأنا أسمعُ أحاديثَ لهُ قبيحةً إلى أن قال : فحسبُكَ أنه كان يَعْشَقُ منذ سنين فلانةَ المُغَنِّيَةَ ، جاريةَ فلانة المغنِّية ؛ وكانت كالدِّينَارِ المَنْقُوشِ و كالقمر الطَّالع ، في غاية الحُسْنِ ، فساوم مولاتَها فيها ، فلم تُقَارِبْهُ ، فلما كان منذ أيَّامٍ بلغه أنَّ سيدَتها تريدُ بيعَها على مُشْترٍ قد حَضَرَ فَبَذَلَ فيها ألوفَ دَنانير ، فوجَّه إليها : لا أَقَلَّ من أن تُنْفِذِيها إليَّ لتودِّعَني ؛ فأنفذَتْها إليه بعد أن أَنْفَذَ إليها جِذْرُهَا[1] لِثلاثةِ أيَّامٍ ، فلما انقضتْ الأيامُ الثلاثةُ غَصبها عليها وغيَّبها عنها ، فما يُعرفُ لها خبرٌ ؛ وادَّعى أنها هَرَبَتْ من دارِهِ ؛ قال الجيران : إنه قَتَلَها ، وقال قومٌ : لا ، بل هي عنده . وقد أقامتْ سيدتُها عليها المأتم ، وجاءَتْ وصاحَتْ على بابه ، وسَوّدتْ وجْهَها ؛ فلم ينفعْها شيءٌ . فلمَّا سمع المعتضدُ سَجَدَ شُكراً للهِ تعالى على انكشافِ الأمرِ

---

(١) « الجِذْر » : الحساب والأجرة .

له ، وبعث في الحال مَنْ كَبَسَ عَلى الهاشميِّ ، وأُحضر المغنية ، وأُخرج اليَدَ والرِّجلَ إلى الهاشميِّ ، فلما رآهما ٱمْتُقعَ ، وأَيقن بالهلاك ، واعترفَ ؛ فَأَمَرَ المعتضدُ بدَفْع ثمنِ الجارية إلى مولاتِهَا من بيتِ المالِ ، وصَرَفَها ، ثم حَبَس الهاشميَّ ؛ ويقال : إنَّه قتلَهُ ؛ ويقال : ماتَ في الحَبْسِ .

* * * *

١٧ — قال أبو عبدُ الله محمد بن أَحمد بن حَمْدُون : كنتُ قد حَلَفْتُ وعاهدتُ الله أَن لا أَعْقِدَ مالاً من القمَارِ ، وأَنه لا يقعُ في يَدِي شيءٌ منه ، إلاَّ صرفتُه في ثمن شَمْعٍ يحترقُ ، أَو نبيذٍ يُشْرَب ، أَو جذْرِ مُغَنّيةٍ ؛ فجلستُ يوماً أُلاعبُ المعتضدَ ، فقمَرتُهُ بسبعينَ أَلْفِ درْهم ، فنهض المعتضدُ يصلِّي قبل العصر ركعتان من قبل أَن يَأْمُرَ لي بها ، فجلستُ أُفكِّرُ وأَندمُ على ما حَلَفْتُ عليه ، وقلت : كم أَشتري من هذه السبعين أَلف شمعاً وشراباً وكم أُجْذُر ، وما كانتْ العَجَلة في اليمين ؟ ولو لم أَكن حلفت كنتُ الآن قد اشتريتُ بها ضيعةً . وكانت اليمين بالطلاق والعتاق وصَدَقَةِ المُلْك ؛ فلمّا سلَّم من الركوع ، قال لي : في أَيِّ شيءٍ تفكَّرْتَ ؟ فقلت : خيراً . فقال : بحياتي اصْدُقْني ، فصدَقْتُه ؛ فقال : وعندك أَني أُريد أَن أُعْطِيك سبعين أَلفاً من القِمَار ؟ فقلتُ : أَفتَضْغُوْ ؟ قال : نعم ، قد ضَغَوْت ، قُم ولا تفكِّر في هذا .

قال : ودخل في صلاةِ الفَرْضِ ، فلَحِقَني غمٌّ أَعظمَ من الأَوَّل ، ونَدِمْتُ على فَوْتِ المال ، وجعلت أَلومُ نفسي لِمَ صَدَقْتُه ، فلما فَرَغ من صلاته ، قال لي : يا أَبا عبد اللهِ ! بحياتي اصْدُقْني عن هذا الفكر الثاني ، فَصدَقْتُه . فقال : أَمّا القِمَارُ ، فقد قُلْتُ إنّي ضَغَوْتُ ، ولكني أَهبُ لك سبعين أَلفاً من مالي ، ولا يكون عليَّ إثْمٌ في دَفْعِها إليك ، ولا عليك إثْمٌ في أَخْذِهَا ، وتَخْرُج من يمينك ؛ فتشتري بها ضيعةً حلالاً . فقبّلْتُ يده ، وأَخذتُ المالَ ، فأَعْقَرْتُ به ضيعةً . والله أَعلم .

* * * *

الباب العاشر
في
سياق المنقول من ذلك عن الوزراء

١ — ومما رواه حسين بن فهم ، قال : قال ابن الموصلي : حدَّثني أبي ، قال : أتيتُ يَحْيَىٰ ابنَ خَالِدِ بن بَرْمَك ، فشكوتُ إليه ضِيقةَ اليَد ، فقال : وَيْحَك ! وما أصنعُ بك ؟ ليس عندنا في هذا الوقت شيء ، ولكن هاهنا أمرٌ أدُلُّك عليه ، فكنْ فيه رَجُلاً ، قد جاءَني خليفةُ صَاحبِ مِصْرَ يسألني أن أستهدي صَاحِبَهُ شيئاً ، وقد أبيتُ ذلك ، فألَحّ عليّ ، وقد بَلَغني أنَّك قد أعطيتَ بجاريتِك فلانةَ آلافَ دنانيرٍ ، فهوذا أستهديه إيّاها ، وأُخبِرُهُ أنَّها قد أعجَبَتْني ، فإيّاك أن تَنْقُصَها من ثلاثين ألف دينار ، وانظر كيف يكون .

قال : فواللهِ ما شَعَرْتُ إلاَّ بالرَّجل قد وافاني ، فساوَمنِي الجاريةَ ، فقلت : لا أُنْقُصُها من ثلاثين أَلفَ دينار . فلم يزلْ يُسَاوِمُني حتى بَذَلَ لي عشرين أَلفَ دينارٍ ، فلمّا سمعتُها ضَعُفَ قَلْبي عن رَدِّهَا ، فبعتُها وقَبَضْتُ العشرين أَلفاً ، ثم صِرْتُ إلى يحيى بن خالد ، فقال لي : كيف صَنَعْتَ في بيعك الجارية ؟ فأَخبرتُه ، فقلت : والله ما ملكتُ نفسي أن أَجَبْتُ إلى العشرين أَلفاً حين سمِعْتُهَا ، فقال : إنَّك لَخَسِيسٌ ، وهذا خليفةُ صاحبِ فَارِس قد جاءَني في مثل هذا ، فخُذْ جاريَتَك ، فإذا ساوَمَكَها فلا تَنْقُصْها عن خَمسِين أَلفِ دينار ، فإنه لا بُدَّ أن يَشْتَرِيَهَا منك بذلك .

قال : فجاءَني الرَّجُل ، فاستَمْتُ عليه خمسين أَلف دينارٍ ، فلم يزل يُسَاوِمُني حتى أَعطاني ثلاثين أَلف دينار ، فضَعُفَ قلبي عن ردِّها ، ولم أُصَدِّقْ بها ، فأَوجَبْتُها له بها ؛ ثم صرت إلى يحيى بن خالد ، فقال لي : بكم بعت الجاريةَ ؟ فأَخبرتُه ، فقال لي : وَيْحَك ! أَلم تُؤَدِّبْك الأُولى عن الثَّانية ؟ قلت : ضعُفْتُ واللهِ عن ردِّ شيءٍ لم أَطْمَعْ فيه ، فقال : هذه جاريَتُكَ فخُذْها إليك .

قال : فقلت : جاريةٌ أفدتُ بها خمسين ألفَ دينار . ثم أملكها ، أُشْهِدُك أنَّها حُرَّةٌ وأني قد تَزَوَّجْتُها .

* * * *

٢ ــ أخبرنا أبو بكر محمدُ بن يَحْيى النَّديم ، قال يحيى بنُ خَالِدٍ : ثلاثةُ أشياءٍ تدلُّ على عقول أَرْبَابِها : الهديةُ ، والكتابُ ، والرَّسول .

* * * *

٣ ــ وبَلَغَنا أن المنصور كان يجوِّد رأي يحيى بن خالد ويعجب به ، وكان يقول : وَلَدَ الآباءُ أبناءَ ، ووَلَدَ خالدُ بن بَرْمَك آباءَ .

* * * *

٤ ــ وكان يحيى يقول لابنه جعفر : يا بُنَي ! خُذْ من كلِّ أدب طَرْفاً ، فإنَّه من جَهِلَ شيئاً عَادَاهُ ، وأنا أكره أن تكون عَدُوّاً لشيءٍ من الأدب .

* * * *

٥ ــ وكان يقول : من بلغ رُتْبَةً فَتَاهَ بها أُخْبِرَ أنَّ محلَّهُ دُونَها .

* * * *

٦ ــ وقال له رجلٌ : واللهِ لأنت أحْلَمُ من الأحنف . فقال : ما تَقَرَّبَ إليَّ مَنْ أعطاني فوق حقِّي .

* * * *

٧ ــ بلغنا عن الرشيد أنه رأى يوماً في داره حُزْمَة خَيْزُرَان ، فقال لوزيره الفَضْلِ بنِ جعفر : ما هذه ؟ فقال : عُرُوقُ الرِّماح يا أميرَ المؤمنين . ولم يُرِدْ أن يقولَ الخَيْزُران ، لموافقتِهِ اسمَ أُمِّ الرَّشيد .

* * * *

٨ ــ وقال الفضل : إيّاكُمْ ومخاطبةَ الملوك بما يَقْتَضي الجوابَ ، فإنَّهم إن أجابُوكم شَقَّ

عليهم ، وإن لم يجيبوكم شَقَّ عليكم .

* * * *

٩ ــ قال ثعلب : قلت للحسن بن سَهْلٍ وقد كثُرَ عطاؤُه على اختلالِ حاله : ليس في السَّرَفِ خَيْرٌ . فقال : بل ليس في الخير سَرَفٌ . فردَّ اللفظَ واسْتَوْفَى المعنى .

* * * *

١٠ ــ وروى الفتحُ بنُ خَاقَانَ أنه رأى في لحية المتوكِّل شيئاً ، فلم يمسَّهُ بيده ولا قال له شيئاً ، ولكنَّهُ نادى : يا غلامُ ! مرآةَ أمير المؤمنين ؛ فجاء بِها ، فقابَلَ بها وجهَهُ حتى أخذَ ذلكَ الشيءَ بيدِه .

* * * *

١١ ــ وروى أبو محمد بن عبد الباقي ، بسنده عن أبي عليّ بنِ مُقْلة ، قال : كنتُ أكتبُ لأبي الحسن بنِ الفُراتِ ، أخدُمُ بين يديه ، فتأوَّلَ شيئاً بوزن عشرةِ دنانير في كلِّ شهر ، وهو يخلف أخاه في ديوانِ السَّوَاد ، ثم زادَتْ حالُه ، فزادني إلى ثلاثين ديناراً في كلِّ شهر ، وكنتُ كذلك معه إلى أن تَقَلَّد الوَزَارَةَ الأُولى ، فحصل رزقي خمس مئة دينارٍ في كلِّ شهر ، ثم أمر بقبض ما في دُور المخالفين الذين بايعوا ابن المعتز ، وكانت أمتعتهم تُقْبَضُ وتحملُ إليه ، فيراها ، ويُنْفِذُها إلى خزائن المقتدر ، فجاءُوه يوماً بصندوقين ، فقالوا له : هذان وجدناهما في دار ابن المعتزّ ، فقال : أفعلمتُم ما فيهما ؟ قالوا : نعم . جرائد مَنْ بايعه من الناس بأسمائِهِمْ وأنسابِهم . فقال : لا تُفْتَحْ ، ثم قال : يا غِلمان ! هاتُوا ناراً ؛ فجاءَ الفرَّاشُون بفَحْم ، وأمرهم فأجَّجوا النار ، وأقبل عليَّ وعلى من كان حاضراً ، فقال : واللهِ لو رأيتُ من هذين الصُّندوقين ورقةً واحدةً لظَنَّ كلُّ من له فيها اسمٌ أنِّي قد عرفتُه ، فتفسَدُ نيّاتُ العالم كلِّهم عليّ وعلى الخليفة ، وما هذا رأْيِّي ، حَرِّقوهما . قال : فطُرِحَا بأقفالهما في النار ، فلما احترقا بحضرتِه أقبل عليّ ، فقال : يا أبا عليّ ! قد أمّنت كل من جنَى وبايع ابنَ المُعتزَّ وأمَرَني الخليفةُ بأمانِهِ ، فاكتب للنَّاس الأمانَ منِّي ، ولا يَلْتمس منك أحدٌ أماناً كائناً من كان إلاَّ كتبتهُ له ، وجئني به لأوقِّع فيه ، فقد أفردتُك لهذا العمل ؛ ثم قال لمن حضر : أشيعُوا ما قلتُه حتى يأنس المستترُون بأبي عليٍّ ويكاتبونه في طلب الأمان ؛ فشكرناه ، ودعت الجماعةُ له ، وشاع الخبر ، وكُتبتِ الأماناتُ وكسبتُ في ذلك مئة ألف أو نحوها .

* * * *

١٢ — حدثنا ابن المحسِّن ، عن أبيه ، قال : سمعتُ أبا القاسمِ الحسنَ بنَ علي بن مُقْلة ، يقول : كان أبو عليٍّ بن مقلة يوماً يأكُل ، فلما رُفِعت المائدةُ وغسلَ يَدَه رأى على ثوبه نُقْطَةَ صفراءَ من الحلوى التي كان يأكُلُها ، ففتح الدَّواةَ ، واستمدَّ منها نُقْطةً ونَقَطَها على الصُّفْرَة حتى لم يبق لها أثرٌ ، وقال : ذاك أثرُ شهوةٍ وهذا أثرُ صناعتي ، ثم أنشد :

إنما الزَّعْفَـرَانُ عِطْـرُ العَـذَارَى ومِـدَادُ الـدَّواةِ عِطْـرُ الرِّجَـالِ

* * * *

١٣ — قال أبو بكر الصُّولِي : قال المكتفِي باللهِ وقد أنشدتُه : أَنتَ أشعرُ مـن فـلان ، فقلتُ : لإنعامك علي ترى ذلك ، وإلاَّ ففلان أشعرُ منِّي . فلمّا خرجنا ، قال لي القاسمُ بنُ عبيد الله : ردَدتَ على أميرِ المؤمنين لأنَّه قال شيئاً ؟ فقلتَ : لا ، فقلتُ : مِنْ أينَ لي هذا الفَهْم ؟!

* * * *

١٤ — وذُكِر أنْ مَلِكاً كانت أسرارُهُ تظهَرُ كثيراً إلى عَدُوِّه ، فَيبطُلُ تدبيره على العدوّ ، فبلَغ ذلك منه ، فشكا إلى أحدِ نُصَحائه ، وقال له : إنَّ جماعةً يَطَّلعون على أسرارٍ لي لا بدّ من إظْهارِهَا لهم ، ولستُ أدري أيُّهم يظهرُها ، وأكره أن أنال البريءَ منهم بما يستحقُّ الخائنُ ؛ فدعا بكتابٍ ، فكتب فيه أخباراً من أخبار المملكة ، وجعلها كَذِباً كلَّها ، ثم دعا برجلٍ رجلٍ كلِّ واحدٍ دون صاحبه ممن كان يُفشِي الملكُ إليه سرَّه . وقال للملك : أخبر كلَّ واحد منهم بخبرٍ على حِدَةٍ لا تُظْهِرْ عليه سائر أصحابه وأْمُرْ كلَّ واحدٍ بستر ما أسررتَ إليه ، واكتبْ على كلِّ خبرٍ اسمَ صاحبِه ؛ فلم يلبثْ أن أظهرَ الخونةُ ما أُفْشِيَ إليهم ؛ وانكتمتْ أخبارُ الناصحين ، فعرف من يُفْشِي سرَّه فحذرَه .

* * * *

١٥ — قيل : رُفِعتْ إلى فخر الملك وزيرِ السُّلطان قصةَ رجـلٍ سعى برجـلٍ ، فكتب عليها : السعايةُ قبيحةٌ وإن كانت نصيحة ، فإن كنتَ أخرجْتَها بالنصح فخُسْرَانُك أكثرُ من الرِّبح ، وأنا لا أدخل في محظورٍ ، ولا أسمع قول مهتوكٍ في مستور ، ولولا أنَّك في خِفَارَةِ شَيْبتِك ، لقابلتُك على جَريرتِكَ ، مقابلةً تُشْبهُ أفْعالَك ، وتُرْدِعُ أمثالك ، فاستُرْ على نفسك هذا العيبَ ، واتَّقِ من يعلمُ الغيبَ ، فإنَّ الله للصالح والطَّالح بالمرصاد .

* * * *

١٦ — وقال الوزير أبو منصور بن جَهِير يوماً لولد أبي نصر بن الصبّاغ : اشتغل بالآداب وإلا كنت صبّاغاً بغير ثياب .

* * * *

الباب الحادي عشر
في
سياق المنقول من ذلك عن السلاطين والأمراء والحجاب والشُّرط

قال المؤلف :

١ ــ بلغني أن رجلاً [خراسانياً] قَدِم إلى بغداد للحجّ ، وكان معه عِقْدٌ من الحَبِّ يُساوي ألفَ دِينارٍ ، فاجتهد في بيعه فلم يَنْفَق ، فجاءَ إلى عَطَّارٍ موصوفٍ بالخيرِ ، فأودَعَهُ إيَّاه ، ثم حجَّ وعاد ، فأتاه بهديّة ، فقال له العطَّارُ : من أنت ؟ وما هذا ؟ فقال : أنا صاحبُ العِقْدُ الذي أودعتُك ؛ فما كلَّمه حتى رفسَهُ رفسةً رماه عن دُكَّانه ، وقال : تَدَّعِي عليَّ مثلَ هذه الدعوى ؟! فاجتمعَ الناسُ ، وقالوا للحاج : ويلك ! هذا رجلُ خيرٍ ، فما لحقتَ من تَدَّعِي عليه إلاَّ هذا ! فتحيَّر الحاج ، وتردَّدَ إليه ، فما زاده إلاَّ شتماً وضرباً ، فقيل له : لو ذهبتَ إلى عَضُدِ الدَّولةِ ، فله في هذه الأشياء فِرَاسَة ؛ فكتب قِصَّتَهُ ، وجعلها على قَصَبة ، ورفعها لعَضُدِ الدَّولة ، فصاح به ، فجاءَ ، فسأله عن حاله ، فأخبره بالقصة ؛ فقال : اذهب إلى العَطَّارِ بكرةً واقعدْ على دَكَّتِه ، فإنْ منعَكَ فاقعدْ على دَكَّةٍ تقابلُه من بُكرة إلى المغرب ، ولا تكلِّمْهُ ، وافعل هكذا ثلاثةَ أيَّام ، فإني أمرُّ عليك في اليوم الرابع ، وأقفُ وأسلِّمُ عليك ، فلا تَقُم لي ولا تَزِدْني على ردِّ السَّلام وجواب ما أسألك عنه ، فإذا انصرفتُ فأعدْ عليه ذكرَ العِقْد ، ثم أعْلِمْني ما يقولُ لك ، فإن أعطاكَهُ فجيء به إلي ، قال : فجاءَ إلى دُكان العطَّار ليجلسَ فمنعَهُ ، فجلس بمقابلته ثلاثة أيام ، فلما كان في اليوم الرَّابع اجتازَ عَضُدُ الدّولة في موكبه العظيم ، فلما رأى الخُراسانيَّ وقف ، وقال : سلامٌ عليكم ، فقال الخُراسانيُّ ولم يتحرك : وعليكم السلامُ . فقال : يا أخي تَقْدُم فلا تأتي إلينا ، ولا تَعْرِضُ حوائجك علينا ؟ فقال : كما اتفق ؛ ولم يشبعه الكلام وعَضُدُ الدولة يسأله ويستحفي وقد وقف ووقف العسكر كلُّه ، والعطارُ قد أُغْمي عليه من الخوف ، فلما انصرف ، التفتَ العَطَّارُ إلى الحاج : فقال : ويْحَك ! متى أوْدعتَنِي هذا العِقْد ؟ وفي أيِّ شيءٍ كان ملفوفاً ؟ فذكِّرني لعلِّي أذكُرهُ . فقال : من صفته كذا وكذا ، فقام وفتش ، ثم نَفَض

جَرَّةً عنده فوقع العِقدُ ، فقال : قد كنتُ نَسِيتُ ، ولو لم تذكِّرْني في الحال ما ذكَرْتُ . فأَخذ العقدَ ، ثم قال : وأَيّ فائدةٍ لي في أَن أُعْلِم عَضُد الدّولة ؟ ثم قال في نفسه : لعلَّه يريدُ أَن يشتريَهُ ، فذهب إليه فأَعلَمه ، فبعث به مع الحاجبِ إلى دُكَّان العطَّارِ ، فعلَّق العِقْد في عنُق العَطَّار وصَلَبَه بباب الدُّكان ، ونُودي عليه : هذا جزاءُ من استُودِعَ فَجحد ؛ فلما ذهب النَّهارُ أَخذ الحاجبُ العِقْد فسلَّمه إلى الحَاج وقال : اذهب .

* * * *

وقال المؤلف أَيضاً :

٢ — بلغني عن عَضُدِ الدولة أنه كان في بعض أُمرائه شابٌ تركيٌّ ، وكان يقف عند رُوزَنَةٍ[١] ينظُر إلى امرأَةٍ فيها ، فقالت المرأة لزوجها : قد حَرَّم عليَّ هذا التركيُّ أَن أَتطلَّع في الرُّوزَنَة ؛ فإنه طولَ النَّهار ينظر إليها ، وليس فيها أَحدٌ ؛ فلا يشكُّ الناس أَنَّ لي معه حديثاً ؛ وما أَدري كيف أَصنع ؟ فقال زوجُها : اكْتبي إليه رقعةً ، وقولي فيها : لا معنى لوقُوفك ، فتعالَ إليَّ بعد العَشاء إذ غَفِل الناسُ في الظلمة ، فإنِّي خلف الباب . ثم قام وحفر حفيرةً طويلةً خلف الباب ، ووقف له . فلمّا جاء التركيُّ ، فتح له الباب ، فدخل ، فدفعه الرّجُل فوقع وطمُّوا عليه ، وبَقِيَ أَياماً لا يُدْرَى ما خَبَرُه ، فسأَل عنه عضد الدولة ، فقيل له : ما لنا فيه خبر ؛ فما زال يُعْمِل فِكْرَهُ إلى أَن بعث يطلبُ مؤذِّن المسجدِ المُجاور لتلك الدار ، فأَخذه أَخذاً عنيفاً في الظاهر ، ثم قال له : هذه مئة دينارٍ خُذْها وامتثل ما آمرك ؛ إذا رجعت إلى مسجدك فأَذِّن اللَّيلة بليل واقعد في المسجد ، فأَوّلُ من يَدْخُل عليك ويسأَلك عن سبب إنفاذي إليك فأَعلمني به . فقال : نعم ؛ ففعل ذلك ، فكان أَوّلُ من دخل ذلك الشيخ ، فقال له : قلبي إليك ، أَيّ شيءٍ أَراد منك عضد الدولة ؟ فقال : ما أَراد مني شيئاً ، وما كان إلَّا الخيرُ ، فلما أَصبح أَخبر عَضُدَ الدولة بالحال ، فبعث إلى الشيخ ، فأَحضره ، ثم قال له : ما فعل التركيُّ ؟ فقال : أَصدُقَك ، لي امرأَةٌ سَتِيرةٌ مستحسَنَة كان يُراصدها ويقفُ تحت رُوزَنَتِها ، فضجَّتْ من خوف الفضيحة لِوقوفه ، ففعلتُ به كذا وكذا . فقال : اذهب في دعة اللهِ ، فما سمع النَّاس ولا قُلْنا .

* * * *

(١) « الروزنة » : كوة في الحائط تكون لدخول النور منها . كذا في الأصل ، ويطلق هذا اللفظ عادة على كلِّ نافذة صغيرة .

٣ – وذكر محمد بن عبد الملك الهَمَذَاني في « تاريخه » : أنه بلغ إلى عَضُدِ الدَّولة خَبر قومٍ من الأكراد يقطعون الطَّريق ويقيمون في جبالٍ شَاقَّةٍ ، فلا يُقدر عليهم ، فاستدعى أَحَد التُّجار ، ودفع إليه بَغْلاً عليه صندوقان فيهما حلوى قد شِيبتْ بالسُّم وأكثر طيبها ، وتركت في الظُّروف الفاخرة ، وأعطاه دنانير ، وأمره أن يسير مع القافلة ، ويُظْهِر أنَّ هذه هديةً لإحدى نساءِ أُمراءِ الأطراف ، ففعل التَّاجر ذلك ، وسار أَمام القافلةِ ، فنزلَ القومُ ، وأخذوا الأَمْتعةَ والأَمْوالَ ، وانْفَرد أحدُهم بالبغل ، وصَعِد به جَماعتِهم إلى الجبل ، وبقي المسافرون عُراةً ، فلما فتح الصندوقين وجد الحلوى يَضُوعُ طيبُها ، ويُدْهِشُ منظرُها ، ويُعْجِبُ رِيحُها ، وعلم أنَّه لا يمكنه الاستئثارُ بها ؛ فدعَا أَصحابَه ؛ فرأَوْا ما لم يَروْه أبداً قبل ذلك ، فأَمعنوا في الأَكل عقيبَ مَجاعة ، فانقلبوا ، فهلكوا عن آخرهم ، فبادر التّجارُ إلى أخذ أَموالهم وأمتعتهم وسلاحهم ، واستردُّوا المأخوذَ عن آخره ، فلم أَسمعْ بأعجب من هذه المكيدة ؛ مَحَتْ أَثر العَاتِين ، وحَصَدَتْ شوكةَ المفسدين .

* * * *

وقال مؤلف الكتاب :

٤ – وحُدّثتُ أنَّ بعضَ التُّجار قَدِم من خُراسان ليحُج ، فتأَهب للحج ، وبقي معه من ماله أَلفُ دينار لا يحتاج إليها ، فقال : إنْ حملتُها خاطرت بها ، وإن أودعتُها خفتُ جحْد المودع ؛ فمضى إلى الصحراء ، فرأَى شجرةَ خَرْوَع ، فحفر تحتَها ودفَنَها ، ولم يَره أَحدٌ ؛ ثم خرج إلى الحجّ ، وعاد فحفر المكان ، فلم يجد شيئاً ؛ فجعل يبكي وَيَلْطم ، فإذا سُئل عن حاله قال : الأرضُ سرقتْ مالي ! فلما كثُر ذلك منه ، قيل له : لو قصدتَ عَضُدَ الدولة ، فإنَّ له فطنة ؟ فقال : أَوَ يعلم الغَيب ؟ فقيل له : لا بأْس بقَصْده ؛ فقصده ، فأخبره بقصّته ، فجمع الأَطباء ، وقال : هل داويتُم في هذه السنة أحداً بعُروق الخَرْوَع ؟ فقال أحدُهم : أَنا داويتُ فلاناً ، وهو من خَواصِّكَ ، فقال : عليّ به ، فقال : هل تداويتَ هذه السنة بعُروقِ الخَرْوع ؟ قال : نعم ، قال : من جاءَك به ؟ قال : فلانٌ الفَرّاش ، قال : عليّ به ؛ فلما جاءَ ، قال : من أين أَخذتَ عُروقَ الخَرْوَع ؟ فقال : من المكان الفلاني ، فقال : اذهبْ بهذا معك فأَرِهِ المكانَ الذي أَخذتَ منه ، فذهبَ معه صاحبُ المال إلى تلك الشجرة ، وقال : من هذه الشجرة أَخذتُ ، فقال

الرجلُ : ها هنا — والله — تركتُ مالي ؛ فرجع إلى عَضُد الدَّوْلةِ ، فأخبره ، فقال للفرّاش : هَلُمَّ المالَ ؛ فتلكأ ، فأوْعَدَه ، فأحضر المالَ .

* * * *

٥ — وروى أبو الحسن بن هلال بن المحسِّن الصابىء ، قال : حكى السَّلاميُّ الشاعر ، قال : دخلتُ على عَضُد الدَّوْلة ، فمدحتُه ، فأجزلَ لِي عطيّتي من المال والدَّنانير ، وبين يديه حسام خُسْرواني ، فرآني أَلحظُه ، فرمى به إلي ، وقال : خُذْهُ ، فقلت : وكُلُّ خيرٍ عندنا من عنده ، فقال عَضُدُ الدّولة : ذاك أبُوك ؛ فبقيت متحيّراً لا أدري ما أراد ، فجئتُ أُسْتاذِي وشرحتُ له الحالَ ، فقال : ويْحك ! قد أخطأْتَ خطيئةً عظيمةً ، لأن هذه الكلمة لأبي نُوَاس يصف كلباً :

أَنْعتُ كلباً أَهْلُه في كَدِّه قد سَعِدَتْ جُدُودُهم بجِدِّهِ
وكُلُّ خيرٍ عِنْدَهُم من عِنْدِهِ

قال : فعدتُ متوشِّحاً بِكساءٍ ، فوقَفْتُ بين يدي الملك ، فقال : مَالَكْ ؟ فقلت : حُمِمتُ الساعةَ ، فقال : هل تعرفُ سببَ حُمّاك ؟ قلت : نظرتُ في ديوان أبي نواس ، فقال : لا بأس عليك من هذه الحمّى ؛ فسجدتُ بين يديْهِ وانصرفتُ .

* * * *

٦ — وروى أبو الحسن بنُ هِلَال بن المحسِّن الصّابىء في « تاريخه » ، قال : حدّثني بعضُ التُّجار : قال : كنتُ في المُعَسْكَر ، واتّفق أنْ ركِبَ السُّلطانُ جلالُ الدّولة يوماً إلى الصَّيد على عادته ، فلقيه سَوَادِيٌّ يبكي ، فقال : مَالَك ؟ فقال : لقيني ثلاثةُ غِلمان أخذُوا حمل بطيخ كان معي ، وهو بضاعتي ؛ فقال : امض إلى العَسْكر فهناك قُبّةٌ حمراءُ ، فَاقْعُد عندها ، ولا تبرحْ إلى آخرِ النَّهار ، فأنا أرجعُ وأُعْطيك ما يُغْنيك ؛ فلما عاد السُّلطانُ قال لبعض شُرَطه : قد اشتهيت بِطيخاً ، ففتِّش العسكرَ وخِيَمَهُم على شيءٍ منه ؛ ففعل وأحضر البطيخ ، فقال : عند من رأيتَها ؟ فقيل : في خيمةِ فلانٍ الحاجب ، فقال : أحضرُوه ، فقال له : من أين هذا البطيخ ؟ فقال : الغلمانُ جاءُوا به . فقال : أُريدُهم الساعة ؛ فمضى وقد أحسّ بالشّر ، فهرَّبَ الغِلمانَ خوفاً من أن يُقتَلوا ، وعاد فقال : قد هَرَبُوا لمّا علمُوا بطلب السُّلطان لهم . فقال : أحضِروا السَّوادِيَّ ،

فأُحضر فقال له : هذا بطيخُك الذي أُخِذ منك ؟ قال : نعم . قال : فخُذه ، وهذا الحاجبُ مملوكٌ لي وقد سلَّمتُه إليك ووهبتُه لك حين لم يُحْضر الذين أُخذوا منك البِطِّيخ ، ووالله لئن خلَّيتُه لأضربنّ رقبتَك ؛ فأَخذ السَّواديُّ بيدِ الحاجب وخرج ، فاشترى الحاجبُ نفسَهُ منه بثلاث مئة دينارٍ ؛ فعاد السّواديُّ إلى السُّلطان وقال : يا سُلطانُ ! قد بعتُ المملوكَ الذي وهبتَهُ لي بثلاث مئة دينارٍ . فقال : قد رضيتَ بذلك ؟ قال : نعم . قال : اقبضها وامض مُصَاحباً السَّلامة .

* * * *

٧ — قال الصَّابِىء : وحكى لي من كان حاضراً بأَصفهان ، قال : جاءَ تُركُمانيّ قد لزم بيد تركُمَانيٍّ آخر ، فلمَّا دخلا إليه قال : هذا وجدتُه قد ابتنى بابنتي ، وأُريدُ أن أَقتلَه بعد إعلامك به ؛ قال : لا ، بل تزوّجها به ، ونُعْطي المهرَ من خزائننا . فقال : لا أَقنعُ إلاَّ بقَتْله ! قال : هاتِ السيف ؛ فجيءَ به ، فسلَّه ، وقال للأَب : تعالَ ! فلما قَرُب منه أَعطاهُ السَّيفَ وأَمسك بيده الجَفْن ، وأَمره أن يعيدَ السَّيف إلى الجَفْن ، فكلَّما رام الرجلُ ذلك قلب السلطان الجَفْنَ و لم يمكنه من إدخالِ السَّيف ، فقال : يا سُلْطان ! ما تَدَعُني ! فقال : كذلك ابنتُك لو لم تُرِدْ ، ما فُعِل بها هذا ، فإن كنتَ تريدُ قَتْلَه لأَجل فعله فاقْتُلْهما جميعاً . ثم أَحضر من زَوَّجه بها ، وأَعطاهُ المهرَ من خِزانته .

* * * *

٨ — أَنبأَنا محمد بن عبد الباقي بن خيرون ، قال : حدَّثنا الأَصمعيُّ ، قال : وفد بلالُ بن أَبي بُردة على عمر بن عبد العزيز وهو بخناصرة[1] ، فلزم سارِيةً من المسجد يصلِّي إليها يُحسنُ الركوعَ والخشوع ، وعمرُ بن عبد العزيز ينظرُ إليه ، فقال عمر للعَلَاء بن المغيرة ، وكان خِصّيصاً بعمر : إن يكن سرُّ هذا كعَلَانِيَته ، فهو أَفْضَلُ أَهلِ العراق غيرَ مُدافَع عن فضلٍ ؛ فقال له العلاءُ ابن المغيرة : أَنا آتيك يا أَمير المؤمنين بخبره ؛ فأَتاه وهو يصلِّي بين المغرب والعِشَاء ، فقال له : اشفع صلاتَك فإنَّ لي حاجة ؛ فلمّا سلَّم من صلاتِه ، قال له العلاءُ : تعرفُ منزلتي وموضعي من أَمير المؤمنين ، فإني إنْ أَشرْتُ عليه أن يولِّيَك العراقَ ما تجعلُ لي ؟ قال : عِمالَتي سَنة . وكان مبلغُها عشرين مئة أَلف ، قال : فاكتب لي بذلك خطّاً . فقام من وقته ، وكتب له خطّاً

(١) « خُناصِرة » : بلدة من أعمال حلب ، سُمِّيَت بخُناصرة بن عمرو بن الحارث .

بذلك ، فحمل ذلك الخطّ إلى عمرَ بنِ عبد العزيز ، فلما قرأَهُ كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن ابن زيد بن الخطاب ، وكان والياً على الكوفة : أَمّا بعدُ : فإن بلالاً غرَّنا بالله ، فكدنا نغترُّ به ؛ ثم سبكناه فوجدناه خَبَثاً كلَّه .

* * * *

قال مؤلف الكتاب :

٩ — وبَلغنا أَنَّ رجلاً وعظ أميراً ، فأنفذ إليه الأَميرُ مالاً ، فقَبله ، فلما عاد الرسولُ قال للأَمير : كلُّنا صيَّادٌ ، ولكنّ الشباك تَخْتلف .

* * * *

١٠ — وقيل : لما خطب السَّفّاحُ يوم بُويع ، سقطت العَصَا من يده ، فتطيَّر من ذلك ، فقام بعض أَصحابه فأَخذها ومسحها ودفعها إليه ، ثم أَنشد :

فأَلْقَتْ عَصَاها واسْتَقرَّت بها النَّوى كما قَرَّ عَيْناً بالإِيابِ المُسَافِرُ

فسُرّ بذلك وسُرِّيَ عنه .

* * * *

١١ — نزل أميرٌ بقرية ، فاحتاج إلى المُزَيِّن يمسحُ شعرَهُ ، فجاءَ الأَميرُ وحده إليه ، وقال : أَنا حاجبُ هذا الأَمير الذي قد نزل بكم ، فامْسح شَعْري ، فإن كنت حاذقاً جاءَ الأَميرُ فمسَحَ شعره ؛ وإنَّما فعل ذلك لئلاَّ يعلمَ أَنَّه الأَميرُ ، فينزعجَ ، فربما جرحه .

* * * *

١٢ — حدّثني عمر بن عثمان ... أَنبأَنا أَبو بكر محمد بن الحسين الحاجب قال : دخل المنصورُ أَميرُ المؤمنين قصراً فرأَى في جدَاره كتاباً :

ومَالِيَ لا أَبكِي بعينٍ حَزِينَةٍ وقد قَرُبَتْ للظَّاعِنين حُمُولُ

وتحته مكتوب : إيهٍ إيه .

قال أَبو عمر : ويُروى إه إه .

فقال المنصور : أيّ شيءٍ إيهِ إيه ؟ فقال له الربيع ، وهو إذ ذاك تحت يَدَي أبي الخصيب الحاجب : يا أمير المؤمنين ، إنه لما كتب البيت أحبّ أن يُخبر أنّه يبكي ، فقال : قاتله الله ما كان أظرفه ! فكان هذا أوّل ما ارتفع به الربيعُ .

* * * *

قال المؤلف :

١٣ ــ نقلتُ من خطِّ أبي الوفاء بن عقيل ، قال : دخل هاشميٌّ على المنصور ، فاستدناه ، ودعا بغدائه ، وقال : ادنُ ؛ فقال : قد تغدّيتُ . فكفّ عنه ، فلما خرج دفع الرَّبيعُ في قفاه ، فواقفه الحجّاب ؛ فدخل عمومتُه فشكوا إلى المنصور ، فقال الربيع : هذا الفتى كان يسلّم من بعيد وينصرف ، فأدناه أميرُ المؤمنين واستجْلسه ، ثم أذن له في الغَدَاءِ ، فقال له : قد تغديتُ ؛ قولَ من يَظُنّ أن الغدَاء عند أمير المؤمنين لا يصلح إلّا لسدّ الخلة ، ومثل هذا لا يكون أدبه بالقول ولكن بالفعل .

* * * *

١٤ ــ حدثنا المدائني ، عن غياث بن إبراهيم ، أن معنَ بن زائدة دخل على أبي جعفر أمير المؤمنين ، فقارب في خطوه ، فقال له أبو جعفر : كَبرت سِنُّك يا معن . فقال : في طاعتك يا أمير المؤمنين ؛ قال : وإنك لَجَلْد ، قال : على أعدائك يا أمير المؤمنين . قال : وإنَّ فيك لبقية ، قال : هي لك .

* * * *

١٥ ــ أخبرنا الفرّاء ، عن أبي الفضل الرَّبعي ، قال : حدَّثني أبي ، قال : قال أمير المؤمنين المأمونُ لعبد الله بن طاهر : أيّما أطيب مجلسي أو منزلك ؟ قال : ما عدلتُ بك يا أمير المؤمنين ، قال : ليس إلى هذا ذهبتُ ، إنّما ذهبتُ إلى الموافقة في العيش واللذة ، قال : منزلي يـا أمير المؤمنين . قال : ولم ذلك ؟ قال : لأنّي مالكٌ وأنا هاهنا مملوك .

* * * *

١٦ ــ وذكر محمد بن عبد الملك الهمداني : أن أحمدَ بن طولون جلس يوماً في متنزَّه له يأكل ، فرأى سائلاً في ثوب خَلِق ، فوضع بيده في رغيف ودجاجةٍ وفَرْخٍ وقِطَع لحم وقطعَةِ

فَالُوذَج[١] ، وأمر بعضَ الغلمان بمناولته ، فرجع الغلامُ وذكر أنه ما هشَّ له ، فقال ابن طولون للغلام : جئني به ؛ فَمثل بين يديه ، فاستنطقه فأحسن الجواب ولم يضطرب من هيبته ، فقال له : أَحْضرني الكتبَ التي معك واصْدُقني عمن بعث بك ، فقد صحّ عندي أنَّك صاحبُ خبر ؛ واستحضر السِّياط ، فاعترف له بذلك ، فقال بعضُ من حضر : هذا والله السّحرُ ، فقال أحمد : ما هو بسحرٍ ، ولكنَّه قياسٌ صحيح ، رأيتُ سوءَ حالِ هذا فوجّهت إليه بطعامٍ يُسَرّ إلى أكله الشّبْعانُ ، فما هشَّ له ولا مدّ يده إليه ، فأحضرته ، فتلقاني بقوةِ جأشٍ ، فلما رأيت رَثاثة حاله وقوّة جَنانه علمتُ أنَّه صاحبُ خَبَرٍ .

* * * *

١٧ — ورأى ابنُ طولون يوماً حمّالاً يحمل صندوقاً وهو يَضْطرِبُ تحته ، فقال : لو كان هذا الاضطراب من ثِقْل المحمول لغاصتْ عُنقُ الحمّال ، وأنا أرى عنقه بارزة ، وما هذا إلاّ من خَوْفِ ما يَحْمِل ؛ فأمر بحطِّ الصندوق ، فوجد فيه جاريةً قد قُتِلَت وقُطِّعت ، فقال : اصْدُقْني عن حالها ؟ فقال : أربعةُ نَفَرٍ في الدار الفلانية أعْطوني هذه الدنانير وأمَرُوني بحمل هذه المقتولة . فضَرَبَ الحمّالَ مئتي عصا وأمَر بقتل الأربعة .

* * * *

١٨ — وكان ابنُ طولون يَتَنَكَّر ويخرجُ فيسمعُ قراءَةَ الأئمة في المحاريب ، فدعا بعض أصْحابه يوماً ، وقال : امضِ إلى المسجد الفُلانيّ وأعط إمامَه هذه الدنانير ، قال : فمضيتُ ، فجلست مع الإمامِ وباسطتُه ، حتّى شكا أَنَّ زوجتَهُ ضَرَبَها الطَّلْقُ ولم يكن معه ما يصلح به شأنها ، وأنَّه صلَّى فغَلِطَ مراراً في القراءة . فعدتُ إلى ابن طولون ، فأخبرتُه ، فقال : صَدَق ، ولقد وقفتُ أمس فرأيتُه يَغْلَط كثيراً ، فعلمتُ شُغْل قلبه .

* * * *

١٩ — حدثنا أبو منصور ، عن سهل بن محمد السِّجستاني قال : وفد علينا عاملٌ من أهل الكوفة ، لم أر في عمال السلطان أبرعَ منه ، فدخلتُ مسلِّماً عليه ، فقال : يا سجستاني ! مَنْ علماؤكم بالبصرة ؟ فقلت : الزيادي أعلمُنا بعلم الأصمعي ، والمازني أعلمُنا بالنحو ، وهلال

(١) « الفالوذج » : كلمة فارسية أصلها بالوده ، أي : الصافي والمصفى ؛ وهو نوع من الحلوى يشبه في أيامنا ما يسمى : الجيلي Jello .

الرأي أفقهنا ، والشاذكوني أعلمنا بالحديث ، وأنا — رحمك الله — أنسَب إلى علم القرآن ، وابن الكلبيُّ من أكتبنا للشُّروط .

قال : فقال لكاتبه : إذا كان غدٌ فاجمعهم إليّ .

قال : فجمعنا ، قال : أيّكم المازني ؟ قال أبو عثمان : ها أنا ذا يرحمك الله ، قال : هل يُجْزِىءُ في كفارة الظِّهار عتقُ عبدٍ أعور ؟ فقال المازني : لستُ صاحبَ فقه ، أنا صاحبُ عربيةٍ ؛ فقال : يا زيادي ! كيف تكتب بين بعلٍ وامرأة خَالَعهَا زوجُها على الثُّلث من صداقها ؟ قال : ليس هذا من علمي ، هذا من علم هلال الرأي ؛ قال : يا هلال ! كم أسند ابن عون عن الحسن ؟ قال : ليس هذا من علمي ، هذا من علم الشَّاذَكُوني ؛ قال : يا شَاذكوني ! من قرأ : ﴿ أَلَا إنهم تَثْنَوْنِي صُدُورُهُمْ ﴾ ؛ [١١ سورة هود/الآية : ٥] قال : ليس هذا من علمي ، هذا من علم أبي حاتم ؛ فقال : يا أبا حاتم ! كيف تكتبُ كتاباً إلى أمير المؤمنين تصف فيه خصاصة أهل البصرة وما أصابهم في الثمرة ، وتسأله لهم النظرة بالنظرة ؟ قال : لست — رحمك الله — صاحب بلاغة وكتابة ، أنا صاحب قرآن ؛ قال : ما أقبح بالرّجلِ يتعاطى العلم خمسين سنة لا يعرف إلَّا فنّاً واحداً ، حتى إذا سُئِل عن غيره لم يَجُلْ فيه ولم يمُرّ ، لكن عالمنا بالكوفة الكسائي لو سُئِل عن هذا كلّه لأجاب .

* * * *

٢٠ — نظر بعضُ العمّال في ديوانه إلى رجل يُصْغِي إلى سرّه ، فأمر بضربه وحبسه ، فقال كاتب الحبس : كيف أكتب قصّته ؟ قال : اكتب : اسْتَرَقَ السَّمْعَ فأتبعه شهابٌ ثاقب .

* * * *

٢١ — أُخِذَ أعمى مع عمياءَ ، فلم يدر الكاتبُ كيف يكتبُ قصَّتهما ، فقال صاحبُ الرُّبْع [أي : قائد الشرطة] : اكتُبْ ﴿ ظُلُماتٌ بَعْضُها فوقَ بَعْض ﴾ [٢٤ سورة النور/الآية : ٢٤] .

* * * *

٢٢ — أنبأنا محمد بن أبي طاهر ، قال الحسين بن الحسن ، عن أحمد بن يحيى الواثقيّ ،

قال : كان جَدّي يتقلّد شرطة بغداد للمكتفي بالله ، فعمل اللصوصُ في أيّامِهِ عملةً عظيمة ، فاجتمع التجارُ وتظلّموا إلى المكتفي بالله ، فألزمه بإحضار اللّصوص أو غَرامةِ المال ، فتحيّر ، حتى كان يركبُ وحدَه ويطوفُ بالليل والنّهار ، إلى أن اجتاز يوماً في نصف النهار في زُقَاقٍ خالٍ في بعض أطرافِ بغداد ، فدخله ، فوجد فيه منكراً ، ووجد فيه زقاقاً لا ينفذ ، فدخله ، فرأى على بعض أبواب دور الزُّقاق شَوْكَ سمكةٍ كبيرةٍ وعَظْمَ الصُّلْب ، وتقدير ذاك أن تكون السمكةُ فيها مئة وعشرون رِطْلاً ، فقال لواحد من أصحاب المصالح : ويْحَك ! ما ترى عظام هذه السمكة ، كم تقدِّر ثمَنَها ؟ قال : دينار . فقال : أهلُ هذا الزُّقاق لا تحمل أحوالُهم شراءَ مثل هذه السمكة ، لأنه زُقاق بيِّن الاختلال إلى جانب الصحراءِ ، لا ينزلُه مَنْ معه شيءٌ يُخاف عليه ، أوْلَه مالٌ يُنْفِق منه مثلَ هذه النفقة ، وما هي إلاّ بليّة يجب أن يُكشَفَ عنها ؛ فاستبعد الرّجلُ هذا ، وقال : هذا فِكْرٌ بعيد ، فقال : اطلبوا امرأةً من الدَّربِ أكلّمها ؛، فدقّ باباً غير الباب الذي عليه الشّوْك ، واستسقى ماءً ، فخرجت عجوزٌ ضعيفةٌ ، فما زال يطلب شَرْبةً بعد شَرْبةٍ وهي تسقيهم ، والواثقيُّ في خلال ذلك يسأل عن الدَّرب وأهله ، وهي تخبره غير عارفةٍ بعواقب ذلك ، إلى أن قال لها : فهذه الدارُ من يسكنُها ؟ وأومأ إلى التي عليها عظامُ السَّمك ، فقالت : واللهِ ما ندري على الحقيقة مَنْ سكانها ، إلّا أن فيها خمسةَ شباب أعْفَار[1] ، كأنهم تُجّار ، وقد نزلوا منذ شهر لا نراهم يخرجون نهاراً إلاّ كل مدّةٍ طويلة ، وإنّا نرى الواحدَ منهم يخرجُ في الحاجة ويعود سريعاً ، وهم طول النهار يجتمعون فيأكلون ويشربون ويلعبون بالشِّطْرَنْج والنَّرد ، ولهم صبيٌّ يخدُمهم ، وإذا كان اللَّيلُ انصرفوا إلى دارٍ لهم بالكَرْخ ، ويَدَعُون الصبيَّ في الدار يحفظها ، فإذا كان سحراً بليل جاءُوا ونحن نيامٌ ، لا نعقل بهم وقت مجيئهم .

قال : فقطع الواثقي استسقاءَ الماء ، ودخلت العجوزُ ، وقال للرجل : هذه صفةُ لصوص أم لا ؟ فقال : بلى ، فقال : توكَّلُوا بحوالِي الدار ودَعُوني على بابها .

قال: وأنفذَ في الحال ، واستدعى عَشْرةً من الرجال ، وأدخلهم إلى سطوح الجيران ، ودقَّ هو الباب ؛ فجاء الصبي ، ففتح ، فدخل والرجال معه ، فما فاتَهُم من القوم أحدٌ ، وحملهم إلى مجلس الشرطة وقرَّرَهم ، فكانوا هم أصحاب الجناية بعينها ، ودلّوا على باقي أصحابهم ، فتتبعهم الواثقي ؛ وكان يفتخر بهذه القصة .

* * * *

---

(١) « أعفار » : جمع عفر ، وهو الجَلْد القوي .

قال مؤلف الكتاب :

٢٣ – وبلغنا عن بعضِ ولاة مصر ، أنه كان يلعب بالحَمَامِ ، فتسابق هووخَادِم له فسبقه الخادم ، فبعث الأميرُ إلى وزيره ليعلم الحال ، فكره الوزير أن يكتب إليه أنك قد سبِقتَ ، و لم يدر كيف يكنّي عن ذلك ، فكانَ ثمّ كاتبٌ ، فقال : إن رأيتَ أن تكتب شعراً :

أيُّهَا المَلِكُ الَّذِي جَدُّهُ لِكُلِّ جَدٍّ قَاهِرٌ غَالِبُ
طائِرُكَ السَّابِقُ لكنَّهُ أتَى وفِي خِدْمَتِه حَاجِبُ

فاستحسن ذلك ، وأمر له بجائزةٍ ، وكتب به .

* * * *

٢٤ – قال الشيخ : حدثني أبو محمد عبد الله بن علي المُقْرىء ، قال : كان حاجب باب ابن النسوي ذكيّاً ، فسمع في بعض ليالي الشتاءِ صوت بَرّادة ، فأمر بكبس الدار ، فأخرجوا رجلاً وامرأة ، فقيل له : من أين علمتَ هذا ؟ قال : في الشتاءَ لا يُبَرَّدُ الماءُ ، وإنما هذه علامة بين هذين .

* * * *

٢٥ – حدثني أبو حكيم إبراهيم بن دينار الفقيه ، قال : حدّثني أبي ، قال : جيءَ إلى ابن النسوي برجلين قد اتُّهما بالسَّرِقة ، فأقامهما بين يديه ، ثم قال : شَرْبَةَ ماءٍ ؛ فجيء بها ، فأخذ يشرب ، ثم ألقاها من يده عمداً ، فوقعت ، فانكسرت ، فانزعج أحد الرَّجلين لانكسارها وثبت الآخر ، فقال للمنزعج : اذهب أنت . وقال للآخر : رُدَّ ما أخذت . فقيل له : من أين علمت ؟ فقال : إن اللّص قويُّ القلب لا ينزعج ، وهذا المنزعج بريء ، لأنه لو تحركت في البيت فأرة لأزعجته ومنعته أن يَسْرِقَ .

* * * *

٢٦ – وبه ذكر بعضُ مشايخنا أن رجلاً من جيران ابن النَّسَوي كان يصلّي بالناس ، فدخل على ابن النَّسوي في شفاعةٍ وبين يديه صحنٌ فيه قطايف ، فقال له ابن النسوي : كُلْ ؛ فامتنع ، فقال : كأنني بك وأنت تقولُ : مَنْ أين لابن النسوي شيءٌ حلال ، ولكن كل فما

أكلتَ قطُّ أحلَّ من هذا . فقال بحكم المداعبة : من أين لك شيءٌ لا يكون فيه شُبهةٌ ؟ فقال : إن أخبرتُك تأكُلْ ؟ قال : نعم . فقال : كنت منذ ليالٍ في مثل هذا الوقت ، فإذا بالباب يدقُّ ؛ فقالت الجارية : مَنْ ؟ فقالت : امرأةٌ تستأذِنُ . فأذنتُ لها ، فدخلت ، فأكبّت على قدمِي تقبِّلُها ، فقلت : ما حاجتُكِ ؟ قالت : لي زوجٌ ، ولي منه ابنتان ، لواحدةٍ اثنتا عشرة سنة ، وللأخرى أربع عشرة سنة ، وقد تزوج عليّ ، ولا يقربني ، والأولاد يطلبونه ، فيضيق صدري لأجلهم ، وأريد أن يجعل لي ليلةً ولتلك ليلة ؛ فقلت لها : ما صناعتُه ؟ فقالت : خَبَّاز ، قلت : وأين دُكَّانه ؟ قالت : بالكَرْخ ويُعرف بفلان ، فقلت : وأنتِ بنتُ من ؟ فقالت : بنت فلان ، قلت : فما اسمُ بناتِك ؟ قالت : فلانة وفلانة ، فقلت : أنا أردُّه إليك إنْ شاءَ الله تعالى ، فقالت : هذه شِقَّةٌ قد غزلتُها أنا وابنتاي ، وأنتِ في حلٍّ منها ؛ قلت : خُذي شِقَّتَكِ وانصرفي ؛ فَمَضَتْ ، فبعثتُ إليه اثنين ، وقلت : أحْضِراه ولا تُزْعجاه ؛ فأحضراه وقد طار عقلُه ؛ فقلت له : لا بأس عليك ، إنما استدعيتُك لأعطيَك كُرَّ طعامٍ وعمَالته تقيمُه خبزاً للرَّجَّالة ؛ فسكن رَوْعُه ، وقال : ما أُريد له عِمَالة ، وقلت : بلى ، صديقٌ مُخسرٌ عدوٌّ مبين ، أنت مني وإليّ ، كيف هي زوجتُك فلانة ؟ تلك بنتُ عمّي ، وكيف بناتها فلانة وفلانة ؟ فقال : بكلّ خير ، قلت : الله الله لا أحتاجُ أُوصيك بها ، لا تضيِّق صدرها ؛ فقبّل يدِي ، فقلت : امض إلى دُكَّانك ، وإن كان لك حاجةٌ فالموضع بحُكْمك ؛ فانصرف ، فلما كان في هذه الليلة جاءَت المرأةُ ، فدخلَتْ وهذا الصَّحنُ معها ، وأقسمت عليّ باللهِ ألاَّ أردَّها ، وقالت : قد جَمَعْتَ شَمْلي وشَمْلَ أولادي ، وهذا والله من ثمن غَزْلي ؛ فبالله لا تردَّه ؛ فقبلته ، فهل هو حلالٌ ؟ فقال : واللهِ ما في الدّنيا أَحَلُّ من هذا ! قال : فكُل . فأكل .

* * * *

٢٧ ــ كان لأحمد بن خصيب وكيلٌ له في ضياعِهِ ، فَرُميَت إليه عنه خيانة فعزم على القبض عليه والإساءَة إليه ، فهرب ، فكتب إليه أحمدُ يُؤْنِسُه ويحلفُ له على بطلان ما اتصل إليه ، ويأمره بالرجوع إلى عمله ، فكتب إليه :

أنَـا لَكَ عَبْـدٌ سامِـعٌ وَمُطِيــعُ وَإنّـي لِمَـا أنهوا إلَـيْكَ سَرِيـعُ
وَلَكِنّ لِـي كَفّـاً أعِـيشُ بِفَضْلِهَـا فَمَـا أشْتَـرِي إلاَّ بِهَــا وَأَبِيــعُ
أأَجْعَلُهَا تَحْتَ الرَّحَى ثُـمَّ أبْتَغي خَلاصاً لَهَــا إنّــي إذاً لَرَقِيــعُ

* * * *

٢٨ ــ أنبأنا محمد بن عبد الباقي ... حدثنا أبو سهل بن زياد قال : كان شاعرٌ له ضُوَيْعةٌ ، فهجا عامِلَها ، وبَلَغهُ ذلك ، فأمسك عنه ، فلما كان وقت الغَلَّةِ ركب العامل إلى البيدر فقسّمها ، وحمل غلّة الشاعر أصلاً[١] ، فجاءَ الشاعر إليه يشكو ، فقال : يا هذا ليس بيننا معاملة ، هجوتنا بالشّعر ، ونحن نهجوك بالشَّعير ، فقد استوت الحالُ بيننا وبينك .

* * * *

قال الشيخُ :

٢٩ ــ وحدثني ابن شَبيب المُشْرِف بالمخزن ، أنَّه لقي الخليفَةَ المستنجدَ ، فقال له الخليفة : أين شتيت ؟ قال : عندك يا أميرَ المؤمنين . وأراد الخليفةُ تصحيف ابن شبيب ، وأراد هو تصحيفَ عبدِك .

* * * *

٣٠ ــ كان بعضُ العمال واقفاً على رأس أمير ، فأخذه البول ، فخرج ، فلما جاءَ ، قال : أين كنت ؟ قال : أُصوّب الرأي . يعني أنه لا رأْيَ لحاقن .

* * * *

٣١ ــ حدثني بعضُ الشيوخ ، قال : سُرِقَ من رجل خمس مئة دينار ، فحمل المَتْهُومِين إلى الوالي ، فقال الوالي : أنا ما أضربُ أحداً منكم ، بل عندي خيطٌ ممدودٌ في بيتٍ مظلم ، فادخلوا ، فليمرَّ كلُّ منكم يَدَه عليه من أول الخيط إلى آخره ، ويلفّ يده في كمه ويخرج ، فإن الخيط يلفُّ على يد الذي سرق ، وكان قد سوّد الخَيطَ بسُخَامٍ ، فدخلوا ، فكلُّهم جرّ يده على الخيط في الظُّلمة ، إلاَّ واحداً منهم ، فلما خرجوا نظر إلى أيديهمْ مسودَّة ، إلا واحداً ، فألزمه بالمال ، فأقرّ به .

* * * *

---

(١) أي : استأصلها و لم يبقِ منها شيئاً .

الباب الثاني عشر
في
سياق المنقول من ذلك عن القضاة

١ ــ أنبأنا محمد بن عبد الباقي ، قال : سمعت الشّعبيَّ ، قال : جاءَت امرأةٌ إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقالت : أشكُو إليك خيرَ أهل الدنيا إلاَّ رجلاً سبقه بعمل أو عَملَ مثلَ عملِه ، يقوم الليل حتى يصبح ، ويصوم النهار حتى يُمسي ؛ ثم أخذها الحياءُ ، فقالت : أقلني يا أمير المؤمنين ، فقال : جزاك الله خيراً ، فقد أحسنت الثناءَ ؛ قد أقلتُك ؛ فلما ولَّت ، قال كعب بن سُور : يا أمير المؤمنين ، لقد أبلغَتْ إليك في الشكوى ، فقال : ما اشتكتْ ؟ قال : زَوجَها ، قال : عليَّ بالمرأة وزوجها ؛ فجيء بهما ، فقال لكعب : اقضِ بينهم ، قال : أأقض وأنت شاهدٌ ؟ قال : إنك قد فَطِنْت إلى ما لم أفطن إليه ، قال : فإن الله يقولُ : ﴿ فانكِحُوا ما طَابَ لكم من النِّسَاءِ مَثْنَى وثُلَاثَ ورُبَاع ﴾ [٤ سورة النساء/الآية : ٣] صُم ثلاثةَ أيّام وأفطر عندها يوم وقم ثلاث ليال وبِتْ عندها ليلة ، فقال عمر : لَهَذا أعجبُ إليّ من الأوّل ؛ فرحّله بدابَّةٍ ، وبعثه قاضياً لأهل البصرة .

* * * *

٢ ــ أنبأنا محمد بن عبد الملك ... عن مجالد بن سعيد ، قال : قلت للشعبي : يقال في المثل إن شُرَيْحاً أدهى من الثعلبِ وأحْيَل ، فما هذا ؟ فقال لي في ذلك : إنَّ شُريحاً خرج أيامَ الطَّاعون إلى النجف ، وكان إذا قام يصلِّي يجيء ثعلبٌ تِجَاهه فيحاكيه ، ويخيلُ بين يديه ، فيشغَلُه عن صلاته ، فلما طال ذلك عليه نزع قميصَهُ فجعله على قَصَبة ، وأخرج كُميْه ، وجعل قَلَنْسُوتَه وعمامتَه عليه ، فأقبل الثعلبُ ، فوقف على عادته ، فأتى شُريح من خلفه فأخذه بغتةً ، فلذلك يقال : هو أدهى من الثعلب وأحْيَل .

* * * *

٣ ــ أخبرنا محمد بن أبي منصور ... عن مجالد ، عن الشعبي ، قال : شهدتُ شُريحاً وجاءَتْه امرأةٌ تخاصم رجلاً ، فأرسلتْ عينيها فبكت ، فقلت : يا أبا أُميّة ! ما أظنُّ هذه البائسة إلاَّ مظلومةً ، فقال : يا شعبيّ ! إنَّ إخوة يُوسفَ جاءُوا أَبَاهم عِشَاءً يبكُون .

* * * *

٤ ــ حدثنا المبارك بن علي ، قال : عرض شُريح ناقةً لبيعها ، فقال له المشتري : يا أبا أُمية ! كيف لبنها ؟ قال : احلب في أي إناءٍ شئت . قال : كيف الوِطَاءُ ؟ قال : افرش ونم . قال : كيف نجاؤها ؟ قال : إذا رأيتَها في الإبل عرفت مكانها اعل سوطك وسِرْ ، قال : كيف قوتها ؟ قال : احمل على الحائط ما شئت ؛ فاشتراها ، فلم ير شيئاً مما وصف ، فرجع إليه ، فقال : لم أَرَ فيها شيئاً مما وصفتَها به ، قال : ما كذبْتُك ، قال : أقلني . قال : نعم .

* * * *

٥ ــ قال القرشيُّ : وحدثني أبو القاسم السُّلَمي ، عن غير واحد من أشياخه ، قال : إنَّ شُريحاً خرج من عند زياد وهو مريضٌ ، فأرسل إليه مسروقُ بنُ الأجدع رسولاً : كيف وجدتَ الأمير ؟ قال : تركته يأمُرُ وَيَنْهَى ، قال : يأمُرُ بالوصية ويَنْهى عن النِّيَاحَة .

* * * *

قال الشيخ :

٦ ــ وقد رُوينا أن عَدِيَّ بنَ أرطاة أتى شُرَيْحاً وهو في مجلس القضاءِ ، فقال لشريح : أين أنت ؟ قال : بينك وبين الحائط . قال : اسمع منِّي . قال : لهذا جلستُ مجلسي ، قال : إني رجلٌ من أهل الشام ، قال : الحبيبُ القريب ، قال : وتزوجت امرأة من قومي ، قال : بارك الله لكَ بالرِّفاء والبنين ؛ قال : وشرطتُ لأهلها ألاَّ أُخْرجَها ، قال : الشرطُ أَمْلَك ، قال : وأُريدُ الخروج ، قال : في حفظ اللهِ . قال : اقض بيننا . قال : قد فعلت .

* * * *

٧ ــ أنبأنا يحيى بن ثابت ، عن صالح بن أحمد العِجْلي ، قال : حدثني أبي ، قال : دخل على إياس بنِ مُعاوية ثلاثُ نسوة ، فقال : أمّا واحدة فمُرضع ، والأُخرى بكر ، والأخرى ثيب ، فقيل له : بم علمتَ ؟ قال : أما المرضع فإنها لما قعدت أمسكت ثديها بيدها ، وأما البكر فلما

دخلت لم تلتفت إلى أحد ، وأما الثيّب فلما دخلت رمقت بعينها يميناً وشمالاً .

وقد رويت هذه الحكاية على وجه آخر ، وذاك الوجه أحسن .

* * * *

٨ ــ أنبأنا عبد الوهاب بن المبارك ، أن أربع نسوة تقدّمن إلى إياس بن معاوية ، فلما قمن على إياس ، قال : أما إن إحداكن حامل ، والأخرى مرضع ، والأخرى بكر ، والأخرى ثيب ؛ فنظروا إلى ذلك ، فوجدوه كما قال ؛ قالوا : كيف عرفت ؟ قال : أما الحامل فكانت تكلمني وترفع ثوبها عن بطنها ، فعلمت أنها حامل ، وأما المرضع فكانت تكلمني وتضرب ثدييها ، فعلمت أنها مرضع ؛ وأما الثيّب فكانت تكلمني وعينها في عيني ، فعلمت أنها ثيّب ، وأما البكر ، فكانت تكلمني وعينها إلى الأرض ، لا ترفع طَرْفَها ، فعلمت أنها بكر .

* * * *

٩ ــ أنبأنا أبو بكر ابن أبي طاهر ، عن روح بن أبي الحسين القيسيّ ، قال : استودع رجلٌ رجلاً من أبناء الناس مالاً ، وكان أميناً لا بأس به ، وخرج المستودِع إلى مكة ، فلما رجع طلبه ، فجحده ، فأتى إياساً فأخبره ، فقال له إياس : أَعَلِم أنك أتيتني ؟ قال : لا ، قال : فنازعتَهُ عند أحد ؟ قال : لا ، لم يعلم أحدٌ بهذا . قال : فانصرف واكتُم أمرك ، ثم عد إليّ بعد يومين ؛ فمضى الرجلُ ، فدعا إياسٌ أمينَه ذلك ، فقال : قد حضر مالٌ كثيرٌ أُريد أن أُسلِّمه إليك ، أفحصينٌ منزلك ؟ قال : نعم ، قال : فأعدّ موضعاً للمال وقوماً يحملونه ، وعاد الرجل إلى إياس ، فقال له : انطلق إلى صاحبك ، فاطلب المال ؛ فإن أعطاك فذاك ، وإن جحدك فقل له إني أُخبر القاضي ، فأتى الرجلُ صاحبَه ، فقال : مالي وإلاّ أتيتُ القاضي وشكوت إليه وأخبرته ما جرى ؛ فدفع إليه ماله ، فرجع الرجل إلى إياس ، فقال : قد أعطاني المالَ ؛ وجاءَ الأمينُ إلى إياس لِوَعْدِهِ ، فزبره وانتهره ، وقال : لا تقربني يا خائن .

* * * *

١٠ ــ وذكر الجاحظ أن إياس بن معاوية نظر إلى صَدْعٍ في أرض ، فقال : تحت هذا دابَّةٌ ، فنظروا فإذا حية ، فقيل له : من أين علمتَ ؟ قال : رأيتُ ما بين الآجُرَّتين ندّياً من بين جميع الرَّحْبة فعلمت أن تحتها شيئاً يتنفّس .

* * * *

١١ ـ قال الجاحظ : حجّ إياسٌ بن معاوية ، فسمع نُباح كلبٍ ، فقال : هذا كلب مَشْدُود ؛ ثم سمع نُباحه ، فقال : قد أُرسل ؛ فانتهوا إلى الماءِ فسألوهم ، فكان كما قال ، فقيل له : من أين علمت ؟ قال : كان نُباحُه وهو موثق يُسْمَعُ من مكانٍ واحد ؛ فلما أُطْلِقَ ، سمعتُه يَقرُبُ مرّة ويبعدُ أُخرى .

* * * *

١٢ ـ ومَرّ إياسٌ ليلةً بماءٍ ، فقال : أسمعُ صوتَ كلبٍ غريبٍ ، فقيل له : كيف عرفتَ ؟ قال : بخضوع صوتِه وشدّة نُباح الآخرين ؛ فسألوا ، فإذا كلبٌ غريبٌ والكلاب تنبحه .

* * * *

١٣ ـ أخبرنا عبد الرحمن بن محمد ، عن أبي سَهْل الرّازي ، قال : لم يُشْرَك في القضاء بين أحدٍ قطُّ إلاَّ بين عبيد الله بن الحسن العنبري وبين عمر بن عامر على قضاءِ البصرة ، وكانا يجتمعان جميعاً في المجلس وينظران جميعاً بين الناس ، قال : فتقدم إليهما قوم في جارية لا تثيبُ[١] ، فقال فيها عمر بن عامر : هذه فضيلة ؛ وقال عبيد الله بن الحسن : كلُّ ما خالف ما عليه الخِلْقةُ فهو عَيْب .

* * * *

١٤ ـ أخبرنا محمد بن عبد الوهاب ، عن يزيد بن هارون ، قال : تقلَّد القضاءَ بواسطَ رجلٌ ثقة كثيرُ الحديث ، فجاءَ رجلٌ ، فاستودع بعضَ الشهود كيساً مختوماً ذكر أنَّ فيه ألْفَ دينار ، فلما حصل الكيسُ عند الشاهد وطالت غيبةُ الرجل قدّر أنه قد هلك ، فهمّ بإنفاق المال ، ثم دبّر وفتق الكيس من أسفله ، وأخذ الدنانير وجعل مكانها دراهم ، وأعاد الخياطة كما كانت ، وقُدّرَ أنَّ الرجل وافى وطالب الشاهد بوديعته ، فأعطاه الكيس بخَتمه ، فلما حصل في منزله فض ختمه ، فصادف في الكيس دراهم ، فرجع إلى الشاهد ، فقال له : عافاك الله ! اردُد عليّ مالي ، فإنّي استودعتُك دنانير والذي وجدتُ دراهم مكانها ؛ فأنكرَ ذلك ، فاستَعْدَى عليه القاضي المقدَّم ذكره ، فأمر بإحضار الشاهد مع خَصْمه ، فلما حضرا سأل الحاكمُ : منذ كم

(١) أي : تبقى بكراً أبداً مهما جومعت .

أُودعتَه هذا الكيس ؟ قال : منذ خمس عشرة سنة ، فأُخذ القاضي الدّراهم ، فقرأ سِكَّتها ، فإذا هي دراهم بينها ما قد ضُرب منذ سنتين وثلاث ونحو ذلك ، فأَمره أَن يَدفع الدنانيرَ إليه ، فدفعها إليه وأَسقطه ، وقال له : يا خائن ! ونادى منادِيه : أَلا إنَّ فلان القاضي قد أَسقط فلانَ بن فلان الشاهد ، فاعلموا ذلك ، ولا يغترَّنَّ به أَحدٌ بعد اليوم ، فباع الشاهدُ أَملاكه بواسط وخرج عنها هارباً ، فلم يُعلم له خبرٌ ولا أُحِسّ منه أَثر .

* * * *

١٥ — أَخبرنا أَبو محمد القرشي ، قال : استودع رجلٌ رجلاً مالاً ، ثم طلبه فجحده ، فخاصمه إلى إياس بن معاوية ، فقال الطالب : إنِّي دفعتُ المالَ إليه ، قال : ومَنْ حَضَرَ ؟ قال : دفعتُه في مكان كذا كذا ، ولم يحضُرنا أَحدٌ . قال : فأَيُّ شيء في ذلك الموضع ؟ قال : شجرة ، قال : فانطلق إلى ذلك الموضع وانظر الشجرة ، فلعل الله تعالى يوضح لك هناك ما يُتبيَّن به حقَّك ، لعلك دفنتَ مالَكَ عند الشجرة ونسيتَ ، فتتذكر إذا رأَيتَ الشجرة ؛ فمضى الرجل ، وقال إياس للمطلوب : اجلس حتَّى يرجعَ خصمُك ، فجلس ، وإياسُ يقضي وينظر إليه ساعةً ، ثم قال له : يا هذا ! أَتُرى صاحبَك بلغ موضع الشجرة التي ذكر ؟ قال : لا . قال : يا عدوّ الله ! إنَّك لخائن . قال : أَقلني أَقالك الله ؛ فأَمر أَن يُحْتَفظ به حتى جاءَ الرجل ، فقال له إياس : قد أَقرّ بحقِّك ، فخذه .

* * * *

١٦ — وحدّثني أَبو الحسن علي بن عبد العزيز بن السَّمَّاك ، قال : اختصم إلى قاضي القضاة الشامي يوماً رجلان وهو بجامع المنصور ، فقال أَحدهما : إنِّي أَسلمتُ إلى هذا عشرة دنانير ، فقال للآخر : ما تقولُ ؟ قال : ما أُسْلِم إليّ شيءٌ . فقال للطالب : هل لك بيّنةٌ ؟ قال : لا . قال : ولا سلَّمتها إليه بعينِ أَحد ؟ قال : لا ، لم يكن هناك إلاَّ الله عزَّ وجل ، قال : فأَين سلَّمتَها إليه ؟ قال : بمسجد بالكَرْخ ، فقال للمطلوب : أَتحْلِف ؟ قال : نعم ، قال للطالب : قم إلى ذلك المسجد الذي سلَّمْتَها إليه فيه ، وائتني بورقةٍ من مُصحف لأُحلِّفه بها ؛ فمضى الرجلُ واعتقل القاضي الغريمَ ، فلما مضت ساعةً التفت القاضي إليه ، فقال : تظنّ أَنه قد بلغ ذلك المسجد ؟ فقال : لا ما بلغ إليه ؛ فكان هذا كالإقرار ، فأَلزمه بالذهب ، فأَقرّ به .

* * * *

١٧ ــ أخبرنا عبد الرحمن بن محمد ، عن أبي بكر الجرجاني ، قال : سمعت أبا العيناء يقول : ما رأيتُ في الدنيا أقومَ على أدبٍ من ابن أبي دُؤاد ، ما خرجتُ من عنده يوماً قط ، فقال : يا غلام خذ بيده ، بل كان يقول : يا غلامُ ، اخْرج معه . فكنت أفتقدُ هذه الكلمة عليه ، فلا يخلّ بها ولا أسمعها من غيره .

* * * *

١٨ ــ أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزاز ، عن أبي حازم القاضي يقول : سمعتُ أبي يقول : وُلي يحيى بن أكثم قضاءَ البصرة وسنّه عشرون أو نَحوها ، فاستصغره أهلُ البصرة ، فقال له أحدهم : كم سِنُو القاضي ؟ قال : فعلم أنه قد استصغره ، فقال له : أنا أكبرُ من عَتَّاب ابن أسِيد الذي وجّه به النبي ﷺ قاضياً على أهل مكة يوم الفتح ، وأنا أكبر من مُعَاذ بن جبل الذي وجّه به النبي ﷺ قاضياً على أهل اليمن ، وأنا أكبر من كعب بن سُور الذي وجّه به عمر بن الخطاب قاضياً على أهل البصرة .

* * * *

١٩ ــ أخبرنا عبد الرحمن بن محمد ، قال : حدّثني يحيى بن اللّيث ، قال : باع رجلٌ من أهل خراسان جِمَالاً بثلاثين ألف درهم من مرزبان المجوسي وكيل أمّ جعفر ، فمطله بثمنها وحَبَسهُ ، فطال ذلك على الرجل ، فأتى بعضَ أصحاب حفص بن غياث فشاوره ، فقال : اذهب إليه ، فقل له : أعطني ألف درهم وأحيلُ عليك بالمال الباقي وأخْرجُ إلى خراسان ؛ فإذا فعل هذا فأتِني حتى أشير عليك ، ففعل الرجلُ فأتى مَرْزُبانَ وأعطاه ألفَ درهم ، فرجع إلى الرجل فأخبره ، فقال : عُد إليه ، فقل له : إذا ركبتَ غداً فطريقك على القاضي ، فأحْضرُ وأوكّلُ رجلاً بقبضِ المال وأخْرُج ، فإذا جلس إلى القاضي فادّع عليه بما بقي لك من المالِ ، ففعل ذلك ، فحبسه القاضي ، فأخرجتْه أمُّ جعفر ، وقالت لهارون : قاضيك حَبَس وكيلي ، فمره لا ينظر في الحكم ؛ فأمر لها بالكتاب ، وبلغ حفصاً الخبرُ ، فقال للرجل : أحضر لي شهوداً حتى أسجّل لك على المجوسيّ قبل ورود كتاب أمير المؤمنين ؛ فورد كتاب أمير المؤمنين ، فقال للرسول : مكانَك ؛ فلما فرغ من السِّجل ، أخذ الكتاب فقرأه ، وقال للخادم : اقرأ على أمير المؤمنين السَّلام ، وأخبره أنَّ كتابَهُ ورد وقد أنفذتُ الحكم .

* * * *

٢٠ ــ أخبرنا محمد بن أبي منصور ، قال : كان المطَّلبُ بن محمد الحَنْطَبيّ على قضاءِ مكة ، وكان عنده امرأة قد مات عنها أربع أزواج ، فمرض مرضَ الموت ، فجلست عند رأسه تبكي ، وقالت : إلى من تُوصي بي ؟ قال : السادس الشقي .

* * * *

٢١ ــ أخبرنا محمد بن عبد الرحمن ، عن أبي علي المعدّل ، عن مكرم بن بكر ، وكان من فضلاء الرجال وعلمائهم ، قال : كنت في مجلس أبي حازم القاضي ، فتقدَّمَ رجلٌ شيخٌ ومعه غلام حَدَثٌ ، فادّعى الشيخ عليه ألف دينار عيناً دَيْناً ، فقال له : ما تقول ؟ فأقرّ . قال للشيخ : ما تشاء ؟ قال : حبسه ؛ فقال للغلام : قد سمعت ؛ فهل لك في أن تنقده البعضَ وتسأله إنظارك ؟ قال : لا ، فقال الشيخ : إن رأى القاضي أن يحبسه ؛ فتفرّس أبو حازم بينهما ساعة ، ثم قال : تلازَما إلى أن أنظر بينكما في مجلسٍ آخر .

فقال : قلت لأبي حازم ، وكانت بيننا أنسيّة : لِمَ أخَّرَ القاضي حَبْسَهُ ؟ فقال : ويحك ! إني أعرف في أكثر الأحوال في وجوه الخصوم وجهَ المحقّ من المبطل ، وقد صارت لي بذلك دُرْبة لا تكاد تخطىء ، وقد وقع لي أن سماحة هذا بالإقرار على بليّة أمرٌ يبعد عن الحقّ ، وليس لي في تلازمهما بطلان حقّ ، ولعله ينكشف لي من أمرهما ما يكون على وثيقة مما أُحكم بينهما به ؛ أما رأيت قلة تعاصيهما في المناظرة وقلة اختلافهما وسكون أتباعهما ؛ مع عظم المال ؟! وما جرت عادة الأحداثِ بقرض التورع حتى يقرّ مثل هذا طوعاً عجلاً بمثل هذا المال .

قال : فنحن كذلك نتحدّث ، إذِ آستُؤْذِنَ على أبي حَازم لبعض وجوه الكَرْخ منِ مياسير التّجار ، فأُذِنَ له ، فدخل فسلّم ، ثمّ قال : قد بُليت بابن لي حَدَثٍ يتقايَن ، فيتلِفُ كلَّ ما يَظْفَرُ به من مالي في القيان عند فلان المُقَيِّن ، فإذا منعتُهُ احتال ، فيضطرني إلى الالتزام غرمٌ لَه ، وإن عددت ذلك طال ، وأقربه أن قطب المُقَيِّن يطالبه بألف دينار عليه دَيْنَاً حالاً ، وقد بلغني أنه تقدّم إلى القاضي ليقوّله بها فَيُحْبَس ، وأَقَعُ مع أمّه فيما ينغّص عيشي إلى أن أزن عنه ذلك للمقيِّن ، فإذا قبضه المقيِّن يحاسبه به من الحرفة ، ولما سمعت ذلك بادرت إلى القاضي لأشرح له الأمر فيداويه بما يشكره الله له ، فجئت ووجدتهما على الباب .

فحين سمع أبو حازم ذلك تبَسَّم ، وقال لي : كيف رأيتَ ؟ فقلت : هذا فضل الله على

القاضي ، فقال : عليَّ بالغلام والشيخ ؛ فدخلا ، فأذهب أبو حازم الشيخ ، ووعظ الغلام ، فأقرَّ ، وأخذ الرجلُ ابنه ، وانصرفوا .

* * * *

قال المؤلف :

٢٢ ــ وبَلَغني أنَّ رجلاً جاءَ إلى أبي حازم ، فقال له : إنَّ الشيطانَ يأتيني ، فيقول : إنك قد طلقتَ زوجتك ويشكّكني ، فقال له : أوَ ليس قد طَلَّقتها ؟ قال : لا ، قال : ألم تأتني أمس فطلقتَها عندي ؟ فقال : والله ما جئتُك إلاَّ اليوم ، ولا طلقتها بوجه من الوجوه ، قال : فاحلف للشيطان إذا جاءَك كما حلفتَ لي وأنت في عافية .

* * * *

٢٣ ــ أنبأنا محمد بن عبد الباقي أنَّ قاضياً من القضاة سألَتْهُ زوجتُه أن يبتاع لها جاريةً ، فتقدم إلى النخّاسين بذلك ، فحملوا إليه عدةَ جوارٍ ، فاستحسن إحداهُنَّ ، فأشار على زوجته بها ، وقال : أبْتَاعُها لَكِ من مالي ؟ فقالت : مالي إليه حاجة ، ولكن خُذْ هذه الدنانير فابْتِعْها لي بها ؛ وأعطته مئة دينار ، فأخذها ، فعزَلَها في مكانٍ ، وخرج فاشتراها لنفسه ، وأعطى ثمنها من ماله ، وكتب عهدتها باسمه ، وأعلم الجارية بذلك سِرّاً ، واستكتمها ، فكانت زوجتُه تستخدمها ، فإذا أصاب خَلْوة من زوجته وطِيء الجارية ، فاتفق يوماً أنها صادفتْه فوقها ، فقالت له : ما هذا يا شيخَ سُوءٍ زانٍ ؟ أما تتَّقِي الله ؟ أما أنت من قُضاة المسلمين ؟ فقال : أمّا الشيخ فنعم ، وأما الزّنا فمعاذَ الله ؛ وأخرج عهدةَ الجارية باسمه ، وعرّفها الحيلةَ ، وأخرج دنانيرَها بخَتْمها ، فعرفت صحّةَ ذلك ، ولم تزل تُداريه حتى باعها .

* * * *

٢٤ ــ أنبأنا محمد بن أبي طاهر قال : سمعتُ قاضي القضاة أبا السّائب يقول : كان ببلدنا همذانَ رجلٌ مستورٌ ، فأحبّ القاضي قبولَ قوله ، فسأل عنه ، فزُكّيَ له سرّاً وجهراً ، فراسله في حضور المجلس ليقبلَ قولَه ، وأمر بأخذ خطّه في كُتُبٍ ليحضر فيقيم الشهادة فيها ، وجلس القاضي ، وحضر الرجلُ مع الشهود ، فلما أراد إقامة الشهادة لم يقبلْه القاضي ، فسُئل القاضي

عن سبب ذلك ، فقال : انكشف لي أنه مُرَاءٍ ، فلم يَسَعْني قبولُ قوله ، فقيل له : وكيف ؟ قال : كان يدخلُ إليّ في كل يوم ، فأَعدُّ خطواتِه من حيث تقعُ عيني عليه من داري إلى مجلسي ، فلما دعوتُه اليوم للشهادة جاءَ فعددتُ خُطاه من ذلك المكان فإذا هي قد زادت خطوتين أو ثلاثاً ، فعلمتُ أنه متصنِّعٌ ؛ فلم أقبله .

* * * *

٢٥ ــ قال أبو بكر الصوليّ : حدّثنا أبو العيناء ، قال : كان الأَفشين يحسُدُ أبا دُلَف ويُبغضه للفروسية والشجاعة ، فاحتال عليه حتى شُهِد عليه عنده بخيانة وقَتْل ، فأَحضر السيَّافَ ، فبلغ ابن أَبي دُؤَاد ، فركب مع من حَضَرَ من عُدُوله ، فدخل على الأَفشين ، ثم قال : إني رسولُ أَمير المؤمنين إليك ، وقد أَمرك أَلاَّ تُحدث في القاسم بن عيسى حَدَثاً حتى تحمله إليه مُسَلَّماً . ثم التفَ إلى العُدول ، فقال : أَشهدوا أَنّي قد أَدّيتُ الرسالة عن أَمير المؤمنين إليه ؛ فلم يُقْدِمْ الأَفشين عليه ، وسار ابن أَبي دُؤَاد إلى المعتصم ، فقال : يا أَمير المؤمنين ! لقد أَدّيتُ عنك رسالةً لم تَقُلْها لي ، ما أَعتدُّ بعملٍ خير منها ، وإني لأَرجو لك الجنَّة بها ؛ ثم أَخْبَرَه الخبَرَ ، فصوّب رأيه ، ووجه من أَحْضر القاسم ، فأَطلقه ووهب له ، وعنَّف الأَفشينَ فيما عزم عليه .

* * * *

٢٦ ــ قال ابن قُتَيْبَة : شهد الفَرَزْدَقُ عند بعض القضاة ، فقال : قد أَجزْنا شهادة أَبي فراس وزيدُونا ؛ فقيل له حين انصرف : والله ما أَجازَ شَهَادتَك .

* * * *

٢٧ ــ تقدم رَجلان إلى أَبي ضَمْضَم القاضي ، فادّعى أَحدُهما على الآخر طُنْبُوراً ، وأَنكر المدَّعَى عليه ، فقال المدَّعِي : لي بينةٌ ؛ فجاءَ برجلين فشهدا ، فقال المُدَّعَى عليه : أَيّها القاضي ! سَلْهُما عن صناعتهما ، فقال أَحدهما : أَنا نَبّاذٌ ، وقال الآخر : أَنا قَوّاد ؛ فالْتَفَتَ القاضي إلى المدَّعى عليه ، فقال له : أَتريد على طُنبورٍ أَعْدَلَ من هذين ؟ قُمْ فأَعْطِهِ طنبوره .

* * * *

٢٨ ــ اختصم رجلان في شاةٍ ، وكلُّ واحدٍ منهما قد أَخذ بأُذنها ، فجاءَ رجلٌ ، فقالا : قد رضينا بحكمك . فقال : إن رضيتما بحكمي فليحلفُ كلُّ واحد منكما بالطلاق أَنه لا يرجع

فيما أَحكمُ به ؛ فحلفا ، فقال : خلِّياها ؛ فخلَّياها ، فأَخذ بأُذنها وسَاقَهَا ، فجعلا ينظران إليه ولا يقْدران على كلامه .

* * * *

قال المؤلف :

٢٩ — بلغنا عن أَبي عمر القاضي أَنه قلَّد بعضَ الأَعيان القضاءَ ، فذُكِر عنده بأَشياءَ لا تليقُ بالقضاءِ ، فأَراد صَرْفه ، فعوتب على ذلك ، وقيل له : إِن صحَّ عندك ما رُمي به فاعزله ، فقال : ما صحّ عندي ، ولا بدّ من صرفه ، قيل : ولِمَ ذاك ؟ قال : أَليس قد احتمل عِرْضُه أَن يقال فيه مثل هذا ؟ فشبّهت صورته من إِذا رُمِيَ بهذا يغارّ أَن يُشَكَّ فيه ؟ والقضاءُ أَرقّ من هذا ؛ فصرفه .

* * * *

٣٠ — دخل أَحمد بن أَبي دُؤاد على الواثق ، فقال له : كان عندي الساعَة محمد بن عبد الملك الزَّيات ، فذكَرَك بكلِّ قبيح ، فقال : الحمد لله يا أَميرَ المؤمنين الذي أَحوجه إِلى الكذب عن قول الصّدق عليَّ ، ورغَّبني عنه .

* * * *

٣١ — تَقَدَّم رجلٌ إِلى بعضِ القُضاة ليشهدَ في كتاب بمهرٍ ، فقال له القاضي : ما اسمُك ؟ قال : المسيَّب . فقال : اليومَ لا .

* * * *

الباب الثالث عشر
في
سياق المنقول من ذلك عن علماء هذه الأُمة وفقهائها

فمن المنقول عن **الشَّعْبيّ** :

١ ــ قال مجاهد : دخل الشَّعبيُّ الحَمّام ، فرأى داودَ الأَزدي بلا مئزرٍ ، فغمّض عينيه ، فقال داود : متى عَمِيتَ يا أبا عمرو ؟ قال : منذ هتك الله سِتْرك .

* * * *

٢ ــ ودخل الشَّعْبيُّ على عبد الملك بن مروان ، قال : فجعل يُلْقِمُني بيده ، ويقول : يا شعبيُّ ! لحديثُك أشْهى إليّ من الماءِ البارد ، ثم قال : كم عطاءَك ؟ فقلت : أَلفي درهم . فجعل يُسَارُّ أَهلَ الشام ويقول : لحن العراقيُّ ؛ ثم قال : كم عطاؤك ؟ لأَردَّ قولي فيغلطني فقلت : أَلفا درهم ، فقال : ألم تقل أَلفي درهم ، فقلت : لحنتَ يا أَمير المؤمنين فلحنتُ لأَني كرهتُ أَن تكون راجلاً وأَكون فارساً . فقال : صدقتَ ؛ واستحيا .

* * * *

ومن المنقول عن **إبراهيم النَّخَعيّ** :

٣ ــ قال الشيخ : حدثنا المبارك بن علي ، قال : حدثنا جرير ، عن مُغيرة ، قال : كان إبراهيم إذا طلبه إنسانٌ لا يحبّ أَن يلقاه ، خرجتِ الخادمُ فقالت : اطلبُوهُ في المسجد .

* * * *

٤ ــ قال القرشيُّ : وحدّثني علي بن الجعد ، قال : أَتاه رجلٌ فقال : إنِّي ذكرتُ رجلاً

بشيءٍ فبَلَغَهُ عنّي ، فكيف لي أن أعتذر إليه ؟ قال : تقول : والله إن الله ليعلم ما قلتُ من ذلك من شيء .

* * * *

٥ ـ أنبأنا محمد بن عبد الملك عن رجلٍ قد سمّاه ، قال : كنا إذا خرجنا من عند إبراهيم ، يقول : إن سُئلتم عنّي فقولوا : لا ندري أين هو ، فإنكم إذا خرجتُم لا تدرون أين أكون .

* * * *

ومن المنقول عن **الأعمش** :

٦ ـ عن جرير ، قال : جئنا الأعمش يوماً فوجدناه قاعداً في ناحية ، فجلسنا في ناحيةٍ أُخرى ، وفي الموضع خليج من ماء المطر ، فجاءَ رجل عليه سواد ، فلما بصر بالأعمش وعليه فروة حقيرة قال : قم عبّرني هذا الخليج ؛ وجذب بيده ، فأقامه وركبه ، وقال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لنا هَذَا وما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِين ﴾ [٤٣ سورة الزخرف / الآية : ١٣] فمضى به الأعمش حتى توسّط به الخليج ، ثم رمى به وقال : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مَنْزِلاً مُبَارَكاً ، وأَنْتَ خَيْرُ المُنْزِلِين ﴾ [٢٣ سورة المؤمنون / الآية : ٢٩] ثم خرج وترك المُسوَّد يتخبّطُ في الماءِ .

* * * *

٧ ـ أخبرنا محمد بن ناصر ، قال : كان الأعمشُ إذا صلّى الفجر جاءَه القُرَّاءُ فقرأوا ، وكان أبو حصين إمامَهُم ، فقال الأعمش يوماً : إنَّ أبا حُصَين يتعلَّم القراءَةَ منّا لا يقوم من مجلسه كلَّ يوم حتى يَفْرُغَ ويتعلَّم بغير شكر ؛ ثم قال لرجل ممن يقرأ عليه : إن أبا حُصَين يكثر أن يقرأ بالصَّافَّاتِ في صلاة الفجر ، فإذا كان غداً فاقرأ عليّ الصافّات واهمز الحوت ؛ فلما كان من الغد قرأ عليه الرجلُ الصَّافَّاتِ وهمز الحوتَ ، ولم يأخذ عليه الأعمش ، فلما كان بعد يومين أو ثلاثة قرأ أبو حصين بالصَّافات في الفجر ، فلما بلغ الحوتَ هَمز ، فلما فرغوا من صلاتهم ورجع الأعمش إلى مجلسه دخل عليه بعضُ إخوانه ، فقال له الأعمش : يا أبا فلان ! لو صلّيتَ معنا الفجر لعلمتَ ما لقي الحوتُ من هذا المحراب ؛ فعلم أبو حصين ما الذي فُعِل به ، فأمر بالأعمش ، فَسُحبَ حتى أُخرج من المسجد .

قال : وكان أبو حصين عظيم القدر في قومه ، من بني أسد .

* * * *

٨ ــ أخبرنا ابن ناصر ، قال : جاءَ رجلٌ إلى الأعمش ، فقال : يا أبا محمد ! اكتريتُ حماراً بنصف درهم ، فأتيتك لأسألك عن حديث كذا وكذا . فقال : اكترِ بالنصف الآخر وارجع .

* * * *

ومن المنقول عن **أبي حنيفة** رضي الله تعالى عنه :

٩ ــ ما رواه ابن المبارك ، قال : رأيتُ أبا حنيفة في طريق مكة ، وشُوِيَ لهم فصيلٌ سمينٌ ، فاشتَهَوْا أن يأكلوه بِخَلٍّ ، فلم يجدوا شيئاً يصبّون فيه الخَلّ ، فتحيرُوا ، فرأيتُ أبا حنيفة وقد حفر في الرمل حفرةً ، وبسط عليها السُّفْرة ، وسكب الخَلَّ على ذلك الموضع ، فأكلوا الشواءَ بالخَلّ ؛ فقالوا له : تُحْسِنُ كلَّ شيءٍ . فقال : عليكم بالشكر ، فإنَّ هذا شيءٌ أُلهمتُه لكم فضلاً من الله عليكم .

* * * *

١٠ ــ أخبرنا أبو سليمان الجوزجاني ، عن محمد بن الحسن ، قال : دخل اللّصوص على رجل ، فأخذوا متاعه وحلَّفُوه بالطلاق ثلاثاً ألاَّ يُعلم أحداً ، قال : فأصبح الرجلُ وهو يرى اللصوص يبيعون متاعه وليس يقدر يتكلّم من أجل يمينه ، فجاءَ الرجلُ يشاور أبا حنيفة ، فقال له أبو حنيفة : أَحْضِرني إمامَ حيِّك والمؤذّنَ والمستورين منهم ؛ فأحضره إيّاهم ، فقال لهم أبو حنيفة : هل تحبّون أن يردّ الله على هذا متاعه ؟. قالوا : نعم . قال : فاجمعوا كلَّ ذي فُجْرٍ عندكم وكلَّ متّهم فأدخلوهم في دارٍ أو في مسجد ، ثم أخرجوا واحداً واحداً ، فقولوا : هذا لِصُّك ؟ فإن كان ليس بِلِصّه قال ، وإن كان لِصَّهُ فليسكت ، فإذا سكت فاقبضوا عليه . ففعلوا ما أمرهم به أبو حنيفة ، فردّ الله عليه جميعَ ما سُرِق منه .

* * * *

١١ ــ أخبرنا الحسين الأشقر ، قال : كان بالكوفة رجل من الطالبيّين ، من خيارهم ، فمرّ بأبي حنيفة ، فقال له : أين تريد ؟ قال : أُريد ابن أبي ليلى ، قال : فإذا رجعتَ فأُحبُّ

أن أَراك ؛ وكانوا يتبركون بدعائه ، فمضى إلى ابن أَبي ليلى ثلاثةَ أَيام ، حتى إذا رجع مرّ بأَبي حنيفَة ، فدعاه وسلَّم عليه ، فقال له أَبو حنيفة : ما جاءَ بك ؟ ثلاثة أَيام إلى ابن أَبي ليلى ؟! فقال : شيءٌ كتمته عن الناس ، فأَملتُ أَن يكون لي عنده فرجٌ ؛ فقال أَبو حنيفة : قل ما هو ؟ قال : إني رجل مُوسِر ، وليس لي من الدنيا إلاَّ ابنٌ كلَّما زوجته امرأَةً طَلَّقَها ، وإن اشتريتُ له جاريةً أَعتقها ، قال : فما قال لك ؟ قال : قال لي : ما عندي في هذا شيءٌ ، فقال : أَبو حنيفةَ : اقْعُدْ عندي حتى أُخرجَك من ذلك ؛ فقرّب إليه ما حضر عنده ، فتغدّى عنده ، ثم قال له : ادخل أَنت وابنُك إلى السّوق ، فأَيّ جارِيةٍ أَعجبتْهُ ونالت يَدُك ثَمنَها فاشترها لنفسك ، ولا تشترها له ، ثم زوّجها منه ، فإن طلّقها رجعتْ إليك ، وإن أَعتقها لم يَجُزْ عتقه ، وإن ولدتْ ثَبَتَ نسبُهُ إليك ، قال : وهذا جائز ؟ قال : نعم ، هو كما قلت ؛ فمرّ الرجل إلى أَبي ليلى فأَخبره ، فقال : هو كما قال لك .

* * * *

١٢ ــ وعن أَبي يوسف ، قال : دعا المنصورُ أَبا حنيفة ، فقال الربيعُ حاجب المنصور ، وكان يعادي أَبا حنيفة : يا أَمير المؤمنين ! هذا أَبو حنيفةُ يخالفُ جَدَّك ، كان عبدُ الله بن عبَّاس يقول : إذا حلف على اليمين ثم استثنى بعد ذلك بيوم أَو يومين جاز الاستثناءُ ، وقال أَبو حنيفة : لا يجوز الاستثناءُ إلاَّ متصلاً باليمين ؛ فقال أَبو حنيفة : يا أَمير المؤمنين ! إن الرَّبيعَ يزعم أَن ليس لك في رقاب جندك بيعةٌ ؛ قال : كيف ؟ قال: يحلفون لك ، ثم يرجعُون إلى منازلهم فيستثنُون ، فتبطل أَيْمانُهم . فضحك المنصورُ ، وقال : يا ربيع ! لا تَعرض لأَبي حنيفة ؛ فلما خرج أَبو حنيفة ، قال له الربيع : أَردْتَ أَن تشيط بدمي ؟ قال : لا ، ولكنك أَردتَ أَن تشيط بدمي فخلَّصتُك وخلَّصتُ نفسي .

* * * *

١٣ ــ سمعت عبد الواحد بن غياث يقول : كان أَبو العباس الطوسيُّ سَيِّىءَ الرأْي في أَبي حنيفة ، وكان أَبو حنيفة يعرف ذلك ، فدخل أَبو حنيفة على أَبي جعفر أَمير المؤمنين ، وكثر الناس ، فقال الطوسيّ : اليوم أَقْتُل أَبا حنيفة ؛ فأَقبل عليه ، فقال : يا أَبا حنيفة ! إنَّ أَمير المؤمنين يدعو الرَّجُل منّا فيأْمره يضربُ عنق الرجل ، لا يدري ما يسعه إلا أَن يضربَ عنقه ؟ فقال : يا أَبا العباس ! أَمير المؤمنين يأْمر بالحق أَو بالباطل ؟ قال : بالحق ، قال : أَنفذ الحقّ حيث كان

ولا تسأل عنه . ثم قال أبو حنيفة لمن قَرُبَ منه : إن هذا أراد أن يُوثقني فربطته .

* * * *

١٤ ــ أخبرنا عليُّ بن عاصم ، قال : دخلتُ على أبي حنيفة وعنده حجّامٌ يأخذ من شَعْرِه ، فقال للحجام : تتبَّع مواضع البياض لا تزد ، قال الحجام : لا ، قال : ولم ؟ قال : لأنه يكثر ، قال : فتتبع مواضع السَّواد لعلَّه يكثُر .

* * * *

١٥ ــ حدثنا يحيى بن جَعْفَر ، قال : سمعتُ أبا حنيفة ، يقول : احتجت إلى ماءٍ بالبادية ، فجاءَني أعرابيٌّ ومعه قِرْبَة من ماءٍ ، فأبى أن يبيعنيها إلاَّ بخمسة دراهم ، فدفعت إليه خمسة دراهم وقبضت القربة ، ثم قلت : يا أعرابي ما رأيك في السَّوِيق ؟ فقال : هات ؛ فأعطيته سَويقاً ملتوتاً بالزيت ، فجعل يأكل حتى امتلأ ، ثم عطش ، فقال : شَرْبة ؟ قلت : بخمسة دراهم ؛ فلم أنْقُصه من خمسة دراهم على قدح من ماءٍ ، فاسترْدَدْتُ الخمسة وبقي معي الماءُ .

* * * *

١٦ ــ حدَّثني علي بن أبي علي ، قال : كنت عند الحسن بن عليّ قاضي مرو ، فذكر أبو حنيفة وفطنته ، فقال : استودع رجلٌ من الحُجَّاج رجلاً بالكوفة وديعةً ، فحجّ ثم رجع ، فطلب وديعته ، فأنكر المستودَع ، وجعل يحلف له ، فانطلق الرجلُ إلى أبي حنيفة يشاوره ، فقال : لا تُعْلِم أحداً بجحوده .

قال : وكان المستودَع يجالس أبا حنيفة ، فخلا به ، وقال : إنَّ هؤلاءِ قد بعثوا يستشيروني في رجلٍ يصلح للقضاء ، فهل تَنْشَط ؟ فتمانع الرّجل قليلاً ، وأقبل أبو حنيفة يرغِّبُه ، فانصرف على ذلك وهو طمع ، ثم جاءَ صاحبُ الوديعة ، فقال له أبو حنيفة : اذهب وقل له : أ... نسيتَني ؟ أودعتُك في وقت كذا والعلامةُ كذا فإن لم تدفع إلي الوديعة ... بقضيتك .

قال : فذهب الرجلُ ، فقال له : نعم ؛ فدفع إليه الو... حنيفة : إنِّي نظرتُ في أمرك ، فرأيت أن أرفَع قدرك ولا أ... هذا .

* * * *

١٧ ــ أخبرنا بشر بن الوليد ، قال : كان في جوارِ أبي حنيفة فتى يغشى مجلس أبي حنيفة ويكثر الجلوس عنده ، فقال يوماً لأبي حنيفة : إنّي أريد التزويج إلى فلان من أهل الكوفة ، وقد خطبتُ إليهم ، وقد طلبوا منّي من المهر فوق وُسْعي وطاقتي ، وقد تعلَّقَتْ نفسي بالتزويج ؛ فقال أبو حنيفة : فاستخرِ الله تعالى وأَعْطِهِم ما يطلبونه منك ؛ فأجابهم إلى ما طلبوه ، فلما عقدوا النكاح بينهم وبينه جاءَ إلى أبي حنيفة ، فقال له : إنّي قد سألتهم أن يأخذوا مني البعضَ وليس في وسعي الكلُّ ، وقد أَبَوْا أن يحملوها إلاَّ بعد وفاء المَهْر كلّه ؛ فماذا ترى ؟ قال : احْتَلْ واقترض حتى تدخلَ بأهلك ، فإنَّ الأمر يكون أسهلَ عليك من تشدّد هؤلاءِ القوم ؛ ففعل ذلك ، وأقرضه أبو حنيفة فيمن أقرضه ، فلما دخل بأهله وحُمِلتْ إليه ، قال أبو حنيفة : ما عليك أن تظهر أنّك تريد الخروج عن هذا البلد إلى موضع بعيد ، وأنك تريد أن تسافر بأهلك معك ؛ فاكْترى الرجلُ جملين ، وجاءَ بهما ، وأظهر أنه يريد الخروج إلى خراسان في طلب المعاش ، وأنه يريد حمل أهله معه ، فاشتدّ ذلك على أهل المرأة ، وجاءُوا إلى أبي حنيفة ليسألوه يستفتوه في ذلك ، فقال لهم أبو حنيفة : له أن يخرجها إلى حيث شاءَ ، فقالوا له : ما يمكننا أن نَدَعَها تخرج ، فقال لهم أبو حنيفة : فأرضُوه بأن ردُّوا عليه ما أخذتموه منه ؛ فأجابوه إلى ذلك ، فقال أبو حنيفة للفتى : إنَّ القوم قد سمحوا أن يردُّوا عليك ما أخذوه منك من المهر ويبرءُوك منه ، فقال له الفتى : وأنا أريدُ منهم شيئاً آخر فوق ذلك ، فقال أبو حنيفة : أيما أحبُّ إليك : أن ترضى بهذا الذي بذلوه لك ، وإلاَّ أقرّت المرأةُ لرجل بِدَيْنٍ لا يمكنُك أن تحملها ولا تسافر بها حتى تقضي ما عليها من الدَّيْن ؟

قال : فقال الرجل : الله الله ؛ لا يسمعوا بهذا ، فلا آخذ منهم شيئاً ؛ فأجاب إلى الجلوس ، وأخذ ما بذلوه من المهر .

* * * *

١٨ ــ أنبأنا إسماعيل بن الدّقاق ، قال : بلغني أنَّ رجلاً من أصحاب أبي حنيفة أراد أن ج ، فقال أهل المرأة : نسأل عنه أبا حنيفة ؛ فأوصاه أبو حنيفة ، فقال : إذا دخلتَ عليّ يدك عَلَى ذكَرِك . ففعل ذلك ، فلما سألوه عنه ، قال : قد رأيتُ في يده ما قيمته عشرة رهم .

* * * *

١٩ ــ وبلغنا أنَّ رجلاً جاءَ إلى أَبي حنيفة ، فشكا له أنه دفن مالاً في موضع ولاَ يذكرُ الموضع ، فقال أَبو حنيفة : ليس هذا فقهاً فأَحتال لك فيه ، ولكن اذهب فصَلِّ الليلة إلى الغداة ، فإنك ستذكره إن شاءَ الله تعالى ؛ ففعل الرّجل ذلك ، فلم يمض إلا أَقلّ من ربع الليل حتى ذكر الموضع ، فجاءَ إلى أَبي حنيفة فأَعلمه ، فقال : قد علمتُ أَنَّ الشيطانَ لا يدعُك تصلّي حتى يذكِّركَ ، فهلاَّ أَتممتَ ليلتك شكراً لله عزَّ وجلَّ .

* * * *

ومن المنقول عن **ابن عون** :

٢٠ ــ قال أَبو بكر القرشي : حدثنا ابن مثنى : أَن ابنَ عون كان في جيشٍ ، فخرج رجلٌ من المشركين ، فدعا للبراز ، فخرج إليه ابنُ عون وهو متلثّم فقتله ثم اندس ، فجهد الوالي أَن يعرفه فلم يقدر عليه ، فنادى مناديه : أُعْزِمُ على من قتل هذا المشرك إلاَّ جاءَني ؛ فجاءَه ابنُ عونٍ فقال : وما على الرَّجل أَن يقولَ أَنا قتلتُه ؟! .

* * * *

٢١ ــ وعن يحيى بن يزيد قال : جاءَ شُرَطِيٌّ يطلبُ رجلاً من مجلس ابن عون ، فقال : يا أَبا عون ، فلاناً رأَيته ؟ قال : ما في كلِّ الأَيام يأْتينا ؛ فذهب وتركه .

* * * *

ومن المنقول عن **هشام بن الكلبي** :

٢٢ ــ أَخبرنا محمد بن أَبي السَّرِيّ ، قال : قال لي هشامٌ بن الكلبي : حفظتُ ما لم يحفظْه أَحدٌ ، ونسيتُ ما لم ينسَه أَحد ؛ كان لي عم يُعاتبُني على حفظ القرآن ، فدخلت بيتاً ، وحلفتُ أَلا أَخرج منه حتى أَحفظ القرآن ، فحفظته في ثلاثة أَيام ، ونظرت يوماً في المرآة ، فقبضت على لحيتي لآخذ ما دون القبضة فأَخذت ما فوق القبضة .

* * * *

ومن المنقول عن **عمارة بن حمزة** :

٢٣ ــ بلغنا عن عمارة بن حمزة أَنه دخل على المنصور ، فجلس على مرتبته المرسومة له ،

فقام رجل ، فقال : مظلوم يا أمير المؤمنين ، فقال : من ظلمك ؟ قال : عمارة ، غَصَبَني ضيعتي ؛ فقال المنصور : قم يا عمارة فاجلس مع خَصْمك ، قال : ما هو لي بخَصْم . قال : وكيف وهو يتظلَّم منك ؟ فقال : إن كانت الضيعة له لم أُنازِعْهُ فيها ، وإن كانت لي فقد تركتها له ، ولا أقوم من مجلس شرّفني أميرُ المؤمنين بالرفعة فيه فأُجلس في أدناه بسبب ضيعة .

* * * *

ومن المنقول عن **ابن المبارك** رضي الله عنه :

٢٤ ــ قال ابن حميد : عَطَس رجلٌ عند ابن المبارك فلم يحمد الله ، فقال له ابن المبارك : أي شيءٍ يقول القائل إذا عطس ؟ قال : الحمد لله ، قال : يرحمُك الله .

* * * *

ومن المنقول عن **أبي يوسف** رحمه الله تعالى :

٢٥ ــ حدثنا علي بن المحسِّن التَّنوخيّ ، عن أبيه ، قال : كان عند الرشيد جاريةٌ من جواريه وبحضرته عِقْد جَوْهر ، فأخذ يقلّبه ، ففقده ، فاتهمها به ، فسألها عن ذلك فأنكرت ، فحلف بالطلاق والعتاق والحجّ لتصدُقَنّه ، فأقامت على الإنكار ، وهو مُتَّهِمٌ لها ، وخاف أن يكون قد حَنث في يمينه ؛ فاستدعى أبا يوسف وقصّ عليه القصة ، فقال أبو يوسف : تُخَلِّيني مع الجارية وخادمٌ معنا حتى أُخرجَك من يمينك ؛ ففعل ذلك ، فقال لها أبو يوسف : إذا سألك أميرُ المؤمنين عن العقد فأنكريه ، فإذا أعاد عليك السؤال فقولي : قد أخذته ، فإذا أعاد عليك الثالثة فأنكري ، وخرج ؛ فقال للخادم : لا تقل لأمير المؤمنين ما جرى ، وقال للرشيد : سلها يا أمير المؤمنين ثلاث دَفَعَات متوالياتٍ عن العقد ، فإنها تصدقك ؛ فدخل الرشيد فسألها ، فأنكرت أول مرة ، وسألها الثانية فقالت : نعم قد أخذتُه ؛ فقال : أي شيء تقولين ؟ فقالت : والله ما أخذتُه ولكنه هكذا قال لي أبو يوسف ؛ فخرج إليه ، فقال : ما هذا ؟ قال : ياأمير المؤمنين ، قد خَرَجْتَ من يمينك لأنها أخبرتك أنها قد أخذَتْهُ ، وأخبرتك أنها لم تأخذه ، فلا يخلو أن تكون صادقة في أحد القولين ، وقد خرجتَ أنت من يمينك . فسُرّ ووصل أبا يوسف ، فلما كان بعد مدة وُجِد العِقْد .

* * * *

٢٦ — وبلغنا أنّ الرشيد قال لأبي يوسف : ما تقول في الفَالُوذَج واللَّوْزِينَج ، أيهما أطيب ، فقال : يا أمير المؤمنين ! لا أقضي بين غائبين حتى يَحْضُرا ، فأمر بإحضارهما ، فجعل أبو يوسف يأكل من هذا لقمة ومن ذاك أخرى ، حتى نصف جَامَيْهما ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ! ما رأيتُ خَصْمين أجدلَ منهما ، كلما أردت أن أسجّل لأحدهما أدلى الآخر بحجته .

* * * *

ومن المنقول عن **يزيد بن هارون** :

٢٧ — قال أحمد بن محمد ، عن يحيى بن سعيد القطان ؛ قال : قال لي يزيد بن هارون : أنت أثقلُ عندي من نِصْف رَحَى البَزْر ، قلت : يا أبا خالد ؟ لمَ لمْ تقلْ من الرَّحَى كلّه ؟ فقال : إنه إذا كان صحيحاً تدحرج ، وإذا كان نصفاً لم يرفع إلاّ بجهد .

* * * *

ومن المنقول عن **الإمام الشافعي** رضي الله عنه :

٢٨ — أخبرنا محمد بن ناصر ، حدثنا الحسن بن الصباح ، قال : لما أن قَدِمَ الشافعي إلى بغداد وافق عَقْدَ الرشيد للأمين والمأمون على العهد .

قال : فبكَّر الناس ليهنُّوا الرشيد ، فجلسوا في دار العامة ينتظرون الإذن ، فجعل الناسُ يقولون : كيف ندعو لهما ؟ فإنّا إذا فعلنا ذلك كان دعاءً على الخليفة ، وإن لم ندعُ لهما كان تقصيراً .

قال : فدخل الشافعي ، فجلس ، فقيل له في ذلك ، فقال : الله الموفّق ؛ فلما أُذِن دخل الناس ، فكان أوّل متكلّم الشافعيّ ؛ فقال :

لا قَصَّرا عَنْهَا وَلا بُلِّغْنَهَا حَتَّى يَطُولَ عَلَى يَدَيْكَ طِوَالُهَا

* * * *

٢٩ — أخبرنا إسماعيل بن أحمد عن أبي رَجاء : سمعتُ الرَّبيعَ يقول : مرض الشافعيُّ ، فدخلتُ عليه ، فقلت : يا أبا عبد الله ! قَوَّى الله ضَعْفَك ، فقال : يا أبا محمد ! والله لو قَوَّى

الله ضَعْفي على قُوَّتي أهلكني ، قلتُ : يا أبا عبد الله ! ما أردتُ إلا الخَيْر ، فقال : لو دعوتَ الله عَلَيَّ لعلمتُ أنك لم تُرِدْ إلاَّ الخير .

قلت : من فقه الشافعي رضي الله عنه أنَّه أخذ بظاهر اللفظ ، فعلم أنَّه إذا قَوِيَ الضَّعْفُ حصل الأذى ، وقد جاءَ في حديثٍ صحيحٍ عن النبي ﷺ ، أنه علَّم رجلاً دعاءً ، فقال : « قل اللَّهم قَوِّ في رضاك ضَعْفي » ، إلا أنَّ معناه قَوِّ ما ضَعُفَ ، وفي هذا نوع تجوّز ، والربيع تجوّز ، والشافعي قصد الحقيقة .

* * * *

٣٠ ـ أخبرنا إسماعيل ، عن الرّبيع ، قال : رأيتُ الشافعيّ وقد جاءَه رجل يسأله عن مسألةٍ ، فقال : من أهل صنعاءَ أنت ؟ قال : نعم . قال : فَلَعَلَّك حدّاد ؟ قال : نعم .

* * * *

٣١ ـ أنبأنا محمد بن أبي طاهر ، عن حَرْمَلة بن يحيى ، قال : سمعتُ الشافعي وقد سأله رجلٌ عن مسألة ، قال : حلفتُ بالطلاق إن أكلتُ هذه الثمرة أو رميتُ بها . قال : تأكُلُ نِصْفَها وتَرْمي نِصْفَها .

* * * *

قال المؤلّف : وهذا المنقولُ عن الشافعي هو قول أحمد بن حنبل في إحدى الروايتين عنه ، وقد ذكر أصحابنا من جنس هذه المسألة كثيراً لا يكاد يَتَنَبَّه له في الفتوى إلاَّ الفَطِنِ ، فنذكر منه هاهنا مسائل ، لأن ذكر مثل هذا يُنَبِّهُ الفِطَنَ .

فمنها :

٣٢ ـ إذا قال لزوجته وهي في ماءٍ : إنْ أقمتِ في هذا الماءِ فأنت طالقٌ ، وإن خرجت منه فأنت طالق ، فإننا ننظرُ ، فإن كان الماءُ جارياً ولا نيّة له لم تُطَلَّق ، سواء خرجت أو أقامت ، وإن كان راكداً فالحيلةُ أن تُحمل في الحال مكرهةً .

* * * *

٣٣ ــ فإن كانت على سُلَّم ، فقال لها : إن صَعِدْتِ فيه ، أو نزلتِ ، أو أقمتِ ، أو رَمَيْتِ نفسَك ، أو حَطَّكِ أحدٌ ، فأنت طالق ؛ فإنها تَنْتقِل إلى سُلَّم آخر .

* * * *

٣٤ ــ فإن أكل رُطَباً كثيراً ، ثم قال : أنت طالق إن لم تُخْبريني بعدد ما أكلتُ ، فخلاصُها أن تَعُدّ من واحد إلى عدد يتحقَّقُ أنَّ ما أكله قد دخل فيه .

* * * *

٣٥ ــ فإن أكل رُطَباً ، فقال لها : أنت طالق إن لم تُميِّزي نَوَى ما أكَلْتِ من نَوَى ما أكلتُ وقد اختلط ، فإنها تفرد كلَّ نواة على حدة .

* * * *

٣٦ ــ فإن قال لها : أنت طالقٌ إن لم تَصْدُقيني هل سرقت مني أم لا ؟ فإنها إذا قالت : سرقتُ ما سرقتُ ؛ لم تطلق .

* * * *

٣٧ ــ فإن كان له ثلاثُ زَوْجاتٍ ، فاشترى لهنّ خِمارَيْن ، فاختصَمن عليهما ؛ فقال : أنْتنَّ طوالقٌ إن لم تَخْتَمِرْ كلُّ واحدةٍ منكن عشرين يوماً في هذا الشهر ؛ فالوجه : أن تَخْتَمِرَ الكبرى والوسطى بالخمارين عشرةَ أيام ، ثم تدفع الكبرى الخمار إلى الصغرى ويبقى خمار الوُسطى إلى تمام عشرين يوماً ، ثم تأخذُ الكبرى خِمَار الوُسطى إلى تمام الشهر .

* * * *

٣٨ ــ ومثله : إذا سافر بالنِّسوة سفراً قَدْره ثلاثة فراسخ ومعه بَغْلان ، فاختصمن على الركوب ، فحلف بالطلاق : لتركبنَّ كلُّ واحدة منكن فرسخين ؛ فتركب الكبرى والوُسْطى فرسخاً ، ثم تنزل الوسطى وتركب الكبرى مكانها ، وتركبُ الصغرى مكان الوسطى إلى تمام المسافة ، وتركب الوُسطى مكان الكبرى عند تمام الفرسخين . والله أعلم .

* * * *

٣٩ ــ ومثله : إذا حمل إلى بيته ثلاثين قارورة ؛ عشرة ملأى وعشرة في كل واحدة

نصفها ، وعشرة فُرَّغ ؛ ثم قال : أنتن طوالق إن لم أُقسّمها بينكن بالسوِيَّة من غير أن أستعين على القسمة بميزان ولا مكيال ؛ فإنه يملأُ خمساً من المُنَصَّفات بالخمس الأخر ، ثم يدفع إلى كلّ واحدة خمسة مملوءَة وخمسة فُرَّغاً .

* * * *

٤٠ — فإنْ رأَى مع زوجته إناءً فيه ماء ، فقال : أُسقنيه ؛ فامتنعت ؛ فحلف بالطلاق : لا شربتِ هذا الماءَ ، ولا أَرَقْتيه ، ولا تركتيه في الإناء ، ولا فَعَل ذلك غيرك لك ؛ فالحيلةُ أن تطرح في الإناء ثوباً يَشْرب الماءَ ، ثم يُجَفَّف في الشمس .

* * * *

٤١ — فإن قال رجلٌ : إن امرأَته بَعَثَتْ إليه قد حرُمْتُ عليك ، وتزوَّجْت بِغَيْرك ، وأَوْجَبْتُ عليك أن تبعث لي نفقتي ونفقة زوجي ؛ فهذه امرأة زوَّجها أَبوها من مملوكه ، ثم بعث بالمملوك في تجارة ، فمات الأَب ، فإنَّ البنت ترثه ، وينفسخ نكاح العبد ، وتقضي العدة ، وتتزوج برجلٍ ، فتبعث إليه : أَنفذ لي المال الذي معك فهو لي .

* * * *

٤٢ — فإن كان له زوجتان ، إحداهما في الغرفة والأُخرى في الدار ، فصعد في الدرجة ، فقالت كلّ واحدة : إليَّ ؛ فحَلَفَ أَلا صعدت إليك ولا نزلت إليك ، ولا أُقمت مكاني ساعتي هذه ؛ فإن التي في الدار تَصْعَد ، والتي في الغرفة تنزل ، وله أن يصعد أو ينزل إلى أَيّتهما شاءَ .

* * * *

٤٣ — فإن حلف على زوجته : لا أُدخِل بيتَك بَارِيَّةً[1] ولا وطئتك إلاَّ على بارية ؛ فوطئها في البيت ولم يحنث . فوجهه أن يحمل إلى بيته قَصَباً ، وينسج له الصانع بارية في البيت ، ويطأها عليه .

* * * *

٤٤ — فإن حلف لا بدّ أن يطأَ زوجته نهار يوم ولا يغتسل فيه من جنابة مع قدرته على

(١) البارِيّة : الحصير المنسوج ، وغالباً ما ينسج من القصب .

استعمال الماء ولا تفوته الصلاة في الجماعة مع الإمام ، فإنه يصلّي مع الإمام الفَجْرَ والظُّهْـرَ والعَصْر ، ومن ثَمَّ يَطَأُ بعد العصر ، فإذا غربت الشمس اغتسل وصلّى مع الإمام .

* * * *

٤٥ ــ فإن حلف : إني رأيت رجلاً يصلّي إماماً بنَفْسَيْن وهو صائم ، فالتفَ عن يمينه ، فنظر إلى قومٍ يتحدّثون ، فَحَرُمَت عليه امرأته وبطل صومُه ووجب جَلْدُ المأمومَيْن ونـقض الجامعِ ؛ فهذا رجل تزوَّج بامرأةٍ قد غاب زوجُها ، وشهد المأمومان بوفاته ، وأنه وصّى بداره أن تُجْعل مسجداً ، وكان مقيماً صائماً ؛ فالتفت فرأى زوج المرأة قد قَدِم ، والناس يقولون : خرج يوم الصوم وجاءَ يوم العيد ، وهو لم يعلم بأن هلال شوال قد رُئِيَ ، ورأى إلى جانبه ماءً ، وعلى ثوبه نجاسة ؛ فإن المرأة تحرُم عليه بقدوم زوجها ، وصومه يبطل بكون اليوم عيداً ، وصلاتُه تبطل برؤية الماءِ ، ويُجلد الرجلان لكونهما شاهدَيْ زور ، ويجب نقض المسجد لأن الوصيّة ما صحَّت والدار لمالكها .

* * * *

٤٦ ــ فإن كان عنده تمرٌ وتينٌ وزَبيب ، ووزن الجميع عشرون رطلاً ، فحلف أنه باع التمر كلَّ رطل بنصف درهم ، والتّين كلَّ رطل بدرهمين ، والزبيب كلّ رطل بثلاثة دراهم ، فجاءَ ثمن الجميع عشرين درهماً . فإنه قد كان التمر أربعة عشر رطلاً ، والتّين خمسة أرطال ، والزبيب رطل واحد .

* * * *

ومن المنقول عن **أبي محمد يحيى بن المبارك اليزيدي** :

٤٧ ــ قال محمد بن يحيى النديم : حدثنا المُبرِّد ، قال : سأل المأمونُ يحيى بنَ المبارك عن شيءٍ ، فقال : لا ، وجعلني الله فداك يا أمير المؤمنين ، فقال : لله دَرُّك ! ما وُضعت واو قطُّ موضعاً أحسنَ منها في هذا الموضع ؛ ووصله وحمله .

* * * *

ومن المنقول عن **أبي العيناءِ** :

٤٨ ــ أخبرنا محمد بن يحيى قال : حدَّثنا أبو العيناءِ قال : قال المتوكِّل : قد أردتُك لمجالستي ، فقلت : لا أُطيقُ ذلك ، ولا أقول هذا جهلاً بمالي في هذا المجلس من الشَّرف ؛ ولكنِّي محجوبٌ[1] ، والمحجوب تختلف إشارته ويخفى عليه الإيماءُ ، ويجوز أن يَتَكَلَّمَ بكلامِ غضبانٍ ووجهُك راضٍ ، وبكلام راضٍ ووَجْهُكَ غضبان ، ومتى لم أُميِّز هاتين هَلَكْتُ . قال : صَدَقْتَ ، ولكن تَلْزمُنا . فقلت : لُزومَ الفرضِ الواجب ؛ فَوَصَلَني بعشرة آلاف درهم .

* * * *

٤٩ ــ قال : ورُوِيَ أنَّ المتوكل قال : أشْتهي أنْ أُنادِمَ أبا العيناءِ لولا أنه ضرير ، فقال أبو العيناء : إنْ أعفاني أميرُ المؤمنين من رؤية الهلال ونقشِ الخواتيم فإنِّي أصْلُح .

* * * *

٥٠ ــ وبلغنا عن أبي العَيْناءِ أنَّه شكا تأَخُّر رِزْقِهِ إلى عبيد اللهِ بن سليمان ، فقال : ألم يكن كتبنا لك إلى فلان ؟ فما فعل في أمرك ؟ قال : جَرّني على شَوْكِ المَطْل ، قال : أنت اخْتَرْتَه ، قال : وما عليَّ وقد اختار مُوسى قومه سبعين رجلاً فما كان فيهم رشيد ؟! فأخذتهم الرَّجفة ، واختار رسولُ الله ﷺ ابن أبي السَّرح كاتباً فلحق بالكفَّار مُرْتَدّاً ! واختار عليّ أبا موسى فحكَمَ عليه .

* * * *

٥١ ــ شكا بعضُ الوزراءِ كثرة الأشغال ، فقال أبو العَيْناءِ : لا أراني الله يَوْمَ فَراغك .

* * * *

٥٢ ــ وقيل لأبي العَيْناء : بقي من يُلْقَى ؟ قال : نعم ، في البئر .

* * * *

٥٣ ــ وسئل أبو العيناءِ عن حمّاد بن زيد بن درهم وعن حماد بن سلمة بن دينار ، فقال : بينهما في القدر ما بين أبويهما في الصرف [أي : ما بين صرف الدرهم والدينار] .

* * * *

(١) إذ كان أبو العيناء ضريراً ، فرمز لعماه بأنه محجوب .

ومن المنقول عن **أبي جعفر محمد بن جرير الطبري** :

٥٤ ـــ حدثنا غلامٌ لابن مرزوق البغدادي ، قال : كان مـولاي مُكْرمـاً لي ، فاشترى جاريةً وزوَّجنيها ، فأَحببْتها حُبّاً شديداً ، وأَبغضتني بغضاً شديداً عظيماً ، وكانت تنافُرني دائماً ، وأَحتملها ؛ إلى أن أَضجرتني يوماً ، فقلت لها : أَنت طالق ثلاثاً إن خاطبتني بشيءٍ إلاَّ خاطبتُك بمثله ، فقد أَفسَدك احتمالي لك ، فقالت لي في الحال : أَنت طالق ثلاثاً بتاتاً ، قال : فأُبْلَسْتُ ، ولم أَدرِ ما أُجيبها به خوفاً أَن أَقول لها مثل ما قالت فتُعْتَبَر بذلك طالقاً مني ، فأُرْشِدْتُ إلى أَبي جعفر الطبري ، فأَخبرتُه بما جرى ، فقال : أَقم معها بعد أَن تقول لها أَنت طالِق ثلاثاً إن أَنا طلقتك ، فتكون قد خاطبتها به ، فوفَّيت بيمينك ، ولم تطلقها ؛ ولا تعاود الأَيمان .

* * * *

ومن المنقول عن **علي بن عيسى الربعي** :

٥٥ ـــ أَنه كان يمشي على دجلة ، فرأَى الرَّضِيَّ والمُرْتَضَى في سفينة ومعهما عثمان بن جنِّي ، فقال : من أَعجب أَحوال الشريفين أَن يكون عثمانُ جالساً بينهما وعليٌّ يمشي على الشطِّ بعيداً عنهما .

* * * *

ومن المنقول عن **أَبي الوفاءِ بن عقيل** رضي الله عنه :

٥٦ ـــ حدّثنا أَزهر بن عبد الوهاب ، قال : جاءَ رجلٌ إلى ابن عقيل ، فقال : إنِّي كلما أَنْغَمِس في النهر غَمْسَتَيْن وثلاثاً فلا أَتيقن أَنه قد عَمّني الماءِ ولا أَني قد تطهَّرت ، فكيف أَصنع ؟ قال له : لا تُصَلِّ . فقيل له : كيف قلت هذا ؟ قال : لأَن النبيَّ ﷺ قال : « رُفع القلم عن ثلاثٍ : عن الصبيِّ حتى يُبلغ ، وعن النائم حتى يَنْتبه ، وعن المجنون حتى يُفِيق » ومن ينغمس في النهر مرتين أو ثلاثاً ويظنُّ أَنه ما اغتسل ، فهو مجنون .

* * * *

٥٧ ـــ قال : وحدثني أَبو حكيم إبراهيم بن دينار ، عن ابنِ عَقِيل قال : بلغني أَنَّ السلطان

محمد بن علي عزم على القدوم إلى بغداد ، فخرجت متطيلساً ، فجلستُ على تلٍّ في طريقه ، فلما وصل سأل عنّي ، فقيل : هذا ابنُ عقيل ؛ فانحرف فنزل وجلس معي ، وقال : قَدْ كنتُ أُحبُّ لِقَاك ؛ وسألني عن مسائل في الطهارة ، ثم قال لخادمه : أيُّ شيءٍ معك ؟ فأخرج خمسين ديناراً ، فقال : تقبلُ هذه ؟ فقلت : لستُ بمحتاجٍ ، فإنَّ أميرَ المؤمنين لا يُحْوِجني إلى أحد ، ولا أقبلها ؛ فلما انصرفتُ إلى المنزل إذا خادمٌ قد جاءَني بمال من عند الخليفة وشكر فعلي ،قال : وأنا علمتُ أنَّ ثَمَّ من هو عَيْنٌ للخليفةِ يُخبره بما جَرَى .

* * * *

٥٨ — وبلغني عن ابن عقيل أنه تعوَّق يوماً عن الجمعة ، فجاءُوه يستوحشون له ، فقال : أنا صلَّيتُ عند الصناديق . واحتبس يوماً فاستوحشوا له . فقال : أنا صليتُ عند المنارة . وإنما عَنَى صناديق بيته ومنارة بيته .

* * * *

ومن المنقول عن **بعض الفقهاء** :

٥٩ — أنَّ رجلاً قال له : إذا نزعتُ ثيابي ودخلت النهرَ أغتسل ، أتوجه إلى القبلة أم إلى غيرها ؟ قال : توجّه إلى ثيابك التي نزعتها .

* * * *

الباب الرابع عشر
في
سياق المنقول من ذلك عن العباد والزهاد

١ ــ أُخبرنا المحمدان : ابن ناصر وابن عبد الباقي ، عن الجنيد قال : سمعت السَّرِّيَّ يقول : اعْتَلَلْتُ بطرسوس عِلَةَ الذَّرَب[1] ، فدخل عليّ هؤلاءِ القُرَّاءُ يعودوني ، فجلسوا ، فأطالوا ، فآذاني جلوسهم ، ثم قالوا : إنْ رأيتَ أن تدعوَ الله ؛ فَمَددت يدي ، فقلت : اللهم عَلِّمنا آداب العيادة .

* * * *

٢ ــ حدثنا أبو الحسين محمد بن عبد الله بن جعفر الرازي ، قال : سمعتُ يُوسف بن الحسين ، يقول : قيل لي : إنَّ ذا النون يعرفُ اسم الله الأعظم ، فَدَخَلْتُ مصرَ وخدمتُه سنةً ، ثم قلت له : يا أُستاذي ! إني قد خدمتُك ، وقد وجب حَقِّي عليك ، وقيل لي : إنك تعرفُ اسمَ الله الأعظم ، وقد عَرَفْتَني ، ولا تجدُ له موضعاً مثلي ، فأُحبّ أن تعلمني إياه .

قال : فسكت عني ذو النون ولم يجبْني ، وكأنَّه أوماً إليّ أنَّه يخبرني .

قال : فتركني بعد ذلك ستة أشهر ، ثم أخرج لي من بيته طبقاً ومكبّة[2] مشدوداً في منديل ، وكان ذو النون يسكن الجيزة ، فقال : تعرف فلاناً صديقنا في الفسطاط ؟ قلت : نعم ، قال : فأُحبُّ أن تُؤَدِّيَ هذا إليه ؛ فقال : فأخذتُ الطَّبق وهو مشدودٌ ، فجعلتُ أُمشي طول الطريق وأنا متفكرٌ فيه ، مثلُ ذي النون يوجِّهُ إلى فلانٍ بهديةٍ ؟! تُرى أيَّ شيءٍ هي ؟ فلم أُصبرْ

---

(١) « علة الذَّرَب » : شيء يكون في عنق الإنسان مثل الحصاة .

(٢) أي : وعاء وله غطاء .

إلى أن بَلَغْتُ الجِسْرَ ، فحللتُ المنديلَ ، ورفعت المكبَّةَ ، فإذا فأْرة قفزت من الطبق ومرت ، قال : فاغتظت غيظاً شديداً ، وقلت : ذو النّون يسخر بي ويوجّه مع مثلي فأْرة ! فرجعتُ على ذلك الغيظ ، فلما أن رآني عَرَفَ ما في وجهي ، فقال : يا أحمق ! إنما جَرَّبْناك ، آئتَمَنْتُكَ على فأْرة فخنتني ، أَفأئتمنك على اسم الله الأعظم ؟ مُرَّ عنِّي فلا أَراك .

* * * *

الباب الخامس عشر
في
سياق المنقول من ذلك عن العرب وعلماء العربية

١ ـــ أنبأنا عبد المحسن ، عن عليٍّ بن المغيرة ، قال : لما حَضَرت نِزَارَ بن مَعَدٍّ الوفاةُ قسَّم مالَهُ بين بنيه ، وهم أربعة : مُضَر وربيعة وإياد وأنمار ، فقال : يا بَنِيَّ هذه القُبّة الحمراءُ ، وهي من أدَمٍ ، وما أشبهها من المال لمضر فسُمّي مُضرُ الحمراءُ ، وهذا الخِباءُ الأسودُ وما أشبهه من المال لربيعة ، فأخذ خيلاً دُهْماً فسُمي ربيعةُ الفَرَس ، وهذه الخادم وما أشبهها من المال لإياد ، وكانت الخادم شَمْطَاءَ فأخذ إياد البُلْق ، وهذه النَّدْوَة والمجلس لأنمار يجلس فيه ، فأخذ أنمار ما صار إليه ؛ وقال لهم : إن أشْكَلَ الأمرُ عليكم في ذلك واختلفتم في القسمة فعليكم بالأفعى الجُرْهُميّ ، فاختلفوا ؛ فتوجّهوا إلى الأفْعَى الجُرْهُميّ ؛ فبينما هم يسيرون إذ رأى مُضَرُ كَلأً قد رُعِيَ ، فقال : إنَّ البعير الذي رَعَى هذا لَأعور ، فقال ربيعة : وهو أزْوَر ، وقال إياد : وهو أبْتَر ، وقال أنمارُ : وهو شَرُود . فلم يسيروا إلاَّ قليلاً حتى لقيهم رجلٌ تُوضِعُ به راحلتُه ، فسألهم عن البعير ، فقال مُضَر : هو أعور ؟ قال : نعم ، وقال ربيعة : هو أزور ؟ قال : نعم ، قال إياد : هو أبتر ؟ قال : نعم ، قال أنمار : هو شَرُود ؟ قال : نعم ، هذه واللهِ صِفَةُ بعيري ، دُلُّوني عليه . فحلفوا له أنهم ما رَأَوْهُ ، فلزمهم ، وقال : كيف أُصَدِّقكم وأنتم تصِفُون بعيري بصفته ؟ فساروا حتى قَدِمُوا على نَجْران فنزلوا بالأفعى الجُرهمي ؛ فنادى صاحبُ البعير : أصحابُ بعيري ؛ وَصَفُوا لي صفته ثم قالوا لم نره ؟! فقال الجرهمي : كيف وصفتموه و لم تَرَوْه ؟ فقال مضر : رأيتُه يرعى جانباً ويَدَعُ جانباً ، فعرفت أنَّه أعور ، وقال ربيعة : رأيتُ إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدةَ الأثر ، فعرفت أنه أفسدها بشدة وطئه لازوراره ، وقال إياد : عرفتُ بَتَرَةُ باجتماع بَعْره ، ولو كان ذَيَّالاً لَمَصَع بَعْرَهُ به ، وقال أنمار : عرفتُ أنه شرود لأنه كان يَرْعى في المكان الملتف نبتُه ثم يجوز إلى مكانٍ آخر أرَقَّ منه وأخبث . فقال الشيخ : ليسوا بأصحاب بعيرك ، فاطلبه ؛ ثم سألهم : من هم ؟ فأخبروه ، فرحّب بهم ، [ثم أخبروه بما جاء بهم ،] فقال : تحتاجون إليّ

وأنتم كما أرى ؟ فدعا لهم بطعام فأكل وأكلوا وشرب وشربوا ، فقال مضر : لم أر كاليوم خمراً أجودَ لولا أن [حُبْلَتَها[١] نَبَتت] على قبر ، وقال ربيعة : لم أر كاليوم لحماً [أطيب] لولا أنه رُبِّي بلبن كلبة ،وقال إياد : لم أر كاليوم رَجلاً سَرِيّاً لولا أنه ليس لأبيه الذي يُدعى له ، وقال أنمار : لم أر كاليوم كلاماً أنفع من حاجتنا ؛ فلما سمع صاحبهم كلامَهُم قال : ما هؤلاء إلاَّ شياطين ؛ فسأل أمّه ، فأخبرته أنها كانت تحت مَلِكٍ ولا يولد له وَلدٌ ، فكرهت أن يذهب المُلْكُ ، فأمكنتْ رجلاً نزل بهم من نفسها فوطئها ؛ وقال للقهرمان[٢] : الخمرُ التي شربناها ما أمرها ؟ قال : من حُبلَة غرستُها على قبر أبيك ؛ وسأل الراعي عن اللحم ما أمره ؟ فقال : شاةٌ أرضعناها من لبن كلبة ، و لم يكن وُلد في الغنم شيء غيرها ؛ فأتاهم ، فقال : قُصّوا قِصتَّكم ، فقَصُّوا عليه ما وصّى به أبوهم ، وما كان من اختلافهم ، فقال : ما أشبه القبةَ الحمراءَ من مالٍ فهو لمضَر ، فصارت له الدنانير والإبل وهنّ حُمر ، فسميّت مضرُ الحمراءُ ، وما أشبه الخِبَاءَ الأسودَ من دابّة ومال فهو لربيعة ، فصارت له الخيل وهي دُهْم فسمى ربيعة الفَرَس ، وما أشبه الخادم وكانت شمطاءَ من مال فيه بَلَقٌ فهو لإياد ، فصارت له الماشية البُلق من الخيل والبقر ، وقضى لأنمار بالدراهم والأرض ، فساروا من عنده على ذلك .

قيل : استدلَّ القائلُ أنَّه يُدْعى لغير أبيه كون أفعاله كانت تخالِفُ أفعالَ الملوك ؛ وأما اللحم ، فإنّ القُراد تراكم على عظم الشاة ، فعلم أنه من أمِّهِ الْكَلْبَة ؛ أما الشراب ، فعادة من شرب الشراب يحصل له انشراح ، ولما شربوا الشراب حصل عندهم انقباض ، فعلم أنه نَبَتَ من صديد مَيْت .

* * * *

٢ ــ قال مؤلف الكتاب : واعلم أن العرب تضرب المثل للذكي بالدهاة ، فيقولون : أدْهَى من قيس بن زهير ، وهو سيد عَبْس ، وكان شديد الذكاء ، ومن كلامه : أربعةٌ لا يُطاقون : عَبْدٌ مَلَكَ ، ونَذْلٌ شَبع ، وأَمَة ورثت ، وقبيحةٌ تَزَوَّجت .

* * * *

٣ ــ أنبأنا محمد بن أبي منصور ، عن الشَّعْبي ، قال : قال عمرُو بنُ مَعْدِيكَرِب :

(١) « الحُبْلَة » : الثمرة .

(٢) « القهرمان » : قيِّم البيت .

خرجتُ يوماً حتى انتهيت إلى حيٍّ ، فإذا بفرس مشدودة ، ورمح مركوز ؛ وإذا صاحبه في وَهْدَةٍ يقضي حاجته ، فقلت له : خُذْ حِذْرَك فإنّي قاتلُك ، قال : ومَن أَنت ؟ قال : أنا عَمْرو بن مَعْدِيكَرِب ، قال : يا أَبا ثور ! ما أَنصفتَني ؛ أَنت على ظهر فرسك وأَنا في بئر ، فأَعطني عَهْداً أنك لا تقتلني حتى أَركب فرسِي وآخذَ حِذْري ؛ فأَعطيتُه عهداً أَلا أَقتله حتى يركب فرسَه ويأْخذَ حِذْره ، فخرج من الموضع الذي كان فيه حتى احْتَبَى بسيفه وجَلَس ، فقلت : ما هذا ؟ قال : ما أنا براكب فرسي ولا مقاتلك ، فإن نكثت عهداً فأَنت أعلم ؛ فتركتُهُ ومَضَيْتُ ؛ فهذا أَحيل من رأيت .

* * * *

٤ — وروى محمد قال : حدّثني رجل من بني العَنْبر قال : أَسَرَتْ بنو شيبان رَجُلاً من بني العنبر ، فقال لهم : أَرْسِلُ إلى أَهلي لِيَفْدُوني ؛ قالوا : فلا تُكلِّم الرسولَ إلّا بين أَيدينا ؛ فجاءُوه برسول ، فقال له : ائتِ قومي ، فقل لهم : إن الشَّجر قد أُورق ، وإنَّ النساءَ قد اشتكت ، ثم قال له : أَتعقِل ؟ قال : نعم أَعقل ، قال : فما هذا ؟ وأَشار بيده ، قال : هذا الليل ، قال : أَراك تعقل ؛ انطلق فقل لأَهلي : عَرُّوا جملي الأَصهب ، واركبوا ناقتي الحمراءَ ، وسَلُوا حارثةَ عن أَمري ؛ فأَتاهم الرسولُ ، فأَرسلوا إلى حارثة ، فقصّ عليه الرسول القصة ، فلما خلا معهم ، قال : أَما قوله : إن الشجر قد أُورق ؛ فإنه يريد أَنَّ القَوْمَ قد تسلَّحوا ، وقوله : إن النساءَ قد اشتكت ، فإنَّهُ يريدُ أَنها قد اتخذت الشُّكاء للغزو ، وهي الأَسقية ، وقوله : هذا الليل ، يريد يأْتوكم مثل اللَّيل أَو في الليل ، وقوله : عَرُّوا جملي الأَصهب ، يريد ارتحلوا عن المكان ، وقوله : اركبوا ناقتي ، يريد اركبوا الدَّهْناء ؛ فلما قال لهم ذلك تحملوا من مكانهم ، فأَتاهم القوم ، فلم يجدوا منهم أَحداً .

* * * *

قال مؤلف الكتاب :

٥ — وبلغني عن ابن الأَعرابي ، قال : أَسرتْ طيّىءُ رجلاً شابّاً من العرب ، فقدم عليه أَبوه وعمه ليفدياه ، فاشتطوا عليهما في الفداء ، فأَعطيا به عطية لم يَرْضَوْها ، فقال أبوه : لا والذي جعل الفرقدين يصبحان ويمسيان على جبل طيىء لا أَزيدكم على ما أَعطيتكم ؛ ثم انصرفا ، فقال الأَبُ للعم : لقد أَلقيتُ إلى ابني كلمة لئن كان فيه خيرٌ لينجُوَنَّ ؛ فما لبث أَن

جاءَ وطرد قطعة من إبلهم فذهب بها ، كأنه قال له : الزم الفرقدين على جبل طيىء فإنهما طالعان عليه ولا يغيبان عنه .

* * * *

٦ ــ حدثنا ابن الأعرابي عن بعض مَشَايخه ، أنَّ رجلاً من بني تميم كانت له ابنةٌ جميلة ، وكان غيوراً ، فابتنى لها في داره صومعة وجعلها فيها ، وزوّجها من أكفائه من بني عمّها ، وإن فتى من كِنانة مر بالصومعة ، فنظر إليها ونظرتْ إليه ، فاشتدّ وَجدُ كلِّ واحدٍ منهما بصاحبه ، ولم يمْكنه الوصول إليها ، وإنه افتعل بيتاً من الشعر ، ودعا غلاماً من الحيّ فعلَّمه البيت ، وقال له : ادخل هذه الدارَ وأنشد كأنك لاعبٌ ، ولا ترفع رأسك ولا تصوّبه ولا تومىء في ذلك إلى أحد ؛ ففعل الغلامُ ما أُمِرَ به ، وكان زوجُ الجارية قد أزمع على سفر بعد يوم أو يومين ، فأنشأ الغلام يقول :

لَحَى اللهُ مَنْ يَلْحَى عَلَى الحُبِّ أَهْلَهُ وَمَنْ يَمْنَعِ النَّفْسَ اللَّجُوجَ هَوَاهَا

قال : فسمعت الجاريةُ فَفَهِمت ، فقالت :

أَلَا إنَّمَا بَيْنَ التَّفَرُّقِ لَيْلَةٌ وَتُعْطَى نُفُوسُ العَاشِقِينَ مُنَاهَا

قال : فسمعت الأُمُّ ففهمت ، فأنشأت تقول :

أَلَا إنَّمَا تَعْنُونَ نَاقَةَ رَحْلِكُمْ فَمَنْ كَانَ ذَا نُوقٍ لَدَيْهِ رَعَاهَا

قال : فسمع الأب ، فأنشأ يقول :

فَإِنَّا سَنَرْعَاهَا وَنُوثِقُ قَيْدَهَا ونَطْرُدُ عَنهَا الوَحْشَ حِينَ أَتاهَا

فسمع الزوجُ ، ففهم ، فأنشأ يقول :

سَمِعْتُ الَّذِي قُلْتُمْ فَهَا أَنَا مُطَلِّقٌ فَتَاتَكُمُ مَهْجُورَةً لِبَلَاهَا

قال : فطلَّقها الزوجُ ، وخَطَبها ذلك الفتى ، وأَرغَبَهم في المهر ، فتزوّجها .

* * * *

٧ ــ أنبأنا محمد بن أبي طاهر عن العُتْبي ، قال : اشتد الحرُّ عندنا بالبصرة ليلة ، وركَدَت

الرّيحُ ، فقيل لأعرابي : كيف هواؤكم البارحة ؟ قال : أُمسك ؛ كأنه يستمع .

* * * *

٨ ــ أخبرنا إسماعيل عن الرَّبيع ، قال : سمعتُ الشافعي يقول : وقف أعرابي على قوم ، فقال : رحمكم الله ، إنِّي من أبناءِ سبيل وأنْضاء سفر ، فرحم الله آمرءاً أعطى من سعة وواسى من كَفَافٍ ؛ فأعطاه رجلٌ درهماً ، فقال له : آجَرَك الله من غير أن يستلبَك .

* * * *

٩ ــ أنبأنا محمد بن عبد الملك عن ابن الأعرابي ، قال : قال رجلٌ من الأعراب لأخيه : أتشرب الخَازِرَ من اللبن ولا تتنحنح ؟ فقال : نعم ؛ فتجاعلا جُعْلاً ، فلما شربه آذاه . فقال : كبشٌ أملح وبيت أفيح وأنا فيه أتبحبح ، فقال له أخوه : قد تنحنحت ، فقال : من تنحنح فقد أفلح .

* * * *

١٠ ــ أنبأنا محمد بن أبي طاهر البزّار عن ابن المنذر الحُزَامي ، قال : قَدِمَ أعرابيٌّ من أهل البادية على رجل من أهل الحَضَر ، فأنزله ، وكان عنده دجاجٌ كثيرٌ ، وكان له امرأة وابنان وابنتان منهما ، قال : فقلت لامرأتي : اشوِي لي دجاجة وقدّميها لنا نتغدّى بها ؛ فلما حضر العشاء ، جلسنا جميعاً : أنا وامرأتي وابناي وابنتاي والأعرابي .

قال : فدفعنا إليه الدجاجة ، فقلنا : اقسمها بيننا ؛ نريد بذلك أن نضحكَ منه ؛ قال : لا أُحْسِن القسمة ؛ فإن رضيتم بقسمتي قسّمت بينكم ؛ قلنا : فإنّا نرضى .

قال : فأخذ رأس الدجاجة فقطعه ، ثم ناولنيه ، وقال : الرأس للرئيس ؛ ثم قطع الجناحين وقال : والجناحان للابنين ؛ ثم قطع الساقين وقال : والساقان للابنتين ؛ ثم قطع العجز ، وقال : العجزُ للعجوز ، ثم قال : والزَّوْر للزائر ؛ فأخذ الدجاجة بأسرها ، فلما كان من الغد ، قلت لامرأتي : اشو لنا خمس دجاجات ، فلما حضر الغداءُ قلنا : اقسم بيننا ، قال : أظنّكم وجِدتُم من قسمتي أمس ؟ قلنا : لا ، لم نَجِدْ ؛ فاقسم بيننا ، فقال : شَفْعاً أو وتْراً ، قلنا : وتراً ، قال : نعم ؛ أنت وامرأتك ودجاجة ثلاثة ، ورمى بدجاجة ، ثم قال : وابناك ودجاجة ثلاثة ؛ ورمى الثانية ، ثم قال : وابنتاك ودجاجة ثلاثة ، ثم قال : وأنا ودجاجتان ثلاثة ؛ فأخذ الدجاجتين ؛

فرآنا ونحن ننظر إلى دجاجتيه ، فقال : ما تنظرون ؟ لعلكم كرهتم قسمتي ، الوتر ما تجيءَ إلاَّ هكذا ، قلنا : فاقسمها شفْعاً ، قال : فقبضهن إليه ، ثم قال : أَنتَ وابناك ودجاجة أَربعة ؛ ورمى إلينا بدجاجة ، والعجوز وابنتاها ودجاجة أَربعة ، ورمى إليهن بدجاجة ، ثم قال : وأَنا وثلاث دجاجات أَربعة ، وضمّ إليه ثلاث دجاجات . ثم رفع رأْسه إلى السماء وقال : الحمد لله ! أَنت فهمتها لْي .

* * * *

١١ — أخبرنا أبو المعمر المبارك بن أبي بكر بن الأنباري ، قال : قيل لأَعرابي : كيف أَصبحت ؟ قال : أَصبحت وأَرى كل شيء مني في إدبار ، وإدباري في إقبال .

* * * *

١٢ — أخبرنا محمد بن ناصر ، قال : حدثني مهديُّ بن سابق ، قال : أَقبل أَعرابيٌّ يريد رجلاً ، وبين يدي الرجل طبقُ تين ؛ فلما أَبصر الأَعرابيَّ غَطَّى التينَ بكساء كان عليه والأَعرابي يلاحظه ، فجلس بين يديه ، فقال له الرجلُ : هل تحسن من القرآن شيئاً ، قال : نعم ؛ قال : فاقرأ ، فقرأ : ﴿ والزَّيتُون وطوُرِ سنين ﴾ [٩٥ سوة التين/الآيات : ١و٢] فقال له الرجل : فأَين التين ؟ قال : التين تحت كسائك .

* * * *

١٣ — أُخبرنا محمد بن عبد الملك ، عن عيسى بن عُمر ، قال : وَلِيَ أَعرابيٌّ البحرين ، فجمع يَهودَها ، وقال : ما تقولون في عيسى بن مريم ؟ قالوا : نحن قتلناه وصَلَبْناه .

قال : فقال الأَعرابيّ : لا جَرَم ، والله لا تخرجون حتى تُؤَدُّون إليّ ديته . وذكر ابن قتيبة ، قال : لمّا قالوا : نحن قتلناه ؛ قال : فهل أَدَّيتم دِيَتَه ؟ فقالوا : لا ، فقال : والله لا تخرجون من عندي حتى تؤدُّوها . فما خرجوا حتى دفعوها له .

* * * *

١٤ — قال ابن قتيبة : وكان أَبو العَاجِ على جَوَاز[1] البصرة ، فأُتِي بِرَجلٍ من النصارى

(١) « الجَوَاز » كسَحَاب : صك المسافر ، وما زالت تستعمل هذه الكلمة إلى الآن في معظم البلاد العربية للدلالة على جواز السفر Passeport .

فقال : ما اسمك ؟ فقال : بندار شهر بندار ؛ فقال : اسم ثلاثة وجزية واحد ! لا والله العظيم ؛ فأخذ منه ثلاث جزًى .

* * * *

١٥ ــ قال : ووليّ أعرابيّ تبالة ، فصعد المنبر ، فما حمد الله ولا أثنى عليه حتى قال : إن الأمير ولاّني بلدكم هذا ، وإني والله ما أعرفُ من الحقّ موضعَ سوطي هذا ، ولن أُوْتَى بظالم ولا مظلومٍ إلا أوجعتُهما ضرباً ؛ فكانوا يتعاطَوْن الحقَّ بينهم ولا يرتفعون إليه .

* * * *

١٦ ــ قال : رُوِيَ أن أعرابياً جاءَ إلى عمرو بن عبيد ، فقال له : إنَّ ناقتي سُرقت ، فادعُ الله أن يردها عليّ ؛ فقال : اللهم إن ناقَة هذا الفقير سُرقت و لم ترد سرقتها ، اللهم أرْدُدها عليه ؛ فقال الأعرابي : يا شيخ ! الآن ذَهَبَتْ ناقتي ويَئِستُ منها ؛ قال : وكيف ؟ قال : لأنه إذا أراد ألاّ تسْرق فسُرقت لم آمن أن يريد رجوعَها فلا ترجع ؛ ونهض من عنده منصرفاً .

* * * *

١٧ ــ استأذن حاجبُ بن زُرَارة على كسرى ، فقال له الحاجب : من أنت ؟ قال : أنا رجل من العرب ؛ فأذن له ، فلمّا وقف بين يديه قال له : من أنت ؟ قال : سيدُ العرب ، قال : ألم تقل للحاجب أنا رجل منهم ؟ قال : بلى ، ولكنّني وقفتُ بباب الملك وأنا رجلٌ منهم ، فلما وصلت إلى المَلِكِ سُدْتُهم . فقال كسرى : زه ، احْشُوا فاه دُرّاً [وزه : كلمة فارسية بمعنى : أحسنت ، أو حسناً] .

* * * *

١٨ ــ قال الجاحظ : قال رجل لأعرابيّ : أتهمزُ إسرائيل ؟ قال : إني إذا لرجلُ سوءٍ . قال : أتجرّ فلسطين ؟ قال : إني إذاً لقوي .

* * * *

١٩ ــ أنبأنا محمد بن عبد الملك ، قال : أنبأنا أبو القاسم التنوخي ، قال : كتب أبو صاعد الشاعر إلى الغنويّ رقعة فيها :

رأيتُ في النَّـوم إني مَـالِكٌ فَـرَساً ... ولي وَصِيـفٌ وفي كَفِّـي دَنَانِيـرُ
فقـال قـوم لهم فهـمٌ ومعرفـةٌ ... رَأَيْتَ خَيْـراً وللأَحْـلام تَفْسِيـرُ
اقْصُصْ منامَكَ في دارِ الأميرِ تَجِدْ ... تَحقِيـقَ ذاك وللفَـالِ التَّبَاشِيـرُ

فلما قرأها ، وقَّع في ظهرها : ﴿ أَضغاثُ أَحلامٍ ، وما نحن بتأْويل الأَحلام بعالمين ﴾ [١٢ سورة يوسف/الآية : ٤٤] . ثم أمر له بجميع ما رأى .

* * * *

٢٠ ــ أخبرنا محمد بن ناصر ، قال : أُنشد رجل أَبا عثمان المازني شعراً ، وقال : كيف تراه ؟ قال : أَراك قد عَمِلْتَ عملاً بإخراج هذا من جَوْفك ؛ لأَنك لو تركتَه لأَوْرَثَك السِّلَّ .

* * * *

٢١ ــ قيل : نَزَلَ أَعْرَابيٌّ في سفينةٍ ، فاحتـاج إلى البـَراز ، فصاح : الصلاةَ الصلاةَ ؛ فقربوا إلى الشَّطِّ ، فخرج فقضى حاجته ثم رجع ، قال : ادْفَعُوا فعليكم بَعْدُ وقت .

* * * *

٢٢ ــ وقف أَعرابيٌّ على قوم ، فسأَلهم عن أَسمائهم ، فقال أَحدُهُم : اسمي وثيق ؛ وقال الآخر : اسمي منيع ؛ وقال الآخر : اسمي ثَابِت ؛ وقال الآخر : اسمي شديد ؛ فقال الأَعرابيُّ : ما أَظنُّ الأَقفال عُملت إلاَّ مِن أَسمائكم .

* * * *

٢٣ ــ دخل أَعرابي على هشام بن عبد الملك ، فقال له هشام : كم عطاءَك ؟ قال : ألفين ؛ فسكت ساعةً ، ثم قال : كم عطاؤك ؟ قال : ألفان ، قال : فَلِمَ لحنت أولاً ؟ قال : لم أَشْتَهِ أن أكون فارساً وأمير المؤمنين راجل ، لَحَنْتَ فلَحَنْتُ ، وأعربتَ فأَعْرَبْتُ ؛ فاستحسن أدبَه وأجازه .

وقد ذكرت هذه الحكاية عن غير هشام ، وفيها : لَحَنَ الأميرُ فَلَحَنْتُ ، وأَعْرَبَ فأعربْتُ ، وكرهت أن يلحن وأُعْرِب وأكون مُقَرِّعاً له في لحنِهِ أو متبجِّحاً عليه بفَضْلِ القولِ ؛ فأعجبه ذلك وأجازه .

* * * *

٢٤ ــ وقال هشام بن عبد الملك يوماً لأصحابه : من يسُبُّني ولا يفحش فهذا المطْرَفُ له ؛ وكان فيهم أعرابيٌّ ، فقال : أَلقِهِ يا أحول ، فقال : خُذْه ؛ قاتلك الله .

* * * *

٢٥ ــ وقف أبو العيناء على باب صاعد ، فقيل له : هو يُصلّي فانصرف ، وعاد فقيل له : في الصّلاة ، فقال : لكلِّ جديد لذَّة .

* * * *

٢٦ ــ سئل الحسن : لأيِّ شيءٍ استُحب صومُ أيَّام البيض ؟ فقال : لا أدري ، فقال أعرابيٌّ في حلقته : لكنّي أدري ، قال : وما هو ؟ قال : لأنَّ القمر لا ينكسف إلاَّ فيهنّ ، فأحبّ الله عزَّ وجل ألاَّ يُحدِثَ في السّماءِ أمراً إلاَّ حدَثَتْ له في الأرض عبادة .

* * * *

٢٧ ــ حضر أعرابيٌّ مائدةَ سليمانَ بنِ عبد الملك ، فجعل يمدُّ يديه ، فقال له الحاجبُ : كُلْ مما بين يديك ، فقال : مَنْ أجْدَبَ انتجع ؛ فشقَّ ذلك على سليمان ، وقال : لا يَعُدْ إلينا .

* * * *

٢٨ ــ ودخل أعرابيٌّ آخرُ ، فمد يديه ، فقال له الحاجب : كُل مما يليك ، فقال : من أخصب تَخيّر ، فأعجب ذلك سليمان وقضى حوائجه .

* * * *

٢٩ ــ حدَّث ابن المدبِّر ، قال : انفرد الرَّشيدُ وعيسى بن جعفر بن المنصور والفضل بن الربيع في طريق الصيد ، فلقوا أعرابياً فصيحاً ، فَولَع به عيسى ، إلى أن قال له : يا ابنَ الزَّانية ، فقال له : بئسما قُلتَ ، قد وجب عليك رَدُّها والعِوَضُ ؛ فارْضَى بهذين المليحين يحكُمان بيننا ؛ قال عيسى : قد رضيتُ ؛ فقالا للأعرابي : خُذْ منه دَانِقَيْن عِوَضاً من شتمك ، فقال : هذا الحكم ؟ قال : نعم ، قال : فهذا درهمٌ خُذوه وأُمّكُم جميعاً زانية ، وقد أرْجَحْتُ لكم بدل ما وجب لي عليكم ؛ فَغَلب عليهم الضَّحك ، وما كان لهم سرورٌ في ذاك النَّهار إلاَّ حديثَ الأعرابيِّ ، وضمَّهُ الرشيد إلى خاصّته .

* * * *

٣٠ ــ سمع أعرابيٌّ رجلاً يروي عن ابن عباس أنه قال : من نَوى حَجَّةً وعاقَهُ عنها عائِقٌ كُتبتْ له ؛ فقال الأعرابي : ما وَقَع العامَ كراءٌ أرخصَ من هذا !! .

* * * *

٣١ ــ نظر أعرابيٌّ إلى البدر في رمضان ، فقال : سَمِنْتَ فأَهْزَلْتني ، أَراني الله فيك السِّلَّ .

* * * *

٣٢ ــ ودعا أعرابيٌّ على عاملٍ ، فقال : صبَّ الله عليك الصادات ؛ يعني : الصَّفْعَ والصَّرْفَ والصَّلْبَ والصَّكّ .

* * * *

٣٣ ــ وقال أعرابيٌّ : اللَّهم مَنْ ظَلَمني مرَّةً فأَخْزِه ، ومن ظلمني مرتين فأَخزني وأَخْزِهِ ، ومن ظلمني ثلاث مرات فأَخزِني ولا تُخزِه .

* * * *

٣٤ ــ وقال أعرابيٌّ لامرأته : أَين بلغتْ قِدْرُكُم ؟ قالت : قد قام خطيبُها . تعني : الغَلَيان .

* * * *

٣٥ ــ وقف المَهْدِيُّ على عجوزٍ من العَرَب ، فقال لها : مِمّن أنتِ ؟ فقالت : من طَيِّىء ، فقال : ما منع طيئاً أَن يكون فيكم آخرُ مثلَ حاتم ؟ فقالت مسرعة : الذي منَع الملوكَ أَن يكون فيهم مثلُك . فعجب من سُرعة جوابها ، وأَمر لها بصلة .

* * * *

٣٦ ــ وقال الأَصمعي : سأَلتُ أَعرابيةً عن ولدها ، وكنت أعرفه ، فقالت : مات ، وتالله لقد آمنني الله بفقده المصائب ، ثم قالت :

وكنتُ أَخافُ الدَّهْرَ ما كانَ بَاقِياً فلما تولَّى مات خَوْفِي من الدّهْر

* * * *

٣٧ ــ سمع ابنُ الأَعرابيِّ رجلاً يقول : أَتوسَّلُ إليكم بعليٍّ ومعاوية ، فقال له : جَمَعْتَ بين ساكنين .

* * * *

الباب السادس عشر
في
ذكر من احتال بذكائه لبلوغ غرض

١ ــ أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الباقي ، عن محمد بن سعد ، قال : كان الهُرْمُزَان من أهل فارس ، فلما انقضى أمرُ جَلُولاءَ خرج يَزْدَجَرْدُ من حُلْوان إلى أَصْبهانَ ، ثم أتى اصْطَخَر ، ووجَّه الهُرْمُزَانَ إلى تُسْتَر ، فضبطها وتحصّن في القلعة ، وحاصرهم أبو موسى ، ثم نزل أهلُ القلعة على حكم عُمر ، فبعث أبو موسى بالهُرْمُزان ومعه اثنا عشر أسيراً من العجم عليهم الدِّيباج ومَنَاطِقُ الذَّهب وأَسْوِرَة الذَّهب ، فقدموا بهم المدينة في زِيِّهم ذلك ، فجعل الناس يَعْجَبون ، فأتوا بهم منزل عمر فلم يصادفوه ، فجعلوا يطلبونه ، فقال الهرمزان بالفارسية : قد ضلَّ مَلِكُكُم ؟ فقيل له : هو في المسجد ، فدخلوا فوجدوه نائماً متوسِّداً رداءَه ، فقال الهرمزان : هذا ملككم ؟ قالوا : هذا الخليفة ، قال : أَمَا له حاجبٌ ولا حارسٌ ؟ قالوا : الله حارسُه حتى يأتي عليه أَجَلُه ، فقال الهرمزان : هذا المُلْكُ الهَنِيءُ ، فقال عمر : الحمد لله الذي أذلّ هذا وشيعتَهُ بالإسلام ؛ فاستسقى الهُرمزان ، فقال عمر : لا يُجمعُ عليك القتلُ والعطش ؛ فدعا له بماءٍ ، فأمسك بيده ، فقال عمر : اشرب لا بأس عليك ، إني غيرُ قاتلك حتى تشربه ؛ فرمى بالإناءِ من يده ، فأمر عمر بقتله ، فقال : أو لم تُؤَمِّنِّي ؟ قال : وكيف ؟ قال : قُلْتَ لي : لا بأس عليك ؛ فقال الزبير وأنس وأبو سعيد : صدَق ، فقال عمر : قاتله الله ! أخذ أماناً ولا أشعر ، ثم أسلم بعد ذلك الهُرْمزان .

* * * *

٢ ــ أخبرنا محمد بن ناصر ، عن عبد الملك بن عُمَيْر ، قال : سمعتُ المغيرة بن شُعبة يقول : مَا خَدَعَنِي قطُّ غيرُ غلام من بني الحارثِ بنِ كعب ، فإنّي ذكرتُ امرأة منهم وعندِي شابٌّ من بني الحارثِ ، فقال : أيُّها الأمير ! إنَّه لا خير لك فيها ، فقلت : وَلِمَ ؟ قال : رأيت

رجلاً يُقَبِّلُها ؛ فأقمت أياماً ، ثم بلغني أنَّ الفتى تزوَّج بها ، فأرسلت إليه ، فقلت : ألم تعلمني أنك رأيتَ رجلاً يُقَبِّلُها ؟ قال : بلى ! رأيتُ أباها يُقَبِّلها . فإذا ذكرتُ الفتى وما صَنَعَ غَمَّني ذلك .

* * * *

٣ ــ قال الهَيْثم : وأخبرني الفرات بن الأحنف بن مرخ العبدي ، عن أبيه ، أن رجلاً خطب إلى قوم ، فقالوا : ما تُعالج؟ قال : أبيعُ الدواب ؛ فزوّجوه ، ثم سألوا عنه ، فإذا هو يبيع السنانير ، فخاصموه إلى شُريح ، فقال : السنانير دَوابّ ؛ وأنفذ تزويجه .

* * * *

٤ ــ أنبأنا محمد بن عبد الباقي ، أخبرنا الأصمعي ، أن محمد بن الحنفية أراد أن يَقْدِمَ الكوفة أيَّام المُخْتَار ، فقال المُخْتار حين بلغه : إن في المهديّ علامةً ، يضربُه رجل في السُّوقِ بالسَّيف فلا يَضُرُّه ؛ فلما بلغ ذلك محمداً أقام .

* * * *

٥ ــ أنبأنا محمد بن عبد الملك عن داود بن الرشيد ، قال : قلتُ للهَيْثم بن عَدِيّ : بأي شيءٍ استحقَّ سعيدُ بن عبد الرحمن أن ولاَّه المهديّ القضاءَ ، وأنزله منه تلك المنزلة الرفيعة ؟ قال : إنَّ خبره في اتصاله بالمهديّ ظريفٌ ، فإن أحببتَ شرحتُه لك ؟

قال : قلتُ : والله قد أحببتُ ذلك ، قال : اعلم أنّه وافى إلى الرَّبيع الحاجبِ حين أفضت الخلافةُ إلى المهديّ ، فقال : استأذن على أمير المؤمنين ، فقال له الرَّبيع : من أنت وما حاجتك ؟ قال : أنا رجل قد رأيتُ لأمير المؤمنين رؤيا صالحة ، وقَدْ أَحْبَبْتُ أن تذكرني له ؛ فقال له الرَّبيع : يا هذا ! إنَّ القوم لا يصدِّقون ما يرونه لأنفسهم ، فكيف ما يراه لهم غيرهم ؟ فاحتلْ بحيلةٍ هي أردُّ عليك من هذه ؛ فقال له : إن لم تخبره بمكاني سألتُ من يوصلني إليه ، فأخبرته أني سألتك الإذن عليه فلم تفعل ! فدخل الربيع على المهديّ ، فقال له : يا أمير المؤمنين ! إنكم قد أطمعتُم النَّاس في أنفسكم ، فقد احتالوا لكم بكل ضَرْبٍ ؛ قال له : هكذا صنع الملوكُ ، فما ذاك ؟ قال : رجلٌ بالباب يزعمُ أنه قد رأى لأمير المؤمنين رؤيا حَسَنة ، وقد أحب أن يَقُصّها عليه ، فقال له المهدي : ويحَك يا ربيعُ ! إنّي والله أرى الرؤيا لنفسي فلا تصحّ لي ، فكيف إذا ادّعاها

مَنْ لعلَّه قد افتعلها ؟ قال : والله قلت له مثل هذا فلم يقبل ؛ قال : هات الرجل . فأُدخل إليه سعيدَ بن عبد الرحمن ، وكان له رواء وجمال ومروءَةٌ ظاهرة ولحية عظيمة ولسان ، فقال له المهدي : هات ، بارك الله عليك ، ماذا رأيتَ ؟ قال : رأيتُ يا أمير المؤمنين آتياً أتاني في منامي ، فقال لي : أخبرْ أمير المؤمنين المهديَّ أنه يعيش ثلاثين سنة في الخلافة ، وآيةُ ذلك أنه يرى في ليلته هذه في منامه كأنه يقلِّبُ يواقيتَ ، ثم يَعُدُّها ، فيجدها ثلاثين ياقوتة ، كأنها قد وُهِبَت له ، فقال المهدي : ما أحسنَ ما رأيتَ ! ونحن نمتحنُ رؤياك في ليلتنا المقبلة على ما أخبرتَنا به ، فإن كان الأمر على ما ذكرتَهُ أعطيناك ما تريد ، وإن كان الأمر بخلاف ذلك لم نعاقِبْك ، لعلمنا أن الرؤيا رُبّما صدقت وربما اختلفت ؛ فقال له سعيد : يا أمير المؤمنين فما أصنع أنا الساعة إذا صرت إلى منزلي وعيالي فأخبرتهُم أني كنت عند أمير المؤمنين ثم رَجَعْتُ صِفْراً ؟ قال له المهديُّ : فكيف نعمل ؟ قال له : يُعَجِّل لي أميرُ المؤمنين ما أَحَبَّ ، وأحلفُ له بالطلاق أني قد صدقْتُ ؛ فأمر له بعشرة آلاف درهم ، وأمر أن يؤخذ منه كفيلٌ ليحضر مِنْ غَدِ ذلك اليوم ، فقبض المالَ ، وقيل : مَنْ يكْفُل بك ؟ فمدّ عينيه إلى خادم ، فرآه حسن الوجه والزّي ، فقال : هذا يكفلُ بي ؛ فقال له المهدي : أتكفل به ؟ فاحمرَّ وجهه وخجل ، فقال : نعم ؛ وكفله وانصرف ، فلما كان في تلك الليلة رأى المهديُّ ما ذكره له سعيدٌ حرفاً حرفاً ، وأصبح سعيد في الباب ، واستأذن فأُذِن له ، فلما وقعت عينُ المهدي عليه قال : أين مصداق ما قلت لنا ؟ قال له سعيد : وما رأى أميرُ المؤمنين شيئاً ؟ فَضجعَ في جوابه ، فقال سعيدٌ : امرأتي طالق إن لم تكن رأيتَ شيئاً ؛ قال له المهديُّ : وَيْحَك ! ما أجرأَك على الحلف بالطَّلاق ! قال : لأنني أحلفُ على صِدق . قال له المهديُّ : فقد والله رأيتُ ذلك مُبيناً ، فقال له سعيد : الله أكبر ، فَأَنْجِز لي يا أمير المؤمنين ما وعَدتَني ، قال له : حُبّاً وكَرَامة ؛ ثم أَمَرَ له بثلاثة آلاف دينار وعشرة تُخوتٍ ثياباً من كل صنف ، وثلاثة من الخيل من أنْفَسِ عِرَابِهِ مُحلّاةً ، فأخذ ذلك وانصرف ، فلحق به الخادمُ الذي كان كفل به ، وقال له : سألْتُك بالله ! هل كان لهذه الرؤيا التي ذكرتَها من أصل ؟ قال له سعيدٌ : لا والله ؛ فقال له الخادم : وكيف ؟ وقد رأى أمير المؤمنين ما ذكرته له ؟ قال : هذه من المخاريق الكبار التي لا يَأْبَهُ لها أمثالكم ؛ وذلك أني لمّا ألْقَيْتُ إليه هذا الكلام خطر بباله ، وحدّث به نفسَه ، وأشْرَبَه قلبَه ، وشَغَلَ بِه فكْرَه ، فساعة نام خُيّل له ما خُيِّلَ في قلبه وما كان شغل به فكرَه في المنام ، فقال له الخادمُ : فقد حلفتَ بالطلاق ؟ قال : طلَّقت واحدةً وبَقِيَت معي اثنتان فأَزِدْ في مَهْرِها عشرةَ دراهم وأتخلّص ، وأتحصّل على عشرة آلاف درهم وثلاثة آلاف دينار وعشرة تُخوت من أصناف الثياب وثلاثة مراكيب . قال : فبُهِتَ الخادمُ

في وجهه ، وتعجّب من ذلك ؛ فقال له سعيد : قد صَدَقْتُك وجعلتُ صِدْقي لك مكافأتَك على كفالتك بي ، فاستُرْ عليَّ ذلك ؛ ففعل ذلك ، فطلبه المهديُّ لمنادمته ، فنادمه وحَظي عنده ، وقلَّده القضاءَ على عَسْكَرِ المهديّ ، فلم يزل كذلك حتى مات المهدي .

قال مؤلف الكتاب : هكذا رُوِيَت لنا هذه الحكاية ، وإني لمرتاب بصحَّتها ، ويبعد هذا أن يذكر عن قاضٍ من القضاة .

وقد سئل أحمد بن حنبل عن سعيد بن عبد الرحمن هذا ، فقال : ليس به بأس ، وقال يحيى ابن مَعِين : هو ثقة ؛ وإنما اتُّهِمُ بها الهيثم بن عَدِيٍّ ، فقد قال يحيى بن معين : الهيثم بن عَدِيّ ليس بثقة ، كان يكذب . وقال علي بن المَديني : لا أرضاه في شيء . وقال داود وأحمد بن عبد الله العِجْلي : الهيثم كذّاب . وقال إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني : الهيثم ساقط قد كُشِفَ قناعُه ، وقال أبو زُرْعة : ليس بشيء .

* * * *

٦ ــ أخبرنا المبارك بن علي قال : حدثني شُمَيْر : أن رجلاً خطب امرأة وتحته أُخرى ، فقالوا : لا نُزَوِّجُك حتى تطلّق ، قال : اشهدوا أني طَلَّقْتُ ثلاثاً ؛ فزوّجوه ، وأقام على امرأته ، وادّعى القوم الطلاق ، فقال لهم : كيف قلتُم ؟ قالوا : قلنا : لا نُزَوِّجُكَ حتى تُطَلِّقَ ثلاثاً ، فقُلْتَ : اشهدوا أنِّي قد طلقتُ ثلاثاً ، فقال : أما تَعلمُون أنَّه كان تحتي فلانة بنت فلان فطلَّقتُها ؟ قالوا : بلى ؛ قال : وكان تحتي فلانة بنت فلان فطلَّقتُها ؟ قالوا : بلى ؛ قال : وكان تحتي فلانة بنت فلان فطلَّقتها ؟ قالوا : بلى ؛ قال : فقد طلَّقْتُ ثلاثاً ، قالوا : ما هذا أردنا ؛ فلما وفد شقيق ابن ثور إلى عثمان وقدم علينا شقيق أُخبر أنه سأل عثمان عن ذلك فجعلها نيّته .

* * * *

٧ ــ أخبرنا يحيى بن علي ، قال : خرج عمر بن محمد صاحب السند وأصحابه يسيرون في بلاد الشرك ، فرأوا شيخاً ومعه غلام ، وقد كان العدوُّ نزل بهم فهربُوا ، فقال له عمر : يا شيخ دُلَّنا على قومك وأنت آمن ، قال : أخاف إنْ دَلَلْتُك أن يسعى بي هذا الغلام إلى المَلِكِ فيقتلَني ، ولكن اقْتُلْ هذا الغلامَ حتى أَدُلَّك ؛ فضربَ عُنُقَ الغلام ؛ فقال الشيخ : إنما كرهتُ إن لم أخبرك أنا أن يخبر الغلامُ ، والآن قد أمنتُ ، والله لو كانوا تحت قدمي ما رفعتها . فضرب عنقه .

* * * *

٨ ــ أخبرنا إبراهيم بن دينار عن الحسن بن عمارة ، قال : أَتيتُ الزُّهْرِيَّ بعد أن ترك الحديث ، فقلت : إمّا أن تحدِّثني وإما أن أُحدِّثك ، فقال : حدِّثني ، فقلتُ : حَدَّثَنِي الحكم ابن عتيبة ، عن يحيى بن الجزار ، قال : سمعتُ علياً عليه السلام يقول : ما أَخذ الله عز وجل على أهل الجهل أن ينتظموا حتى أخذ على أهل العلم أن يُعَلِّموا . قال : فحدَّثني أربعين حديثاً .

* * * *

٩ ــ أنبأنا عبد الوهاب ، عن الحُمَيْدِي ، قال : كنا عند سفيان بن عُيَيْنَة ، فحدّثنا بحديث زمزم أنه لِمَا شُرِبَ له ، فقامَ رَجُلٌ من المجلِس ، ثم عادَ ، فقال له : يا أَبا محمد ! أليس الحديثُ بصحيح الذي حُدِّثنا به في زمزم أَنَّه لما شُرِبَ له ؟ فقال سفيان : نَعَم ، فقال : إنِّي قد شربْتُ الآن دَلْواً من زمزم على أن تحدّثني بمئة حديث ، فقال سفيان : اقْعد ؛ فحدّثه بمئة حديث .

* * * *

١٠ ــ حدّثنا ابنُ أَبي ذرّ ، قال : كان الحاجُّ إذا ورد جلس سفيانُ بن عُيَينة بباب هاشم على موضع عالٍ ليرى الناس ، فجاءَ رجلٌ من أصحاب الحديث ، فَقَعد بين يديه ، فقال : يا أَبا محمد ! حدّثني ؛ فحدّثه أحاديثَ ، فقال : زدني ؛ فزاده ، فقال : زدني ؛ فزاده ، فدفعه في صَدْره فوقع إلى الوادي ، فتفاشى ذلك ، فاجتمع الحاجُّ ، وقالوا : سفيانُ بن عيينة قتلَ رجلاً من الحاجّ ؛ فلما كَثُر ذلك أشفق سفيان ، فنزل إلى الرَّجل فترك رأْسهُ في حِجره ، وقال : مالك ؟ أَيُّ شيءٍ أَصابك ؟ فلم يزلْ يُرْكِضُ رجليه ويُزبِدُ من فيه ، قال : وكثر الضَّجيجُ : سفيانُ بن عيينة قَتَلَ رجلاً ، فقال له : قُمْ وَيْلك ! أَما ترى الناسَ يقولون ؟ فقال له وهو يُخفي صوته : لا والله لا أَقومُ حتى تحدِّثني مئة حديث عن الزُّهْري وعمرو بن دينار ؛ ففعل فقام .

* * * *

١١ ــ أنبأنا محمد بن أبي طاهر ، عن أبي الربيع ، قال : حَجَجْتُ في مَوْسم اثنين وأربعين ، فرأَيتُ مالاً عظيماً وثياباً كثيرةً تُفرّق في المسجد الحرام ، فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : بخراسان رجلٌ صالحٌ عظيم النعمة والمال ، يقال له : علي الزَّرَّاد ، أَنفَذ عامَ أَوّلَ مالاً وثياباً إلى ها هنا مع ثقةٍ له ، وأمره أن يعتبر قريشاً ، فمن وجده منها حافظاً للقرآن دفع إليه كذا وكذا ثوباً ، قال : فحضر الرجلُ عام أَوّلَ فلم يجد في قريش أَلبتةَ أَحداً يحفظ القرآن إلاّ رجلاً واحداً

من بني هاشم ، فأعطاه قِسْطه ، وتحدّث الناس بالحديث ، وردَّ باقي المال إلى صاحبه ، فلما كان في هذه السنة عاد بالمال والثياب ، فوجد خلقاً عظيماً من جميع بطون قريشٍ قد حفظوا القرآن وتسابقوا إلى تلاوته بحضْرتِه وأُخذوا الثياب والدراهم ، فقد فنيت وما بقي منهم أكثر ممن لم يأْخذ ، وهم يطالبونه ، قال : فقلتُ : لقد توصّل هذا الرجلُ إلى ردّ فضائلِ قريشٍ عليها بما يشكرُه الله سبحانه وتعالى له .

* * * *

١٢ ــ أخبرنا أبو منصور القزَّاز ، عن إبراهيم بن عبد الله ، قال : كنتُ في بيتِ عمتي ، ولها بنون ، فسأَلتُ عنهم ، فقالوا : قد مضوا إلى عبد الله بن داود ، فأَبطأُوا ، ثم جاءُوا يذمُّونه ، وقالوا : طلبناه في منزله فلم نجده ، وقالوا : هو في بَسْتِينَةٍ له ، فقصدناه وسلَّمنا عليه ، وسأَلناه أَن يحدّثنا ، فقال : مُتِّعت بكم ، أَنا في شُغُل عن هذا ، هذه البستينة لي فيها معاشٌ ، وتحتاج أَن تُسقى ، وليس لنا من يسقيها ، فقلنا : نحن نديرُ الدُّولاب ونسقيها ، فقال : إنْ حضرتكم نيةٌ فافعلوا ؛ فأَدرنا الدولابَ حتى سَقَيْنا البستان ، ثم قلنا : حدّثنا الآن ، فقال : مُتِّعت بكم ، ليس لي نية في أَن أُحدّثكم ، وأَنتم كانت لكم نيةٌ تُؤجَرُون عليها .

* * * *

١٣ ــ أَخبرنا علي بن المحسِّن ، عن أَبيه ، قال : أَخبرني جماعةٌ من شيوخ بغداد أَنه كان بها في طرف الجسر سائلان أَعميان أَحدهما يتوسّل بأَمير المؤمنين عليّ ، والآخر بمعاوية ؛ ويتعصب لهما الناس ، ويجمعان القِطَع ، فإذا انصرفا فيقتسمان القطع ، وكانا يحتالان بذلك على الناس .

* * * *

١٤ ــ أخبرنا أبو منصور ، عن محمد الأسدي ، قال : سمعت أَبي يقول : حججت في بعض السنين ، وحجّ في تلك السنة أبو القاسم البغوي وأبو بكر الأدمي القاري ، فلما صرنا بمدينة الرسول عليه الصلاة والسلام ، جاءني البغوي ، فقال : يا أَبا بكر ! ها هنا رجلٌ ضريرٌ ، وقد جَمَعَ حلقة في مسجد رسول الله ﷺ ، وقعد يقصّ ويروي الكَـذِبَ مـن الأحـاديث الموضوعة ، فإن رأَيْتَ أن تَمْضي بنا إليه لننكر عليه ونمنعه ؟ قلت له : يا أَبا القاسم إنّ كلاً منا لا يُؤثِّر مع هذا الجمع الكثير ، ولسنا ببغداد فَيُعْرَف لنا مواضِعُنا ، ولكن ها هنا أَمرٌ آخر هو الصواب ؛ فأَقبلتُ على أَبي بكر الأدمي ، فقلتُ لَهُ · استعدّ واقرأ ؛ فما هو إلاّ أن ابتدأ بالقراءة

حتى انقلبت الحلقة وانفضّ الناس جميعاً ، وأحاطوا بنا يستمعون قراءة أبي بكر وتركوا الضرير وَحْدَه ، فسمِعْتُهُ يقول لقائده : خُذْ بيدي ، فهكذا تزول النّعَم .

* * * *

١٥ — أنبأنا محمد بن عبد الباقي ، عن بعضُ فتيان المَوْصِل ، قال : لما قَتل ناصرُ الدولة أبا بكر بنَ رائقٍ المَوْصِليّ ، نهب الناسُ داره بالموصل ، فدخلتُ لأنهبَ ، فوجدت كيساً فيه أكثرُ من ألفِ دينار ، فأخذتُهُ ، وخفت أن أخرجَ وهو معي ، فيُبصرني بعضُ الجند فيأخذه مني ، فطُفْتُ الدار فوقعتُ على المطبَخِ ، فعمدْتُ إلى قِدْرةٍ كبيرةٍ فيها سِكْبَاجٌ ، فطرحتُ الكيسَ فيها ، وحملتُها على يدي ، فكلٌّ من استقبلني نظر أني ضعيفٌ قد حملني الجوعُ على أخذ تلك القدرة ، حتى سلمتُ إلى مَنْزلي .

* * * *

١٦ — قال المُحَسِّن : وحدثني أبو الحسن بن عيّاش القاضي قال : رأيتُ صديقاً على بعض زواريق الجسر ببغداد جالساً في يومٍ شديدِ الريح وهو يكتبُ رقعة ، فقلت : وَيْحَك ! في هذا الموضعِ وهذا الوقت ! قال : أُريدُ أن أُزوِّرَ على رَجلٍ مُرتَعِش ويدي لا تُساعدْني ، فتعمَّدْتُ الجلوس ها هنا لِيَتَحَرَّك الزورق بالموج في هذه الرِّيح ، فيجيء خَطّي مُرْتَعِشاً ، فيُشْبِه خَطَّه .

* * * *

١٧ — قال المُحَسِّن : وحَدَّثني أبُو الطَّيِّب ابن عبد المؤمن ، قال : خرج بعض حُذَّاق المكدين من بغداد إلى حمص ومعه امرأتُه ، فلما حصل بها ، قال : إنَّ هذا بلدُ حماقةٍ ومالٍ ، وأُريدُ أن أَعْمَلَ حيلةً فتساعديني ، فقالت : شأنك ؛ قال : كوني بموضِعكِ ولا تجتازي بي ألبتَة ، فإذا كان كلّ يوم ، فخُذي لي ثُلثي رطلٍ زبيباً ، وثُلثي رطلٍ لوزاً ،فاعجِنيه واجعليه وقت الهاجرة على آجرَّة جديدة نظيفة لأعرفها في الميضأة الفلانية ، وكانت قريبة من الجامع ، ولا تزيديني على هذا شيئاً ، ولا تمرّي بناحيتي ؛ فقالت : أفعل ؛ وجاءَ هو ، فأخرج جبَّة صوفٍ كانت معه ، فلبسها ، وسراويلَ صوفٍ ، ومئزراً جعله على رأسه ، ولزم أسطوانةً يمرُّ الناسُ عليها ، فصلى نهاره أجمع وليلته أجمع ، لا يستريح إلاَّ في الأوقات المحظورِ فيها الصلاة ، فإذا جلس فيها

سبّح و لم ينطق بلفظةٍ ، فتُنُبِّه على مكانه ، ورُوعي مدةً ، ووضعت العيونُ عليه ، فإذا هو لا يقطعُ الصلاة ولا يَذُوق الطَّعام ، فتحيّر أَهلُ البلد في أَمره ، وكان لا يخرجُ من الجامع إلاَّ في وقت الهاجرة في كلِّ يومٍ دفعةً إلى تلك الميضأَة ، فيبول فيها ، ويَغْدو إلى الآجُرّة وقد عرفها وعليها ذاك المعجون وقد صار مُنْحَلاً ، وصورتُه صورة الغائط ، فَمَنْ يدخلُ ويخرجُ لا يشك أَنه غائط ، فيأْكله ، فيقيم أَوَدَهُ ويرجعُ ، فإذا كان وقت صلاة العتمة أَو في اللَّيل شرب من الماءِ قدر كفايته ، وأَهل حمص يظنُّون أَنه لا يَطْعَمُ الطعام ولا يذوق الماءَ ، فعظم شأْنُهُ عِنْدَهُم ، فَقَصدُوهُ وكلَّموه ، فلم يُجبهم ، وأَحاطوا به فلم يلتفتْ ، واجتهدوا في خطابه فلزم الصمت ، فزاد محلُّهُ عندهم ، حتى أَنَّهُم كانوا يتمسَّحون بمكانِهِ ويأْخذون الترابَ مِنْ مَوْضِعِهِ ، ويحملون إليه المرضى والصبيان فيمسحُ بيدِهِ عَلَيْهِم ؛ فلما رأَى منزلتَهُ عِنْدَهم وقد بلغت إلى ذلك ، وكان قد مَضَى على هذا السَّمْتِ سنةٌ ؛ اجتمع مع امرأَتِهِ في الميضأَة ، وقال : إذا كان يوم الجمعة حين يصلِّي الناس ، فتعالي فاعْلَقي بي والطُمي وجهي ، وقولي : يا عدوّ الله ! يا فاسق ! قتلتَ ابني ببغدادَ وهربت إلى ها هنا تتعبد ؟ وعبادتك مضروبٌ بها وَجْهَكَ ؛ ولا تفارقيني ، وأَظهري أَنك تريدين قتلي بابْنِكِ ، فإنَّ الناس سيجتمعون عليكِ وأَمنعهم أَنا من أَذيّتك ، وأَعترف بأَنِّي قتلتُه وتبتُ ، وجئتُ إلى ها هنا للعبادة والتوبة والندم على ما كان مني ؛ فاطلبي قَوَدِي بإقراري وحَمْلي إلى السلطان فَسَيَعْرِضُونَ عليك الدِّيَة ، فلا تقبليها حتى يبذلوا لك عَشْرَ دِيات أَو ما استوى لك بحسب ما ترين زيادتهم وحرصهم ، فإذا تناهت أَعْطِيَتهم في افتدائي إلى حدٍّ يقع لك أَنهم لا يزيدون بعده شيئاً ، فاقبلي الفداءَ منهم ، واجمعي المال وخذيه واخرجي من يومك إلى بغداد ، ولا تُقيمي بالبلد ، فإني سأَهرب وأَتْبعُكِ ؛ فلما كان من الغد ، جاءَت المرأة ، فتعلَّقت به ، وفعلت به ما قال ، فقام أَهلُ البلد ليقتلوها ، وقالوا : يا عدوّة الله ، هذا من الأَبدال ، هذا قِوَام العالم ، هذا قطبُ الوقت ؛ فأَوْمَأَ إليهم أَن اصبروا ولا تنالوها بشرّ ، فصبروا ، وأَوْجز في صلاته ، ثم سلَّم وتمرَّغ في الأَرض طويلاً ، ثم قال : أَيها الناس ! هل سمعتُم لِي كلمةً منذ أَقمتُ عندكم ؟ فاستبشروا بسماع كلامه ، وارتفعت ضجّةٌ عظيمةٌ وقالوا : لا ؛ قال : إني إنما أقمتُ عندكم تائباً مما ذَكَرَتْهُ ، وقد كنتُ رجلاً فيَّ زَيْغٌ وخسارةٌ ، فقَتَلْتُ ابنَ هذه المرأة ، وتُبْتُ ، وجِئْتُ إلى ها هنا للعبادة ، وكنت أُحَدِّثُ نفسي بالرُّجوع لها لتقتلَني ، خوفاً من أَن تكون توبتي ما صحّت ، وما زلت أَدعو الله أَن يقبل توبتي ، ويمكِّنها مِن قَوَدِي ، إلى أَن أُجيبَتْ دعوتي باجتماعي بها وتمكينها من قَوَدِي ، فدعوها تقتلني ، واستودعتكم الله .

قال : فارتفعت الضجّة والبُكاءُ ، وهو مارٌّ إلى والي البلد ليقتله بابنها ؛ فقال الشيوخ :

يا قوم ! لقد ضللتم عن مداواة هذه المحنةِ ، وحراسةِ بلدِكُم بهذا العبد الصالح ، فارفقوا بالمرأة واسألوها قَبولَ الدِّيَةِ فاجمعوها من أموالنا ؛ فطافوا بها وسألوها ، فقالت : لا أفعل ، فقالوا : خذي دِيَتَيْن ؛ فقالت : شعرة من ابني بألف دِيَة ؛ فما زالوا حتى بلغوا عشر دِيَات ، فقالت : اجمعوا المال ، فإذا رأيتُه وطاب قلبي بقبوله فعلتُ ، وإلاَّ قتلت القاتلَ ؛ فجمعوا مئة ألف درهم ، وقالوا : خذيها ؛ فقالت : لا أُريدُ إلاَّ قتل قاتل ابني ، في نفسي أثر ؛ فأقبل الناس يرمون ثيابهم وأرديتهم وخواتيمهم ، والنساءُ حُليَّهن ، فأخذت ذلك وأبرأتْه من الدَّم وانصرفت . وأقام الرجل بعد ذلك في الجامع أياماً يسيرة ، حتى علم أنها قد بَعدت ، ثم هرب في بعض اللَّيالي ، وطُلب فلم يُوجد ولا عُرف له خبر ، حتى انكشف لهم أنه كانت حيلة بعد مدة طويلة .

* * * *

١٨ — قال : كان بالكوفة امرأة قد ضاق بزوجها المعاش ، فقالت له : لو خرجتَ فضربت في البلاد وطلبت من فضل الله تعالى ؛ فخرج إلى الشام ، فكسب ثلاث مئة درهم ، فاشترى بها ناقة فارهة ، وكانت زَعْرَة ، فأضجرته واغتاظ منها ومن زوجته حيث أمرته بالخروج ، فحلف بالطَّلاق ليبيعنَّها يوم يدخل الكوفة بدِرْهَم ، ثم نَدِمَ ، وأخبر زوجَته ، فعمدت إلى سِنَّوْر فعلَّقتها في عنُق الناقة ، وقالت : أَدْخِلْها السُّوق ، وناد عليها : من يشتري هذا السِّنَّور بثلاث مئة درهم والناقة بدرهم ولا أُفرِّق بينهما ؟ ففعل ، فجاءَ أعرابي يدور حول الناقة ويقول : ما أفرهَك لولا هذا السِّنَّور الذي في عنقك .

* * * *

١٩ — وبلغنا عن أبي دلامة أنَّه دخل على المهدي ، فأنشده قصيدةً ، فقال له : سلني حاجتَك ، فقال : يا أمير المؤمنين ! تهب لي كلباً ؛ فغضب ، وقال : أقول لك : سلني حاجتَك ، فتقول : تهبُ لي كلباً ! فقال : يا أمير المؤمنين ! الحاجةُ لي أم لك ؟ قال : لا بل لك ؛ قال : فإني أسألك أن تهب لي كلب صيدٍ ؛ فأمر له بكلبٍ ، فقال : يا أمير المؤمنين ! هبني خرجتُ إلى الصَّيْدِ ، أعدو على رجليّ ؟ فأمر له بدابّة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، فَمَنْ يقومُ عليها ؟ فأمر له بغلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ! فهبني صِدتُ صَيْداً وأتيْتُ به المنزل ، فمن يطبخه ؟ فأمر له بجارية ، فقال : يا أمير المؤمنين ! هؤلاءِ أين يبيتون ؟ فأمر له بدارٍ ، فقال : يا أميرِ المؤمنين ! قد صيّرت في عنقي كفافاً — أي جمعاً — من عيال ، فأين ما يتقوّت به

هؤلاءِ ؟ قال : فإن أَمير المؤمنين قد أَقطعكَ أَلفَ جريبٍ عامراً وأَلف جريب غامراً ، فقال : أَما العامر فقد عَرَفتُهُ ، فما الغامر ؟ قال : الخراب الذي لا شيءَ فيه ، فقال : فأَنا أَقطع أَمير المؤمنين مئة أَلف جَرِيب بالدوِّ ولكني أَسأَل أَميرَ المؤمنين من أَلفي جَرِيبٍ جَرِيباً واحداً عامراً . قال : من أَين ؟ قال : من بيت المال ، فقال المهدي : حوّلوا المال منه وأَعطوه جريباً ، فقال : يا أَمير المؤمنين ! إذا حَوَّلُوا منه المال صار غامراً ! فضحك منه وأَرضاه .

* * * *

٢٠ ــ كان نصرانيٌّ يختلف إلى الضحَّاك بن مزاحم ، فقال له يوماً : لم لا تُسْلم ؟ قال : لأنّي أُحبُّ الخمرَ ولا أَصبرُ عنها ، قال : فأَسْلِمْ واشربها ؛ فأَسلم ، فقال له الضحاك : إنك قد أَسلمتَ الآن فإن شربت حَدَدْنَاك ، وإن رجعتَ عن الإسلام قَتَلْنَاك .

* * * *

٢١ ــ وروى ضَمْرة [بن ربيعة] ، عن ابن شوذب ، قال : كان لرجل جاريةٌ ، فوطئها سراً ، ثم قال لأهله : إنَّ مريم كانت تغتسلُ في هذه الليلة فاغتسلوا ، فاغتسل هو واغتسل أَهله .

* * * *

٢٢ ــ قال الجاحظ : كان رجلٌ يَرْقِي الضرس ، يسخرُ بالنَّاس ليأْخذ منهم شيئاً ، وكان يقول للذي يَرْقِيه : إيّاك أَن يخطُر على قلبك الليلة ذكر القرد ، فيبيت وجِعاً ، فيُبكِّرُ إليه . فيقول : لعلَّك ذكرتَ القرد ؟ فيقول : نعم ، فيقول : من ثَمَّ لم تنفع الرُّقية .

* * * *

٢٣ ــ وبلغنا عن عقبة الأَزْدِيّ ، أَنه أُتِيَ بجاريةٍ قد جُنَّت في الليلة التي أَراد أَهلها أَن يدخلوها إلى زَوْجِها ، فعزم عليها ، فإذا هي قد سقطت ، فقال لأَهلها : اخلوني بها ، فقال لها : اصدقيني عن نفسك وعليَّ خلاصك ، فقالت : إنه كان لي صديق وأَنا في بيت أَهلي ، وأَنهم أَرادوا أَن يدخلوني على زَوْجي ولستُ بِبِكْرٍ ، فخفتُ الفضيحة ؛ فهل عندك من حيلة في أَمري ؟ فقال : نعم ؛ ثم خرج إلى أَهلها ، فقال : إنَّ الجنّي قد أَجابني إلى الخروج منها ، فاختاروا من أَيِّ عُضو تحبُّون إخراجَه من أَعضائها ، واعلموا أَن العضو الذي يخرج منه الجِنّي لا بد أَن يهلك ويفسد ، فإن خرج من عينها عَمِيت ، وإن خرج من أُذنها صَمَّت ، وإن خرج

من فمها خَرِسَت ، وإن خرج من يدها شُلَّت ، وإن خرج من رجلها عَرَجَت ، وإن خرج من فرجها ذهبت عذْرتها ؛ فقال أهلها : ما نجد شيئاً أهون من ذهاب عُذرتها ، فأُخْرِج الشيطانَ من فَرْجها . فأَوْهَمَهُم أنّه قد فعل ، وأُدخلت المرأة على زوجها .

* * * *

٢٤ — لَطَمَ رجلٌ الأَحنفَ بن قيس ، فقال له : لِمَ لطمتني ؟ قال : جُعِل لي جَعْلٌ أن أَلطم سيّد بني تميم ؛ قال : ما صنعت شيئاً ، عليك بحارثة بن قدامة فإنه سيد بني تميم ، فانطلق ، فَلَطَمَهُ ، فَقطَعَ يَدَه ؛ وذاك ما أَراده الأَحْنَف .

* * * *

٢٥ — حكى لنا أبو محمد ابن الخَشَّاب النحويّ ، قال : جاز بعض الحَاكةِ على طبيبٍ ، فرآه يصفُ لهذا النُّقُوع ، ولهذا التَّمْرَ هِندي ، فقال : من لا يحسنُ مثل هذا ؟ فرجع إلى زوجته ، فقال : اجعلي عمامتي كبيرة ؛ فقالت : وَيْحك ! أَيُّ شيءٍ قد طرأَ لك ؟! قال : أُريد أن أَكون طبيباً ، قالت : لا تفعل ، فإنَّك تقتلُ الناسَ فيقتلونك ، قال : لا بدّ ؛ فخرج أَوَّلَ يوم ، فقعد يصفُ للناس ، فحصّل قراريط ، فَجَاءَ ، فقال لزوجته : أَنا كنتُ حائكاً أَعمل كل يوم بحبّة ، فانظري إيش حصل ؛ فقالت : لا تفعلْ ، قال : لا بدّ ؛ فلما كان في اليوم الثاني اجتازت جارية ، فرأته ، فقالت لسيِّدتها وكانت شديدة المرض : اشتهيتُ هذا الطبيب الجديد يداويك ، قالت : ابعثي إليه ؛ فجاءَ ، وكانت المريضة قد انتهى مرضها ومعها ضَعْفُ انتهاء المرض ، فقال : عليّ بدجاجة مطبوخة ؛ فجيء بها ، فأَكَلَتْ ، فقويت ، فبلغ ذلك إلى السلطان ، فجاءَ به ، فشكا إليه مرضاً يجده ، فاتَّفق أنَّه وصف له شيئاً صلح به ، فاجتمع إلى السلطان جماعةٌ يعرفون ذلك الحائك ، فقالوا له : هذا الرجل حائك لا يدري شيئاً ؛ فقال السلطان : هذا قد صلحتُ على يديه وصَلُحت الجاريةُ على يديه ؛ فلا أَقبل قولكم ؛ قالوا : فنجرّبُه بمسائل ؟ قال : افعلوا ، فوضعوا له مسائل وسأَلوه عنها ، فقال : إن أَجبتكم عن هذه المسائل لم تعلموا جوابها ، لأَن الجوابَ لهذه المسائل لا يعرفُه إلاَّ طبيب ، ولكن أَليس عندكم مَارِسْتان ؟ قالوا : بلى . قال : أَليسَ فيه مرضى لهم مُدَّة ، قالوا : بلى . قال : فأَنا أُداويهم حتى ينهض الكلُّ في عافية في ساعةٍ واحدة ، فهل يكون دليل على علمي أَقوى من ذلك ؟ قالوا : لا . فجاءَ إلى باب المارستان ، وقال : اقعدوا لا يدخلْ معي أَحدٌ ؛ ثم دخل وحده وليس معه إلاَّ قيِّمُ المارستان ، فقال للقيّم :

إنك واللهِ إن تحدثتَ بما أُعملُ صَلَبْتُك ، وإن سَكتَّ أُغنيتك ، قال : ما أُنطق قال : فأَحْلَفَهُ بالطَّلاَقِ ، ثم قال : عندكَ في هذا المارستان زيتٌ ، قال : نعم . قال : هاته . فجاءَ منه بشيء كثيرٍ ، فصبّه في قدر كبير ، ثم أُوقد تحته ؛ فلما اشتدَّ غليانُه صاح بجماعة المرضى ، فقال لأَحدهم : إنه لا يُصلحُ لمرضك إلا أَن تنزل إلى هذا القدر فتقْعُد في هذا الزيت ، فقال المريض : اللهَ اللهَ في أُمري ، قال : لا بدّ . قال : أَنا قد شُفيتُ ، وإنما كان بي قليل صداع . قال : فإيش يُقْعِدك في المارستان وأَنت معافىً ؟ قال : لا شيءَ . قال : فاخرج وأَخبرهم ؛ فخرج يعدو ، ويقول : شفيتُ بإقبال هذا الحكيم ؛ ثم جاءَ إلى آخر ، فقال : لا يصلح لمرضك إلا أَن تقعد في هذا الزيت ، فقال : اللهَ اللهَ ، أَنا في عافية ، قال : لا بدّ ؛ قال : لا تفعلْ فإنّي من أَمس أَردتُ أَن أخرج ؛ قال : فإن كنت في عافية فاخرج وأَخْبِرِ الناس بأَنك في عافية ؛ فخرج يعدو ، ويقول : شفيتُ ببركة هذا الحكيم ؛ وما زال على هذا الوصف حتى أَخرج الكلَّ شاكرين له .

* * * *

٢٦ — روى يحيى بن الحسين الربيعي أن سلماً الخاسر كان قد بلي بالكيمياء ، فسمع أن بباب الشام صاحب كيمياء ، وأنه لا يصل إليه أحدٌ إلا ليلاً ، فسأل عنه ، فدلُّوه عليه .

قال : فدققت الباب ، فخرج إلي ، فقال : من أنت عافاك الله ؟ فقلت : رجل مُعْجَبٌ بهذا العلم ، قال : فلا تشهرني ، فإني رجل مستور ، قلت : لا .

قال : وبين يديه كوز شَبَهٍ[1] صغير ، فقال لي : أقلع عروته ؛ فقلعتها ، فقال : اسبكها في البوطقة[2] ؛ فسبكتها ، فأخرج شيئاً من تحت مصلاه ، ثم قال : ذره عليها ؛ ففعلت ، فقال : أَفرِغْهُ ؛ فأفرغْتُه ، فقال : دعه معك ، فإذا أصبحْتَ فاخرج وبعه ، وعد إلي ؛ فأخرجته إلى باب الشام ، فبعت المثقال بإحدى وعشرين درهماً ، فرجعت إليه ، فقلت : اطلب ما شئت ؟ فقال : خمس مئة دينار على أَن لا تعلّمه أحداً ؛ فأعطيتُهُ ، وكتب لي صفة ، فاستحسنتُها ، فإذا هي باطلة ، فعدتُ إليه ، فقيل لي : قد تحوّل ، وإذا عروة الكوزشبه من ذهب مركبة عليه ، والكوزشبه ؛ وانصرفت ، وعلمت أنه باطل .

* * * *

(١) « كوزشبه » : أي : وعاء من النحاس الأصفر .

(٢) « البوطقة » أو « البوتقة » : إناء من خزف تَصْهَرُ به الصاغةُ الذهب والفضة ؛ وتستعمل هذه اللفظة أيضاً للدلالة على بعض أواني المخابر .

٢٧ ــ بلغنا أن امرأة كان لها عشيق ، فحلف عليها : إن لم تحتالي حتى أطأك بمحضر من زوجك لم أكلّمك ؛ فوعدته أن تفعل ذلك ، فواعدها يوماً ، وكان في دارهم نخلة طويلة ، فقالت لزوجها : أشتهي أصعد هذه النخلة ، فأجتني من رُطَبها بيدي ؛ فقال : افعلي ؛ فلما صارت في رأس النخلة ، أشرفت على زوجها ، وقالت : يا فاعل ! مَنْ هذه المرأة التي معك ؟ ويلك ! أما تستحي تجامعها بحضرتي ؟ وأخذت تشتمه وتصيح ، وهو يحلف أنه وحده ، وما معه أحد . فنزلت ، فجعلت تخاصمه ويحلف بطلاقها أنه ما كان إلا وحده ، ثم قال لها : اقعدي حتى أصعد أنا ؛ فلما صار في رأس النخلة استدعت صاحبها ، فوطئها ، فاطّلع الزوج ، فرأى ذلك ، فقال لها : جعلت فداك ! لا يكون في نفسك شيء مما رميتيني به ، فإن كلَّ من يصعد هذه النخلة يرى مثل ما رأيت .

* * * *

٢٨ ــ وذكر أبو عُبَيْدة مَعْمَرُ بن المثنَّى : أن الفَرَزْدَق مَرَّ بامرأةٍ وعليه ثوبُ وَشْيٍ ، فتعرَّض لها ، فقالت جاريتُها : ما أَحسنَ هذا البُرْدَ ! فقال : هل لَكِ أن أُقبِّلَ مولاتَكِ وأَهبَ لك هذا البُرْد ؟ فقالت الجارية لمولاتها : ماذا يضرُّك من هذا الأعرابيِّ الذي لا يعرفُه الناس ؟ فأذِنَت له ، فقبّلها وأَعطاها البُرْد ، ثم قال للجارية : اسقيني ماءً . فجاءَتْه الجاريةُ بماءٍ في قَدَح زُجاج ، فلما وضعتهُ في يده ألقاه من يده فانكسر ، فقعد الفرزدقُ مكانه إلى أن جاءَ صاحب الدار ، فقال : يا أَبا فِراسٍ ! أَلك حاجة ؟ قال : لا ، ولكني استسقيت منِ هذه الدار ماءً ، فأُتيت بقدحٍ من زُجاج ، فوقع الإناءُ من يدي فانكسر ، فأَخذوا بُرْدِي رَهْناً ؛ فدخل الرجلُ ، فَشَتَمَ أَهْلَه ، وقال : ردُّوا على الفَرَزْدَقِ بُرْدَه .

* * * *

الباب السابع عشر
في
ذكر من احتال فانعكس عليه مقصوده

١ ــ روى أبو محمد بن قتيبة ، عن أبي حاتم ، عن العتبي قال أبو إبراهيم : لما أَسَنَّ معاويةُ اعتراه أَرَقٌ ، وكان إذا هو نام أُيقظتْه النواقيسُ ، فلما أصبح ذات يوم ودخل الناس عليه ، قال : يا معشرَ العرب ! هل فيكم من يفعلُ ما آمُرُه به وأُعطيه ثلاثَ دِياتٍ أُعَجِّلُها له وديَتين إذا رجع ؟ فقام فتًى من غسّانَ ، فقال : أنا يا أميرَ المؤمنين . قال : تذهب بكتابي إلى ملك الروم ، فإذا صِرْتَ على بِسَاطِه أَذَّنْتَ . قال : ثم ماذا ؟ قال : فقط . قال : لقد كلَّفتَ صغيراً وأَعطَيتَ كبيراً . فلما خرج وصار على بِساط قيصَر أَذَّن ، فمارَت البطارقةُ واخترطوا سيوفَهُم ، فسبق إليه ملكُ الروم ، فجثا عليه وجعل يسأَلُهم بحقِّ عيسى وبحقِّه عليهم لمّا كَفُّوا ، ثم ذهب إلى سريرهِ حتى صعِد به ، ثم جعله بين رجليه ، فقال : يا معشرَ البطارقة ! إنَّ معاويةَ قد أَسَنَّ ، ومن أَسنَّ أَرِق ، وقد آذَتْهُ النَّواقيسُ ، فأَراد أن يُقتَلَ هذا على الأَذان فَيَقْتُلَ مَنْ ببلاده على ضَرْب النَّواقيس ، وبالله ليَرْجِعَنَّ إليه على خلاف ما ظنّ ؛ فكساه وحَمَله ، فلمّا رجع إلى معاوية ، قال له : أَوقد جئتَنِي سالماً . قال : أمّا من قِبَلِك فلا .

ويُقَالُ : ما وَلِي المسلمين أَحدٌ إلّا ومَلَك الرُّومَ مِثْلُه ، إنْ حازماً وإن عاجزاً ، وكان الذي ملكهم على عهد عمر بن الخُطّاب هو الذي دَوَّن لهم الدَّوَاوين ودَوَّخ لهم العدوّ ، وكان الذي على عهد معاوية يشبه معاوية في حزمه وعمله .

* * * *

٢ ــ أنبأنا محمد بن أبي طاهر بإسناد عن رجلٍ من الجُند ، قال : خرجت من بعضِ بُلْدان الشام أُريدُ قريةً من قراها ، فلما صرتُ في الطَّريق وقد سرتُ عدّة فراسخ تعبتُ ، وكنت على دابّة وعليها خُرْجي ورَحْلي ، وقد قَرُب المَسَاءُ ، فإذا بحصنٍ عظيمٍ وفيه راهبٌ في صومعة ،

فنزل إليّ وسألني واستقبلني ، وسألني المبيتَ عنده وأن يُضيفَني ، ففعلتُ ، فلما دخلتُ الدِّيرَ لم أجدْ فيه غيري ، فأخذ دابتي وطرح لها شعيراً ، وجعل رحلي في بيتٍ وجاءَني بماءٍ حار ، وكان الزمانُ شديد البرد والثلج يَسْقُط ، وأَوْقَدَ بين يدي ناراً عظيمةً ، وجاءَ بطعامٍ طيّب فأكلتُ ، ومضت قطعةٌ من الليل ، فأردتُ النوم ، فسألته عن طريق النوم ، ثم سألته عن طريق المُسْتَراح ، فدلَّني على طريقه ، وكان في غرفةٍ ؛ فمشيتُ ، فلمّا صرتُ على باب المستراح إذا باريةٌ[1] عظيمة ، فلما صارت رجلاي عليها نَزَلَتْ ، فإذا أنا في الصحراء ، وإذا البارية كانت مطروحةً على غير سَقْف ، وكان الثلجُ تلك الليلةَ يسقُطُ سُقُوطاً عظيماً ، فصحتُ فما كلَّمني ، فقمتُ وقد تجرّح بدني إلا أنّي سَالم ، فجئتُ ، فاستظللت بطاقٍ عندَ باب الحصن من الثَّلج ، فإذا حجارةٌ لو جاءَتْني وتمكَّنَتْ من دِماغي طحَنَتْهُ ، فخرجتُ أعدو وأصيحُ ، فشتمني ، فعلمتُ أن ذلك من جانبه ، وطمع في رَحْلي . فلمّا خرجت وقع الثلجُ عليَّ وبلَّ ثيابي ، ونظرتُ ، فإذا أنا تالفٌ بالبرد والثلج ، فولَّد لَي الفِكْرُ أن طلبتُ حجراً فيه نحو ثلاثين رطلاً ، فوضعتُه على عاتقي ، وأقبلتُ أعدُو في الصحراء شوطاً طويلاً حتى أتعب ، فإذا تعبتُ وحَمِيتُ وعَرِقْتُ طرحتُ الحجرَ وجلستُ أستريح ، فإذا سكنتُ وأخذني البردُ تناولتُ الحجرَ ، وسعيتُ كذلك إلى الغَدَاة ؛ فلما كان قبل طلوع الشمس وأنا خلف الحِصْن ، إذ سمعتُ صوتَ باب الدير قد فُتح ، وإذا بالراهب قد خرج وجاءَ إلى الموضع الذي قد سقطتُ منه ، فلما لم يرني ، قال : يا قومُ ! ما فعل — وأنا أسمعه وأظنه — المشؤوم قد رأى بقُربِهِ قَريةً فقام يمشي إليها ، كيف أعمل ؟ قال : وأقبل يمشي ، فخالفتُه أنا إلى الباب ودخلتُ الحصن ، وقد مشى هو من ذاك المكان يطلُبني حوالَيّ الحصن ، فحصلتُ أنا خلف باب الحصن ، وقد كان في وسطي سكَينٌ لم يَعلمْ بها الراهبُ ، فوقفتُ خلف الباب ، فطاف الراهبُ ، فلمّا لم يقف لي على أثر عاد ودخل وأغلق الباب ، فحين خفتُ أن يراني ثُرتُ إليه ووجأْتُه بالسكين فصرعتُه وذبحتُه ، وأغلقتُ باب الحصن ، وصعدتُ إلى الغُرفة ، واصطليت بنارٍ كانت موقودةً هناك ، وطرحتُ عليّ من تلك الثياب ، وفتحت خُرجي ولبست منه ثياباً ، وأخذتُ كِساء الراهب فنمتُ فيه ، فما أفقتُ إلا قريبَ العصر ، ثم انتَبَهْتُ ، فطفت الحصن حتى وقفت على طعام ، فأكلت ، وسكَنَت نفسي ، ووقعت بمفاتيح بيوتِ الحصن ، وأقبلتُ أفتح بيتاً بيتاً وإذا بأموالٍ عظيمة من عَيْنٍ وَوَرِقٍ وأمتعة

---

(١) الباريّة : الحصير المنسوج .

وثياب وآلاتٍ ورِحَال قوم وأخراجهم وحمولاتهم ، وإذا الراهبُ من عادته تلك الحال مع كلِّ من يجتازُ به وحيداً ويتمكَّنُ منه ، فلم أَدْرِ كيف أعمل في ثقل المال ، فلبستُ من ثياب الراهب شيئاً ، وأقمت في صومعته أياماً أَتراءَى لمن يجتازُ بي في الموضع من بعيد ليلاً ويشكُّوا فيّ أنّي أنا هو ، فإذا قربوا لم أُبرِزْ لهم وجهي إلى أن خَفِي خبري ، ثم نزعتُ تلك الثياب ، وأخذتُ جولقين(1) مما كان في الدّير من تلك الأمتعة ، وملأتُهما مالاً ، وجَعَلتُهما على الدابّة ، وسُقْتها إلى أقرب قرية كانت ، واكتريتُ فيها منزلاً ، ولم أزل أنقلُ منه الصامت حتَّى حملتُه كلَّه ، ثم ما خفّ وكثُرت قيمته حتى لم أدعْ إلاَّ الأمتعة الثقيلةَ ، واكتريتُ عدّة أجمال وحمير ورجّالة وجئتُ بهم دَفْعةً واحدة ، وحملتُ كلَّ ما قدرتُ عليه ، وسرتُ في قافلة عظيمةٍ لنفسي بغنيمةٍ هائلة ، حتى قدمت بلدي وقد حَصَلَتْ لي عشرةُ آلاف درهم ودنانير كثيرة مع قيمة الأمتعة ، وغصتُ في الأرض فما عُرف خَبَري .

* * * *

٣ ــ أنبأنا أبو بكر بن أبي طاهر ، عن علي بن الحسين ، عن أبيه ، عن أبي جعفر محمد ابن الفضل الضميري يؤدّبه ، قال : كانت في بلدنا عجوز صالحة ، كثيرة الصيام والصلاة ، وكان لها ابن صيرفي منهمك في الشراب واللعب ، وكان يتشاغل بدكّانه أكثر نهاره ، ثم يعود عشاء إلى منزله ، فيخبىء كيسه عند والدته ويمضي فيبيت في مواضع يشرب فيها ، فعيّن بعض اللصوص على كيسه ليأخذه ، فجاء وراءه ، ودخل إلى الدار وهو لا يعلم ، فاختبأ فيها ، وسلم هو كيسه إلى أمّه وخرج ، وبقيت وحدها في الدار ، وكان لها في دارها بيت موزور بالسياج ، عليه بابٌ حَدِيدٌ ، تجعل قماشها فيه والكيس ، فخبأت الكيس تحت الباب ، وجلست فأفطرت بين يديه ، فقال اللص : الساعة تفطر وتنام ، فأنزلُ فأقلع الباب ، وآخذ الكيس . فلما أفطرتْ ، قامت تصلي ، ومدّت الصلاة ، ومضى نصفُ الليل ، وتحيّر اللص ، وخاف أن يدركه الصبح ، فطاف في الدار ، فوجد إزاراً جديداً وبخوراً ، فاتّزر في الإزار ، وأوقد البخور ، وأقبل ينزل على الدرجة ويصيح بصوت غليظ ليُفْزِع العجوز ؛ وكانت جَلِدَة ؛ ففطنت أنه لصّ ، فقالت : من هذا ؟ بارتعاش وفَزَعٍ ، فقال : أنا جبريل ، رسول رب العالمين ؛ أرسلني إلى ابنك هذا الفاسق لأعظه وأعلمه بما يمنعه من ارتكاب المعاصي . فأظهرت أنها قد غُشِيَ عليها من الجزع ،

(1) « الجوالق » : وعاء ، واللفظ لاتيني معرب .

وأقبلت تقول : يا جبريل ! سألتك بالله إلا ما رفقت به ، فإنه واحدي ؛ فقال اللُص : ما أرسلت لقتله ؛ فقالت : فبِمَ أُرسلْتَ ؟ قال : لأخذ كيسه ، وأؤلم قلبَهُ بذلك ، فإذا تاب رَدَدْتُه عليه . فقالت : يا جبريل ! شأنك وما أُمِرْت به . قال : فتنحّي من باب البيت . فتنحّت ، وفتح هو الباب ، ودخل ليأخذ الكيس والقماش ، واشتغل في تكويره ، فمشت العجوز قليلاً قليلاً ، وجذبت الباب ، وجعلت الحلقة في الرزّة ، وجاءت بقفل فأقفلته ، فنظر اللص إلى الموت ، ورام حيلة في ثقب أم منفذ فلم يجد ؛ فقال : افتحي الباب لأخرج ، فقد اتّعظ ابنك ؛ فقالت : يا جبريل أخاف أن أفتح الباب فتذهب عيني من ملاحظة نورِك ! فقال : إني أطفىء نوري حتى لا تذهب عينيك ، فقالت : يا جبريل ! ما يعوزك أن تخرج من السقف أوتخرق الحائط بريشة من جناحك ، ولا تكلفني التعزير ببصري ؟ فأحسَّ اللص أنها جَلِدَة ، فأخذ يرفق بها ويبذل التوبة ، فقالت له : دع عنك ، لا سبيل للخروج إلا بالنهار ؛ وقامت فصلّت وهو يسألها حتى طلعت الشمس ، وجاء ابنها ، وعرف خبرها ، وحدّثته بالحديث ، فأحضر صاحب الشرطة وفتح الباب ، وقبض على اللص .

* * * *

٤ ــ أنبأنا محمد بن أبي طاهر ، عن عليّ بن المُحَسِّن ، عن أبيه ، قال : حدثني جماعة من أهل جُنْدَيسَابُور فيهم كُتَّاب وتُجّار وغير ذلك ، أنه كان عندهم في سنة نيف وأربعين وثلاث مئة شابٌ من كتّاب النّصارى وهو ابن أبي الطَّيِّب القَلانسي ، فخرج إلى بعض شأنه في الرُّسْتاق[(١)] ، فأَخَذَتْهُ الأكرادُ وعذَّبوه ، وطالبُوه أن يشتري نفسه منهم فلم يفعل ، وكتب إلى أهله : أنفذوا لي أربعة دراهم أفيون ، واعلموا أنّي أشربُها فتلحقني سكتةٌ ، فلا يشكُّ الأكرادُ أنّي قد مُتُّ ، فيحملوني إليكم ، فإذا حصلت عندكم فأدخلوني الحمّام ، واضربوني ليحمى بدني ، وسوّكوني بالإيارج[(٢)]؛ فإني أُفيق ؛ وكان الفتى متحذلقاً ، وقد سمع أنه من شَرب أفيوناً أُسكت ، فإذا دخل الحمَّامَ وضُرب وسُوِّك بالإيارج بَرَأَ ، فلم يَعْلم مقدارَ الشَّربةِ من ذلك ، فشرب أربعةَ دراهم ، فلم يَشُكَّ الأكرادُ في موته ، فلفُّوه في شيءٍ وأنفذوه إلى أهلِه ، فلمَّا حصل عندهم أدخلوه الحمّام وضربوه وسوّكوه فما تحرّك ، وأقام في الحمام أياماً ، ورآه أهلُ الطبِّ فقالوا :

(١) « الرستاق » : كلمة معربة من الفارسية ، تعني : القرى .

(٢) « الإيارج » : معرّب من الفارسية : إيارة ، أي : الدواء الإلهي ؛ وهو دواء مُسْهِل .

قد تَلِفَ ، كم شرب أفيوناً ؟ قالوا : وزنَ أربعةِ دراهم ، فقالوا لهم : هذا لو شُوِيَ في جهنَّم ما عاش ، إنما يجوز أن يُفعلِ هذا بمن شَرِبَ أربعةَ دَوَانيق أفيوناً أَوْ وَزْنَ دِرْهم أو حَوَالَيْه ، فأما هذا فقد مات ؛ فلم يقبلْ أهلُه ذلك ، فتركوه في الحمّام حتى أراح وتغيّر ، فدفنوه ، وانعكست الحيلةُ على نفسه .

* * * *

٥ — قال المحسِّن : وقد رُوِيَ قديماً مثل هذا أنَّ بلالَ بن أبي بُرْدة بن أبي موسى الأشعريّ كان في حَبْسِ الحَجَّاج ، وكان يعذِّبه ، وكان كلُّ من مات من الحبس رُفع خبرُه إلى الحجّاج فيأْمُر بإخراجه وتسليمه إلى أهله ، فقال بلال للسَّجّان : خذ منِّي عشرةَ آلاف درهم ، وأخرج اسمي إلى الحجَّاج في الموتى ، فإذا أمرك بتسليمي إلى أهلي هربتُ في الأرض فلم يَعْرِف الحجّاج خبري ، وإن شئتَ أن تهربَ معي فافعل وعليّ غِناك أبداً ؛ فأخذ السَّجانُ المالَ وأخرج اسمَه في الموتى ، فقال الحجَّاج : مثلُ هذا لا يجوز أن يخرجَ إلى أهله حتى أراه ، هاتِه ؛ فعاد إلى بلال ، فقال : اعهد ، قال : وما الخبر ؟ قال : الحجّاج قال كيت وكيت ؛ فإن لم أُحضرْك إليه ميتاً قَتَلَني وعلم أنِّي أردتُ الحيلة عليه ، ولا بُدَّ أن أَقْتُلَكَ خنقاً ؛ فَبَكَى بلالٌ ، وسأله ألاّ يفعل ، فلم يكن إلى ذلك طريقٌ ، فأوصى وصلَّى ، فأخذه السجَّانُ وخنقه وأخرجه إلى الحجَّاج ، فلما رآه ميتاً ، قال : سلِّمه ألى أهله ؛ فأخذوه ، وقد اشترى القَتْلَ لنفسه بعشرة آلاف درهم ؛ ورجعت الحيلةُ عليه .

* * * *

٦ — وذكر ابنُ جرير وغيرُه : أنَّ المنصورَ دَفَعَ عبدَ الله بن عليٍّ إلى عيسى بن مُوسى سرّاً باللَّيل ، وقال : يا عيسى ! إنَّ هذا أراد أن يُزيل نعمتي ونعمتك ، وأنت وليّ عهدي بعد المهدي ، والخلافة صائرةٌ إليك ، فخُذْه فاضرب عُنقه ، وإيّاك أن تخور أو تضعف ؛ ثم كتب إليه : ما فعلتَ فيما أمرتُك به ؟ فكتب إليه : قد أنفذتُ ما أمرتَني به ؛ فلم يشكَّ في أنَّه قتَلَه ، وكان عيسى قد أخبر كاتبه بالحال ، فقال : إنما أراد قَتْلَكَ وَقتْلَه ، لأنَّه أَمَرَكَ أن تَقْتُلَهُ سِرّاً ثم يدّعيه عليك علانيةً فيُقِيدُك به ، قال : فما الرأْيُ ؟ قال : أن تَسْتُرَه في منزلك ، فإنْ طَلَبَهُ منك علانيةً أظهرتَهُ علانيةً ، ثم إن المنصور دسّ على عمومته من يُحَرِّكُهُم في مسألته عن عبد الله ابن عليّ ، ويطمعهُم في أنه سيفعل ، وكلَّموه ورافعوه ، فقال : عَلَيَّ بعيسى بن موسى ؛ فأتاه

فقال : يا عيسى ! قد علمتَ أنّي رفعتُ إليك عبدَ اللهِ بن عليٍّ ، وقد كلّموني فيه ، فأْتني به ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ! ألم تأمرني بقتله ؟ قال : لا . قال : أنت أمرتني بقتله ، قال : كذبتَ ، ما أمرتُك بقتله ؛ ثم قال لعمومته : قد أقَرّ لكم بقتلِ ابن أخيكم ، فادّعى أنّي أمَرْتُه بقتله وكذبَ ، قالوا : فادفعه إلينا نُقِيدُه ، قال : شأنكم به ؛ فأخرجوه إلى الرَّحبة ، واجتمع الناسُ ، وشَهَرَ أحدُهم سيفَه وتقدّم إلى عيسى ليضربه ، فقال له عيسى : أقاتلي أنتَ ؟ قال : إي والله ، قال : رُدّوني إلى أمير المؤمنين فردّوه ، فقال : إنما أردتَ بقتله أن تَقْتُلَني ، هذا عَمُّكَ حَيٌّ سَوِيٌّ ؛ فأتاه به .

* * * *

٧ ــ أنبأنا محمد بن أبي طاهر ، عن علي بن المحسن ، عن أبيه ، عن أبي محمد عبد الله بن عمر بن الحارث الحارثيّ ، قال : اجتزتُ ببغداد في أيام المقتدر ، وأنا حَدَثٌ ، مع جماعةٍ من مُجّان أصحابِ الحديث ، وإذا بخادم خِصِيٍّ جالسٍ على دَكّة في الطريق ، وبين يديه أدويـة ومكاحل ومباضع ، وعلى رأسه منطقة خِرَق كما يكون الطبيب ، فقلتُ لأصْحابي : ما هذا ؟ فقالوا : خادمٌ طبيبٌ ، يصفُ للناس ويعالجُ ويأخذُ الدراهم ، وهذا من عجائب بغداد ؛ فقلت : أنا أحبُّ أن أخاطبَه لأنظرَ كيف فهمه ، فقال واحد منهم : فهمُه لا أدري ، ولكن نحبُّ أن تعبث به ، فقلتُ : آفْعَلْ ؛ فتقدّم إليه ، وتَغَاشى وتماوت وتمارض ، وقال : يا أُستاذ ! يا أُستاذ ! دفعات ، فضجر الخادمُ ، وقال : قولي لا شَفَاكِ الله ، إيش أصابك ، أيَّ طاعون ضربك ؟ قال : فقال له : يا أُستاذ ! أجد ظلمةً في أحشائي ، ومغصاً في أطراف شعري ، وما آكله اليوم يخرج غداً مثل الجيفة ؛ فصف لي صفةً لما أنا فيه .

قال : وكان الخادم قد أعدّ الجواب ، فقال : أمّا ما تجدين من مغصٍ في أطراف شَعْرك فاحلقي رأسك ولحيتك حتى يذهَب مَغْصُكِ ، وأمّا ظلمةً في أحشائك فعلّقي على باب جحرك قنديلاً يضيء مثل الساباط ، وأما ما تأكليه اليوم يَخْرجُ غداً مثل الجيفة فكُلي خَرَاك واستريحي من النفقة ، قال : فَعَطْعَطَ بنا العامةُ القيام ، وضحكوا بنا ، وانقلب الطَّنْزُ[1] الـذي أردنـاه بالخادم وصار طَنْزاً بنا ، فصار أقصى إرادتنا الهرب ، فهربنا .

* * * *

(١) « الطَّنْز » : السخرية .

٨ ــ وبلغنا عن يحيى بن خالد أنه قدم الكوفة ، فقال لأبي يوسف القاضي : أحب أن تركب معي حتى نَدُورَ في أحياء الكوفة ؛ فركبا ، فمرّا على عبد الرحمن بن بشير ، وهو قاعد على باب داره ، وخلفه مسند ، وحوله جماعة من أهل بيته ، فوقف وسلّم ، فقال له أبو يوسف : هذا وزير الخليفة وصاحب أمره ؛ فقال له : سلَّمَ الله عليك ، وحفظك ، وأحضرك التوفيق والتسديد ؛ فمضى قليلاً ، ثم رجع مغضباً حين لم يَقُمْ له ، فقال لأبي يوسف : هل لهذا الشيخ مال ؟ قال : لا ، إلا القوت ؛ فلما كان الغد ، قال : يا أبا يوسف ، قد كلَّمتُ أمير المؤمنين في الشيخ الذي مررنا به أمس ، فأمر له بمئة ألف درهم ، فَقُلْ له يجيئنا فيأخذها . قال أبو يوسف : فمضيت إليه مسروراً ، فأخبرته الخبر ، فقال : ليس الأمر كما ذَكَرَ ، ولكنه اضَّغَنَ علي لترك القيام له ، وأراد أن يذلّني بالاختلاف إليه ، إن كان أُمِرَ لنا بشيء فليبعث به إلينا . قال أبو يوسف : فأتيته ، فقال : سألتك بالله إلا ما ذكرت لي كلامه ؛ فأخبرته ، فقال : والله ما أخطأ ما كان في نفسي ، امضي إليه بالمال الساعة ؛ فَفَعَلْتُ .

* * * *

٩ ــ وحكى هلال بن المُحسِّن أن معزّ الدولة كان منازلاً لناصر الدولة أبي محمد بن حمدان ، فجاءه غلامُه ، فقال له : إن اغْتلْتَ ابن حَمْدان وقتلته ، فما يكون لي عليك ؟ قال : اقترح ؛ وَوَعَدَه وَعْداً ملأ به صدرَه ؛ فمضى ، واختلط بعسكر ناصر الدولة ، وتوصَّلَ إلى أن قَرُبَ ليلاً من خيمته ، ثم جاء وقد اشتمل على دسيّة ، فدخل الخيمةَ من تحت الطُّنُبِ[1] وقد تفرَّقَ الناسُ ونامَ الحرَّاس ، فَوَجَدَ ناصر الدولة نائماً على سرير ، وفي جانب الخيمة شمعة ، وعلى البعد منه جماعة ، فتأمَّل موضع رأسه من رجليه ، ثم أطفأ الشمعة لئلا يصيح إذا جرحه فيؤخذ ، وجاء يريد الموضع الذي فيه رأسه ، فاتَّفق أن انقلب ناصر الدولة من جنب إلى جنب ، فزال عن المكان ، فغرز الدسية غرزاً استقصى فيه ، وظنّ أنه قد بلغ المراد ، فأحسَّ ناصر الدولة بعدوّه ، فانتبه ، فرأى الشمعة قد أطفئت وأطناب الخيمة مرفوعة ، فصاح بالغلمان ، فبادروا ، فجاءوا بضوء ، وشاهدوا الصورة ، فجزع ، وأمر بالزيادة في الاحتراس ، ولم يعلم كيف جرى لكنه أطلق له شيئاً ، وقال لأبي جعفر الضميري : من يُقْدِم على الملوك مثل إقدَام هذا لا يجوز استبقاؤه فضلاً عن أن يوثق بمكانه ، وما الذي يؤمننا أن يبذل لأعدائنا فينا مثل ما بذله لنا ؟ فأرحني منه كيف شئت . فأخذه الضميري فغرَّقه .

* * * *

(١) « الطُّنُب » : حبل الخباء .

١٠ ـــ حدثنا الحُسَيْن بن عثمان وغيرُه ، أنَّ عَضُدَ الدولة بعث القاضي أبا بكرٍ الباقِلاَّني في رسالة إلى ملك الرُّوم ، فلما وَرَدَ مدينتَهُ عُرّف الملكُ خَبَره وبُيِّن له محله من العلم ، ففكَّر الملكُ في أمره ، وعَلِمَ أنَّه لا يكفر له[1] إذا دخل عليه كما جرى رسمُ الرّعية أن يقبِّل الأرضَ بَيْنَ يديِّ الملك ، فنتجت له الفكرة أن يضعَ سريرَه الذي يجلس عليه وراءَ باب لطيف لا يمكن أحدٌ أن يدخل منه إلاَّ راكعاً ، ليدخلَ القاضي منه على تلك الحال عوضاً من تكفيره بين يديه ، فلمّا وصلَ القاضي إلى المكان فَطِن بالقصة ، فأدار ظهره وحنى رأسه ودخل من الباب وهو يمشي إلى خلفه وقد استقبل الملك بدُبُره حتى صار بين يديه ، ثم رَفَعَ رأسَه ونصبَ وجْهَه وأدار وجْهَه حينئذٍ إلى الملك ، فعلم المَلِكُ من فطنته وهابه .

* * * *

١١ ـــ كان مِهْيارُ الشاعرُ ألحى والمطرّز [عبد الواحد بن محمد] الشاعر كَوْسَجاً[2] ، فمرَّا بأبي الحسن الجَهْرَمِيّ ، فقال :

آضْرِطْ عَلَى الكَـوْسَجِ والألْحَى   وزِدْهُمَـــا إنْ غَضِبَـــا سَلْحَـــا

وأراد أن يتمَّها ، فقال له المُطَرِّز : فكيف وقع لك أن تذكر عليَّ بن أبي عليٍّ حاجبَ القادر بالله ، والحسنَ بن أحمد صاحبَ القادر بعد عليّ بن أبي عليّ ؟ وكان عليٌّ ألحْى والحسنُ كوسجاً فانزعج الجَهْرَميّ ، وخاف أن يبلغَهُ ذلك فيُقابل عليه ، فكتب إلى مِهْيار الدّيلِمـيِّ يستعطفه :

أَبا الْحَسَنِ آصْفَحْ إنَّ مِثْلِي مَنْ جَنَى   وَمِثْلُكَ مَنْ أَعْفَى مِنَ العُـذْرِ أَوْ عَفَّـا
أَئِنْ طَوَّحَتْ بِي هَفْـوَةٌ قِلْتَ جَفْـوَةٌ   وَحَمَّلْتَ سَمْعِي مِنْ عِتَـابِكَ ماجفـا

* * * *

١٢ ـــ حدثني أبو بكر الخَطَّاط ، قال : كان رجلٌ فقيهٌ خَطُّه في غايةِ الرداءَة ، وكان الفقهاءُ يعيبونه بخطِّه ويقولون : لا يمكن أن يكون خطٌّ أرداً من خَطِّك ؛ فيضجر من عيبهم إيّاه ؛ فمرّ يوماً بمجلّد يُباع ، فيه خطٌّ أرداً من خطِّه ، فبالغ في ثمنه ، فاشتراه بدينار وقيراط ،

(١) لا يكفر له ؛ من الكَفْر ، وهو : تعظيم الفارسي مَلِكه ، بإيماء بالرأس من غير سجود .
(٢) « الكَوْسَج » : الذي شعر لحيته على ذقنه دون العارضين .

وجاءَ به ليحتجَّ عليهم إذا عَيَّروه ، فلما حضر معهم أخذوا يذكرون قبح خطه ، فقال لهم : قد وجدتُ أقبحَ من خطِّي ، وبالغتُ في ثمنه حتى أتخلص من عيبكم ؛ فأخرجه ، فتصفَّحوه ، فإذا في آخره اسمُه ، وأنه كتبه في شبابه ؛ فخجل من ذلك .

* * * *

١٣ — وقد رُوِّينا أنَّ مُزَيْنَة أَسَرَتْ ثابتاً أبا حسّان الأنصاريّ ، وقالوا : لا نأْخذ فداءَهُ إلاَّ تَيْساً ؛ فغضب قومُه وقالوا : لا نفعل هذا ؛ فأرسل إليهم : أَعْطُوهم ما طلبوا ؛ فلما جاءُوا بالتَّيس ، قال : أعطوهم أخاهُم وخذوا أخاكم ؛ فسُمّوا مزينةَ التَّيس ، فصار لهم لقباً وعَيْباً .

* * * *

١٤ — قال : كان بالبصرة مغنيةٌ جِذرها خمس دنانير ، وكانت مفرطة في حسن الصورة والغناءِ ، إلاَّ أنها بدويّة تقلب القاف كافاً ، فدُعيت لبعض أُمراءِ البصرة ، فغنّت :

وَمَالِـي لاَ أَبْكِـي وَأَنْـدُبُ نَاقَتِـي

فجاءَ في كلامها : وأَندُبُ ناكتي ، فقال الأمير : قد وزنَّا خمس دنانير ، فإذا كنت تندبينا فما نريدُ أن تقيمي عندنا ؛ فصرفها وقد خَجلت . والله أعلم .

* * * *

الباب الثامن عشر
في
ذكر من وقع في آفة فتخلص منها بالحيلة

١ ــ أنبأنا محمد بن عبد الملك بن خَيْرون ، بإسناد عن محمد بن عبد الغفار قال : اسْتَعْمَلَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه رَجُلاً من قريش على عملٍ ، فبلغه أنَّه قال :

آسْقِنِــي شَرْبَــةً أَلَــذُّ عَلَيْهَـــا　　　وَآسْقِ بــالله مِثْلَهــا ابــنَ هِشَامِ

فأشخصه إليه ، وذكر أنه إنما أشخصه من أجل البيت ، فضمَّ إليه آخرَ ؛ فلمّا قدم عليه قال : ألست القائل :

آسْقِنــي شَرْبَــةً أَلَــذَّ عَلَيْهَـــا　　　وَآسْقِ بــالله مِثْلَهَــا آبْــنَ هِشَامِ

قال : نعم يا أمير المؤمنين :

لَعَلَّــهُ عَسَلٌ بــارِدٌ بماءِ سَحَــابِ　　　إِنَّنِــي لا أُحِبُّ شُرْبَ المُــدَامِ

قال : آللهِ ؟ قال : آللهِ ؛ قال : ارجعْ إلى عملك .

* * * *

٢ ــ وقد روينا في الباب الذي قبله [الخبر رقم : ١ من الباب السادس عشر]احتيال الهرمزان على عمر في استئمانه منه ، وهو يدخل في هذا الباب أيضاً .

* * * *

٣ ــ أنبأنا محمد بن عبد الملك بإسناد عن عبيد راوية الأَعْشَى ، قال : خرج النُّعمان إلى ظاهر الحيرة ، وكان مِعْشَاباً ، وكانت العرب تُسمّيه خَدَّ العذراء ، فيه نَبَتَ الشَّيحُ والقيصومُ

والخُزَامَى والزَّعْفران وشقائقُ النُّعمان والأُقحوان ، فمرَّ بالشقائق فأَعجبته ، فقال : من نزع من هذا شيئاً فانزعوا كَتِفَه ؛ قال : فسميت شقائقُ النعمان . قال : فإنه ليسير فيها يوماً فانتهى إلى وهدة في طرف النَّجَف ، وإذا شيخٌ يخصفُ نعلاً ، فوقف عليه وقد سبق أُصحابَهُ ، فقال : ممن أَنتَ يا شيخ ؟ قال : من بكر بن وائل ، فقال : يا شيخ ! مالك هاهنا ؟ قال : طرد النَّعمانُ الرعاةَ فأَخذوا يميناً وشمالاً ، ووجدتُ وهدة خالية ، فنتجت الإبل ، وولدت الغَنَم ، وسالتْ السَّمْنَ ؛ فقال : أَوما تخاف النعمانَ ؟ قال : وما أُخاف منه ؟ والله لربما لمستُ بيدي هذه ما بين سُرَّة أُمّه وعَانتِهَا كأَنه أُرنبٌ جاثم ؛ قال : أَنت أَيّها الشيخ ؟ قال : نعم . قال : فهاج وجهه غضباً ، وطلعتْ أَوائلُ خيله ، فقالوا : حُيِّيت أَبَيْتَ اللَّعْن . قال : وحَسَر عن رأْسه فإذا خَرَزَاتُ ملك ، فقال النعمان : أَيّها الشيخ ! كيف قلت ؟ قال : أَبيتَ اللَّعْن ، لا يهولنَّك ذاك ، فوالله لقد عَلِمت العربُ أَنه ليس بين لابَتيْها أُكذب مني ؛ فضحك منه ثم مضى .

* * * *

٤ ــ حدّثنا المبارك بن علي بإسناد عن عيسى بن عمر ، قال : طلب الحجّاج الحكمَ بن أَيّوب من جَبْرِ بن حبيب ، فخشى أَن يجيء به فيعاقبَه ، فقال : تركتُه جَسداً يتحرّكُ رأْسه ويُصَبّ في حلقه الماءُ ، والله إِن حُمِل على سرير ليكون عورة عليه ؛ فقيل له : انصرف .

* * * *

٥ ــ أنبأَنا محمد بن عبد الباقي البزاز بإسناد عن محمد بن قُتَيْبة ، في حديث عبد الله ــ يعني : ابن مسعود ــ أُنه ذكر بني إسرائيل وتحريفهم وتغييرهم ، وذكر عالماً فيهم عرضوا عليه كتاباً اختلقوه على الله عزَّ وجلَّ ، فأُخذ ورقةً فيها كتابُ الله عزَّ وجلَّ ، ثم جعلها في قَرْنٍ ، ثم علَّقه في عُنقه ، ثم لبس عليه الثياب . فقالوا : أَتؤمن بهذا ؟ قال : فأَومأَ بيده إلى صدوه وقال : آمنتُ بهذا الكتاب ؛ يعني الكتابَ الذي في القرن ، فلما حضره الموتُ بثبثوه ، فوجدوا القَرن والكتاب ، فقالوا : إنما عَنَى هذا .

وهذا يرويه الأعمش ، عن عمارة بن عمير ، عن الربيع ، عن عميرة ، عن عبد الله ؛ وقوله : « بثبثوه » أي : كشفوه ، وهو من بثبثت الأمر إذا أظهرته ، والأصل : « بثّثوه » فأبدلوا من الثاء الوسطى استثقالاً لاجتماع ثلاث ثاءات . كما يقال : « حثحثت » والأصل : حثّثت .

* * * *

٦ ــ أنبأنا محمد بن عبد الملك بن خيرون ، بإسناد عن الأصمعي ، عن أبيه ، قال : أُتِي عبد الملك بن مروان برجلٍ كان مع بعض مَن خَرَج عليه ، فقال : اضربوا عنقه . فقال : يا أمير المؤمنين ! ما كان هذا جزائي منك ، قال : وما جزاؤك ؟ قال : واللهِ ما خرجتُ مع فلان إلاَّ بالنظر لك ، وذلك أني رجل مشؤوم ، ما كنتُ مع رجل قطُّ إلاَّ غُلب وهُزم ، وقد بان لك صحة ما ادعيتُ ، وكنتُ لك خيراً من مئة ألف معك ؛ فضحك وخلّى سبيله .

* * * *

٧ ــ أنبأنا محمد بن عبد الملك ، عن إسحاق بن إبراهيم الموصليّ ، عن شبيب بن شَيْبة قال : دخل خالدُ بن صفوان التيمي على أبي العباس وليس عنده أحد ، فقال : يا أمير المؤمنين ! واللهِ ما زلتُ منذ قلّدك الله خلافتَه أطلبُ أن أصير إلى مثل هذا الموقف في الخلوة ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإمساك الباب حتى أفْرغَ فعل . فأمر الحاجب بذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين ! إنِّي فكرتُ في أمرك وأجَلْتُ الفكر فيه ، فلم أر أحداً له مثل قدرك اتساعاً في الاستمتاع بالنساءِ منك ، ولا بأضيق منك فيهن عيشاً ، إنَّك ملَّكت نفسك امرأةً من نساءَ العالمين واقتصرتَ عليها ، فإن مَرِضَتْ مَرِضْتَ ، وإن غابت غبتَ ، وإن عَرَكَتْ عَرَكْتَ ، وحَرَمْتَ يا أمير المؤمنين نَفسَك من التلذُّذ باستطراق الجواري ومعرفة اختلاف أحوالهنّ والتلذذ بما يُشتهى منْهُن ، إنَّ منهن يا أمير المؤمنين الطويلةَ التي تُشتهى لجسمها ، والبيضاءَ التي تُحَبُّ لروعتها ، والسّمراءَ اللَّعْسَاءَ والصفراءَ العَجْزاءَ ومولَّدات المدينة والطائف واليمامة ذوات الألسن العذبة والجواب الحاضر ، وبنات سائر الملوك وما يشتهى من نظافتهن . وتخلَّل خالد بلسانه ، فأطنب في صفات ضروب الجواري وشوّقه إليهن . فلما فرغ ، قال : وَيْحَك ! واللهِ ما سلك مسامعي كلامٌ أحسنَ من هذا ، فأعِدْ عليّ كلامك ، فقد وقع منّي موقعاً ؛ فأعاد عليه خالدٌ كلامَهُ بأحسنَ مما ابتداَه ، ثم انصرف ، وبقي أبو العبّاس مفكّراً ، فدخلت عليه أُمُّ سلمة ، وكان قد حلف أن لا يَتَّخِذَ عليها ووَفّى ، فلما رأته مفكّراً ، قالت : إني لأنكِرُك يا أمير المؤمنين ، فهل حدث شيء تكرهه أو أتاك خبرٌ ارْتَعْتَ له ؟ قال : لا ؛ فلم تزل تستخبره حتى أخبرها بمقالة خالد . قالت : فما قلت لابن الفاعلة ؟ فقال لها : ينصحُني وتَشْتُميه ! فخرجَتْ إلى مواليها ، فأمرتْهُم بضرب خالد . قال خالد : فخرجتُ من الدار مسروراً بما لقيت من أمير المؤمنين ، ولم أشكُّ في الصّلة . فبينما أنا واقف أفكّر في ذلك إذ أقبلوا يسألون عني ، فحقّقتُ الجائزة ، فقلت لهم : ها أنا ذا ؛ فاستَبَقَ أحدُهُم إليّ ، فهمزت بِرْذَوني ولحقني فضرب كَفَلَهُ ، وركضتُ ففُتُّهم ، واستخفيتُ

في منزلي أياماً ، ووقع في قلبي أنّي أُتيتُ من قِبَل أُمِّ سَلَمة فلم أَشعُر إلا بقوم قد هجموا علي وقالوا : أَجِبْ أَمير المؤمنين ؛ فسبق إلى قلبي أنه الموتُ ، فقلت : إنَّا لله وإنا إليه راجعون ؛ لم أَر دَمَ شَيخ أَضيعَ من دَمِي ؛ فركبتُ إلى دارِ أَمير المؤمنين فأَصبته خالياً ، ونظرتُ في المجلس بيتاً عليه سُتُورٍ رِقاق ، وسمعتُ حِسَّاً خلف الستر ، فقال : ويْحَك ! وَصَفْتَ لأَمير المؤمنين صفة فأَعِدْها ، فقلت : نعم يا أَمير المؤمنين ، أَعلمتُك أَن العرب إنما اشتَقَّتْ اسم الضَّرَّتين من الضُّرّ ، وأَنْ أَحداً لم يكن عنده من النساء أَكثرُ من واحدة إلاَّ كان في ضُرّ وتَنْغيص ؛ فقال له أبو العباس : لم يكن هذا في الحديث ، قال : بلى يا أَمير المؤمنين ، وأَخبرتُك أَنَّ الثلاث من النساء كأَثافي القدر يُغْلى عليهن . قال : برئتُ من قرابتي من رسول الله ﷺ إن كنتُ سمعتُ هذا منك ولا مَرَّ في حديثك ! قال : وأَخبرتُك أَن الأَربع من النساء شرٌّ مجموع لصاحبه يشيِّبْنَه ويُهْرِمْنَه ، قال : لا واللهِ ما سمعتُ هذا منك . قلت : بلى واللهِ ، قال : أَفتكذِّبُني ؟ قلت : أَفتقتلني ؟ والله يا أَمير المؤمنين إن أَبكار النساء رجالٌ إلا أَنه ليست لهن خُصَى . قال خالد : فسمعتُ ضَحِكاً من خلف الستر ، ثم قلت : نعم والله وأَخبرتُك أَن عندك ريحانةَ قريش ، وأَنت تطمح بعينك إلى النساءِ والجواري ! قال : فقيل لي من وراءَ السِّتر : صدقتَ واللهِ يا عمّاه ، بهذا حدّثته ، ولكنه غيّر حديثك ونطق عن لسانك . فقال أَبو العباس : ما لك ؟ قاتلك الله ، قال : وانسللت ، فبعثَتْ إلي أُمُّ سلمة بعشرة آلاف درهم وبرذون وتخت ثياب .

* * * *

٨ — أنبأنا أبو بكر بن أبي طاهر البزاز بإسناد عن رجلٍ من بني نَوْفَل بن عبد مناف ، قال : لما أَصاب نصَيبٌ من المال ما أَصابَ ، وكان عنده أُم مِحْجَن ، وكانت سوداءَ ؛ اشتاق إلى البياض ، فتزوّج امرأَة سرية بيضاءَ ، فغضبت أُمُّ محجن وغارت عليه ، فقال لها : والله يا أُم محجن ما مثلي يُغارُ عليه ، إنّي شيخ كبير ؛ وما مثلُك يَغار ، إنك لعجوز كبيرة ؛ وما أَحدٌ أَكرمَ عَليّ مِنك ولا أَوجبَ حَقّاً ، فجوزي هذا الأَمر ولا تكدِّريه عليّ ؛ فرضِيَتْ وقرّتْ ، ثم قال لها بعد ذلك : هل لك أَن أَجمع إليك زوجتي الجديدة ، فهو أَصلح لذات البين ، وأَلَمُّ للشَّعَث ، وأَبعدُ للشماتة ؟ فقالت : نعم ، افعَل . فأَعطاها ديناراً وقال لها : إني أَكرهُ أَن ترى بك خصاصة وأَن تَفضَّلَ عليك ، فاعملي لها إذا أَصبحَت عندك غداً نزلاً بهذا الدينار ؛ ثم أَتى زوجتَه الجديدةَ ، فقال لها : إني قد أَردتُ أَن أَجمَعَك إلى أُمِّ مِحْجَن غداً ، وهي مُكْرِمتك ، وأَكره أَن تفضلَ عليك أُمُّ محجن ، فخذي هذا الدينار فأَهدِي لها به إذا أَصبحتِ عندها غداً ، لئلا ترى بك

خصاصة ، ولا تذكري لها الدينار ؛ ثم أتى صاحباً له يستنصحُه ، فقال : إني أُريد أن أجمع زوجتي الجديدة إلى أُمّ محجن غداً ، فأْتني مُسَلِّماً فإني سأَستجلسُك للغَدَاءِ ، فإذا تغدَّيْتَ فسلني عن أَحبِّهما إليَّ ، فإني سأَنفُرُ وأُعَظِّم ذلك ، وآبي أن أخبرك ، فإذا أَبيتُ فاحلف عليّ ؛ فلما كان الغدُ زارت زوجتُه الجديدة أمّ مِحْجَن ، ومرَّ به صديقه ، فاستجلسه ، فلما تغدّيا أقبل الرجل عليه ، فقال : يا أَبا مِحْجَن ! أُحبُّ أن تخبرني عن أَحبِّ زوجَتيْك إليك . فقال : سبحانَ الله ! أتسأَلني عن هذا وهما يسمعان ؟ ما سُئِلَ عن مثل هذا أَحدٌ . قال : فإنّي أُقسمُ عليك لتخبرني ، فوالله لا أعذرك ولا أَقبلُ منك ذاك ؛ قال : أَما إذا فعلتَ ، فأَحبُّهما إلّي صاحبةُ الدينار ، والله لا أُزيدك على هذا شيئاً ؛ فأَعَرضَتْ كلُّ واحدة منهما تضحك ونفسُها مَسْرُورة ، وهي تظنُّ أنه عناها بذلك القول .

* * * *

٩ ــ أنبأنا محمد بن عبد الملك ، بإسناد عن القاضي أبي الحسين بن عقبة ، قال : كانت لي ابنة عمٍّ موسِرَةٌ ، وتزوجتُها فلم أُوثرها بشيء من الجمال ، ولكنّي كنتُ أَستعين بمالها وأتزوّجُ سرّاً ، فإذا فَطِنَتْ بذلك هجرتْني واطَّرَحَتْني وضيّقتْ علي إلى أن أُطلّقَ من تزوجتُها ، ثم تعود إلّي ، فطال ذلك عليّ ، وتزوجتُ صبيّةً حسناءَ ، موافقةً لطباعي ، مساعدةً على اختياري ، فمكثتْ معي مدةً يسيرةً ، وسُعِي بها إلى ابنة عمي ، وأخذت في المناكرة والتضييق علي ، ولم يسهُل عليّ فراقُ تلك الصبيّة ، فقلت لها : استعيري من كلِّ جارةٍ قطعةً من أَفخر ثيابها حتى يتكاملَ لك خلعةٌ تامةُ الجمال ، وتبخَّري بالعنبر ، واذهبي إلى ابنة عمّي ، فابكي بين يديها ، وأَكثري من الدعاءِ لها والتضرّع إليها إلى أَن تُضْجِريها ، فإذا سأَلَتْك عن حالِكِ ، فقولي لها : إن ابنَ عمي قد تزوّجني وفي كل وقت يتزوّج عليَّ واحدةً وينفقُ مالي عليها ، وأُريد أَن تسأَلي القاضي معونتي وإنصافي منه ، فإني أقدّمه إليه ، فإنها سترفعك إليّ ؛ ففعلتْ ، فلما دخلتْ عليها ، واتصل بكاؤُها رَحِمَتْها ، وقالت لها : فالقاضي شرٌّ من زوجك ، وهكذا يفعل بي ؛ وقامت فدخلت عليَّ وأَنا في مجلسٍ لي وهي غضْبى ويد الصبية في يدها ، فقالت : هذه المشؤومةُ حالُها مثلُ حالي ، فاسمع مقالَها واعتمد إنصافَها ، فقلت : ادْخُلا ؛ فدخَلَتَا جميعاً ، فقلت لها : ما شأْنُك ؟ فذكرتْ ما واقَفَها عليها ، فقلتُ لها : هل اعترف ابنُ عمك لَكِ بأنه قد تزوّج عليك ؟ فقالت : لا والله ، وكيف يعترف بما يعلم أَني لا أُقاره عليه ؟ فقلتُ : فشاهدْت أَنتِ هذه المرأة ووقفت على مكانها وصورتها ؟ فقالت : لا والله ، فقلت : يا هذه اتقي الله ولا تقبلي

شيئاً سمعتِهِ ؛ فإن الحساد كثير ، والطُّلابَ لإفساد النساء كثيرُو الحيَل والتكذيب ، فهذه زوجتي قد ذُكر لها أنِّي تزوجت عليها ، وكلُّ زوجةٍ لي وراءَ هذا الباب طالقٌ ثلاثاً بتة . فقامت ابنة عمي فقبَّلتْ رأسي ، وقالت : قدْ علمتُ أنه مكذوب عليك أيها القاضي . ولم يلزمْني حنْثٌ لاجتماعهما بحضرتي .

* * * *

١٠ ــ حدثنا الأصمعي ، قال : أُتي المنصور برجل ليعاقبَه على شيءٍ بلغه عنه ، فقال له : يا أمير المؤمنين ! الانتقامُ عَدلٌ ، والتجاوزُ فضلٌ ، ونحن نعيذ أمير المؤمنين بالله أن يرضى لنفسه بأوكس النصيبين دون أن يبلغ أرفع الدرجتين ؛ فعفا عنه .

* * * *

١١ ــ حدثنا أبو الحسن المدائني : أن أحمد بن شميط أَسَرَ خمس مئة فأتى بهم المختار ، فقتل مئتين وأربعين ، وحبس بعضاً ، ومنّ على بعض ، فكان ممن حُبس من الأسرى سُراقةَ بن مِرْداس البارقيّ ، ثم أمر بقتله ، فقال : لا والله لا تقتلني حتى أنقض معك داري حجراً حجراً . قال : وما يدريك ؟ قال : الأخبارُ الصادقةُ التي جاءَت بها الكتب الناطقة ، فأقبل المختار على عبد الله ابن كامل وعليّ بن أبي عمر ، فقال : من يُظْهر أسرارنا ؟ فأمر بتخليفه ، فقال سراقةُ : إنَّا قد أَسَرَنا قومٌ لا نراهم ، قال : هم هؤلاء ، وهم شرطة الله ؛ قال : لا والله ، لقد أسرنا قومٌ عليهم عمائمُ حُمْر على خَيْلٍ بُلْق تطيرُ بين السماءِ والأرض ، قال : هذه الملائكة ، فأَعلِم النَّاسَ بذلك يا سُراقة ، قال : فصعدتُ منارة وأعلمتُ الناس وحَلفتُ لهم ، فخلَّى سبيلى .

* * * *

١٢ ــ أنبأنا محمد بن عبد الملك بإسناد عن يزيد بن عباس ، عن أبيه ، قال : استُؤمن لعبّاس بن سهل بن سعد الساعدي من مسلم بن عقبَة يوم الحرّة فأبى أن يؤمّنه ، فأتوه به ، ودعا بالغدَاء ، فقال عباس : أصلح الله الأمير ، والله لكأنها جفنةُ أبيك ، كان يخرج عليه مُطرَفُ خزّ حتى يجلس بفنائه ، ثم يضع جفنته بين يدي مَنْ حَضَرَ ؛ قال : صدقتَ كان كذلك ، أنت آمن ؛ فقيل للعباس : كان أبوه كما قلت ؟ قال : لا واللهِ ، لقد رأيتُه في عباءة يجرها على الشوك ، ما نخافُ على ركابنا ومتاعنا أن يسرقَه غيرُه .

* * * *

١٣ ــ أنبأنا محمد بن عبد الملك بإسناد عن أبي حاتم ، عن الأصمعي ، قال : كان بعض المكرمين جالساً في مجلسه وعنده جماعة من الناس ، فضرط رجل من جلسائه فانقبض لذلك ، واغتمّ لانقباضه صاحب المجلس ، فلما كان من الغد أمر فترك تحت الفراش نفاخة السمك[1] ، فلما جلس الناس عليه تفرقت من تحت الجلساء ، فقال : ما هذا ؟ انظروا ما تحت الفراش ؛ فأخرجت وقد انشقّت ، فقال : هكذا بالأمس وهكذا اليوم ؛ فأمر بصفع الفرّاشين ، فزالت الظنة عن الضارط وبرّئت ساحته عندهم .

* * * *

١٤ ــ أنبأنا محمد بن أبي طاهر بإسناد عن الحسن بن صاف مولى ابن المتوكل القاضي ، قال : لما حمل المتقي لله إلى الراقة علي بن محمد بن مقلة وزيره ، كاتبني بأن أخرج إليه ، فخرجت في جماعة ،فقطع علينا الطريق قوم ، واقتسموا مالنا وتركونا مجردين في الشمس ، وكان معي خاتم عقيق كبير الفص ، فوقعت لي حيلة ، فجعلته في قطن ، وخبّأته معي ، وقصدت رئيس القوم ، وكان هو الذي تولّى أخذ مالي ، فقلت له : قد رأيت الذي أخذت مني ، وأنا خادم الخليفة ، وقد خرجت لأمر كبير من خدمته ، وقد فزتَ بما أخذته مني ، فما قولك في أمر آخر أعظم مما أخذتَه ، أعاملك به وأسديه إليك حلالاً لايجري مجرى المغصوب ، على أن تؤمنني على نفسي ، وتردّ علي من ثيابي ما تسترني به ، وتردّ عليّ من دوابي دابة ، وتسقيني ماء ، وتسيرني حتى أدخل في مأمني ؟ فقال : ما هو ؟ قلت : تعطيني أيمانك وعهودك ومواثيقك على الوفاء ؛ ففعل ، فانفردت به ، وجعلت يدي مقابلة الشمس ، وأريتُه الخاتم ، وجعلت فصه في شعاعِ الشمسِ ، فكاد يخطف بصره ، ورأى ما لم ير مثله قط ، فهاله ؛ وقال لي : استره ، وقل لي خبره ، فقلت : هذا خاتم الخليفة ، هذا خاتمٌ الفص منه ياقوت أحمر ، هذا الذي يتداوله الخلفاء منذ العهد الطويل ، يعرف بالجبل ، لا يقوم أمر الخليفة إلا به ، وكان مخبوءاً ببغداد ، فأمرني الخليفة أن أحمله إليه ، وحيث حصل هذا الخاتم عن بلاد الله تسبب الخلفاء إلى أخذه بكل ثمن ، وإن حصل عندك حتى تمتنع من إعطائه إلا بمئة ألف دينار ، و لم يُقْدَر عليك ؛ أعطوك إياها ، والرأي أن تأخذه وتبعد إلى ناحية الشام ، وتوافقني على موضع حلتك وتخفي حصول الخاتم

(١) « نفاخة السمك » ، هي : هنة تكون في بطن السمك ، تكون عادة مملوءة هواءً ، إليها ينسب توازن السمك في الماء .

معك ، فإذا عرّفْتُ الخليفةَ خبره ، جاءتك رسلُه بالرغائب حتى يرتجع منك بأي ثمن احتكمت ، فقال : خذ من ثيابك ما تريد ؛ فأخذتُ من ثيابي ما احتجت إليه ، وأخذ الخاتم فخبأه في جيبه ، وأركبني راحلة موطأة ، وأعطاني أداوتين كبيرتين ماء ، وسار معي والناس يهلكون عطشاً ، ولم يزل يسيرني حتى سلمت .

* * * *

١٥ — وروى ابن دُرَيد ، عن عبد الرحمن بن أخي الأصمعي ، عن عمّه ، قال : بعث إليّ الرشيدُ فدخلتُ عليه ، فإذا صبيّةٌ ، فقال : من هذه الصبيّة ؟ فقلت : لا أدري ، قال : هذه نُواسة بنت أمير المؤمنين ؛ فدعوتُ لها وله . قال : نعم فقبِّل رأسَها ، فقلت : إني إن أطعتُه أدركتْه الغيرة فقتلَني ، وإن أنا عصيتُه قتلني بمعصيته ؛ فوضعتُ كمّي على رأسها وقبَّلتُ كمّي ، فقال : والله يا أصمعي ، لو أخطأْته لقتلتُك ، أعطوه عشرة آلاف درهم .

* * * *

١٦ — أنبأنا محمد بن عبد الباقي بإسناد ، عن أحمد بن يوسف ابن البهلول : أن أبا حُذيفةَ واصلَ بنَ عَطاءٍ أراد سفراً في رهطِ ، فاعترضهم جيشٌ من الخوارج ، فقال واصل : لا ينطقنّ أحدٌ ودعُوني معهم ؛ فقصدهم واصل ، فلما قربُوا أبدى الخوارج ليوقعوا بهم ، فقال : كيف تستحلّون هذا وما تدرون من نحن ولا لأيّ شيء جئنا ! فقالوا : نعم ، فمن أنتم ؟ قال : قومٌ من المشركين جئناكم مُستجِيرين لنسمعَ كلامَ الله ، قال : فكفُّوا عنهم ؛ وبدأ رجلٌ منهم يقرأ عليهم القرآن ، فلما أمسك ، قال واصل : قد سمعْنا كلامَ الله ، فأبلِغْنا مَأْمَنَنَا حتى ننظرَ فيه ، وكيف ندخلُ في الدِّين ؛ فقال : هذا واجبٌ ، سيروا ؛ فسِرْنا والخوارج والله معنا يحمونا فراسخ حتى قُربنا إلى بلد لا سلطانَ لهم عليه ، فانصرفوا .

* * * *

١٧ — أنبأنا محمد بن أبي طاهر بإسناد ، عن أبي إسحاق الهُجَيْمي لما صُرِف الحجّاج ، قال لغلام له : تعال نتنكر ونَنْظُرُ مَالَنَا عند الناس ؛ فتنكَّرا ، وخرجَا ، فمرَّا على المطلب غلامِ أبي لهب ، فقالا : يا هذا ! أي شيء خبر الحجاج ؟ قال : على الحجاج لعنةُ الله . قالا : فمتى يخرج ؟ قال : أخرج الله روحَه من بين جنبيه ، ما يدريني ؟ قال : أتعرفني ؟ قال : لا ؛ قال :

أنا الحجاج بن يوسف ، قال المطَّلب : أتعرفني أنت ؟ قال : لا ، قال : أنا المطلب غلام أبي لهب ، مصروعٌ أُصرع في كل شهر ثلاثة أيّام اليوم أوّلها ؛ فتركه ومضى .

* * * *

١٨ ــ وحَكَى أبو الحسن بن هلال الصابي : أن الحجّاج انفرد يوماً من عسكره ، فمرّ ببستاني يَسقِي ضيعته ، فقال : كيف حالكم مع الحجاج ؟ فقال : لعنهُ الله ، المبيد المبير الحقود ، عجّل الله الانتقام منه ؛ فقال له : أتعرفني ؟ قال : لا . قال : أنا الحجاج ؛ فرأى أن دمه قد طاح ، فرفع عصا كانت معه ، فقال : أتعرفني ؟ فقال : لا ، قال : أنا أبو ثور المجنون ، وهذا يوم صَرَعي ؛ وأزبد وأرغى وهاج ، وأراد أن يضربَ رأسَهُ بالعصا ؛ فضحك منه وانصرف .

* * * *

١٩ ــ وبلغنا أن الحجّاج انفرد يوماً من عسكره ، فلقي أعرابياً ، فقال : يا وجه العرب ! كيف الحجاج ؟ قال : ظالمٌ غاشم ، قال : فهلاَّ شكوته إلى عبد الملك ! فقال : لعنهُ الله ، أظلمُ منه وأغْشم ؛ فأحاط به العسكر ، فقال : أركبوا البدويّ ؛ فأركبوه ، فسأل عنه ، فقالوا : هو الحجّاج ؛ فركَّض الفَرَسَ من خلفه ، وقال : يا حجّاج ! قال : مالك ؟ قال : السرّ الذي بيني وبينك لا يطَّلع عليه أحدٌ ؛ فضحك وخلاَّه .

* * * *

٢٠ ــ ولقي الحجاج أعرابياً بفلاةٍ ، فسأله عن نفسه وعن عماله وسعاته ، فأخبره بكلّ ما يكره ، فقال له : أنا الحجاج ، قتلني الله إن لم أَقْتُلْك ؛ قال : فأين حقّ الاسترسَال ؟ فقال : أولى لك ، ما أحسن ما تخلَّصت ؛ وخلَّى سبيله .

* * * *

٢١ ــ أنبأنا محمد بن الحسين الحاجي ، قال : كان أبو الحسين بن السمّاك يتكلم على الناس بجامع المدينة ، وكان لا يحسنُ من العلوم شيئاً إلاَّ ما شاءَ الله ، وكان مطبوعاً ، يتكلم على مذهب الصوفية ، فكُتبتْ إليه رقعةٌ : ما يقول السادة الفقهاءُ في رجل مات وخلَّف كذا وكذا ؟ ففتحها ، فتأملها : فقرأ : ما تقول السادة الفقهاءُ في رجل مات ؟ فلما رآها في الفرائض

رماها من يده ، وقال : أنا أُتكلم على مذاهب قوم إذا ماتوا لم يخلّفوا شيئاً ؛ فعجب الحاضرون من حدّة خاطره .

* * * *

٢٢ — ويحكَى أن غلامين أخوين كانا لبعض الملوك ، فمضى أحدهما إلى وزير الملك يطلب منه شيئا فلم يعطه ، فقال لأخيه : لأُزيلنّ الوزير عن ملكه ، فقال له أخوه : ومن أنت حتى تقدر على هذا !؟ قال : سترى ؛ فلما جاء الليل ، جلس عند الملك يغمز رجليه ، فلما قارب النوم ، قال لأخيه : يا أخي علمتُ أني رأيت البارحة الوزير خارجاً من عند الملك داخلاً إلى عند نسائه ، فلحقته ، فقلتُ : إلى أين ؟ قال : غلطتُ ، فلم أدرِ أين آخذ ؛ فعلمتُ أنه لم يسلك تلك الطريق إلا وقد تعوّد ذلك ؛ فلما أصبح الملك قبض على وزيره ، فاستأصله ، فمرّ به الوصيف يوماً ، فقال : يا فلان ! أيُّما كان خيراً ، أن تعطيني ما طلبت أو هذه الحالة ؟ قال : وإنّك لصاحبي ؟! قال : نعم . قال : الله حسبك ، قال : فما تقول ؟ أتعطيني ما طلبتُ حتى أعيدَك ؟ قال : نعم ، كيف لك بذلك ؟ قال : جرّب . فاستقرض له الوزير ما طلب ، ثم انصرف إلى أخيه المملوك ، فحدّثه ، فقال : كيف لك بأن تصلح ما أفسدت ؟ قال : دعني والأمر ؛ فلما كان الليل ، وقارب الملكُ النومَ ، قال الوصيف لأخيه : وددت لو كنا لرجل من السوقة ، قال : ولِمَ ؟ قال : إن السوقة إذا غضبت علينا وجدنا من ينصفنا ويشفع إليهم ، والملك إذا سخط لم يكن في سخطه إلاّ الغضب ، قال : وما ذاك ؟ قال : الوزير قد عرفتَ أمانته ونصيحته وما آل إليه ، و لم أعرف لحاله سبباً ، فاستوى الملك جالساً ، وقال : ويحك ! ألستَ سببه ؟ قال : وكيف ؟ قال : ألست حدّثت أنه دخل إلى دار النساء ؟ قال : أيها الملك ! وهذا لذاك ؟ قال : نعم ، قال : إنما كان مناماً رأيتُه ؛ فندم الملك على ما صنع ، فلما أصبح أعاده إلى مكانه .

* * * *

٢٣ — وشبيه بهذا ما حُكِيَ أن مُزَبِّداً كان يدخل على بعض ولاة المدينة ، فأبطأ عليه ذات يوم ، ثم جاءَه ، فقال : ما أَبطأك عني ؟قال : جارةٌ لي كنتُ أهواها منذ حين ، فظفرتُ بها ليلتي ، وتمكّنتُ منها ؛ فغضب الوالي ، وقال : واللهِ لأحدنك بإقرارك ؛ فلما رأى الجدّ منه ، قال : فاسمع تمامَ حديثي ، قال : وما هو ؟ قال : فلما أصبحتُ خرجتُ أُطلب مفسِّراً يفسر

لي رؤياي ، فلم أقدر عليه إلى السّاعة ؛ قال : وَيلك ! وفي المنام رأيتَ هذا ؟ قال : نعم . فسكَنَ غضبه .

* * * *

٢٤ ــ وقد رُوِّينا عن أبي الفَضْل الرَّبَعي ، عن أبيه ، قال : قال المأمونُ يوماً وهو مُغضَبٌ لأبي دُلَف : أنتَ الذي يقولُ فيك الشاعر :

إنما الدُّنيــا أبــو دُلَــفٍ ... بين بادِيــه ومُحْــتَضَرِهْ
فــإذا وَلّــى أبــو دُلَــفٍ ... وَلَّتِ الدُّنْيــا على أثَــرِهْ

فقال : يا أمير المؤمنين ! شهادةُ زُورٍ ، وقولُ غُرُورٍ ، ومَلَقُ مُعْتافٍ ، وطالب عُـرْفٍ ؛ وأصدق منه ابنُ أختٍ لي حيث يقول :

دَعِيني أجوبُ الأرضَ في طلب الغِنَى ... فلا الكَـرْخُ الدُّنْيـا ولا النَّـاسُ قـاسِمُ

فضحك المأمون ،وسكن غضبه .

* * * *

٢٥ ــ وروي أنَّ عزَّة وبُثَيْنَة اجتمعتا ، فتحدثتا ، فأقبل كُثَيِّر ، فقالت بُثَيْنةُ : أتحبّين أن أبيِّن لك أن كُثَيِّراً غير صادقٍ في حُبِّك ؟ قالت : نعم . قالت : ادخلي الخِباءَ ؛ فدخَلَتْ ، فدنا كُثَيِّر ، فوقف على بُثَيْنة فسلَّم عليها ، فقالت : ما تركَتْ عَزةَ فيك مستمتَعاً لأحد ، فقال كثير : واللهِ لو أن عزَّة أَمةٌ لي لوهبتُها لك ، فقالت : إن كنتَ صادقاً فقل في هذا شعراً ؛ فأنشأ يقول :

رَمَتْنـي عَلَـى عَمَـدٍ بُثَيْنَةَ بعدمَـا ... تَولَّـى شَبَـابي وارجَحَـنَّ شَبَابُهـا
بعينيـنِ نَجْلاويـنِ لـو فوَّقَتْهُمـا ... لنـوءِ الثريـا لاستَهَـلّ سَحابُهـا

فبادرت عزَّةُ وكشفت الحجابَ ، وقالت : يا فاسق ! قد سمعتُ البيتين ؛ فقال لها : فاسمعي الثالث . قالت : وما هو ؟ قال :

ولـكنما تَـرْمِين نَـفْساً سقيمــةً ... لعــزَّة منها صَفوُهــا ولُبَابُهــا

فاستحسنتهُ عَزَّة .

* * * *

٢٦ — وذكر أبو هلال العسكريّ : أَنَّ رجلاً كانت له صديقة لها زوجٌ غائب ، وكان يأتيها على طمأنينةٍ ، فَقَدم زوجُها ، فدخل فوجد الرجلَ نائماً ، فظنَّه المرأة ، فأخذ برجليه ، فوثب إلى السّيف ، وكان في جيرانه معاوية بن سيار ، فنادى : يا معاوية هل وَفَّيْتُ ؟ فتوهّم الزوجُ أنه جُعِل له على ما فَعَل ، وعلم معاوية أنه مكروب ، فقال : نعم ، وتَمَلَّيْتُ ؛ فخلاَّه الزوجُ .

* * * *

٢٧ — وحكى أبو الحسن بن الصّابي أن مغنية غَنَّت بين يدي المَهْدي :

ما نَقَمُوا مـن بنـي أُميّـة إلَّا　　أنهم يَسْفُهـون إذ غَضبُـوا[1]

فقيل لها : غلطت ، فقالت : غَلَطي بتذكُّري هذا البيت ، فأصلحته بما سمعتُم .

* * * *

(١) الغلط في البيت هو في الشطر الثاني ، حيث صحته :

أنهم يحلمـون إذ غضبـوا

والبيت لعبد الله بن قيس الرقيات .

الباب التاسع عشر
في
ذكر من استعمل بذكائه المعاريض

١ ــ أخبرنا المبارك بن علي ، أن عائشةَ رضي الله عنها سُئلت : هل كان رسولُ الله ﷺ يمزح ؟ قالت : نعم ، كان عندي عجوزٌ ، فدخل رسولُ الله ﷺ ، فقالت : ادع الله أن يجعلَني من أهل الجنة . قال : « إن الجنةَ لا تدخلها العجائزُ » وسمع النداءَ ، فخرج ، ودخل وهي تبكي ، فقال : « مَا لَها ؟ » قالوا : إنك حدثتها عن الجنَّة لا يدخلها العجائز ، قال : « إنَّ الله يحوّلُهن أبكاراً عُرُباً أتراباً » .

* * * *

٢ ــ قال القرشي : وحدثني محمد بن المثنى ، قال : إن العباس بن عبد المطلب قال : يا رسول الله ! ما ترجُو لأبي طالب ؟ قال : كلُّ خير أرجوه من ربِّي .

* * * *

٣ ــ قال القرشي : وحدثني أبو جعفر المدائني قال : دخلت امرأة على رسول الله ﷺ ، فقال : « مَنْ زَوْجُك ؟ » فسمّته له ، فقال : « الذي في عينيه بياضٌ ؟ » فرجعت المرأة ، فجعلت تنظرُ إلى وجه زوجها ، فقال لها : ما لك ؟ قالت : قال رسولُ الله ﷺ : زوجُك فلانٌ ؟ قلت : نعم ، قال : الذي في عينيه بياض ؟ قال : أوَلم تري البياضَ في عيني الذي حول السَّواد ؟ .

* * * *

٤ ــ قال القرشي : جاءَ رجلٌ إلى النبيّ ﷺ ليستحملَه ، فقال : « أنا حاملُك على ولدَ ناقةٍ » ، قال : يا رسول الله ! وما أصنع بولد ناقة ؟ قال : « وهل تلدُ الإبلَ إلَّا النُّوق » .

* * * *

٥ ـ أنبأنا محمد بن عبد الملك ... حدثنا محمد بن سلمة ، عن محمد بن إسحاق ، أنَّ رسولَ الله ﷺ لما سار إلى بدرٍ ، نزل قريباً منها ، ثم قام رسول الله ﷺ ومعه رجل من أصحابه حتى وقف على شيخ ، فسأله عن قريشٍ وعن محمّد وأصحابه وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني من أنتما ؛ فقال رسول الله ﷺ : « إذا أخبرْتَنا أخبرناك » ؛ قال : وذاك بذاك ؛ ثم قال الشيخ : إنَّه بلغني أنَّ محمداً وأصحابَه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صَدَقني الذي أخبرني فهمُ اليوم بمكان كذا وكذا ـ بالمكان الذي فيه رسولُ الله ﷺ ـ وبَلَغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن صَدَقني الذي أخبرني فهمُ اليوم بمكان كذا وكذا ـ بالمكان الذي به قريش ـ فلما فرغ من خبره ، قال : فَمَنْ أنتم ؟ قال رسول الله ﷺ : « نحنُ من ماءٍ » . قال أحمد بن علي : وهمه النبي ﷺ بأنه من العراق ، فكان العراق يسمّى ماءَ ، وإنما أراد النبيُّ ﷺ أنه خلق من نطفة ماءٍ .

* * * *

٦ ـ أخبرنا المبارك بن علي ... عن ابن أبي الزِّنَاد [عبد الرحمن بن عبد الله] ، قال : كان عند أسماءَ بنت أبي بكر قميصٌ من قُمُصِ رسولِ الله ﷺ ، فلما قُتِل [ابنها] عبدُ الله بن الزُّبَيْرِ ذَهَبَ القميصُ فيما ذَهَبَ وفيما انْتُهب ، فقالت أسماءُ : لَلْقَميصُ أشدُّ عليَّ من قتل وَلَـدِي عبد اللهِ ، فوُجد القميصُ عند رجلٍ من أهل الشَّام ، فقال : لا أردُّه أو تستغفرَ لي أسماءُ . فقيل لها ، قالت : كيف أستغفرُ لقاتل عبد الله ؟ قالوا : فليس يَرُدُّ القميص . قالت : قولوا له فليجيء . فجاءَ بالقميص ومعه عبد الله بن عُرْوَة ، فقالت : ادفع القميص إلى عبد اللهِ ، فدفعه . قالت : قبضتَ القميص يا عبد الله ؟ قال : نعم ! قالت غفر الله لك يا عبد الله . وإنما عنت عبدَ الله بن عُرْوَة .

* * * *

٧ ـ أنبأنا محمد بن عبد الملك عن حُجْر المدريِّ ، قال : قال لي عليٌّ رضي الله عنه : كيف بك إذا أُمرتَ أن تَلْعَنَني ؟ قلتُ : أَوَ كائنٌ ذلك ؟ قال : نعم . قلتُ : فكيف أصنع ؟ قال : آلْعَنّي ولا تَتَبَرَّأْ منِّي . قال : فأقامه محمد بن يوسف إلى جنب المنبر يوم الجمعة ، فقال له : آلْعَن عليّاً . فقال : إنَّ الأميرَ محمد بن يوسف أمرني أن آلعن عليّاً ، فالْعَنُوه لَعَنَهُ الله . قال : فلقد تفرّق أهلُ المسجد وما فَهِمَها إلاّ رجلٌ واحدٌ .

* * * *

٨ ــ أخبرنا محمد بن ناصر ، عن الشعبي قال : قامت الخطباءُ إلى المُغِيرَة بن شعبة بالكوفة ، فقام صَعْصَعَةُ بن صُوحَان فتكلّم ، فقال المُغِيرَة : أخرجوه فأقيمُوه على المَصْطَبَة فليلْعن علي بن أبي طالب ، فقال : لعنَ الله من لَعَنَ الله ولَعَنَ عليَّ بنَ أبي طالب ؛ فأخبروه بذلك ، فقال : أقسم بالله لتُعِيدُنّه ؛ فخرج ، فقال : إنَّ هذا يأبى إلّا عليَّ بن أبي طالب فالعنوه لَعَنَه الله . فقال المُغِيرة : أخرجوه ، أخرج الله نَفَسَه .

* * * *

٩ ــ أخبرنا عبد الوهاب قال : كلَّم رجلٌ عيسى بنَ موسى في شيء وعنده عبدُ الله بن شُبْرُمة القاضي ، فقال عيسى للرجل : مَنْ يَعْرِفُك ؟ قال : ابنُ شُبْرُمة . قال : أتعرِفُه ؟ قال : إنِّي لأعلم أن له شرفاً وبيتاً وَقَدماً . فلما خرج ابن شُبْرُمَة سئل عن ذلك ، فقال : أعلمُ أنَّ له أُذنين مُشْرِفتين ، وأن له بيتاً يأوي إليه ، وأن له قَدَماً يطأُ بها .

* * * *

١٠ ــ قال القرشي أبو محمد الكوفي : ضَرَبَ الحَجَّاجُ عَبْدَ الرحمن بن أبي لَيْلَى ، وأقامه للناس ، ومعه رجلٌ ينخسه ويقول : العن عليّاً . فيقولُ : اللّهم العن الكذّابين ؛ ثم يسكت . ويقول : آه ، عليُّ بن أبي طالب ؛ ثم يسكت ، ثم يقول : المختار بن أبي عبيد ، وعبد الله بن الزُّبَيْر .

أخبرنا محمد بن أبي القاسم ، قال : رأيت عبد الرحمن بن أبي ليلى مجلوقاً على المصطبة وهم يقولون له : العن الكذابين ! وكان رجلاً ضخماً به رقق ، فقال : اللهم العن الكذابين ، آه ، ثم يسكُتْ : علي وعبد الله بن الزبير والمختار .

أنبأنا أبوبكر بن أبي طاهر ، قال : رأيتُ عبد الرحمن بن أبي ليلى وقد أوقفه الحجاجُ ، وقال له : لعن الكذّابين : علي بن أبي طالب وعبد الله بن الزبير والمختار بن أبي عبيد ، قال الأعمش : إنه ابتدأ برفعهم ، ثم نَعَتَهُم .

* * * *

١١ ــ حدَّثنا المبارك بن علي ، قال : بينما الحجاجُ جالسٌ ، إذ أقبل رجلٌ مقارَبُ الخَلْق ، أفْحَجُ ، ذو غديرتين ، فلما رآه الحجاج قال : مَرْحباً بأبي غادية ! فلم يزل يُرَحِّب به حتى

أجلسه على سريره ، ثم قال : أنت قاتلُ ابن سميّة ؟ قال : نعم . قال : كيف صنعت ؟ قال : صنعت كذا وفعلت كذا حتى قتلتُه . قال الحجاج لأهل الشام : من سرّه أن ينظُرَ إلى رجلٍ عظيم الباع يوم القيامة فلينظر إلى هذا الذي قَتَل ابن سُميَّة . ثم سارّه أبو غادية ، فسأله شيئاً فأبى عليه ، فقال أبو غادية : نُوَطِىء لهم الدنيا ثم نسألُهم منها شيئاً فلا يعطونا ، وتزعم أنه عظيم الباع يوم القيامة ؟ قال : أجل ! واللهِ إنَّ من كان ضِرْسُه مثلَ أُحُد ، وفَخِذُه مثل وَرِقَان ، وساقه مثل البيضاء ، ومجلسه ما بين المدينة إلى الرَّبَذَةِ ، لعظيم الباع يوم القيامة ؛ والله لو أنَّ عمّار بن سُميَّة قتله أهلُ الأرض لدخلوا كلُّهم النارَ .

* * * *

١٢ ــ قال القرشي : وأخبرني عبدُ المنعم بن إدريس ، عن معمر ، قال : كان مُطَرِّف بن عبد الله خرج مع ابن الأشعث ، فأُتِيَ به إلى الحَجَّاج بعد ذلك ، فقال له الحَجّاج : يا مُطَرِّف ! أكفرتَ ؟ قال : لا ، ولكن كانت حِيرة ، ولو نَصَرنا الحقَّ وأَهلَهُ كان خيراً لنا .

* * * *

١٣ ــ قال القرشيّ : وحدّثني أبو جعفر المَدِيني ، قال : خرج قوم من الخوارج بالبصرة فلقوا شيخاً أبيض الرأس واللحية ، فقالوا له : من أنت ؟ قال : أَعُهِد إليكم في اليهود بشيءٍ أو بَدَا لكم في قتل أهل الذِّمّة ؟ قالوا : اذهب عنّا إلى النار .

* * * *

١٤ ــ قال القرشي : وحدثني ابن أخي الأصمعي ، عن عمه ، قال : استقبل ابن عِرْباض الخوارج ، وكانوا يقتلون من رأوه ، وكان رجلاً أبيض الرأس واللحية ، فقالوا : من أنت ؟ فقال : أَعُهِدَ إليكم في قتل اليهود شيء ؟ قالوا : لا ، قال : فامضوا راشدين .

* * * *

١٥ ــ قال القرشي : وامتَحنَتْ الخوارج رَجُلاً ، وكان شيعياً ، فقال : أنا من علي ومن عثمان بريء ؛ فقيل لهم بَعدُ : إنه قد تولى علياً وبَرِيء من عثمان .

* * * *

١٦ ــ أخبرنا أبو منصور القزاز ، قال سمعت أبا العيناء يقول : تولى يحيى بن أكثم ديوان الصدقات على الأضرّاء ، فلم يعطهم شيئاً ، وطالبوه فلم يعطيهم ، فاجتمعوا ، فلما انصرف من مجلس القضاء سألوه ، فقال : ليس لكم عند أمير المؤمنين شيء ، قالوا : إنْ وقفنا معك إلى غدٍ ، تَزيدنا على هذا القول شيئاً ؟ فقال : لا ، قالوا : لا تفعل يا أبا سعيد ؛ فقال : الحبس الحبس ؛ فحُبِسُوا ، فلما كان الليل ضَجُّوا ، فقال المأمون : ما هذا ؟ فقالوا : الأضراء ، حبسهم يحيى بن أكثم ؛ فقال : لِمَ ؟ قالوا : كَنُّوه ، فحبسهم ؛ فدعاه ، فقال له : حَبَسْتَهم على أن كَنُّوك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين لم أحبسهم على ذلك ، وإنما حبستهم على التعريض ، قالوا لي : أبا سعيد ، يعرضون شيخاً لا يطأ في الحربية .

* * * *

١٧ ــ أخبرنا القزّاز .. أخبرنا أبو العباس أحمد بن يعقوب ، قال : كان يحيى بن أكثم يحسُدُ حسداً شديداً ، وكان مُفَنَّناً ، فكان إذا نظر إلى رجل يحفظ الفقه سأله عن الحديث ، وإذا رآه يحفظ الحديثَ سأله عن النحو ، وإذا رآه يعلمُ النحو سأله عن الكلام ؛ ليخجله ويقطعَه ؛ فدخل إليه رجلٌ من أهل خراسان ذكيٌّ حافظ ، فناظره فرآه مُفَنَّناً ، فقال : نظرتَ في الحديث ؟ قال : نعم . قال : فما تحفظُ من الأُصول ؟ قال : أَحفظُ حديثَ شَرِيكٍ ، عن أبي إسحاق ، عن الحارث : أَنَّ علياًرجم لُوطِيّاً ؛ فأَمْسَكَ ، فلم يكلِّمْه .

* * * *

١٨ ــ أخبرنا محمد بن أبي طاهر قال : قال رجل لهشام بن عَمْرو القَرَظي : كم تَعُدّ ؟ قال : من واحد إلى أَلف أَلف وأكثر ، قال : لم أُرِدْ هذا ، قال : فما أُردتَ ؟ قال : كم تَعُدّ من السِّنِّ ؟ قال : اثنتين وثلاثين سِنَّة ، ستَّة عشر من أعلى وستَّة عشر من أسفل . قال : لم أُرد هذا ، قال : فما أُردت ؟ قال : كم لك من السنين ؟ قال : ما لي منها شيء ، كلها لله عزَّ وجل ، قال : فما سِنُّك ؟ قال : عَظْم ، قال : فابنُ كم أَنت ؟ قال : ابن اثنين ، أَبٌ وأُمٌّ ؛ قال : فكم أَتى عليك ؟ قال : لو أَتى علي شيء لقتلني . قال : فكيف أقول ؟ قال : قل : كم مضى من عمرك ؟

* * * *

١٩ ــ وثب رجلان على بعض الملوك فقتلاه في زمن الإسكندر ، فقال الإسكندرُ : إن

من قتل هذا عظيمُ العقل ، ولو ظهر لنا جازيناه بما يستحق ، ورفعْناه على الناس ، فلما بلغهما ذلك ظهرا ، فأَقرَّا ، فقال الإسكندر : إنما نُجَازيكما بما تستحقَّان ، فما يستحقُّ من قَتَلَ سيِّدَه ، ومن رفع قَدْرَه فَغَدَر به إلاَّ القتل ، وأَمَّا رفعُكما على الناس ، فإني سأَصلبُكُما على أَطول خشب يُمْكنُني .

* * * *

٢٠ ــ رُوِيَ أَنَّ رجلين من آل فرعون سعيَا برجل مؤمن إلى فرعون ، فأَحضره فرعون وأَحضرهما ، فقال : للسّاعين : من رَبُّكما ؟ قالا : أَنت ، فقال للمؤمن : من ربُّكَ ؟ قال : ربِّي ربُّهما ، فقال فرعونُ : سعيتُما برجلٍ على ديني لأَقتلَه ! فقتلهما .

قالوا : فذلك قوله تعالى : ﴿ فَوقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العَذَابِ ﴾ [٤٠ سورة غافر/ الآية : ٤٥] .

* * * *

٢١ ــ حدثنا إسحاق بن هانىء ، قال : كنا عند أَبي عبد الله أَحمدُ بن حنبل رضي الله عنه في منزله ، ومعنا المروزيّ ومَهَنّى بن يحيى الشّامي ، فَدَقَّ داقٌّ الباب ، وقال : المروزيُّ هاهنا ؟ وكأنّ المروزيَ كَرِهَ أَن يُعْلَم موضعَه ، فوضع مهنَّى بن يحيى إصبعه على راحته ، وقال : ليس المروزيُّ هاهنا ، وما يصنع المروزيّ هاهنا ؟ فضحك أَحمدُ و لم ينكرْ ذلك .

* * * *

٢٢ ــ بلغني عن أَبي بكر الخلّال ، قال : قال أَبو بكر المروزيّ : جاءَ مَهَنَّى بنُ يحيى الشّامي إلى أَبي عبد الله [أَحمد بن حنبل] ومعه أَحاديثُ ، فقال : يا أَبا عبدَ اللهِ ! معي هذه الأَحاديث ، وأُريد أَن أَخرج ، فحدّثني بها ، فقال : متى تريد أَن تخرج ؟ قال : الساعةِ أَخرج ، فحدّثه بها وخرج ، فلما كان من الغد أَو بعد ذلك جاءَ إلى أَبي عبد الله ، فقال له أَبو عبد الله : أَليس قلتَ لي : أَخْرُجُ الساعة ؟ قال : قلت لك إني أَخرج الساعة من بغداد ؟ إنما قلت أَخرج من زُقَاقِك .

* * * *

٢٣ ــ أَنبأَنا زاهر بن طاهر عن مصعب الزُّبَيْرِيّ ، قال : أُتي العُرْيانُ بشابّ سكران ،

فقال له : من أنت ؟ فقال شعراً :

أَنا ابنُ الـذي لا تُنْـزِلُ الدَّهْـرُ قَـدْرَهُ وإن نَـــزَلَتْ يومـــاً فسوف تَعُـــودُ

فقال لبعض شُرطه : سل عن هذا ؟ فسأل عنه ، فقال : هو ابن صاحب باقلّاء .

قلتُ : وفي رواية أُخرى زيادة :

تَـرَى النَّـاسَ أَفْواجـاً إلى ضوءِ نـارِهِ فَمِنْهُـــمْ قِيـــامٌ حولَهـــا وقُعُـــودُ

فظنَّه كبير القَدْر ، فخلَّى سبيله ، فإذا هو ابن باقلاَّويّ .

* * * *

٢٤ ــ أُتي الحارث بن مسكين أيام المحنة وابنُ أَبي دُؤَاد يمتحنُ الناسَ بخَلْقِ القرآن ، فقال للحارث : اشهد أَنَّ القرآن مخلوقٌ ، فقال : أَشهدُ أَنَّ هذه الأربعة مخلوقة ، وبسط أَصابعَه الأَربع ، فقال : التوراةُ والإنجيلُ والزَّبُور والفرقان ؛ فعرّض وكنَّى وتخلَّصَ من القتل .

* * * *

٢٥ ــ قال شيخنا عبد الوهاب الأَنماطي : كان أَحمد بن عبد المحسن الوكيل إذا حُمل إليه محضرٌ كتب فيه ، ثم يحمل إليه ضدّه فيكتب فيه ، فقيل له : كيف تكتب خلاف الأَول ؟ فقال : أَنا أَكتُب : (ما ذكر صحيح) ومقصودي نَفْيُ الصِّحة .

* * * *

الباب العشرون
في
ذكر من فَلَجَ على خصمه في المناظرة بالجواب المسكت

١ ــ أخبرنا محمد بن أبي طاهر .. حدثنا خبيب بن عبد الرحمن بن خُبيب ؛ عن أبيه ، عن جدّه خبيب بن يَسَار ، قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو يريد غزواً ، أنا ورجلٌ من قومي ، ولم نُسْلِم ، فقلنا : إنا لنستحيي أن يشهدَ قومٌ مشهداً لا نشهده معهم ، قال : « وأسلمتما ؟ » قلنا : لا ، قال : « فإنَّا لا نستعين بالمشركين على المشركين » ؛ قال : فأَسْلَمْنا وشهدنا معه ، فقتلتُ رجلاً وضربني ضربةً ، فتزوَّجْتُ ابنته بعد ذلك ، فكانت تقول : لا عدمتُ رجلاً وشَّحَك هذا الوشاح ، فأقول لها : لا عَدِمْتِ رجلاً عَجّلَ بأبيك إلى النار .

* * * *

٢ ــ قال محمد بن سعيد .. عن إبراهيم بن جعفر بن محمود الأشهلي ، عن أبيه ، قال : كان حُوَيْطب بن عبد العُزّى قد بلغ مئة وعشرين سنة ، ستّين في الجاهلية وستّين في الإسلام ، فلما وَلِيَ مروانُ بنَ الحكَمَ المدينة دخل عليه حويطبٌ ، فقال له مروانُ : ما سنُّك ؟ فأخبره ، فقال له : تأخَّر إسلامُك أيُّها الشيخ حتى سبقك الأحداثُ ، فقال : واللهِ لقد هَمَمْتُ بالإسلام غير مرّة ، وكلّ ذلك يعوقني عنه أبوك وينهاني ، ويقول : تدعُ دين آبائك لدين مُحْدَث ؟! فأسكت مروانُ وندم على ما كان .

ثم قال حُوَيْطِب : أما أخبرك عثمانُ ما كان لقي من أبيك حين أسلم ؟ فازداد مروان غماً .

* * * *

٣ ــ قال مروانُ لحُبيش بن دَلْجة : أَظُنُّك أَحمق ، فقال : أَحمقُ ما يكون الشيخ إذا عمل بظنِّه .

* * * *

٤ ــ أخبرنا أبو منصور ، عن زكرياءَ ، قال : حضرتُ مجلساً فيه عُبَيْد الله بن محمد ، ابن عائشة التيمي ، وفيه جعفرُ بن القاسم الهاشميّ ، فقال لابن عائشة : هاهنا آية نزلت في بني هاشم خصوصاً . قال : وما هي ؟ قال قوله تعالى : ﴿ وإنَّهُ لذكرٌ لَكَ ولِقَوْمِكَ ﴾ [٣ سورة الزخرف/الآية : ٤٤] فقال ابن عائشة : قومُه قريشٌ وهي لنا معكُم . قال : بل هي لنا خصوصاً ، قال : فخذ معها ﴿ وكَذَّبَ به قَوْمُكَ وَهو الحَقُّ ﴾ [٦ سورة الأنعام/الآية : ٦٦]قال : فسكتَ جعفرٌ وَلم يردّ جواباً .

* * * *

٥ ــ أنبأنا يحيى بن الحسين ، قال : حجّ هشام بن عبد الملك ، فدخل المسجد الحرام متوكئاً على يد مولاه سالم ، ومحمد بن علي بن حسين في المسجد ، فقال له : هذا محمد بن علي ، فقال : المفتون به أهل العراق ؟ قال : نعم ! قال : اذهب إليه ، فقل له : يقول لك أمير المؤمنين : ما الذي يأكل الناسُ ويشربون إلى أن يفصل بينهم يوم القيامة ؟ فقال له محمد : يحشر الناس على مثل قرصة النقي ، فيها الأنهار مفجرة ؛ فرأى هشام أنه قد ظفر به ، فقال : الله أكبر ! اذهب إليه فقل له : ما أشغلهم عن الأكل والشرب يومئذ ! ففعل ، فقال له محمد : قل له : هم في النار أشغل ولم يُشغلوا ، إذ قالوا : ﴿ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ المَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ﴾ [٧ الأعراف/الآية : ٥٠] .

قال : فظهر عليه محمد بن علي .

* * * *

٦ ــ أنبأنا أبو المعمر الأنصاري ، عن أبي محجن ، قال : كان لقتيبة بن مسلم عَناق(١) يؤتى في آخر طعامه ، فإذا جاءت لم يقدر أحد يمد إليها يده من جلسائه ، فبلغ ذلك شيخاً من باهلة ، كان شريفاً مِنهم ، فقدم عليه البصرة ، فلما حضر غداؤه ، وأُتي بالعَناق ؛ أمسك القومُ أيديَهُم ، فجعل الشيخ الباهلي يفسخُ أعضاءها ويلقي بين يدي القوم ، فقال له قتيبة : أظنُّها نطحتك !؟ فقال الشيخ : لكني أظنّ أن أمّك أرضعتها !؟ فلم يعد لذلك قتيبة .

* * * *

(١) « العَنَاق » : الأنثى من ولد المَعْز .

٧ — أخبرنا هبة الله بن محمد ، عن إياس بن معاوية ، قال : ما خاصمتُ أحداً من أهل الأهواء بعقلي كلّه إلا القدرية .

قال : قلت : أخبرني عن الظلم ما هو ؟ قال : أخذ ما ليس له ، قلت : فإن الله له علّي كلّ شيء .

* * * *

٨ — قال المصنِّف غفر له : ورُوينا أنَّ معاوية قال لعبد الله بن عامر : إنَّ لي عندك حاجة تقضيها ؟ قال : نعم . قال : ولي إليك حاجة أتقضيها ؟ قال : نعم ، قال : سَلْ حاجَتك ، قال : أُريدُ أن تهب لي دُورَك وضِياعَك بالطائف ، قال : قد فعلتُ قال : وصلتك رحم ؛ فسل حاجتك ، قال : أن تَرُدَّها عليَّ ، قال : قد فعلتُ .

* * * *

٩ — وافتخرَ قومٌ من اليَمَن عند هشام بن عبد الملك ، فقال لخالد بن صفوان : أَجبْهم ، فقال : هم بين حائك بُرْد ودَابغ جِلْد وسائِس قِرْد ، ملكتهُم امرأة ، ودلَّ عليهم هدهد ، وغرّقتهم فأْرة .

* * * *

١٠ — قال : قال غِيلان لربيعة بن أبي عبد الرحمن : أَنشدُك الله ، أَترى الله يحبُّ أن يُعصى ؟ فقال ربيعة : أَنشدك الله أَترى الله يُعصى قسراً ؟! فكأَنَّ ربيعةَ أَلْقَمَ غيلانَ حَجَراً .

* * * *

١١ — أنبأنا أبو منصور القزَّاز ، قال : وقف رجلٌ بين يدي المأْمون قد جنا جناية ، فقال له : والله لأَقتلنَّك . فقال الرجل : يا أَمير المؤمنين ! تأَنَّ عليّ ، فإنّ الرفق نصف العفو ، قال : وكيف وقد حلفتُ لأَقتلك ؟ قال : يا أَمير المؤمنين ! لأَن تلقى الله حانثاً خيرٌ لك من أن تلقاه قاتلاً .

قال : فخلَّى سبيله .

* * * *

١٢ ــ أخبرنا أبو منصور القزاز ، عن منصور بن إسماعيل ، قال : وُلِّي يحيى بن أكثم قضاءَ البصرة وهو شابٌّ ابنُ إحدى وعشرين سنةً . قال أو كما قال : واستزرى به مشايخ البصرة واستصغروه ، فامتحنوه ، فقالوا : كم سِنُّ القاضي ؟ قال : سنُّ عَتَّاب بن أَسِيد حيث ولَّاه رسولُ الله ﷺ مكة .

* * * *

١٣ ــ كان النظَّام لا يكتم سرَّاً ، فأَسر إليه يونس التمّار سرَّاً ، فأذاعه ، فلامَهُ ، فقال النظَّامُ للناس : سلوه ، هل أَذَعْت سرّاً مرة أَو مرتين أَو ثلاثاً أَو أَربعاً ، فلِمن الذَّنب الآن ؟ فلم يرض أَن يشاركه في الذنب حتى صار الذنب كله لصاحب السرّ .

* * * *

١٤ ــ روى أبو سليمان الخطابي ، قال : كان أَصحاب المبرّد إذا اجتمعوا واستأْذنوا يخرج الآذن لهم فيقول : إن كان فيكم أَبو العباس الزجّاج وإلا انصرفوا ؛ فحضروا مرّة و لم يكن الزجّاج فيهم ، فقال لهم ذلك ، فانصرفوا ، وثبت رجلٌ منهم يقال له عثمان ، فقال للآذن : قل لأَبي العباس : انصرف القومُ كلُّهم إلاَّ عثمان ، فإنه لا ينصرف ؛ فعاد الآذن إليه وأَخبره ، فقال : قل له : إنَّ عثمان إذا كان نكرةً انصرف ، ونحن لا نعرفك ، فانصرِفْ راشداً .

* * * *

١٥ ــ أنبأنا محمد بن عبد الملك ، قال : اجتمع ابن أبي ليلى وابن شُبْرُمة عند عيسى بن موسى ، فقال ابن أبي ليلى : يقال : إنّه بعد النيروز ثمانون يوماً وجد البُسْر[1] ؛ ثم افترقا ، فلما كان بعد مدّةٍ اجتمعا عند عيسى ، فقال ابن شُبْرُمة : أعزّ الله الأمير ، زعم ابن أبي ليلى أنه إذا مضى بعد النيروز ثمانون يوماً وُجدَ بُسراً أحمر ، واليوم ثمانون يوماً للنيروز .

قال : فأخرج ابن أبي ليلى من كمّه كفّ بُسر ، فقال : هذا بُسر أحمر ؛ فتعجّب الناسُ من ذلك .

* * * *

(١) « البُسْر » : أول التَّمْر طَلْعٌ ، ثم خَلال ، ثم بَلَحٌ ، ثم بُسْرٌ ، ثم رُطَبٌ ، ثم تَمْرٌ .

١٦ ــ أخبرنا عبد الوهاب قال : قال رجل من أهل الحجاز لابن شُبْرُمة : العلمُ من عندنا خرج ، قال له : صدقت ! إلاَّ أنه لم يرجع إليكم .

* * * *

١٧ ــ أخبرنا محمد بن أبي منصور ، عن ابن عائشة قال : تكلَّم شابٌّ يوماً عند الشَّعْبيّ ، فقال الشَّعْبيُّ : ما سمعنا بهذا ! فقال الشاب : كلَّ العلم سمعْتَ ؟ قال : لا ، قال : فشطْره ؟ قال : لا ، قال : فاجعل هذا في الشطر الذي لم تسمعْه ؛ قال : فأُفحم الشعبي .

* * * *

١٨ ــ أخبرنا عبد الرحمن ، أن عبدَ الله بن سليمان بن الأشعث قال : سمعتُ أبي يقول : كان هارون الأعور يهوديّاً ، فأسلم وحَسُنَ إسلامُهُ ، وحفظ القرآن وضبطه وحفظ النحو ، فناظره إنسان يوماً في مسألة فغلبه هارون ، فلم يدر المغلوبُ ما يصنع ، فقال له : أنت كنت يهودياً فأسلمت ؟ فقال هارون : أفبئس ما صنعْتُ ؟ فغلبه أيضاً في هذا . والله الموفق .

* * * *

١٩ ــ أخبرنا عبد الرحمن بن محمد ، قال : كان لإبراهيم بن طَهْمَان جرايةٌ من بيت المال ، فسُئل عن مسألة في مجلس الخليفةِ ، فقال : لا أدري . فقالوا له : تأخذُ في كلِّ شهر كذا وكذا ولا تحسنُ مسألةً ؟ فقال : إنَّما آخذُ على ما أُحسن ، ولو أُخذتُ على ما لا أُحسن لَفنِي بيتُ المال ولا يَفْنى ما لا أُحسن ؛ فأعْجب الخليفةَ جوابُه ، وأمر له بجائزة فاخرة وزاد في جرايته .

* * * *

٢٠ ــ أنبأنا أحمد بن الحسين ، عن ابن علي الكوكبي ، قال : قال لنا أبو العباس ــ يعني المبرّد ــ : ضاف رجلٌ قوماً فكرهوه ، فقال الرجلُ لامرأته : كيف لنا أن نعلم مقدار مقامه ؟ فقالت : الق بيننا شرّاً حتى نتحاكم إليه ؛ ففعلا ، فقالت للضيف : بالذي يباركُ في غُدُوِّك غداً ، أيُّنا أظلم ؟ فقال الضيف : والذي يُبارِك لي في مقامي عندكم شهراً ما أعلم .

* * * *

٢١ ــ أخبرنا عبد الرحمن ، عن أبي سعيد الروذباري ، قال : دخل أبو يعقوب

الشريطي ، وكان من أهل البصرة ، مجلس داود الأصْبهاني وعليه خرقتان ، فتصدّر لنفسِهِ من غير أن يرفعه أحدٌ ، وجلس تحت داود ، فقال : نسأل يا فتى ؟ فقال أبو يعقوب : يسأل الشيخ عما أدب ؛ فحرد داود ، فقال : عمّا أسألك ؟ عن الحجامة أسألك !

قال : فبرك أبو يعقوب ، ثم روى طرق [حديث] : « أفطر الحاجم والمحجوم » ومَنْ أرسله ، ومَنْ أسنده ، ومن وقّفه ، ومَنْ ذهب إليه من الفقهاء ؛ وروى اختلاف طريق [حديث] : احتجم النبي ﷺ ، وأعطى الحجام أجره ؛ ولو كان حراماً لم يعْطِهِ ؛ ثم روى طرق [حديث] أن النبيّ ﷺ احتجم بقرن ؛ وذكر أحاديث صحيحة في الحجامة ، ثم ذكر الأحاديث المتوسطة ، مثل : « ما مررت بملأ من الملائكة ... » ومثل : « شفاء أمتي ... » وما أشبه ذلك ؛ وذكر الأحاديث الضعيفة ، مثل قوله : « لا تحتجموا يوم كذا ، ولا ساعة كذا » ثم ذكر ما ذهب إليه أهل الطب من الحجامة في كلّ زمان ، وذكر ما ذكره الأطباء في الحجامة ، ثم قال في آخر كلامه : وأول ما خرجت الحجامةُ من أصبهان . فقال داود : والله لا حَقَّرْت بعدك أحداً .

* * * *

٢٢ ــ أنبأنا محمد بن أبي طاهر ، قال : بلغني أنَّ الرشيد خَرَجَ يوماً متنزهاً ، فانفردَ عن عسكره والفَضْلُ بن الربيع خلفَهُ ، فإذا هو بشيخ قد ركب حماراً له ، وفي يده لجامٌ كأنه مَبْعَرٌ محشوّ ، فنظر إليه ، فإذا هو رَطْبُ العينين ، فغمز الفضلَ عليه ، فقال له الفضل : أين تريدُ ؟ قال : حائطاً لي . قال : هل لك أن أُدلّك على شيءٍ تُداوي به عينيك فتذهب هذه الرطوبة ؟ قال : ما أحوجني إلى ذلك ! فقال له : خذ عيدان الهواء ، وغبار الماء ، وورقَ الكمأة ، فصيّره في قشر جوزة واكتحل به ،فإنَّه يُذهب عنك ما تجد .

قال : فاتكأ على قَربُوس[1] سرجه ، فضرط ضَرْطة طويلة ، ثم قال : تأْخذ هذه أُجرةً لوصفتك ، فإن نَفَعتْنا زدْناك ، قال : فاستضحك الرشيد حتى كاد أن يسقط عن ظهر دابّته .

* * * *

٢٣ ــ وبلغنا عن هشام بن عبد الملك أنه أحضر إبراهيم بن أبي عَبْلة ، فقال له : قد وليتكَ

(١) « القَرَبُوس » : السرج .

الخَراجَ بمصر ، فأبى إبراهيمُ ، فغضب هشام ، فقال له إبراهيم : يا أمير المؤمنين ! يقول الله عز وجل : ﴿ إنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَة عَلى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَالجِبَالِ ... ﴾ الآية [٧٢ من ٣٣ سورة الأحزاب] فوالله ما أكرههن ولا سخط عليهن ، ولقد ذمّ الإنسان لمّا قَبِلَها ؛ فأعفاه ورضي عنه .

* * * *

٢٤ ــ أنبأنا أبو منصور ، عن الربيع بن سليمان ، قال : سمعت الشافعي يقول : ناظرت رجلاً بالعراق ، فجعلت كلما جاء بمعنى أدخلت عليه معنى آخر ، فبقي باهتاً ، ثم تناظرنا في شيء ، فاحتجّ فيه بحجة ، فقلت له : من قال هذا ؟ فقال لي : أمسك بيدك : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ....، ولم يزل حتى عدّ العشرة ، فبلغ والله مني كل مبلغ ، فكان مَن حوالينا لا معرفة لهم بالرواية ، ثم افترقنا ، ولم يصحّ لي شيء مما قال ، ثمّ اجتمعنا بعد ذلك في مجلس آخر ، فقلت له : الذي رويته عن أبي بكر وعمر ، من حدّثك به ؟ فقال : لم أرْوِ لك شيئاً ، ولم يحدّثني به أحدٌ ، إنما قلت لك : أمسك بيدك ، فلان وفلان ، وتخلَّصْتُ مِنك .

* * * *

٢٥ ــ قال الجاحظ : قال المهديُّ لشريك القاضي وعيسى بن موسى عنده : لو شهد عندك عيسى كنت تقبلُه ؟ وأراد أن يُغْرِي بينهما ، فقال شريك : من شهد عندي سألْتُ عنه ، ولا يُسأل عن عيسى غيرُ أمير المؤمنين ، فإن زكّيتَه قبلتُه ؛ فقلبها عليه .

* * * *

٢٦ ــ قال أبو بكر محمد بن شبيب : كان لي أَخٌ جيّدَ الشِّعْر ، فقال له رجل متَّهم وقد حسده على شعره : ما أدري ما معنى أعجميٌّ يقول الشعر إلاَّ أن يكون دبّ إلى أُمّه عربيٌّ ، فقال له : وكذلك يلزم في قياس قولك إذا لم يقل العربيُّ شعراً فقد دبَّ إلى أُمّه أعجمي .

* * * *

٢٧ ــ غضب رجلٌ على رجل ، فقال له : ما أغضبَكَ ؟ قال : شيءٌ نقلَهُ إلـيّ الثِّقـة عنك . فقال : لو كان ثِقةً ما نَمَّ .

* * * *

٢٨ — عن علي بن المحسّن ، عن أبيه ، قال : أنبأنا محمد بن أبي طاهر ، أنَّ أبا عُمر القاضي دخل يوماً على عليّ بن عيسى الوزير ، وعَلَى أبي عمر قميصٌ دَبِيقيٌّ فاخر جدّاً ، فأراد الوزيرُ أن يُخجله ، فقال له : بكم اشتريتَ شقة هذا القميص ؟ قال : بمئة دينار ، فقال الوزيرُ : لكنّي اشتريتُ الشُّقَّةَ التي قطعتُ منها هذه الدّراعة والقميص الذي تحتها بعشرين ديناراً ؛ فقال له أبو عمر : الوزيرُ — أعزّه الله — يجمِّل الثيابَ فلا يحتاج إلى المبالغةِ فيها ، ونحن نَتَجَمَّلُ بالثياب فنحتاج إلى المبالغة فيها ، لأنَّا نلابسُ العوامَّ ومن يحتاج إلى إقامة الهيبةِ في نفسه ، والوزيرُ يخدمه الخواصّ ومن يعلم أنَّه إنما يدع هذا عن قدرة . فكأنما ألقمه حَجَراً .

* * * *

٢٩ — أخبرنا أبو منصور القزّاز ، قال : قال أبو الحسن بن المأمون : قال المأمونُ ليحيى ابن أكثم : من الذي يقولُ — وهو يعرّض به — :

قَــاضٍ يَــرى الحدَّ في الزِنَــاء وَلَا يَرَى علَى مَنْ يَلُـوطُ مـن بَـاسِ

قال : أوَمَا يعرفُ أميرُ المؤمنين من قالَهُ ؟ قال : لا ، قال : يقولُهُ الفاجرُ أحمد بن أبي نُعَيْم الذي يقول :

حاكمنَــا يَــرْتَشِي وقاضِينَــا يَلُوط والـرَّأْسُ شَرٌّ مـن راسِ
لا أحسَبُ الجَوْرَ يَنْقَضِي أبداً مَــادَامَ والٍ مِــنْ آلِ عبَّــاسِ

قال : فأُفحم المأمون وسكت خَجَلاً ، وقال : ينبغي أن يُنْفى أحمد بن أبي نعيم للسند .

* * * *

٣٠ — أخبرنا عبد الرحمن بن محمد ، قال : حدثنا إبراهيم بن محمد بن شهاب العطار ، قال : روى أبو يعقوبُ الشَّحَّام ، قال : قال لي أبو الهُذَيل : بلغني أنَّ رجلاً يهوديّاً قدم البصرة وقد قطع عامّة متكلِّميهم ، فقلتُ لعمي : يا عمي ! آمضِ بي إلى هذا اليهوديّ أُكلِّمه ، فقال : يا بنيّ ! هذا قد غلب جماعة متكلمي البصرة !فقلت : لا بدّ ؛ فأخذ بيدي ، فدخلنا على اليهوديّ ، فوجدتُه يقرّر الناس الذين يكلمونه بنبوّة موسى عليه السلام ثم يجحدُ نبوّة نبيّنا ﷺ ، فيقول : نحن على ما اتفقنا عليه من نبوّة موسى إلى أن نتفق على غيره فنقرّ به . فدخلت إليه ، فقلت له : أسألك أو تسألني ؟ فقال : يا بُنيّ ! أوَ ما ترى ما أفعله بمشايخك ؟ فقلت : دع

عنك هذا واختر . قال : بل أسألك ، أخبرني ، أليس موسى نبيّاً من أنبياء الله قد صحت نبوّته وثبتَ دليلُه ؟ تقرُّ بهذا أو تجحدُه فتخالف صاحبك ؟ فقلت له : إن الذي سألتني عنه من أمر موسى عندي على أمرين ، أحدهما : أني أقرُّ نبوة موسى الذي أخبر بصحة نبوّة نبيّنا محمد ﷺ وأمرنا باتباعه وبشَّر به وبنبوَّته ، فإن كان عن هذا تسألني فإني مقرٌّ بنبوَّته ، وإن كان موسى الذي تسألني عنه لا يقرّ بنبوّة نبيّنا محمد ﷺ و لم يأمُرْ باتباعه ولا بشَّر به ، فلست أعرفُه ولا أُقرّ بنبوته ، بل هو عندي شيطان مَخْزِيّ ؛ فتحيّر مما قلت له ، وقال لي : فما تقولُ في التوراة ؟ قلت : أمرُ التوراة أيضاً عندي على وجهين ، إن كانت التوراةُ التي أُنزلتْ على موسى الذي أقرّ بنبوة نبينا محمد ﷺ فهي التوراةُ الحقّ ، وإن كانت أُنزلت على الذي تدّعيه فهي باطل ، وأنا غير مصدّق بها ؛ فقال لي : أحتاج أن أقول لك شيئاً بيني وبينك ؛ فظنَنْتُ أنه يقول شيئاً من الخير ، فتقدّمت إليه ، فسارّني ، وقال : أمّك كذا وكذا وأم الذي علّمك ؛ لا يُكني . وقد رأى أني أثب به ، فيقول : وثبوا عليّ ؛ فأقبلت على من كان في المجلس ، وقلت : أعزَّكم الله ! أليس قد أجبتُه ؟ قالوا : نعم ، فقلتُ : أليس عليه أن يردّ جوابي ، فقالوا : نعم ، فقلت : إنّه لما سارّني شتمني بالشّتم الذي يوجب الحدّ وشتم مَن علّمني ، وإنّما قد رأى أني أثب به فيدّعي أنّا واثبناه ، وقد عرّفتكم شأنه ؛ فأخذته الأيدي بالنّعال ، فخرج هارباً من البصرة ، وقد كان له بها دَيْنٌ كثير ، فتركه وخرج هارباً لما لحقه من الانقطاع .

* * * *

٣١ ــ أنبأنا محمد بن أبي منصور ، قال : مات ابن لصالح بن عبد القدّوس ، فمضى إليه أبو الهذيل ومعه النظّام ، وهو غلام حدث كالمتوجع له ، فرآه منحرفاً ، فقال له أبو الهذيل : لا أعرف لجزعك وجهاً إذا كان الناسُ عندك كالزَّرْع ! فقال صالح : يا أبا الهُذَيل ! إنّما أجزع عليه لأنه لم يقرأ كتاب « الشكوك » فقال له أبو الهذيل : وما كتاب الشكوك ؟ قال : هو كتاب وضعته ، من قرأه يشكّ فيما قد كان حتى توهَّم أنه لم يكن ، وفيما لم يكن حتى يظنَّ أنه قد كان ، فقال له النظام : فشكَّ أنت في موت ابنك ، اعمد على أنه لم يمت وإن قد مات ، وشكَّ أيضاً أنّه قد قرأ الكتاب وإن كان لم يقرأه .

* * * *

٣٢ ــ أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزّاز ، قال : لما دخل الجمّاز على المتوكل على الله ،

قال له : تكلّم ، إنّي أُريد أن أستبريك ؛ فقال الجمّاز : بحيضةٍ أو بحيضتين ؟ فضحك الجماعةُ منه . فقال له الفتحُ : قد كلّمتُ أميرَ المؤمنين فيك حتى ولّاك جزيرة القرود ؛ فقال له الجماز : أفلستَ في السّمعِ والطّاعة أصلحك الله ؟ فأحصر الفتح وأُسكت ، فأمر له المتوكل بعشرة آلاف درهم ، فأخذها وانحدر ، فبات فرحاً بها .

* * * *

٣٣ ــ قال العُتْبيّ : دخل الوليد بن يزيد على هشام بن عبد الملك ، وعلى الوليد عمامةُ وَشْيٍ ، فقال له الوليد : بكم أخذتَ عِمَامَتَك ؟ قال : بألف درهم ، فقال هشام : عمامةٌ بألف ! يستكثر ذلك ، فقال الوليد : إنها لأكرم أطرافي يا أمير المؤمنين ، وقد اشتريتَ جاريةً بعشرة آلاف درهم لأخسّ أطرافك .

* * * *

٣٤ ــ كان معن بن زائدة يُذكَر عنه قلَّة دِين ، فبعث إلى ابن عيَّاش بألف دينار ، وكتب إليه : بعثتُ إليك بألف دينار اشتريتُ بها دِينَك ، فاقبض المال واكتب بالتسليم ؛ فكتب إليه : قد قبضتُ وبعتُك بذلك دِينِي ما خلا التَّوحيد ، لعلمي بزُهْدك فيه .

* * * *

٣٥ ــ أخبرنا عبد الرحمن ، حدثنا يموت بن المُزَرَّع قال : كان أَبي والجمّاز يمشيان وأنا خلفهما بالعشيّ ، فمررنا بإمامٍ وهو ينتظر من يمُّر عليه فيصلّي معه ، فلما رآنا أقام الصلاة مبادراً ، فقال له الجمّاز : دع عنك ذا ، فإنَّ رسول الله ﷺ قد نَهَى أن يُتَلقَّى الجَلَبُ .

اسم الجمّاز : محمد بن عمرو بن حماد ، وكان شاعراً أديباً ماجداً ، من أهل البصرة .

* * * *

٣٦ ــ أنبأنا محمد بن أبي منصور ، أخبرنا ابن الأعرابي ، عن الأصمعي قال : اجتزتُ في بعض سكك الكوفة ، فإذا برجل قد خرج من حَشٍّ على كتفه جرّةٌ وهو ينشد ، ويقول :

وأُكْـرِمُ نَـفْسِي إنَّنِـي إنْ أَهَنْتُهـا ... وحَقِّكَ لَـمْ تُكْـرَمْ على أَحَـدٍ بَعْـدِي

فقلت له : تكرمها بمثل هذا ؟ فقال : نعم ، وأستغني عن سفلة مثلك إذا سألته يقول :

صنع الله لك ، فقلت : تراه عرفني ، فأسرعتُ ، فصاح بي : يا أُصمَعيّ ! فالتفتُّ إليه ، فقال :

لَنَقْـلُ الصَّخْـرِ مـن قُلَـلِ الجِبـالِ أَحَبُّ إلـيَّ مـن مِنَـنِ الرِّجَـالِ
يقـولُ النَّـاسُ : كَسْبٌ فيـه عـارٌ فقـلتُ : العـارُ في ذلِّ السُّؤَالِ

* * * *

٣٧ ــ أنبأنا محمد بن أبي طاهر ، حدثنا أبو الطيب بن هرثمة ، قال : كنت مجتازاً بمدينة بغداد ومخنَّثٌ يمشي ، فرأته امرأةٌ وكان حسن البدن ، فقالت : ليتني كنتُ على شحم هذا المخنث ، فقال لها المخنث : مع بغائي ؟ فشتمتْهُ ، فقال لها : كيف صار ؟ تأْخذين الجيّد وتدعين الرّديء ! .

* * * *

٣٨ ــ ودخل رجلٌ إلى الحمّام ، فرأى مخنثاً بين يديه خَطْمِيٌّ ، فقال الرَّجل : أعطني منه قليلاً ؛ فأبى ، فقال الرجل : كُلُّ قفيز بدرهم ، فقال المخنث : كُلُّ أَربعة أَقفزة بدرهم ، احسِب حسابَك ، كم يصيبُك بلا شيء ؟ .

* * * *

٣٩ ــ قال الجاحظ : مَرَّ مخنَّثٌ من البصرة بقوم ، فأراد بعضُهم الوَلَعَ به ، فقال له : كيف أَمسيتِ يا أُختي ؟ فقال : أَمستْ والله أُختُك مقطَّعةَ الشَّرجِ ممَّا ناكوها طول الليل ؛ فخجل الرجل ، وضحك القوم منهما .

* * * *

٤٠ ــ أنبأنا أبو بكر بن محمد بن الحسن الحاجي ، قال حكى لنا نقيب النقباء أبو الفوارس طِرَاد بن محمد : إن يهوديّاً ناظر مسلماً ــ أظنه قال : في مجلس المرتضى ــ ، فقال اليهودِي : إيش أَقولُ في قوم سمّاهم الله مُدْبرين ؟ يعني النبيَّ ﷺ وأَصحابه في يوم حُنَين ، فقال المُسْلِمُ : فإذا كان موسى أَدبرَ منهم ؟ قال له : كيف ذلك ؟ قال : لأَن الله تعالى قال : ﴿ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ [٢٧ سورة النمل/الآية : ١٠] .

* * * *

٤١ ــ قال نصر بن سيّار : قلت لأعرابي : هل اتَّخمتَ قطُّ ؟ فقال : أما من طعامك وطعام أبيك فلا ؛ فيقال : إن نصراً حُمَّ من هذا الجواب أياماً .

* * * *

٤٢ ــ قال رجل من اليهود لعليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه : ما دفنتم نبيّكم حتى قالت الأنصار : منّا أميرٌ ومنكم أمير ؛ فقال له عليٌّ : أنتم ما جفَّتْ أقدامُكم من ماءِ البحر حتَّى قلتُم : ﴿ اجْعَل لَنَا إِلهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [٧ سورة الأعراف/الآية : ١٣٨] .

* * * *

٤٣ ــ قال معاوية : لو ولد الناسَ كلَّهم أبو سفيان لكانوا حُلَماء ؛ فقال له صَعْصَعة بن صوحان : فقد ولدهم آدمُ وهو خيرٌ منه ، فمنهم الحليم والسفيه .

* * * *

٤٤ ــ حبلت امرأة مُزَبِّد ، فقالت له ، وكان قبيح الصورة : الويلُ لَكَ إن جاء يُشْبهك ، فقال لها : الويلُ لَكِ إن جاء لا يُشبهني .

* * * *

٤٥ ــ رأى رجلٌ من الأعاجم رجلاً أعور ، فقال : قد حان خروج الدجّال ، فقال : إنه يخرجُ من بلاد الأعاجم لا العرب .

* * * *

٤٦ ــ جاز أبو بكر بن قانع بالكَرْخ في أيام الدَّيْلَمِ وقوّة الرفض ، فقالت لـه امرأةٌ : يا سيّدي أبا بكر ! فقال لها : لبَّيكِ يا عائشة ! فقالت : كأنَّ اسمي عائشة ؟ قال : فيقتلوني وحدي ؟ أُريد يضربون رقابنا جميعاً .

* * * *

٤٧ ــ حدّثني عبد الله بن علي المقرىء ، إنه كان يمشي مع بعض مشايخه ، فلقيه رجلٌ في أيام العيد ، فقال له : من الدار المعمورة قد جئتُ ؛ فقال : عمرها الله ببقائك .

وهذا من طريق الذهن ، لأنه أوهمه أني قد جئت من بيتك ، فأراد أن لا يعْبُر هذا عليه ، وأعلمه : إنك إنما جئت من دارك لا من بيتي .

* * * *

٤٨ ــ ظفر رجل بخَصْمه في حربٍ ، فقال له : ما تراني أُصنعُ بك ؟ فقال : مهلاً فَمَا أمكنك الله منّي إلاَّ لِيَبْلُو حِلْمك .

* * * *

٤٩ ــ قيل لأبي الأسود : أشهد معاويةُ بدراً ؟ فقال : نعم ، من ذلك الجانب .

* * * *

٥٠ ــ كان أبو الحسن المتيّم الصّوفي يسكن الرُّصافة ، وكان مطبوعاً مضاحكاً ، وكان يتولَّع برجلٍ شَاهَد فيه غَفْلة يُعرف بأبي عبد الله إلْكِيَا ، قال ابن المتيم : فلقيتُه يوماً ، فسلَّمتُ عليه ، وصحتُ به : اشْهد عليّ ؛ فاجتمع النَّاس علينا ، فقال : بم أشْهَد ؟ فقلت : بأن الله إله واحدٌ لا إله إلاَّ هو ، وأن محمداً عبدُه ورسولُه ، وأنَّ الجنةَ حَقٌّ والنارَ حقٌّ والساعةَ آتيةٌ لا ريب فيها ، وأنَّ الله يبعثُ مَنْ في القبور ؛ فقال : أبشر يا أبا الحسن ! سقطت عنك الجزية ، وصرت أخاً من إخواننا ؛ فضحك الناس ، وانقلب الوَلَع بي .

* * * *

٥١ ــ حدثني أبو محمد عبد الله بن أحمد النحوي ، عن شيخنا أبي منصور الجواليقي ، أنه دخل على ابن الدبّاس النحوي ، متحادثاً ، فقال الشيخ أبو منصور : جاء الليلة مطرٌ ، فقمت ونقلت الكتب ، وما زال المطر يقول : طَقْ طَقْ ، إلى الغداة ؛ فقال ابن الدَّباس : وأنت هم طَقْ طَق ؟ فقال : أما أنا ، فقد حكيت صوتاً ، والأصوات تحكى على ما هي عليه ، أنت قلت : هَمْ ، وهم ليس من كلام العرب بحالٍ .

قلتُ : وهذا الذي قاله شيخنا أبو منصور حقٌ ، ووجدته في كلام أبي حنيفة .

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد قال : قال أحمد بن شعيب : كنت عند أبي حنيفة ، فاستجزته كتاباً ، فقلت له : أجزت لي ولفلان وفلان ، وهَم لفلان ؛ فقال لي : هَمْ ليس من كلام العرب .

* * * *

٥٢ ــ قال الشيخ : سمعتُ بعضَ أصدقائنا يحكي أنَّ رجلاً كان يشربُ ليلَة الجمعة ، فنهاه بعضُ العوامُ ، وقال له : هذه ليلة عظيمةٌ ، فقال له الرجل : في مثل هذه الليلة يُرفع القلم ، فقال العامي : ولكن يكتبُ بالصوفة ؛ قال : فاتَّعَظَ الرّجل و لم يرجع بعدُ إلى شرب الخمر .

* * * *

٥٣ ــ وقفت امرأة قبيحة على عطَّار ماجن ، فلما نظر إليها قال : ﴿ وإذا الوُحُوش حُشرَتْ ﴾ [٨١ سورة التكوير/الآية : ٥] فقالت : ﴿ وضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ [٣٦ سورة يس/الآية : ٧٨] .

* * * *

٥٤ ــ استأْجر رجلٌ غلاماً ليخدُمَه ، فقال له : كم أُجرتُك ؟ قال : شبعُ بطني . فقال له : سَامِحْني . فقال : أَصُوم الاثنين والخميس .

* * * *

٥٥ ــ شكا جماعةٌ من الصالحين ضَرَر الأَتراك إلى أمير المؤمنين ، فقال لهم : أنتم تعتقدون أن هذا بقضاء الله، فكيف أُدفع قضاءَ الله ؟ فقال له أحدهم : صاحبُ القضاء قال : ﴿ ولَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾ [٢ سورة البقرة/الآية : ٢٥١] فأَفحم أَمير المؤمنين .

* * * *

الباب الحادي والعشرون
في
ذكر من غلب من العوام بذكائه كبار الرؤساء

١ ــ أخبرنا إسماعيل بن أحمد السمرقندي : حدَّثني رجلٌ من أَهلِ الرَّقَّةِ عن عبد الملك بن عُمير ، قال : أَخذ زيادٌ رجلاً من الخوارج ، فأَفلتَ منه ، فأَخذ أَخاً له . فقال له : إنْ جئتَ بأَخيك وإلاَّ ضربتُ عنقَك . قال : أَرأَيتَ أَنْ جئتُكَ بكتابٍ من أَمير المؤمنين ، تُخَلِّي سبيلي ؟ قال : نعم ، قال : فأَنا آتيك بكتاب من العزيز الرحيم وأُقيم عليه شاهدين إبراهيم وموسى عليهما السلام ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَنْ لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [٥٣ سورة النجم/الآيات ٣٦ــ٣٨] قال زياد : خَلُّوا سبيله ، هذا رجل لُقِّنَ حُجَّته .

* * * *

٢ ــ أخبرنا عبد الرحمن بن محمد ، قال يموت بين المزَرِّع : قال لنا الجاحظ : ما غَلَبني أَحدٌ قطُّ إلاَّ رجل وامرأَة ، فأَمَّا الرجلُ ، فإني كنتُ مجتازاً في بعض الطرق ، فإذا برجلٍ قصير بطين ، كبير الهامة ، طويل اللحية ، مُتَّزِر بمئزر وبيده مُشْط يسقي به شقةً ويمشطها به ، فقلت في نفسي : رجل قصير بطين أَلحى ! فاستزريتُه ، فقلت : أَيُّها الشيخ ! قد قلتُ فيك شعراً ؛ فترك المشط من يده ، وقال : قُلْ . فقلتُ :

كَأَنَّكَ صَعْوَةٌ في أَصْلِ حُشٍّ   أَصَابَ الحُشَّ طَشٌّ بَعْدَ رشٍّ

فقال لي : اسمع جوابَ ما قلتَ ، فقلتُ : هاتِ ، فقال :

كأنك كُنْدُنٌ في ذَنْبِ كَبْشٍ   يُدَلْدَلُ هكذا والكَبْشُ يَمْشِي

[و« الكند » : الخصية بالفارسية] .

وأَما المرأَة فإني كنت مجتازاً ببعض الطرقات ، فإذا أَنا بامرأَتين ، وكنتُ راكباً على حمارة ،

فضرطت الحمارة ، فقالت إحداهما للأخرى : حمارةُ الشيخ تَضرُطُ ! فغاظني قولها ، فأَعْنَنْتُ ثم قلت لها : إنه ما حملتني أُنثى قط إلاَّ وضرطت ؛ فضربت بيدها على كتف الأُخرى ، وقالت : كانت أُمُّ هذا منه تسعةَ أشهر على جُهْدٍ جَهيد .

* * * *

٣ — لقي بعضُ الأَكاسرة في موكبه رجلاً أَعورَ ، فحبسه ، فلما نزل خلَّاه ، وقال : تطيّرتُ منك ، قال : أَنت أَشأَمُ مني ، لأَنك خرجتَ من منزلك ولَقِيتني فما رأَيت إلاَّ خيراً ، وخرجتُ من منزلي فلقيتُك فحبستني ؛ فلم يَعُد بعدها يتطيّر .

* * * *

٤ — أنبأنا محمد بن عبد الملك ، عن الأَصمعي : قال : قال الوليدُ بن عبد الملك لبُدَيْح : خُذْ بنا في المنى ، فوالله لأَغلبنَّك . قال : لا تغلبني ، قال : بلى ! لأَفعلن ؛ قال : فستعلم . قال الوليد : فإني أبدأ ، أتمنى ضعْف ما تتمنى أَنت ؛ فهات ؛ قال : فإني أَتمنى سبعين كِفْلاً من العَذَابِ ويلْعَنُني الله لَعْناً كَبيراً ، فقال : غلَبتنِي ، قَبّحك الله .

* * * *

٥ — بعث يزيد بن معاوية رجلاً إلى ابن الزُّبَيْر ، فقال له : إنَّ أَوّل أمرك كان حسناً فلا تفسدنه بآخره ؛ فقال ابنُ الزبَيْر : إنه ليست ليزيد في عنقي بيعة ، فقال : ولو كانت أُكنت تفي بها ؟ فقال : نعم . قال : يا معشر المسلمين ! قد سمعتم ما قال ، وقد بايعتم ليزيد ، وهو يأمركم بالرجوع عن بيعته ! .

* * * *

٦ — قال : مرض مولى لسعيد بن العاص ، ولم يكن له من يُخدُمُه ويقومُ بأَمره ، فبعث إلى سعيد بن العاص ، فلما أَتاه قال له : ليس لي وارثٌ غيرك ، وهاهنا ثلاثين أَلف درهم مدفونة ، إن أَنا مِتُّ فخذها ؛ فقال سعيدٌ حين خرج من عنده : ما أَرانا إلاَّ قد أَسأْنا إلى مولانا وقصّرنا في تَعَاهُدِه ، فتعاهَدَهُ كلَّ التَّعاهد ؛ ووكَّل به من يخدمه ، فلما مات اشترى له كفناً بثلاث مئة درهم ، وشهد جنازته ، فلما رجع إلى البيت ، حفر البيت كلَّه فلم يجد شيئاً ، وجاءَ صاحبُ

الكفن يطالب بثمن الكفن ، فقال : لقد هَمَمْتُ أَن أَنبش عليه وأَسلبه كفنه .

* * * *

٧ ــ أُتي الحجاجُ برجلٍ ليقتله وبيده لقمة ، فقال : والله لا أُكلتُها حتى أَقْتُلَك . قال : أَو خيرٌ من ذلك ، تُطعمنيها ولا تَقتلني فتكونُ قد بَرَرْتَ في يمينك ومَنَنْت عليّ ، فقال : ادْنُ منِّي ؛ فأَطعمه إيّاها وخَلَّاه .

* * * *

٨ ــ أُتي الحجاج برجل من الخوارج ، فأَمر بضرب عنقه ، فاستنظره يوماً ، قال : ما تريدُ بذلك ؟ قال : أُؤَمّل عفوَ الأَمير مع ما تجري به المقاديرُ ؛ فاستحسن قوله وخلَّاه .

* * * *

٩ ــ وبلغنا عن عمرو بن العاص أَنَّه منع أَصحابَهُ ما كان يصل إليهم ، فقام إليه رجلٌ ، فقال : أيها الأمير ! اتَّخذ جنداً من حجارة لا تأْكل ولا تشرب ؛ فقال له عمرو : اخْسأْ أَيُّها الكلب ، فقال له الرجل : أَنا من جُندك ؛ فإن كُنت كلباً ، فأَنت أَميْر الكلاب وقائدها .

* * * *

١٠ ــ قال المتوكِّل يوماً لجلسائه : أتدرون ما الذي نقم المسلمون على عثمان ؟ قالوا : لا ، قال : أَشياءُ ، منها : أَنه قام أَبو بكر دون مقام الرسول بمرقاة ، ثم قام عمرُ دون مقام أَبي بكر بمرقاة ، فصعد عثمان ذروة المنبر ، فقال عُبادة : ما أَحدٌ أَعظمَ مِنَّةً عليك يا أَمير المؤمنين من عثمان ؛ قال : وكيف ؟ ويلك ! قال : لأَنه صعد ذِرْوة المنبر ، فلو أَنه كلّما قام خليفة نزل عمّن تقدمه ، كنت أَنت تخطبنا من بئر جلولاءَ ؛ فضحك المتوكِّل ومَن حوله .

* * * *

١١ ــ قال رجلٌ لغلامه : يا فاجر ! فقال الغلام : مولى القوم منهم .

* * * *

١٢ ــ أنبأنا محمد بن أبي طاهر ، قال : استحضر حامد بن العباس بن عبد السلام

العَدْلَ ، فقال له : هذا ... البصراء ، قرابة أم كلثوم العقلاء ؛ تعرفه ؟ فقال العدل : الوزير — أعزّه الله — أعرف مني به .

* * * *

١٣ — قال الربيعُ : كنتُ قائماً على رأس المنصور إذا أُتي بخارجيّ قد هزم له جيوشاً ، فأقامه ليضربَ عنقه ، ثم قال له : يا ابن الفاعلة ! مثلك يهزم الجيوش !؟ فقال له الخارجي : ويلك وسَوءَةً لك ، بيني وبينك أمسُ القتلُ والسيف ، واليوم القذف والسبُّ ! وما كان يُؤمنك أن أردَّ عليك وقد يئست من الحياة فلا تستقيلها أبداً ؟ فاستحيا المنصور منه وأطلقه .

* * * *

١٤ — وقال الصاحبُ بن عباد : ما أخجلني غيرُ ثلاثة ، منهم أبو الحسين البديهي ، فإنه كان في نفرٍ من جُلَسائي ، فقلت له ، وقد أكثر من أكل المشمش : لا تأكله ، فإنه يُلَطِّخ المعدة ؛ فقال : ما يعجبني مَنْ يَطبُّ الناس على مائدته . وآخرُ قال لي ، وقد جئت من دار السّلطان وأنا ضَجِر من أمر عُرِضَ عليَّ : من أين أقبلت ؟ فقلت : من لعنة الله ، فقال : ردّ الله غُربتك ؛ فأحسن على إساءَة الأدب . وصبيّ مستحسن داعبتُه ، فقلتُ : ليتك تحتي ؛ فقال : مع ثلاثةٍ أُخَر . يعني في رفع جنازتي ؛ فأخجلني .

* * * *

١٥ — وبلغني أن صبيّاً لقي رجلاً عاقلاً ، فقال له : إلى أين تمضي ؟ فقال : إلى المطبق ؛ فقال : أوسع الله خطوتَك .

* * * *

١٦ — قال رجلٌ : شربتُ البارحة فاحتجت إلى القيام لإراقة الماء ، كأنني جَدْيٌ ؛ فقال له عاميٌّ : لم تُصَغِّر نَفْسَكَ يا سيدنا ؟ .

* * * *

الباب الثاني والعشرون
في
ذكر أقوال وأفعال صدرت من أوساط الناس وعوامهم تدلّ على قوة الذكاء

١ ـ أخبرنا محمد بن أبي منصور ، عن خريم بن يحيى المروزي ، حدثنا يحيى المروزيُّ ، قال : كنتُ آكلُ مع الرَّشِيد يوماً ، فرفع رأْسَه إلى خادم ، فكلّمه بالفارسية ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ! إن كنتَ تريد أن تسرَّ إليه شيئاً فإني أفهمُ بالفارسية ؛ فاستحسن الرشيدُ ذلك منّي ، وقال : ليس نطوي عنك سرّاً .

* * * *

٢ ـ أخبرنا ابن ناصر ، قال : عاد أبو عمر الضَّرير رجلاً من أصحابه ، فأخذت أَمَةٌ بيده ، فصعدت به ، فلما أراد أن ينزل فأخذت بيده ، فقال : رُدِّيني إلى مولاك ؛ فردّته ؛ فقال : إن جاريتك هذه أخذت بيدي حين صعدت وهي بكر ، ثم أخذتْ بيدِي الساعة وهي ثيّب ؛ فسأل عن ذلك ، فأُخبرَ أنَّ ابناً للرجل افترشها .

* * * *

٣ ـ أخبرنا عبد الرحمن بن محمد ، قال مصعب بن عبد الله : قال مالك بن أنس : إن هؤلاء الشطّار ملاحةً ، صلى أحدهم خلف إمام ، فلما قرأ ﴿ الحمدُ ﴾ أُرتجَ عليه ، فلم يدرِ ما يقولُ ، فجعل يقول : أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم ؛ وجعل يردِّد ذلك مراراً ، فقال الشاطر من خلفه : ما للشيطان ذَنْب إلاَّ أنك ما تحسنُ تَقْرأُ .

* * * *

٤ ـــ أخبرنا محمد بن ناصر ، قال محمد بن عبد الرحمن : دعا مُغَنٍّ مرة أخاً له ، فأقعده إلى العصر ، فلم يطعمه شيئاً ، فاشتد جوعُه ، فأخذه مثل الجنون ، فأخذ صاحب البيت العودَ وقال له : بحياتي أيّ صوت تشتهي أن أُسْمِعَك ؟ قال : صوتُ المِقْلى .

* * * *

٥ ـــ أنبأنا علي بن عبيد الله ، عن الجَمَّاز ، قال : سمعتُ واحداً يقولُ لآخر قد رمد : بأيّ شيءٍ تُداوي عينيك ؟ قال : بالقرآن ودعاءِ الوالدة ؛ فقال : اجعل معهما شيئاً من أَنْزَروت[١] .

* * * *

٦ ـــ أنبأنا عبد الملك بن يعقوب ، قال : اشترى بعض التجار داراً في الأنصار ، فباكروه بحُبٍ[٢] مكسورة ، وقالوا : هذا حُبُّ سعيد بن جبير ، فأقرضنا عليه مئة درهم ؛ فردّ الحُبّ وأعطاهم مئة ، وانتقل ؛ فقالوا له : لِمَ انتقلت ؟ فقال : أخاف أن تباكروني بقصعة عبادة بن الصامت .

* * * *

٧ ـــ أنبأنا محمد بن أبي طاهر ، قال أبو الحسن عليّ بن هشام بن عبد الله الكاتب المعروف أبوه بأبي قيراط ، قال : حدّثني أبي ، قال : سمعتُ حامد بن العباس يقول : ربَّما انتفع الإنسان في نكبته بالرجل الصغير أكثر من منفعته بالرجل الكبير ، فمن ذلك أنّ إسماعيل بن بلبل لما حبسني جعلني في يد بوّاب كان يخدمُه ، فكان رجلاً حرّاً ، فأحسنتُ إليه وَبَرَرْتُهُ ، وكان ذلك البوّاب يدخل إلى مجلس الخاصة ولا ينكر عليه لسابق خدمته ، فجاءَني في بعض الليالي ، وقال : قد حَرِدَ الوزير على ابن الفرات ، وقال له : ما يكسر المال على حامد غيرُك ، ولا بدّ من الجدّ في مطالبته بباقي مصادرته ، وسيدعو بالوزير غداً إلى حضرته ويهدّدك ؛ فشغل ذلك قلبي ، فقلت له : فهل عند من رأي ؟ فقال : اكتب رقعةً إلى رجل من معامليك تعرف شُحَّه ، والتمس منه لعيالك ألف درهم يقرضُك إياها ، واسأله أن يجيبَك على ظهر الرقعة لترجع إليك ، لتخرجها ؛ فإنّه لشُحّه يردُّك بعُذر ، فاحتفظ بالرقعة ، فإذا طالبك أخرجتها إليه ، وقلتَ له : قد أَفْضَتْ

---

(١) « أنزَروت » : صمغ شجرة تنبت في فارس ، يستعمل ككحْل ، ويسمى أيضاً : الكُحْل الفارسي .

(٢) « الحُبّ » : الخابية ، لفظة فارسية معربة .

حالي إلى هذا ! فأخرجتها على غير مواطئة فلعل ذلك ينفعُك ؛ ففعلت ما قال ، وجاءَني الجواب بالردّ كما حسبنا ، فلمّا كان الغد أخرجني الوزيرُ وطالبني ، فأخرجت الرقعةَ ، فقرأها ، فَلاَنَ واستحيا وكان ذلك سبب خِفَّة أمري وزوال محنتي .

* * * *

٨ ــ أخبرنا القزّاز ، قال عيسى بن محمد الطوماري : سمعتُ أبا عمر محمد بن يوسف القاضي يقول : اعتل أبي علةً شهوراً ، فأتيتُهُ ذات ليلة ، فدعا بي وبإخوتي ، وقال لنا : رأيتُ في النوم كأن قائلاً يقول : كُلْ (لا) واشرب (لا) فإنك تبرأُ ؛ فلم نَدْر تفسيرُه ؛ وكان بباب الشام رجل يعرف بأبي علي الخيّاط ، حسن المعرفة بعبارة الرؤيا ، فجئناه به ، فقصّ عليه المنام ، فقال : ما أعرف تفسيره ، ولكني أقرأُ كلَّ ليلة نصفَ القرآن ، فخلّوني الليلة حتى أقرأَ سهمي وأتفكّر ، فلما كان من الغد جاءَنا ، فقال : مررتُ على هذه الآية ﴿ لا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّة ﴾ [٢٤ سورة النور/الآية : ٣٥] فنظرتُ إلى (لا) وهي تُرَدَّد فيها ؛ اسقُوه زيتاً وأطعموه زيتاً ؛ ففعلنا ، فكان سبب عافيَته .

* * * *

٩ ــ أنبأنا هبة الله بن محمد الحريري ، عن الأصمعيُّ ، قال : رأيتُ رجلاً قاعداً على قصر أوس في الطّاعون يَعُدّ الموتى في كوزٍ ، فعدّ في أول يومٍ عشرين ومئة ألف ، فلمّا كان في اليوم الثاني عدّ خمسين ومئة ألف ، فمرّ قومٌ بميّتهم وهو يَعُدّ ، فلمّا رَجَعوا إذا عند الكوز رجلٌ آخر ، فسألوا عنه فقالوا لهم : هو في الكوز .

* * * *

١٠ ــ أخبرنا محمد بن أبي منصور ، عن أبي جعفر البرتي ، قال : مررتُ بسائلٍ على الجسر ، وهو يقول : مسكيناً ضريراً ؛ فدفعتُ إليه قطعةً ، وقلتُ له : يا هذا ! لم نَصَبْتَ ؟ قال : فديتُك ! بإضمار ارْحَموا .

* * * *

١١ ــ أنبأنا محمد بن عبد الباقي ، قال : حدثنا أبو عثمان الخالديّ ، قال : عملتُ قصيدة أمدح سيف الدولة أبا الحسن بن حمدان وعرضتُها على جماعةٍ أتعرّفُ ما عندهم فيها ، فاتَّفَق

أن حضر مُخنَّثٌ وأنا أقرؤها ، فلما انتهيتُ إلى قولي :

وَأَنْكَرَتْ شَيْبَةً في الرَّأْسِ وَاحِدَةً فَعَادَ يُسْخِطُها ما كانَ يُرْضِيهَا

قال : هذا غلط ، قلتُ : ما هو ؟ قال : تقُولُ للأمير في الرأس واحدة ؟ ألا قلت : في الرأس طالعةٌ أو لائحةٌ ! فعجبت من فطنته وجودة خاطره .

* * * *

١٢ — روى سعيدُ بن يحيى الأمويّ ، عن أبيه ، قال : كان فتيانٌ من قريش يرمون ، فرمَى واحدٌ منهم من ولد أبي بكر وطلحة فَقَرْطَسَ ، فقال : أنا ابن عظيم القريتين ؛ فرمى آخرُ من ولد عثمان فَقَرْطَس ، فقال : أنا ابن الشهيد ؛ ورمى رجلٌ من الموالي فقرْطَس ، فقال : أنا ابن من سَجَدتْ له الملائكة ؛ فقالوا له : من هو ؟ فقال : آدم .

* * * *

١٣ — أخبرنا ابن ناصر : قال المبرد : قدم بعضُ البصريّين من أصحاب أبي هذيل بغداد ، قال : فلقيتُ مخنَّثين ، فقلت لهما : أُريدُ منزلاً ؛ وكان هذا الرجلُ في نهاية القُبح ، فقال أحدهما : بالله ! من أين أنت ؟ قلت : من البصرة ؛ فأقبل عليَّ الآخر ، وقال : لا إله إلاَّ الله ! تحوّل يا أُختي كلُّ شيء من الدنيا ، حتى هذا ، كانت القُرودُ تجيءُ من اليمن صارت تجيءُ من البصرة ! .

* * * *

١٤ — بلغنا عن أبي الحارث ، أنه كان يهوى جاريةً يتعرّس بطيفها ، فشكا حالَه إلى محمد ابن منصور ، فاشتراها له وأنفذها إليه ، فلم يساعدْه ما معه عليها ، فبكّر إليه ، فقال : كيف كانت ليلتك ؟ قال : شرَّ ليلة ، صار ما عندي قُرشيّاً من بني أُمية ، قال : كيف ذاك ؟ قال : صار كما قال الأخطل :

شُمْسُ العداوةِ حتى يُسْتَقَادَ لهم وأَعظَمُ الناسُ أَحلاماً إذا قَدَرُوا

فضحك محمد بن منصور ، ومضى إلى الفضل وجعفر ، فأخبرهما ، وكان خبرُه حديثَهم عامّة يومهم .

* * * *

١٥ ــ شكا أصحابُ هشام إلى أسلم بن الأحنف احتباسَ أرزاقهم ، فدخل على هشام ، فقال : يا أمير المؤمنين ! لو أنَّ منادياً نادى يا مُفْلِس ما بقي أحدٌ من أصحابك إلاَّ التفت ؛ فضحك ، وأمر بصلة أرزاقهم .

* * * *

١٦ ــ عَرْبَد هاشميٌّ على قومٍ ، فشكَوْهُ إلى عمِّه ، فأراد أن يتناوله بالأدب ، فقال : إني أسأتُ وليس معي عقلي ، فلا تُسيء إليّ ومعك عقلُك ؛ فصفح عنه .

* * * *

١٧ ــ قال : قَدِم وفدٌ من العراق على سليمان بن عبد الملك ، فقام رجلٌ منهم ، فقال : يا أمير المؤمنينُ ! ما أتيناك رغبة ولا رهبة ، قال : فَلِمَ جئتم ؟ قال : نحن وفد الشكر ، أما الرغبة فقد وصلت إلينا في رِحَالنا ، وأما الرهبة فقد أمِنَّاها بعدلك ؛ ولقد حبّبت إلينا الحياة وهوّنت علينا الموت ؛ فأما تحبيبك إلينا الحياةَ فلما انتشر من عدلك ، وأما تهوينك علينا الموت فلما نَثِق منك فيمن تخلّف من أعقابنا عليك ؛ فوصله وأحسن جائزته وجوائز أصحابه .

* * * *

١٨ ــ أخبرنا محمد بن ناصر ، حدثنا أبو الحسن المدايني ، قال : قال بعض العلماءُ : كان لنا صديقٌ من أهل البصرة ، وكان ظريفاً أديباً ، فوعدنا أن يدعونا إلى منزله ، فكان يمرّ بنا ، فكلما رأيناه قلنا : ﴿ مَتى هـذا الوَعْـدُ إنْ كُنتُـم صَادِقِين ﴾ [٣٦ سورة يس/الآيـة : ٤٨] فيسكتُ ، إلى أن اجتمع ما يريده ، فمرّ بنا ، فأعدنا عليه القول ، فقال : ﴿ انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُم بِهِ تُكَذِّبُون ﴾ [٧٧ سورة المرسلات/الآية : ٢٩] .

* * * *

١٩ ــ ذكر هلال بن المحسّن أنَّ رجلاً كان يقال له : أبو العَجَبِ ، لم يُرَ مثله فيما كان يعمل من الشعبذة ؛ دخل يوماً إلى دار المقتدر بالله ، فرأى خادماً من خواصّه يبكي على بلبل مات له ، فقال له : ما لي عليك أيها الأستاذ إن أحييتُه ؟ فقال : ما تريد ؛ فأخذ البلبلَ الميت ، فأدخله كُمه ، وأدخل رأسه فيه ، وأخرج بعد ساعة بلبلاً حيّاً ، فماجت الدار ، وعجب الحاضرون ، فاستدعاه علي بن عيسى ، وقال له : والله إن لم تَصْدَقْني عن حقيقةِ الأمر لأَضرِبَنَّ

عنقَك . فقال : إنّي شاهدتُ الخادمَ يبكي على بلبله ، فطمعت بما آخذه منه ، فمضيتُ في الحال إلى السوق ، وابتعتُ بلبلاً ، وخَبَّأْتُه في كُمّي ، وعدتُ إلى الخادم ، فقلتُ ما قلتُه ، وأخذت البلبل الميت وأدخلت رأسه في كمي وأكلته ، وأخرجت الحيّ ، فلم يشكَّ أنه بلبله ، وهذا رأس الميّت .

* * * *

٢٠ ــ أُحضر رجلٌ بين يدي المأمون قد أذنب ، فقال له : أنت الذي فعلت كذا وكذا ، قال : نعم ! أنا ذاك يا أمير المؤمنين الذي أسرف على نفسه واتّكل على عفوك ؛ فعفا عنه .

* * * *

٢١ ــ قال بعضُ الأدباءِ لصديقٍ له : أنت والله بستانُ الدّنيا ، فقال الآخر : أنت النهرُ الذي يشربُ منه ذلك البستان .

* * * *

٢٢ ــ أنبأنا أبو بكر بن طاهر ، أن أبا القاسم اليزيدي ، أيام تقلّده الأمراء بالبصرة ، شرب يوماً وعنده جماعة من ندمائه ، فافتقد قحف بلّور كان معجباً به ، وطلبه الشرابية ، فلم يُعرف له خبر ، فحلف أنّهم إن لم يحضروه ضربهم بالمقارع ، فقال له أحدهم : لا تعجل ، ولكن مُرْ بإحضار كل من كان البارحة حاضراً ؛ فأمر بإحضارهم ، فجلسوا ، وأنفذ الغلام إلى منزل كلّ واحدٍ منهم برسالة عنه : انفذوا القحف البلور الذي حملته إليكم البارحة ، فعاد أحد الرسل من دار أحدهم ومعه القحف ، فافتضح ذلك النديم ، وسقط محلّه .

* * * *

٢٣ ــ تظلَّم أهلُ الكوفة من عاملها إلى المأمون ، فقال : ما علمتُ في عمّالي أعدلَ منه ، فقال رجلٌ من القوم : يا أمير المؤمنين ! فقد لزمك أن تجعل لسائر البلدان نصيباً من عدله حتى تكون قد ساويتَ بين رعاياك في حسن النظر ، فأمّا نحن ، فلا تخصّنا منه بأكثر من ثلاث سنين ؛ فضحك المأمون وأمر بصرفه .

* * * *

٢٤ – دعا بعضُ الظرفاءِ قوماً ، فجاءُوا ومعهم طفيليّ ، ففَطِن الرّجلُ بـه ، وأراد أن يُعلِمَهم أنَّه قد فطن ، فقال : لا أدري لمن أنا أشكرُكم ، أن دعوتُكم فجئتم ؟ أو لهذا الذي تجشَّم من غير أن دعوته ؟ .

* * * *

٢٥ – قال يموتُ بن المُزَرَّع : قال لي سهْل بن صَدَقةَ يوماً ، وكان بيننا مداعبة : ضربك الله باسمك ؛ فقلت له مسرعاً : أحوجك الله إلى اسم أبيك .

* * * *

٢٦ – مرَّ رجلٌ من الأذكياءِ برجل قائم في الطريق ، قال : ما وقوفُك ؟ قال : أنتظرُ إنساناً ؛ فقال : يطول قيامك إذن .

* * * *

٢٧ – تقدم رجلٌ سَيِّءُ الأدب إلى حجّام ، فقال له : تقـدم يا ابـن الفاعلـة وأصلـح شاربي ؛ فقال له : إن كان خطابُك للنَّاس كذا ، فعن قليل تستريح منه .

* * * *

٢٨ – حضر خياطٌ عند بعض الأتراك ليفصّل له قباءً ، فأخذ يفصِّل والتركي ينظرُ إليه ، فلم يتهيأ له أن يسرق منه شيئاً ، فضَرط ، فضحك التركيُّ حتى استلقى ، فأخرج الخياط من الثوب ما أراد ، فجلس التركيُّ وقال : يا خياط ! ضَرْطَةً أُخرى ، فقال : لا يجوز ، يضيق القباءُ .

* * * *

٢٩ – قال رجلٌ لرجل : بكم ابتعْتَ هذه الشاة ؟ فقال : أخذتُها بستَّة ، وهي خيرٌ من سبعة ، وقد أُعطيتُ بها ثمانية ، فإن كانت من حاجتك بتسعة ؟ فزن عَشْرة .

* * * *

٣٠ – تزوّج أعمى امرأةً ، فقالت له : لو رأيتَ حُسْني وبياضي لعجبتَ ! فقال : لو

كُنتِ كما تقولين مَا تَركَكِ لي البُصَراءُ .

* * * *

٣١ ــ قال رجلٌ لبعض المياسير : وعدتَني وعداً فأَنْجِزهُ ، فقال : ما أَذكرُ هذا الوعد ، فقال : صدقتَ ، أَنت لا تذكُره لأَنَّ من تَعد مثلي كثير ، وأَنا لا أَنسى لأَنَّ من أَسأَله مثلك قليل ، فقال : أَحسنت ؛ وقضى حاجته .

* * * *

٣٢ ــ قدّمَ رجلاً إلى الحاكم غرماؤه ، فادعوا عليه ، فقال : صدقوا ، إلا أني سألتهم أن يؤخروني حتى أبيع عقاري وأدفع إليهم ، فإن لي مالاً وعقاراً ورقيقاً وإبلاً ؛ فقالوا : كذبتَ ، ما يملك شيئاً ، إنما يريد أن يدافعنا عن نفسه ؛ فقال : سمعت أعزّ الله القاضي ، فاشهد عليهم ؛ فعدَّمه ، ثم قال لخصومه : قد عدّمتُهُ . فأُركِبَ حماراً ، ونُودي عليه : هذا معدم ، فلا يعامله أحد إلا بالنقد ؛ فلما كان العشاء نزل عن الحمار ، فقال له المكاري : هات أجرةَ الحمار ! قال : ففيم كنا الغَدَاة ؟! .

* * * *

٣٣ ــ حدّثني أبو محمد عبد الله بن المقري ، قال : جاء رجل إلى خباز على دكّانه ، فقال : زن لي هذا الذهب ؛ فأخذه ووزنه ، وتركه في ميزانه ، ثم أطبق الطبقَ ، ومضى صاحب الذهب و لم ينطق ، وصار يمرّ عليه مدةً ولا يكلّم أحدهما صاحبه ، فلما جاء بعد مدة صاح به ، وأخرج الذهبَ فوضَعَ في كفة الميزان ، وقال : أربعة وثلاثين ديناراً وأربعة قراريط مسلم ؛ فأخذه ، وسكت ؛ فقيل للرجل : لِمَ سكتَّ في أوّل مرة ؛ قال : لا أشك أنه كان محتاجاً ، فأطبق الطبق ، فلو طالبته لقال : ما أَعطيتني شيئاً ؛ فلم أربح إلا الفضيحة ، فلما قضى حاجته منها قضى فيه .

* * * *

٣٤ ــ كان رجلٌ في دارٍ بأُجْرةٍ ، وكان خشبُ السقف يَتَفَرْقَعُ كثيراً ، فلما جاءَ ربُّ الدار يطالبه بالأُجرة ، قال له : أَصلحْ هذا السقف ، فأَنه يتفرقع ؛ قال : لا بأْس عليك ، فإنه يسبّح الله ! قال : أَخشى أَن تدركه الرأْفة فيسجد .

* * * *

٣٥ — وَقَفَ قومٌ على مُزَبِّد ، وهو يطبخ قدراً ، فأخذ أَحدُهم قطعة لحم فأكلها . وقال : يا مُزَبِّد ! تحتاج القدرُ إلى الخَلّ ؛ وأَخذ آخرُ قطعةَ لحم فأَكلها ، وقال : تحتاج القدر إلى أَبْزَار ؛ وأَخذ آخر قطعة لحم ، وقال : تحتاج القدر إلى ملح ؛ فأَخذ مُزَبّد قطعة لحم فأُكلها ، وقال : تحتاج القدرُ إلى لحم ؛ فتضاحكوا منه وانصرفوا .

* * * *

٣٦ — قال رجل لأعرابي : ما اسمك ؟ قال : فرات بن البحر بن الفياض ، قال : فما كنيتك ؟ قال : أبو الغيث ، قال : بأبي أنت ، ينبغي أن نلقاك بزورق ، وإلا غرقنا .

* * * *

٣٧ — قيل لشيطان الطاق ، واسمه محمد بن علي بن النعمان : هل تحلّ متعة النساء ؟ قال : نعم ، قيل : فيسرّك أن تتمتع بأمّك ؟ قال : لا ، قال : فتحل شيئاً تكرهه لأمك ! قال : نعم ! ما تقول أنت في النبيذ ؟ قال : حلال ، قال : فيسرّك أن أمّك نبّاذة ؟ قال : لا ، قال : فهذه بهذه .

* * * *

٣٨ — قال سعيد بن سلام لبعض جلسائه في بستانه : أما ترى حُسْنَ هذا البستان ؟ قال : أنت أَحسنُ منه ، لأَنه يُؤتى كلَّ عام مرّة ، وأَنت تُؤْتي أُكُلُك كلَّ يوم .

* * * *

٣٩ — قام رجلٌ على رأْسِ ملِكٍ ، فقال له : لم قمت ؟ قال : لأَقعد ؛ فولاَّه .

* * * *

٤٠ — أُدْخِلَ مخنَّثٌ على العُرْيان بن الهيثم وهو أَمير بالكوفة ، فقال : يا عدو الله ! أَتتخنث وأَنت شيخ ؟! فقال : مكذوبٌ عليّ كما كذِبَ على الأَمير أَعزّه الله ؛ فاستوى جالساً ، وقال : ما يقولون فيّ ؟ قال : يسمُّونك العريان وأَنت صاحب عشرين جُبَّة ، فضحك وخلَّى سبيله .

* * * *

٤١ – رمى رَجُلٌ عُصفوراً فأخطأه ، فقال له رجل : أَحسنتَ ! فغضب ، وقال : أتهزأ بي ؟ قال : لا ، ولكن أَحْسَنْتَ إلى العصفور إذ لم تصبه .

* * * *

٤٢ – قال جعفر بن يحيى البَرْمَكيّ لبعض نُدمائه : أَشتهي والله أن أَرى إنساناً تليق به النعمة ، فقال له : أنا أُريك ذاك عياناً ، فقال : هاتِ ؛ فأَخذ المرآة ، فقرّبها من وجهه .

* * * *

٤٣ – قصّ قَاصٌّ فقال : إذا مات العبد وهو سكرانُ دُفن وهو سكران ، وحُشِرَ وهو سكرانُ ؛ فقال رجلٌ في طرف الحلقة لآخر بجنبه : هذا والله نبيذٌ جيّد ، يساوي الكوز منه عشرين درهماً .

* * * *

٤٤ – صلى رجل صلاةً خفيفة ، فقل له الجمَّاز : لو رآك العَجَّاج لَسُرَّ بك ، قال : فلِمَ ؟ قال : لأن صلاتك رجزٌ .

* * * *

٤٥ – نظر الأَصبهاني إلى أَبي هفَّان يسارُّ رجلاً ، فقال : فيم تكذبان ؟ قال : في مَدْحك .

* * * *

٤٦ – كتب رجل إلى رجل يستشهد به جيشاً ، فكتب إليه : تحرّ بنفسك .

* * * *

٤٧ – كان رجل من الظراف مع الرشيد في سفره إلى خراسان ، فلما علا عقبة مَاسَبَذَان(١) ، قال للرشيد : الحمد لله الذي أخرجنا من الدنيا سالمين .

* * * *

(١) « ماسَبَذان » : اسم بلدة في إيران اليوم .

٤٨ — مرّ عرّاب الماجن البغدادي بسائل يقول : أنا عليل ، وأنا جائع ، فقال له : احمد ربّك ، فقد نقهت .

* * * *

٤٩ — اجتاز بالناشيء البغدادي قصّابٌ يبيع لحم بقرٍ هزيل ، وهو ينادي : أين من حلف لا يُغْبن ؟ فقال له الناشيء : حتى تُحنِّثه ؟! .

* * * *

٥٠ — قال : تابَ مُخنَّثٌ ، فلقيه مخنثٌ آخر ، فقال : من أين تأكل ، قال : من بقيّة ذاك الكسب . فقال : لحمُ الخنزير طريّاً أطيب منه قديداً .

* * * *

٥١ — وقال : رأى عبادةُ المخنَّث نَفْرَ دابّةٍ ، فمطَّ ذَنَبَها ، وقال : هذه تمشي على استحياءٍ .

* * * *

٥٢ — أطعمَ رجلٌ رجلاً من جَدْيٍ أربعة ، فقال له : هذا الجَدْي في موته أطولُ عمراً منه في حياته .

* * * *

٥٣ — ضحّى فضل الوالي عن آمرأته ستين سنة ، فسمع يوماً محدّثاً يقول : يحشر الناس يوم القيامة وبين أيديهم ضحاياهم ، قال : إن كان كما يقول هذا ، فإن آمرأتي تحشر يوم القيامة راعية بعصا .

* * * *

٥٤ — مرّ أبو الحارث ... برجل مواس بحبل ، فقال : يا أبا الحارث ! صفة شرحك قد غنت ، قال : لا ، ولكنها لطمت في مأتم الكرام .

* * * *

٥٥ ــ رأى بعض العوام امرأة تعرُجُ ، فقال : ما لك تعرجين ؟ فقالت : قد دخل في رجلي سكينة ، قال لها : لقد كان السقف لاطي .

* * * *

٥٦ ــ اجتمع قومٌ في دعوة وفيهم رجلٌ له محبوبٌ في قوم ، فلما ناموا قام المحبُّ فأطفأ السّراج وأخذ بيده مخدّة ، حتى إن رآه أحد وضع المخدة تحت رأسه ونام ، فلما بلغ إلى المكان خرجتْ جارية بشمعة ، فألصق المخدة بالحائط واتكأ عليها يغطّ ، فقالت له الجارية : ويْحَكَ ! تنام وتغطُّ قائماً ! فقال لها : إيش عليك منِّي ! كيفما أردتُ أن أنام نمت .

* * * *

٥٧ ــ كان بعض الأذكياء عند بقّال قليل البضاعة ، لا يكاد يبيع إلا الخبز ، فجاءه رجل ، فقال له : عندك بهذا الدينار قراضة ؟ فقال له الذكي : من ثكلتك أمك ! هذا قراضة كلها ؛ فطرحها .

* * * *

٥٨ ــ دخل رجلٌ ذكيٌّ إلى المسجد يصلِّي ، فسرقوا لالْكَتَه[1] فتركوها في كنيسة بجوار المسجد ، فجعل يفتش عليها ، فرآها في الكنيسة ؛ فقال : ويْحَكِ ! لمّا أسلمتُ أنا تهوَّدْتِ أنت ؟! .

* * * *

٥٩ ــ قال بعضُ الأذكياءِ : إذا رأيت رجلاً من صلاة الغداة على باب داره وهو يقول : ﴿ وما عند اللهِ خيرٌ وأبْقى ﴾ [٢٨ سورة القصص/الآية : ٦٠] فاعلم أنَّ في جواره وليمة لم يُدْعَ إليها ؛ وإذا رأيتَ قوماً يخرجُون من مجلس القاضي وهم يقولون : ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إلاَّ بِمَا عَلِمْنَا ﴾ [١٢ سورة يوسف/الآية : ٨١] فاعلم أنَّ شهادتهم لم تُقْبل ؛ وإذا تزوّج الرجلُ ، فسئل عن حاله ، فإن قال : ما رغِبْنا إلاَّ في الصّلاح ، فاعلم أن زوجتَه قبيحة .

* * * *

(١) « لالكته » : أي : نعله .

٦٠ — قال الشيخ : حُكِيَ لنا أن بعضَ الناس ضاف رجلاً ، فانتبه صاحبُ الدار بالليل ، فسمع ضحك الرّجل من الغرفة ، فصاح به : يا فلان ! قال : لبّيك ! قال : أنت كنتَ في الدار ، فما الذي رَقّى بِكَ إلى الغرفة ؟ قال : تدحرجتُ . قال : الناسُ يتدحرجون من فوق إلى أسفل ، فكيف تدحرجت أنت ؟ قال : فمن هذا أضحك .

* * * *

٦١ — قال رجلٌ لرجل : لئن لطمتُكَ لطمةً لأُبلغنّ بك المدينة ؛ فقال له : فأُحب أن تُردفها بأُخرى ، لعل الله يرزقني الحجّ على يديك .

* * * *

٦٢ — قال صبيٌّ ليهوديّ : يا عمٍّ ! قف حتى أُصفعَك ؛ قال : أنا مستعجلٌ اصْفعْ أخي عنّي .

* * * *

٦٣ — قيل لعبادة المخنّث : من بصرت على أحمد بن العلاء المغني ؟ قال : ضرسه .

* * * *

٦٤ — قال رجلٌ لبعض المُغنِّين : والله ما تعرِفُ الثّقيل الأول ولا الثقيل الثاني ؟ فقال : وكيف وأنا أعرفك وأعرف أباك ! .

* * * *

٦٥ — قيل لبعضهم : هل تحفظ القرآن ؟ قال : نعم ؛ قيل له : أي شيء أول الدخان ؟ قال : الحطب الرطب .

* * * *

٦٦ — نظر أبو الفضل الهمداني إلى رجل طويل ، فقال : قد أقبل ليل الشتاء .

* * * *

٦٧ ـ وقال آخر : في من يسرق الطعام يذكر عصا موسى ، لأنها تتلقف ، وقال فيه آخر : يعدو في السبت .

* * * *

٦٨ ـ رؤيَ فقيرٌ في قرية ، فقيل له : ما تصنع ؟ فقال : ما صنع موسى والخضر عليهما السلام . يعني قوله : ﴿ ٱسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ﴾ [١٨ سورة الكهف/الآية : ٧٧] .

* * * *

٦٩ ـ وسئل بعض السُّوقَةِ عن سوقهم ، فقال : مثل سُوق الجنة . يعني : لابيع فيه ولا شراءَ .

* * * *

٧٠ ـ قَالَ : شتم رجلٌ رجلاً من العوامّ ، فقال له : إيش قلت لك ؛ فأوهمه أنه يسأل : أَيَّ شيء قلته لك حتى تشتمني ؟ وإنما أراد : أي شيءٍ قلتَه فهو لك ؛ وهذا من عجيب الفطنة .

* * * *

٧١ ـ جاءَت جاريةُ رجل إليه وهو في الموت بشيء يشربُهُ فكرهه ، فقالت له : يا سيّدي ! غمّض عينيك وخُذه ، فقال : كذا أُفعل . يشير إلى أنه يموت .

* * * *

٧٢ ـ قال رجلٌ لرجلٍ : بأَيِّ وجه تلقاني وقد فعلت كذا وكذا ؟ قال : بالوجه الذي أَلقى به ربِّي عزَّ وجل ، وذنوبي إليه أكثرُ من ذنوبي إليك .

* * * *

٧٣ ـ تكلَّم بعضُ القصّاص ، قال : في السماءِ مَلَكٌ يقولُ كلَّ يوم : لدُوا للموت وابنوا للخراب ، فقال بعضُ الأذكياء : اسمُ ذلك المَلَك أَبو العتاهية[1] .

* * * *

(١) إشارة إلى قول الشاعر أبي العتاهية :

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَٱبْنُوا لِلْخَرَابِ فَكُلُّكُمْ يَصِيرُ إلى تَبَابِ

٧٤ ــ قال : استدعى رجلٌ مغنِّيَيْن ، فلما همّا بالغناءِ ، قال أحدُهما للآخر : اتْبعْني . قال : لا ، بل أنت اتبعني . قال : لا بل أنت اتبعني ؛ فلمّا طال هذا بينهما ، قال صاحب البيت : اتبعاني جميعاً .

* * * *

٧٥ ــ قال : قَدَّم طباخٌ إلى بعض الأذكياءِ طبقاً وعليه رغيفان ، ثم قال له : إيش تشتهي أجيئك به ؟ فقال : خبزاً .

* * * *

٧٦ ــ وحُكي أيضاً أنَّ بعض المحتسبين جاز يوماً على رجل ينادي على الخَبِيص(١) رطلين بحَبَّة(٢) ، فقال له : وَيْحَك الدِّبْس يباع بحبة ، والشِّيرج رطلٌ بقيراط ، فكيف تبيع أنت الخَبيص رطلين بحبَّة ؟ فقال : يا سيّدنا ، ما في الخبيص شيء من اللَّذَيْن ذكرتَ ، قال : فبع الآن كيف شئت . والله الموفق .

* * * *

(١) الخبيص : نوع من الطعام يُعمل من التمر والسمن .
(٢) الحبّة : جزء من ثمانية وأربعين جزءاً من الدرهم .

الباب الثالث والعشرون
في
احترازات الأذكياء

١ ـ قال الشيخُ رضي الله عنه : رُوينا عن العبّاس بن عبد المطلب أنه سُئِل : أيُّما أكبرُ أنت أو رسولُ الله ﷺ ؟ قال : رسولُ الله ﷺ أكبرُ ، وأنا ولدتُ قبله .

* * * *

٢ ـ ورُوينا عن عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، أنه قال لبعض أهل المدينة : أنا أسنُّ أم أنت ؟ فقال له : إنِّي لا أذكرُ ليلة زُفَّتْ أُمّك المباركة على أبيك الطَّيِّب ، وهذا الاحتراز مليح لأنه لم يقل : أُمّك الطيِّبة .

* * * *

٣ ـ أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزاز ، قال ابنُ عرابة المؤدِّب : حكى لي محمد بن عمران الضَّبّي : أنه حفَّظ ابنَ المعتز وهو يؤدّبه ﴿ والنَّازعات ﴾ ، وقال له : إذا سألك أميرُ المؤمنين أبوك في أي شيء أنت ، فقل له : في السُّورة التي تلي ﴿ عبس ﴾ ، ولا تقل : أنا في ﴿ النَّازعات ﴾ . قال : فسأله أبوه : في أيِّ شيءٍ أنت ؟ قال : في السُّورة التي تلي ﴿ عبس ﴾ ، فقال : من علَّمك هذا ؟ قال : مؤدِّبي ، قال : فأمر له بعشرة آلاف درهم .

* * * *

٤ ـ أنبأنا محمد بن عبد الباقي البزار ، قال عبد الواحد بن نصر المخزومي ، قال : أخبرني من أثق به أنه خرج في طريق الشام مسافراً يمشي وعليه مُرقَّعة ، وهو في جماعة نحو الثلاثين رجلاً ، كلهم على هذه الصِّفة ، فصحبنا في بعض الطَّريق رجلٌ شيخٌ حسنُ الهيئة ، معه حمارٌ فارهٌ يركبه ، ومعه بغلان عليهما رحلٌ وقماشٌ ومتاع وبزٌّ فاخر ، فقلنا له : يا هذا ! إنَّك لا تفكرُ

في خروج الأعراب علينا ؟ فإنّه لا شيءَ معنا يُؤخذ ، وأنت لا تصلح لك صحبتنا مع ما معك ! فقال : يكفينا الله ؛ ولم يقبل شيئاً ، وسار معنا ، وكان إذا نزل يأكُل استدعى أكثرنا فأطعمه وسقاهُ ، وإذا عَيِي الواحد منّا أركبه على أحد بغليه ، وكانت جماعةٌ تخدمُهُ وتكرِمُه ونَتَدَبّر برأيه ، إلى أن بلغنا موضعاً ، فخرج علينا نحو ثلاثين فارساً من الأعراب ، فتفرّقنا عليهم ومانعناهم . فقال الشيخ : لا تفعلوا ؛ فتركناهم ، ونزل ، فجلس وبين يديه سُفْرته ، ففرشها وجلس يأكل . وأظلتْنا الخيلُ ، فلما رأوا الطعام دعاهم إليه ، فجلسُوا يأكلون ، ثم حلّ رحلَهُ وأخرج منه حلوى كثيرة وتركها بين يدي الأعراب ، فلما أكلوا وشبعوا جمدت أيديهم وخَدِرَت أرجلُهم ولم يتحركوا ، فقال لنا : إن الحلو مبنَّج ، أعدَدْتُه لمثل هذا ، وقد تمكَّن منهم وتمت الحيلة ، ولكن لا يفكُّ البنج إلاَّ أن تصفعُوهم ، فافعلوا ، فإنهم لا يقدرون لكم على ضرر ، ونسير نحن ؛ ففعلنا فما قدروا على الامتناع ، فعلمنا صدق قوله ، وأخذنا أسلحتهم وركبنا دوابّهم ، وسِرْنا حَوَاليْه في موكب ورماحُهم على أكتافنا وسلاحهم علينا ، فما نجتاز بقومٍ إلاَّ يظنونا من أهل البادية ، فيطلبون النجاة منّا ؛ حتى بلغنا مَأْمَنَنَا ، وأُفْلتنا .

* * * *

٥ ــ حدّثنا أبو محمد عبد الله بن علي المقري ، قال : دفن رجلٌ مالاً في مكان ، وترك عليه طابقاً وتُراباً كثيراً ، ثم ترك فوق ذلك خِرقةً فيها عشرون ديناراً ، وترك عليها تراباً كثيراً ومضى ، فلما احتاج إلى الذهب كشف عن العشرين فلم يجدها ، فكشف عن الباقي فوجده ، فحمد الله على سلامة مالِهِ ؛ وإنما فعل ذلك خوفاً أن يكون قد رآه أحدٌ ، وكذلك كان ، فإنّه لما جاءَه الذي رآه وجد العشرين فأخذها ، ولم يعتقد أنَّ ثَمَّ شيئاً آخر .

* * * *

٦ ــ حدثني بعض المشايخ أن رجلاً يهوديّاً كان معه مالٌ ، فاحتاج إلى دخول الحمَّام ، وخاف أن ينكسر سبتُه إن حمله معه ، فدخل إلى خزانة الحمّام ، فحفر ودفَنه ، ثم دخل إلى الحمّام ، وخرج فحفر عنه فلم يجده ، فسكت ولم يخبر أحداً ، لا زوجةً ولا ولداً ولا صديقاً ، فجاءَه بعد أيّام رجلٌ ، فقال : كيف أنت ؟ من شَغَل قلْبَك ؟ فلزمه ، وقال : ردّ مالي لي ، فقالوا له : من أين علمتَ ؟ قال : ما رآني لمّا دفنْتُه مخلوقٌ ولا حدّثت به مخلوقاً ، فلولا أنَّ هذا أخذَهُ ما قال : كيف أنت ؟ من شغل قلبك ؟

* * * *

٧ ــ وقال بعضهم : خرجتُ في ليلةٍ لحاجةٍ ، فإذا أعمى على عاتِقِه جرّة وفي يديه سِراجٌ ، فلم يزلْ يمشي حتَّى أَتى النَّهرَ وملأَ جرّته وانصرف راجعاً ، فقلت : يا هذا ! أَنت أَعمى والليل والنَّهار عندك سواءٌ ؛ فقال : يا فُضُوليّ ! حملتُه لأَعمى القلب مثلك يستضيءُ به فلا يعثُر بي في الظلمة فيقعُ عليّ ، فيكسر جرّتي .

* * * *

٨ ــ روى أَبو الفرج علي بن الحسين الأَصفهاني أَن إبراهيم الموصليَّ دخل على الرّشيد وبين يديه جارية كأَنَّها خُوط بانٍ ، فقال لها الرشيد : غنّي ، فغنَّت :

تَوَهَّمَــهُ قَلْبِــي فَأَصْبَــحَ خَــدُّهُ ... وَفِيه مكَانُ الوَهْـمِ مِـنْ نَظَـرِي أَثْـرُ
وَمَــرَّ بِوَهْمِــي خَاطِــراً فَجَرَحْتُــهُ ... وَلَمْ أَرَ جِسْماً قَطّ يَجْرَحُهُ الفِكْرُ

قال إبراهيم : فذهبتُ واللهِ بعقلي حتَّى كدتُ أَفتضِحُ ، فقلت : من هذه يا أَمير المؤمنين ؟ قال : هذه التي يقول فيها الشَّاعر :

لها قَلْبِــي الغَــدَاةَ وقَلْبُهـــا لي ... فنحــنُ كــذاكَ في جَسَدَيْــنِ رُوحُ

ثم قال : غَنّ يا إبراهيم ؛ فغنيتُ :

تَشَرَّبَ قَلْبِــي حُبَّهَــا وَمَشَى بِــهِ ... تَمَشِّي حُمَيَّا الكَأْسِ في جِسْمِ شَارِبِ
وَدَبَّ هَواهَــا في عِظامــي فَشَقَّهَــا ... كَمَا دَبَّ في المَلْسُوعِ سُمُّ العَقَارِبِ

قال : ففطن لِتَعْريضي ، وكانت غلطة مني ، فأَمرني بالانصراف ، ولم يَدْعُني شهراً ، ثم دسّ إليّ خادماً ومعه رقعةٌ ، فيها مكتوب :

قـد تَخَـوَّفْتُ أَن أَمـوتَ مـن الوَجْـ ... ـدِ ولم يـدْر مــن هَـويتُ مـا بي
يا كِتَابِــي اقــري السَّلامَ على مَــنْ ... لا أُسَمِّــي وقـل لـه يــا كتابِــي
إن كفَّـاً إلــيك قــد كَتَبَتْنِــي ... في شَقَــاءِ مُـــواصَلٍ وعَـــذابِ

فأَتاني الخادم بالرقعة ، فقلت له : ما هذا ؟ قال : رقعةٌ من فلانة الجارية التي غنَّتك بين يدي أمير المؤمنين ؛ فأَحسسْتُ بالقصة ، فشتمتُ الخادمَ وقمتُ إليه ، فضربْته ضرباً شفيْتُ منه نفسي ، وركبتُ إلى الرّشيدِ من فوري ، وأُخبرتُه بالقصة ، وأَعطيتُه الرقعة ، فضحك حتى

كاد أن يَسْتلقيَ ، وقالَ : على عمدٍ فعلتُ ذلك لأمتحنَك وأعرفَ مذهبك وطريقتك ؛ ثم دعا بالخادمَ ، فخرج ، فلما رآني ، قال : قطَّع الله يديك ورجليك ، ويْلَك ! قتلتَني . فقلت : القتلُ كان أحقّ بك لما وردتَ به عليّ ، ولكنِّي أبقيتُ عليك وأخبرتُ أميرَ المؤمنين ليأتي في عقوبتك ما تستحقُّه ؛ فأمر لي الرشيدُ بصلة سنِيَّةٍ ، والله يعلم أنِّي ما فعلتُ ما فعلتُه عفافاً بل خوفاً .

* * * *

٩ ــ وقعتْ عَلَى يزيد بنِ المهلَّبِ حيّةٌ ، فلم يدفَعْها عن نفسه ، فقال له أبوه : يا بنّي ! ضيَّعْت العقلَ من حيث حفِظْتَ الشَّجاعة !

* * * *

الباب الرابع والعشرون
في
ذكر طرف من أَحوال الشعراءِ والمداحين

١ ـ أُخبرنا أبو منصور عبد الرحمن بن محمد القزاز ، قال يموتُ بن المزرّع : جلس الجمّازُ يأْكُلُ على مائدة بين يَدَيْ جعفر بن القاسم ، وجعفر يأْكل على مائدةٍ أُخرى ، وكانت القصعةُ ترفع من بين يدي جعفر فتوضع بين يدي الجمّاز ، فربّما كان عليها قليلٌ وربّما لم يكن شيءٌ ، فقال الجمّاز : أَصلح الله الأَمير ، ما نحنُ اليوم إلاَّ عصبةٌ ، فربما فَضَل لنا بعضُ المال ، وربما أَخذه أَهل السِّهام ولا يبقى لنا شيءٌ .

* * * *

٢ ـ أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك ، قال أَبو الحسن السَّلَامي الشاعر : مدح الخالديّان سيف الدولة بن حمدان بقصيدة أولها :

تَصُدُّ وَدارُهـــــا صَدَدُ ... وتُوَعِـــدُهُ ولا تَعِـــدُ
وقــد قتلتـــه ظـــالمةً ... فـــلا عَقْـــلٌ ولا قَـــوَدُ

وقالا فيها في مدحه :

فَوَجْـــهٌ كُلُّـــهُ قَمـــرٌ ... وَسائِـــرُ جِسْمِـــه أَسَدُ

فلما أَنشداه إياها أُعجب بها سيفُ الدولة ، واستحسن هذا البيت منها ، وجعل يردد إنشاده ، فدخل عليه الشَّيْظَميُّ الشاعر ، فقال له : اسمع هذا البيت ! فأَنشده إيّاه ، فقال له الشيظميّ : احمد ربَّك ! فقد جعلاك من عجائب البحر .

* * * *

٣ ـ قال المصنَّف : الخالديّان رجلان ، وهما أَبو بكر محمد وأَبو عثمان سعيد ابنا هاشم ،

كانا أخوين ، واتّفقا في حُسْن الطَّبْع ورقّة الشعر وكثرة الأدب ، وكانا يشتركان في الشعر وينفردان ، فقال فيهما أبو إسحاق الصّابي :

أرى الشّاعِرَيْن الخالدِيَّين سَيَّرا ... قصائدَ يَفْنَى الدَّهْرُ وَهْيَ تَجدَّد
تنازعَ قومٌ فيهما وتناقَضُوا ... ومرَّ جدالٌ بينهمْ يتردَّدُ
فطائفةٌ قالت : سعيدٌ مُقَدَّمٌ ... وطائفةٌ قالت لهم : بل محّمدُ
وصارُوا إلى حُكْمِي فأصلحتُ بينهم ... وما قُلتُ إلاّ بالَّتي هي أَرْشَدُ
هما في اجتماعِ الفَضْلِ رُوحٌ مُؤَلَّفٌ ... ومعناهما من حيث ثَنَّيْتَ مُفَرَدُ

* * * *

٤ ــ خرج طاهر بن الحسين لقتال عيسى بن ماهان ، فخرج وفي كمه دراهم يفرّقها على الضعفاء ، ثم سها وأسبل كمَّه ، فتبدّدت ؛ فتطيّر ؛ فقال له شاعرٌ في ذلك :

هذا تَفَرُّقُ جَمْعِهِمُ لا غيرُهُ ... وذهابُهُ منا ذهابُ الهمِّ
شيءٌ يكونُ الهَمُّ نصفَ حُرُوفه ... لا خيرَ في إمْسَاكِهِ في الكُمِّ

* * * *

٥ ــ أحْضَرَ عبدُ الملك رجلاً يرى رأْي الخوارج ، فأَمر بقتله ، فقال : أَلستَ القائل :

ومنا سُوَيْدٌ والبَطِينُ وَقعْنَبٌ ... ومِنَّا أَمِيرُ المؤمنين شَبِيبُ

فقال : إنما قلت ومنا أَميرَ المؤمنين ، أَردتُ يا أَمير المؤمنين ؛ فحفظ دَمَهُ ودرأً عن نفسه ؛ إذ صرف الإعراب عن الخبر إلى الخطاب .

* * * *

٦ ــ هجا بعضُ الشعراءِ أَبا عثمان المازني ، فقال :

وفَتَىً مِنْ مازِنٍ ... سادَ أَهلَ البَصْرَهْ
أُمُّهُ مَعْرِفَةٌ ... وأَبُوهُ نَكِرَهْ

* * * *

٧ ــ دَخَلَ عبدُ الملك بن صالح دار الرشيد ، فلقيه إسماعيلُ بن صُبَيْح الحاجب ، فقال له : اعلم أنَّه وُلد لأمير المؤمنين ابنان ، فعاش أحدهما ومات الآخر ، فيجب أن تخاطبَه بحسب ما عرَّفتك . فلما صار بين يديه ، قال : سرَّك الله يا أمير المؤمنين فيما سَاءَك ، ولا ساءَك فيما سرَّك ، وجعلها واحدة بواحدة تستوجب من الله زيادةَ الشاكرين وجَزَاءَ الصّابرين .

* * * *

٨ ــ قال : دخل جعفرٌ الضَّبِّيّ على الفضل بن سَهْل ، فقال : أيها الأمير ! أسكتني عن وصفك تَسَاوِي أفعالِك في السداد ، وحيّرني فيها كثرةُ عددها ، فليس إلى ذكر جميعها سبيلٌ ؛ فإن أردتُ وصف واحدة اعترضت أُختُها ، فلم تكن الأُولى أحقَّ بالذكر ، فلست أصفها إلاَّ بإظهار العجز عن وصفها .

* * * *

٩ ــ قال : دخل أبو دُلامة على المنصور ، فأنشده قصيدة ، فقال : يا أبا دلامة ! إنَّ أميرَ المؤمنين قد أمر لك بكذا وكذا من صِلَة ، وكساك وحَمَلَكَ وأقطعك أربع مئة جَرِيب مئتان عامر ومئتان غامر . فقال : أمّا ما ذكر أمير المؤمنين من الصلة ، فقد عرفته ؛ وعرفتُ العامرَ ، فما الغامرُ ؟ قال : الذي لا نبات فيه ولا شَجَر . قال : قد أقطعتُ أمير المؤمنين أربعَة آلاف جريبٍ غامر ، قال : وَيْحَك ! أين ؟ قال : فيما بين الحيرة والكوفة . فضحك منه وسوّغه إياه عامرة .

* * * *

١٠ ــ قال المدائني : دخل نُصَيْب على عبد الملك بن مروان ، فتغدّى معه ، ثم قال له : هل لك فيما يُتنادم عليه ؟ فقال : لَوْنِي حَائِلٌ ، وشعري مُفَلْفَل ، وخَلْقِي مُشوّه ؛ ولم أبلغ ما بلغتُ من إكرامك إيّاي بشرف أَبٍ ولا أُمّ ، وإنّما بلغتُه بعقلي ولساني ، فأنشُدُك الله يا أمير المؤمنين أن تحول بيني وبين ما بلغتُ به هذه المنزلة ؛ فأعفاه .

* * * *

١١ ــ قال المدائني : جلس نساءٌ ظراف إلى بشار بن برد ، فتحدث وتحدّثن معه ، ثم قُلْن

له : لَوَدِدْنا أنك أبونا . قال : على أنِّي على دين كسرى .

* * * *

١٢ — قال : وحدثني خالدٌ الكاتب ، قال : أُرْتِجَ عليّ وعلى دِعْبِل وآخر من الشعراءَ — قد سماه و لم أحفظ اسمه — نصفُ بيت ، قلنا جميعاً : يا بديع الحسن ... ثم قلنا : ليس لنا إلاَّ جُعَيْفران المُوسوس ؛ فجئنا ، فقال : ما تبغوني ؟ فقال خالدٌ : جئناك في حاجة ؛ فقال : لا تؤذوني فإنّي جائع . فبعثنا ، فاشترينا له طعاماً ، فلما شبع قال : حاجتكم ؟ قلنا : اختلفنا في نصف بيت . فقال : ما هو ؟ قلنا : يا بديع الحسن ...، فما بلغنا والله أن قال :

يا بَديعَ الحُسْنِ حَاشَا لَكَ مِنْ هَجْرٍ بَدِيع

فقال له دعبل : زدني بيتاً ؛ فقال :

وبِحُسْنِ الوَجْهِ عَوِّذْ نَاك مِن سُوءِ الصَّنِيع

فقال له الذي معنا : وَلِي بيت . فقال : نعم ، وَعَزَازةٌ وكرامة :

ومِنَ النَّخْوَةِ يَسْتَعْفِيك لِي ذُلُّ الخُضُوع

فقلتُ : أستودِعُك الله . فقال : انتظروا ! أزيدكم بيتاً آخر ؛ فقال :

لا يَعِبْ بَعْضُكَ بَعْضاً كُنْ جَمِيلاً في الجَمِيعِ

* * * *

١٣ — ومن الفطنةِ ، الكَلَامُ الموجّه الذي يحتمل المدح والذم ، ومنه قول المتنبي :

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بكُلِّ لسانِ

فإنه يحتمل المدح ويحتمل الذم ، ووجه الذَّم : أن يكون المذكور دَنِيًّاً ولا يُعادي الدَّنِيءَ إلَّا مِثْلُه . وكذلك قوله :

ولِلّهِ سِرٌّ فِي عُلَاكَ

يحتمل المدح ، أي : سِرٌّ لا يُطَّلع عليه في تقديم مثلك .

* * * *

١٤ ــ قال الشيخ ــ أدام الله نعمته ــ : حَكَى لنا بعض إخواننا أن شاعراً كان في بلدٍ ، فقدم عليهم شاعر آخر ، فأراد أن يكسر عليه ، فقال لأهل البلد :

وَتَشابَهَتْ سُوَرُ القُرآنِ عَلَيْكُمو فَقَرَنْتُم الأَنْعَامَ بالشُّعَراءِ

* * * *

١٥ ــ قال : وَمَدَحَ رجلٌ رجلاً يقال له « يسيرٌ » ، فقال في مدحته :

وفَضْلُ يَسير في البلاد يَسيرُ

فقيل له : إنك قد مدحتَهُ ، وإنَّه لا يعطيك شيئاً ؛ فقال : إن لم يعطني شيئاً قلتُ بيدي هكذا . وضمّ أصابعَه ، يعني : إنّه قليل .

* * * *

١٦ ــ وبلغني من هذا الجنس قول رجل فيَ رجل :

تحلَّى بأسماءِ الشُّهور فكفُّهُ جُمَادَى وما ضَمَّتْ عليه المُحرّمُ

* * * *

١٧ ــ وقال شاعر آخر :

وقائلٍ لي ما الذي تشتهي من الَّتي قد ضَمَّها خِدْرُهَا
أَوَجْهُها حين بَدَا مُقْبلاً أَم شَعْرُها الأَسوَدُ أَم ثغرُها
أَم طرفُها الأَدْعَجُ أَم كَشْحُها أَم مَنْبَتُ الرمان من صدرِها
قلتُ له : أَعشق ذا كله ونِصْفَ حَرَّانِ وثُلْثَيْ الرُّهَا

* * * *

١٨ ــ سُئِلَ جحظةُ عن دعوة حضرها ، فقال : كلُّ شيء فيها باردٌ إلَّا الماءَ .

* * * *

١٩ ــ وقُدّمت إلى أَبي يعقوب الخُرَيْمِي سِكْبَاجة[1] كثيرةُ العظام ، فقال : هذه شِطْرَنْجيّة ، وأُتبِعَتْ بفَالُوذَجَة قليلةِ الحَلَاوة[2] ، فقال : قد عُملت هذه قبل أَن يُوحِي رَبُّكَ إلى النَّحل .

* * * *

٢٠ ــ قال شاعرٌ لشاعر : أنا أَقولُ البيتَ وأَخاه ، وأَنت تقولُ البيت وابن عمه .

* * * *

٢١ ــ قال : دخل بعضُ شعراءِ الهند على أَمير فمدحه ، فقال له الأَميرُ : تقدّم يا زوجَ القَحْبَة . فقال : وما زوجُ القحبة ؟ فقال : هذه بلغةِ العرب كنايةٌ عمّن له قدرٌ جليل ومحلٌّ كبير ومَالٌ ودَوَابٌ وغلمان ومَنْزِلَة . قال : فأَنت واللهِ أَيّها الأَميرُ أَكبرُ زوج قحبة في الدُّنيا . فخجل ، وعلم أَن مزاحَه جرّ عليه شتمه .

* * * *

٢٢ ــ دخل بعضُ الأُدباءِ على المأْمون يسأَله حاجةً ، فلم يقضها ، فقال : يا أَمير المؤمنين ! إن لي شكراً ، قال : ومن يحتاجُ إلى شكرك ؟ فأَنشأَ يقول :

فلو كان يستغنى عن الشُّكْرِ مَالِكٌ لكثرةِ مال أَو عُلُوٍّ مكانِ
لما نَدَب اللهُ العبادَ لشكْرِهِ وقال اشْكُرُونِي أَيُّها الثَّقَلَانَ

فقال : أَحسنتَ ! وقضى حاجته .

* * * *

٢٣ ــ قال ابن الهَبَّارية :

قد قلتُ للشَّيخ الرئيس أَخي السَّمَاح أَبي المظفَّرْ

(١) « السكباج » : كلمة فارسية مؤلفة من « سركه » وهو : الخل ، و« با » أي : مع ؛ وبالتعريب تضاف الجيم ، والسكباج : طعام يعمل من اللحم والمرق والتوابل والخل .

(٢) « الفالوذج » : كلمة فارسية أصلها بالودة ، أي : الصافي والمصفى ؛ وهو نوع من الحلوى يشبه في أيام ما يسمى : الجيلي Jello .

ذكِّـــرْ مُعِيـــنَ المُـــلْكِ بي   قـــال : المُـــؤَنَّثُ لا يُذَكَّـــرْ

* * * *

٢٤ – روى أَبو جعفر محمد بن موسى الموسوي ، قال : دخلتُ على أَبي نصر بن أَبي زيد وعنده علويّ مُبْرِم ، فتأَذَّى بطول جلوسه وكثرة كلامه ، فلما نهض ، قال لي أَبو نصر : ابن عمّك هذا خفيفٌ على القلب ، فقلت : نعم . فقال : ما أَظنُّك فهمت ؛ ففكَّرْتُ ، فعلمت أَنه أَراد خفيفاً مقلوباً ، وهو الثقيل ، وهذا المعنى الذي أَراده أَبو سعد بن دُوَسْت ؛ يقول :

وأَثقـــلُ منِّـــي زائـــري وكأَنَّمـــا   يُقـلَّبُ في أَجفـانِ عَيْنِـي وفي قَلْبِـي
فقـــلتُ لـــه لما بَـــرِمْتُ بقُربـــه :   أَراك على قَلْبِـي خفيفـاً على القَـلْب

* * * *

٢٥ – وُصِفَ لشاعرٍ طيب خُرَاسان ، فلما سافر إليها لم تُعْجِبْه ، فقال :

تَمَنَّيْنـــا خُرَاسَانـــا زمانـــاً   فَلَـمْ نُعْـطَ المُنَـى والصَّبْـر عنها
فلمـــا أَن أَتيناهـــا وَجَدْنَاهـــا   سِرَاعـــاً بحذف الـــنِّصْفِ منها

* * * *

الباب الخامس والعشرون
في
ذكر طرف من حيل المحاربين

١ ــ أخبرنا يحيى بن علي ، حدثنا زياد بنُ جبير رضي الله عنه ، قال : أُتِي عمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه برجل من المشركين يقال له : الهُرْمُزَان ، فأَسلم ، فقال : إنِّي مستشيرك في مَغَازِيّ هذه ، فأَشر عليّ . فقال : نعم يا أَمير المؤمنين ، الأَرضُ مثلُها ومَثَلُ من فيها من النَّاس من عدوّ المسلمين مَثَلُ طائِر له رأْسٌ وجناحان وله رجلان ، فإن انكسر أَحدُ الجناحين نهضت الرجلان بجناح وبالرَّأْس ، وإن انكسر الجناحُ الآخر نهضت الرِّجْلان والرأْسُ ، فإن انشدخ الرأْسُ ذهبت الرجلان والجناحان ، فالرأْسُ كسرى والجناح قيصر والجناح الآخر فارس ؛ فمرُ المسلمين فلينفروا إلى كسرى .

* * * *

٢ ــ أخبرنا أبو المعمّر الأنصاري ، قال : ضجّ أصحاب المهلّب عليه بسابور ، وقالوا : لا طاقة لنا بسهام مسمومة يرمينا بها الخوارج ، يصنعها رجل منهم يقال له : أَبْزِي ؛ فقال : قد كفيتكم العبد إن شاء الله ؛ ثم كتب إليه : من المهلب إلى أبزي ، قد وصلت هديتك ، وحسن موقعها ، وقد أنفذت مع كتابي ألف درهم ، فاقبضها ولا تقطع مواصلتي ومهاداتي أُعظم رفدك وتجدني بحيث تحب . وقال للرسول : تعرّض لجماعة من الخوارج حتى يأخذ الكتاب منك ويدفعه إلى رئيسهم قطري ؛ ففعل ما أمره به ، فأَوصل الكتاب إلى قطري ، وعجّل على أبزي بالقتل قبل أن يعرّف بصحة الخبر ، قال : ما أصنع بمن يهاديه المهلّب ؟ فافترقوا بذلك ، و كان هذا سبب اختلافهم ؛ فقال المهلّب لأصحابه : لا تشغلوهم بالقتال عن المنازعة ، فإنهم إن افترقوا الآن لم يجتمعوا أبداً . وكان كما قال .

* * * *

٣ ــ وقد رُوينا أنَّ الإسكندر رأى في عسكره سَمِيّاً له لا يزال ينهزم ، فقال له : إمّا أن تغيرْ اسمك أو فعلك .

* * * *

٤ ــ وخرج يوماً في الحرب مِنْ صَفِّ أصحابه ، وأمر منادياً فنادى : يا معشر الفرس ! قد علمتُم ما كتبنا لكم من الأمانات ، فمن كان على الوفاء فليعتزل عن العسكر وله منّا الوفاءُ بما ضمنّاه ؛ فاتهمت الفرس بعضُها بعضاً ، وكان أوّلُ اضطراب حدث فيهم .

* * * *

٥ ــ وفي رواية أنّه لما صافّ « دارا » ، أمر منادياً فنادى في عسكر « دارا » : أيّها الناسُ ! أمّا نحنُ فقد فعلنا ما اتفقنا عليه ، فكونُوا من وراءِ ما ضمنتم ؛ فاستشعر « دارا » أنَّ عسكرَهُ قد عزموا على تسليمه إلى الإسكندر ، وكان ذلك سبب هزيمته .

* * * *

٦ ــ ولما شَخَص عن فارس إلى الهند تلقاه مَلِكُها في جمع عظيم ومع ألف فيل عليه السلاح والرجال في خراطيمها السيوف والأعمدة ، فلم تقف لها دوابُّ الإسكندر ، فهُزِم وعاد إلى مأمنه ، فأمر باتخاذ فيلة من نحاس مُجَوّف ، وربط خيله بين تلك التماثيل حتى ألفتها ، ثم أمر فمُلئتْ نِفطاً وكبريتاً ، وألبسها الدُّرُوع ، وجُرَّتُ على العجل إلى المعركة ، وبين كلّ تمثالين منها جماعةٌ من أصحابه ، فلما نَشبتَ الحرب أمر بإشعال النّار في جوف التماثيل ، فلما حميت انكشف أصحابه عنها وغشيتها الفيلة فضربتها بخراطيمها ، فتشيّطت وولّت مدبرة راجعة على أصحابها ، وصارت الدائرةُ على ملك الهند .

* * * *

٧ ــ قال : ونزل مرةً على مدينة حصينة ، فتحصّن أهلُها منه ، فأُخبر أن عندهم من المِيرَةِ قَدْرَ كفايتهم ، فدسَّ تُجّاراً متنكرين وأمرهم بدخول المدينة ، ورَحَل عنها ، وأمدّهم بمال ومتاع فباعُوا ما معهم وابتاعوا المِيرَة ، فلما أكثروا كتب : أن احرقوا ما عندكم من المِيرة واهربوا ؛ فزحف إلى المدينة ، فحاصرها أياماً يسيرة فأخذها .

* * * *

٨ ـ وكان إذا أراد محاصرة بلد شرَّد من حولها من القرى ، فهربوا إليها ، فيسرعون في أكل الميرة ، فتقلُّ ، فيحاصرهم فيفتحها .

* * * *

٩ ـ وحكي عن كسرى بن هرمز أنه كان بعث الأَصْبَهْبُذ[١] إلى الروم في جيش عظيم ، فأعطى من الظفر ما لم يُعْطه أحدٌ قبله ، وأخذ الأَصْبَهْبُذ خزائنَ الروم ووجّهها على هيئتها إلى كسرى ، ففطن كسرى أنَّ مالَ الأَصْبَهْبُذ من الظفر ، وأن هذا يغيِّره عليه ويوجب له كبْراً ، فبعث إليه رجلاً ليقتله ، وكان المبعوث عاقلاً ، فلما رأى الأَصْبَهْبُذ وتدبيره وعقله قال : ما يصلح قتل هذا بغير جُرم ؛ ثم أخبره بالذي جاءَ له ، فأرسل الأَصْبَهْبُذ إلى قيصر أنِّي أُريد أن أُلقاك ؛ قال : إذا شئت ؛ فالتقيا ، فقال له : إنَّ هذا الخبيثَ قد همّ بقتلي ، ووجّه إليّ رجلاً لذلك ، وإنّي أُريد هلاكه كالذي أراد منّي ، والبادي أظلم ، فاجعل لي من نفسك ما أطمئنُّ إليه وأُعطيك من بيوت أمواله مِثلَ الذي أُصبتُ منك ، ومثلَ الذي أنت مُنْفِقُه في مسيرك هذا . فأعطاه من المواثيق ما اطمأن إليه ، وسار قيصرُ في أربعين ألفاً ، فنزلَ بكسرى ، فعلم كسرى كيف جرى الأمر ، فاحتال لفضِّ جنود قيصر ، فدعا قِسّاً متنصراً في دينه ، فقال : إني كاتبٌ معك كتاباً لطيفاً في حَرِيرة لتبلِّغه الأَصْبَهْبُذ فلا تطلعنَ على ذلك أحداً ؛ وأعطاه ألف دينار ، وقد علم كسرى أن القِسَّ يوصل كتابه إلى قيصر لأنه تحته هلاك الروم ، وكان في الكتاب : إلى الأَصْبَهْبَذ ، إني كتبت إليك ، وقد دنا مني قيصر ، فقد أحسن الله إلينا وأمكنني منهم بتدبيرك لا عدِمتَ صواب الرأي ، وقد خرجت عليهم ، وأنا ممهله حتى يقرب من المدائن ثم أُغامضه في يوم كذا ، فغره عليّ من قتلك إياي ، فإني استأصلهم . فخرج القس بالكتاب ، فأوصله إلى قيصر ، فقال قيصر : هذا الحق وما أراد إلا هلاكنا ؛ فتولى منصرفاً ، وأتبعه كسرى إياس بن قُبَيْصة الطَّائي ، فقتَّل أصحابه ، ونجا قيصر في شرذمة قليلة .

* * * *

١٠ ـ أنبأنا محمد بن عبد الملك ، قال هشام بن محمد الكلبي ، عن أبيه ، قال : كان

---

(١) « الأَصْبَهْبُذ » كلمة فارسية تعني : ضابط كبير بالجيش ، يقابل الآن رتبة الفريق ؛ ويقول ياقوت في مادة طبرستان من « معجم البلدان » : وكانت ملوك الفرس يولّوا منها رجلاً ، ويسمُّونه الأصبهبذ .

جَذيمَة بن مالك ملكاً على الحيرة وما حولها من السَّوَاد ، مَلَكَ ستَّين سنة ، وكان به وَضَحٌ ، وكان شديد السُّلطان ، قد أخاف القريبَ ويهابه البعيدُ ، فتهيَّبت العرب أن يقولوا الأبرص ، فقالوا : الأبرش ، فغزا مَلِيحَ بن البراء ، وكان ملكاً على الحُضْرِ وهو الحاجز بين الروم والفرس ، وهو الذي ذكره عَدِيُّ بن زيد في قصيدة منها هذا البيت :

وأخــو الــحُضْرِ إذْ بَنَــاهُ وإذْ دَجْــ ـلَــةُ تُجْبَــى إليــه والخَابُــورُ

فقتله جَذِيمَة وطرد الزَّبَّاء إلى الشام ، فلحقَتْ بالروم ، وكانت عَربيِّةِ اللسان ، حسنةَ البيان ، شديدةَ السُّلطان ، كبيرة الهمة .

قال ابن الكلبي : ولم يكن في نساءِ عصرها أجملُ منها ، وكان اسمها « فارعة » وكان لها شعرٌ إذا مشت سحبته وراءَها ، وإذا نشرته جَلَّلها ، فسميت الزَّبَّاءُ .

قال الكلبيّ : وبُعث عيسى ابن مريم عليه السلام بعد قتلِ أبيها ، فبلغت بها هِمَّتُها أن جمعت الرِّجال ، وبذلت الأموال ، وعادت إلى ديار أبيها وَمَلَكَتْها ، فأزالتْ جَذِيمَةَ الأبرش عنها ، وابتنت على الفرات مدينتين متقابلتين من شرقيّ الفرات ومن غربيِّه ، و جعلت بينهما نَفَقاً تحت الفرات ، وكان إذا رَامَقَها الأعداء آوت إليه وتحصَّنتْ به ، وكانت قد اعتزلَت الرجال ، فهي عَذْراءُ بتول ، وكان بينها وبين جَذِيمَةَ بعد الحرب مُهادنة ، فحدَّثت جذيمَةَ نفسهُ بخِطبتها ، فجمع خاصتَّهُ فشاورهم في ذلك ، وكان له عبدٌ يقال له : قَصِيرٌ بن سعد ، وكان عاقلاً لبيباً ، وكان خَازِنَه وصاحبَ أمره وعميدَ دولته ، فسكت القومُ وتكلَّم قصيرٌ ، فقال : أبيت اللَّعْن أيُّها الملك ! إنَّ الزَّبّاء امْرأَةٌ قد حَرَّمت الرجال ، فهي عذراءُ بتول لا تَرْغَب في مال ولا جمال ، ولها عندك ثأرٌ ، والدم لا ينام ، وإنَّما هي تاركتُك رهبةً وحَذَارَ دولة ، والحقْدُ دفينٌ في سُوَيْداءِ القلب ، له كُمُونَ ككُمونِ النار في الحَجَر ، إن اقتدحتَه أُورى وإن تركتَه توارى ، وللمَلِكِ في بناتِ الملوك الأكفاء مُتَّسع ، ولهنّ فيه منتفع ، وقد رفع الله قدرك عن الطمع فيمن دونك ، وعظَّم شأنك فما أحدٌ فوقك . فقال جَذِيمة : يا قصير ! الرأي ما رأيتَ والحزم فيما قلتَه ، ولكن النفس توّاقةٌ ، إلى ما تحب وتهوى مشتاقة ، ولكلِّ امرىءٍ قَدَرٌ لا مفرّ له منه ولا وَزَر . فوجّه إليها خاطباً ، وقال : ائت الزَّبّاءَ ، فاذكر لها ما يُرَغِّبها فيه وتَصْبُو إليه ؛ فجاءَتها خِطْبَتُه ، فلما سمعت كلامه ، وعرفت مراده ، قالت له : أنْعِم بك عَيْناً وبما جئت به وله ؛ وأظهرتْ له السُّرور به

والرغبة فيه ، وأكرمت مَقْدَمه ، ورفَّعتْ موضعه ، وقالت : قد كنتُ أضربتُ عن هذا الأمر خوفاً ألاَّ أجد كفؤاً ، والملك فوق قدري وأنا دون قدره ، وقد أجبتُ إلى ما سأل ، ورغبتُ فيما قال ، ولولا أنَّ السَّعْي في مثل هذا الأمر بالرجال أجمل لسرتُ إليه ونزلتُ عليه ؛ وأهدتْ إليه هَدِيَّةً سنيّة ، ساقت العبيد والإماءَ والكُرَاع والسِّلاح والأموال والإبل والغنم ، وحملت من الثياب والعَيْن والوَرِق ؛ فلما رجع إليه خطيبُه أعجبه ما سمع من الجواب ، وأبهجه ما رأى من اللُّطف ، وظنّ أنَّ ذلك لحصُول رغبة ، فأعجبتْه نَفْسه ، وسار من فوره فيمن يثق به من خاصّته وأهلِ مملكته وفيهم قصيرٌ خازنه ، واستخلف على مملكته ابنَ أُخته عَمْرو بن عَديّ اللَّخمي ، وهو أولُ ملوك الحيرة من لَخْم ، وكان ملكه مئة وعشرين سنة ، وهو الذي اختطفته الجنُّ وهو صبي ، وردَّتْهُ وقد شب وكبر ، فقالت أُمُّه : ألْبِسُوه الطَّوْق ؛ فقال خالُه جذيمة : شَبَّ عمرو عن الطوق ، فذهبت مثلاً . فاستخلفه وسار إلى الزَّبَّاءِ ، فلما صار ببِقَّةَ نزل وتَصَيَّد ، وأكل وشرب ، واستعاد المشورة والرأي من أصحابه ، فسكت القوم ، وافتتح الكلامَ قَصِيرُ بن سعد ، قال : أيُّها الملك ! كلُّ عزمٍ لا يؤيد بحزم فإلى أُفٍّ أين ما يكون كونه ، فلا تثق بزُخْرفِ قولٍ لا محصول له ، ولا تعقد الرأيَ بالهوى فيفسد ، ولا الحزم بالمُنى فيبعُد ، والرأي عندي للملك أن يتعقب أمره بالتثبّت ، ويأخذ حِذْرَه بالتيقّظ ، ولولا أن الأُمور تجري بالمقدور لعزمتُ على الملك عَزْماً بتّاً ألاَّ يفعل ؛ فأقبل جذيمة على الجماعة فقال : ما عندكم أنتم في هذا الأمر ؟ فتكلموا بحسب ما عرفوا من رغبته في ذلك ، وصوّبوا رأيه وقَوَّوْا عزمه ، فقال جذيمةُ : الرأْي للجماعة ، والصواب ما رأيتم ؛ فقال قصيرٌ : أرى القَدَر يُسَابِق الحَذَر ، ولا يطاعُ لقصيرٍ أمر ؛ فأرسلها مثلاً . وسار جَذِيمة ، فلما قَرُب من ديار الزَّباءِ نزل وأرسل إليها يعلمها بمجيئه ، فرحّبت وقَرّبت ، وأظهرت السرورَ به والرَّغبة فيه ، وأمرتْ أن تحملِ إليه الأنزال والعُلُوفات ، وقالت لجُنْدها وخاصّتِ أهل مملكتها وعامّة أهل دولتها ورعيتها : تَلَقَّوا سيّدكم ومَلِكَ دولتكم ؛ وعاد الرسولُ إليه بالجواب بما رأى وسمع ، فلما أراد جذَيمةُ أن يسير دعا قَصيراً ، فقال : أنت على رأيك ؟ قال : نعم ، قد زادت بصيرتي فيه ، فأفأنت على عَزْمِك ؟ قال: نعم ، وقد زادت رغبتي فيه ؛ فقال قصيرٌ : ليس للأُمور بصاحب من لم ينظر في العواقب ، وقد يُستْدركُ الأمر قبل فوته ، وفي يد الملكَ بقِيَّةٌ هو بها مُسَلَّطٌ على استدراك الصّواب ، فأنْ وثقت بأنك ذو ملك وسلطان ، وعشيرة ومكان ، فإنك قد نَزَعْت يَدك من سُلْطانك ، وفارقْتُ عشيرتك ومكانك ، وألقيتَها في يَدَيْ من لستُ آمنُ عليك مكرَه وغَدْرَه ، فإن كنتَ ولا بد فاعلاً ، ولهواك تابعاً ، فإن القوم إن تلقَوك غداً فِرَقاً وساروا أمامك ، وجاءَ قومٌ وذهب قوم ، فالأَمرُ بعدُ في يدك ، والرأْي فيه

إليك ، وإنْ تلقَّوك رَزْدَقاً[1] واحداً ، وأَقاموا لك صَفَّيْن ، حتى إذا توسطتهم انقضُّوا عليك من كل جانب وأَحدقُوا بك ، فقد ملكُوك وصرتَ في قبضتهم ، وهذه العَصَا لا يُشَقُّ غبارها — وكانت لَجذِيمَةَ فرسٌ تسبقُ الطَّير وتُجاري الرِّياحَ ، يقال لها : العصا — فإذا كان كذلك فتملَّكْ ظهرَها ، فهي ناجيةٌ بك إن ملكتَ ناصيتها . فسمع جذيمة كلامه ولم يرد جوابه . وسار ، وكانت الزَّبّاءُ لمّا رجع رسول جذيمة من عندها قالت لجندها : إذا أَقبل جذيمة غداً فتلقوه بأَجمعكم ، وقوموا له صَفَّيْن ، من عن يمينه ومن عن شماله ، فإذا توسّط جمعكم فانقضوا عليه من كل جانب حتى تُحدقوا به ، وإياكم أَن يفوتكم ؛ وسار جَذيمةُ وقَصِيرٌ عن يمينه ، فلما لقيه القوم رَزْدَقاً واحداً قاموا له صفَّين ، فلما توسطهم انقضوا عليه من كل جانب انقضاض الأَجْدَلِ على فريسته ، فأحدقوا به ، وعلم أَنَّهم قد ملكوه ، وكان قصيرٌ يسايره ، فأَقبل عليه وقال : صدقت يا قصير ؛ فقال قصير : أَيها الملك أَبطأْت بالجواب حتى فات الصواب ؛ فأَرسله مثلاً . فقال : كيف الرأْي الآن ؟ قال : هذه العَصَا فدُونكها ، لعلَّك تنجُو بها ؛ فأَنف جذيمةُ من ذلك ، وسارتْ به الجيوش ، فلما رأَى قصيرٌ أَنَّ جذيمة قد استسلم للأَسْر وأَيقن بالقتل ، جمعَ نفسه ، فصار على ظهر العصا ، وأَعطاها عنانها ، وزجرها ، فذهبت تَهْوي هُوِيَّ الريح ، فنظر إليه جذيمةُ وهي تَطَاوَلُ به ، وأَشرفت الزبّاء من قَصْرِها ، فقالت : ما أَحسنك من عروس تُجَلَّى عليَّ وتزف إليّ ؛ حتى دخلوا به إلى الزبّاءُ ، ولم يكن في قصرها أحد إلا جوارٍ أَبكار أَتْراب ، وكانت جالسةً على سريرها ، وحولها أَلفُ وصيفة ، كلُّ واحدة لا تُشْبه صاحبتَها في خَلْقٍ ولا زِيّ ، وهي بينهن كأَنَّها قمرٌ قد حَفَّتْ به النُّجوم تزهو ، فأَمرتْ بالأَنطاع[2] فبسطت ، وقالت لوصائفها : خُذُوا بيد سيِّدكُن ، وبعلِ مولاتكن ؛ فأَخذن بيده ، فأَجلَسْنه على الأَنطاع بحيث يراها وتراه ، وتسمع كلامه ويسمع كلامها ، ثم أَمرت الجواري فقطَّعْن رَوَاهشه[3] ، ووضَعَتِ الطِّشْت تحت يده ، فجعلتْ دِمَاؤُه تشخَبُ في الطشت ، فقطرت قطرة على النطع ، فقالت لجواريها : لا تَضيِّعُوا دم الملك ؛ فقال جذيمة : لا يُحزِنْك دمٌ أَراقه أَهلُه ؛ فلما مات ، قالت : واللهِ ما وفَى دَمُك

---

(١) « الرزداق » معرَّب الكلمة الفارسية : « رسته » وهي الصف والجماعة والطائفة ، تعرّب أيضاً بـ« الرستاق » و« الرسداق » .

(٢) « النطع » : بساط من الأديم ، وعادة يبسط النطع ليجري الإعدام عليه ، فإن قطع الرأس مثلاً يقع عليه حتى لا تتلوّث الأرض .

(٢) « الرواهش » : عروق ظاهر الكفّ .

ولا شفى قَتْلُك ، ولكنه غَيْضٌ من فَيْض ؛ ثم أَمرتْ به فدُفن . وكان جذيمةُ قد استخلف على مملكته ابن أُخته عَمْرو بن عديّ ، وكان يخرج كلَّ يوم إلى ظاهر الحيرة يطلبُ الخَبَر وَيقتفي الأثر عن خاله ، فخرج ذات يوم ، فنظر إلى فارسٍ قد أَقبل يَهوي به فرسه هُوِيّ الرّيح ، فقال : أمّا الفرس ففرسُ جَذيمة ، وأما الرّاكب فكالبهيمة ، لِأَمْرٍ ما جاءَت العَصَا ؛ فأَشرف عليهم قصيرٌ ، فقالوا : ما وراءَكَ ؟ قال : سعى القدرُ بالملك إلى حتفه ، على الرَّغم من أَنْفي وأَنفه ، فاطلب بثأرك من الزَّبّاء ؛ فقال عمرو : أيّ ثأْر أَطلبُ من الزّباء ، وهي أَمنع من عُقَابِ الجوّ ؟ فقال قصير : قد عَلِمتَ نصحي لخالك ، وكان الأَجلُ رائدَه ؛ وإني والله لا أنام عن الطلب بدمه ما لاح نجمٌ وطلعَتْ شمسٌ أَو أُدرك به ثأراً أَو تُخْتَرم نفسي فأُعْذر ؛ ثم إنه عمد إلى أَنفه فجدعه ، ثم لحق بالزَّبّاءِ على صورة كأَنَّه هاربٌ من عَمْرو بن عديّ ، فقيل لها : هذا قصيرُ ابن سعد ابنُ عمِّ جذيمة وخازنه وصاحبُ أَمره قد جاءَك ؛ فأَذنت له ، فقالت : ما الذي جاءَ بك إلينا يا قصيرُ ! وبيننا وبينك دمٌ عظيم الخطر ؟ فقال : يا ابنة الملوك العظام ! لقد أَتيتُ فيما يُؤتَى مِثْلُك في مِثْلِه ، ولقد كان دمُ الملك يطلبه حتى أَدركه ، وقد جئتُك مستجيراً بك من عمرو بن عديّ ، فإنه اتَّهمني بخاله وبمشورتي عليه بالمسير إليك ؛ فَجَدَع أَنفي ، وأَخذ مالي ، وحال بيني وبين عيالي ، وتهدّدني بالقتل ؛ وإني خَشِيتُه على نفسي ، فهربتُ منه إليك ، أنا مستجيرٌ بك ومستندٌ إلى كهف عزّك . فقالت : أَهلاً وسهلاً ؛ لك حقُّ الجوار وذمّةُ المستجير ؛ وأَمَرَتْ به فأُنزل ، وأَجْرت له الأَنزالَ ، ووصَلَته وكسَتْه وأَخْدَمتْه وزادتْ في إكرامه ، وأَقام مدةً لا يكلِّمها ولا تكلِّمه ، وهو يطلب الحيلة عليها وموضعَ الفُرصة منها ، وكانت ممتنعةً بقصر مُشَيّد على باب النَّفَق تَعْتصمُ به فلا يَقْدِر أَحدٌ عليها ، فقال لها قصير يوماً : إنَّ لي بالعراق مالاً كثيراً وذخائرَ نفيسة مما يصلحُ للملوك ، وإن أَذِنْتِ لي في الخُروج إلى العراق ، وأَعطيتِني شيئاً أَتعلَّل به في التِّجارة ، وأَجعله سبباً للوصول إلى مالي ؛ أَتيتُك بما قدرتُ عليه من ذلك ؛ فأَذنتْ له وأَعطته مالاً ، فقدم العراقَ وبلاد كسرى ، فأَطْرَفها وأَلطفها من طَرائفه ، وزادها مالاً إلى مالها كثيراً ، وقدم عليها ، فأَعجبها ذلك وسرّها ، وتربَّت له عندها منزلةٌ ، وعاد إلى العراق ثانيةً ، فقدم بأَكثر من ذلك طرفاً من الجَواهر والبَزّ والخَزّ والقزّ والدِّيباج ، فازداد مكانُه منها ، وازدادتْ منزلتُه عندها ورغبتها فيه ، ولم يزل قصيرٌ يتلطَّف حتى عرف موضع النَّفق الذي تحت الفرات والطريق إليه ؛ ثم خرج ثالثةً ، فقدم بأَكثر من الأَولَيْن طَرائف ولطائف ، فبلغ مكانُه منها وموضعُه عندها إلى أَن كانتْ تستعينُ به في مُهماتِها ، واسترسلتْ إليه ، وعَوّلت في أُمورها عليه ، وكان قصيرٌ رجلاً حسن العقل والوجه ، حصيفاً لبيباً أَريباً ، فقالت له يوماً : أُريد أَن

آغْزُوَ البلد الفلاني من أرض الشام ، فاخرج إلى العراق فأتني بكذا وكذا من السّلاح والكُراع والعبيد والثياب ؛ فقال قصيرٌ : ولي في بلاد عمرو بن عديٍّ أَلْف بعيرٍ وخِزانة ثياب والكُرَاعُ والعبيدُ والثيابُ ، وفيها كذا وكذا ، وما يعلم عمروٌ بها ، ولو عَلَمَها لأخذها واستعان بها على حَرْبِك ، و كنت أتربّصُ به المنون ؛ وأنا أخرج متنكراً من حيث لا يعلم فآتيك بها مع الَّذي سألت ؛ فأعطته من المال ما أراد ، وقالت : يا قصيرُ ! المُلْكُ يحسُنُ لمثلك ، وعلى يد مثلك يَصْلحُ أمرُه ، ولقد بَلَغني أنَّ أمرَ جَذِيمة كان إيرادهُ وإصدارهُ إليك ، وما تقصُرُ يدُك عن شيءٌ تناله يدي ، ولا يقعُدُ بك حالٌ ينهض بي . فسمع كلامها رجلٌ من خاصّةِ قومها ، فقال : أسدٌ خَادِرٌ ، وليْثٌ ثائر ، قد تحفَّز للوثبة . ولما رأى قصيرٌ مكانَه منها وتمكُّنِه من قلبها قال : الآن طاب المَصَاعُ ؛ وخرج من عندها ، فأتى عمرو بنَ عَديّ ، فقال : قد أصبتُ الفرصة من الزبّاءِ ، انهض فعجّل الوثْبة ؛ فقال له عمرو : قُلْ أسْمع ومُرْ أفْعَل ، فأنت طبيبُ هذه القرحة . فقال : الرجالَ والأموالَ ، قال : حكمُك فيها عندها مُسَمَّطاً ، فعمد إلى ألفي رجل من فتيان قومه وصناديدِ أهل مملكته ، فحملهم على ألف بعير في الغَرائر السّود ، وألبسهم السلاحَ والسيوفَ والحَجَف[1] ، وأنزلهم في الغرائر ، وجعل رُؤوس المسوح من أسافلها مربوطةً من داخـل ، وكان عمروٌ فيهم ، وساق الخيل والعبيد والكراع والسلاح والإبل محملةً ، فجاءَها البشيرُ ، فقال : قد جاءَ قصيرٌ ؛ ولما قَرُب من المدينـة حمل الرجـال في الغرائـر متسلـحين بالسيـوف والحَجَف ، وقال : إذا توسطت الإبل المدينة فالأمارة بيننا كذا وكذا ، فاخْتَرِطُوا الرُّبَط ؛ فلما قربت العير من مدينة الزباءِ ، كانت الزباءُ في قصرها ، فرأت الإبل تتهادى بأحمالها ، فارتابت بها ، وقد كان وُشِيَ بقصير إليها ، وحُذِّرَتْ منه ، فقالت للواشي به إليها : إن قصيراً اليوم منَّا ، وهو ربيبُ هذه النعمة ، وصنيعة هذه الدولة ؛ وإنما بعثكم على ذلك الحَسَدُ وأن ليس فيكم مثله ؛ فقَدَحَ ما رأَتْ من كثرة الإبل وعِظَم أحمالها في نفسها مع ما عندها من قول الواشي به إليها ، فقالت :

مَالِلْجِمَـــالِ مَشْيُهَـــا وَئِيـــدا ... أَجَنْـــدَلاً يَحْمِلْـــنَ أَم حَدِيـــدا
أَمْ صَرَفانـــاً تَـــارِزاً شَدِيـــدا ... أَمِ الرِّجَـــالَ في الـــمُسُوحِ سُوَدا

ثم أقبلت على جواريها ، فقالت : أَرَى الموتَ الأحمرَ في الغرائرِ السُّود ؛ فذهبتْ مثلاً . حتى

---

(١) « الحَجَف » واحدتها : حَجَفة ، وهي : التروس من جلود بلا خَشَبٍ ولا عَقَبٍ .

إذا توسَّطت الإبل المدينة وتكاملتْ ، أُلقوا إليهم الأَمَارَة ، فاخترطوا رُؤوس الغَرائر ، فسقط إلى الأَرض أَلفَا ذراع بألْفَيْ باترٍ طالبِ ثأْر القتيل غَدْراً ، وخرجت الزبّاءُ تمصع[1] تريد النَّفق ، فسبقها إليه قصيرٌ ، فحال بينها وبينه ، فلما رأَتْ أَن قد أُحيط بها ومُلكت ، التقمتْ خاتماً في يدها تحت فَصِّه سَمُّ ساعة ، وقالت : بيدي لا بِيدِ عَمْرو ؛ فأَدركها عمرٌو وقصير فضرباها بالسيف حتى هلكتْ ، وملكا مملكتها ، واحتويا على نعمتها ، وخط قصيرٌ على جَذِيمة قبراً ، وكتب على قبره هذه الأَبيات يقول :

مَـــلِكٌ تَمَتَّـــعَ بالعَسَاكِـــرِ والقَنَـــا ... وَالمَشْرَفِيَّـــةُ عِـــزُّهُ مَا يُـــوصَفُ
فَسَعَتْ مَنِيَّتُـــــهُ إلى أَعْدَائِـــــهِ ... وَهُـوَ المُتَـوَّجُ والـحُسَامُ المُرْهَـفُ

* * * *

١١ ـــ وقد روينا أَنَّ ملكاً كان يقال له : شَمِرٌ ذُو الجَنَاح ، سار إلى سَمَرْقَنْد فحاصَرَها ، فلم يَظْفَر منها بشيءٍ ، فطاف حولها بالحَرَس ، فأَخذ رجلاً من أَهلها ، فاستمال قلبه ، وسأَله عن المدينة ، فقال : أَمَّا ملكُها فأَحمقُ النَّاس ، ليس له هَمٌّ إلاَّ الشرابَ والأَكلَ والجماعَ ، ولكن له بنتٌ هي التي تقضي أَمرَ الناس ؛ فبعث منه هديّةً إليها ، وقال : أَخْبِرْها إنما جئت من أرضِ العرب للذي بلغني من عقلها لتنكحني نفسها ، فأُصيب منها غلاماً يملك العرب والعجم ، وأَنِّي لم أَجِيءْ لالتماس المال ، فإِنَّ معي من المال أَربعةَ آلافِ تابوتٍ ذهباً وفضة ، وأَنا دَافِعُها إليها وأَمْضي إلى الصِّين ، فإن كانت لِيَ الأَرض كانت امرأَتي ، وإن هلكتُ كان المال لها ؛ فلما بلغَتْها رسالتُه قالت : قد أَجبته ، فليبعث بالمال ؛ فأَرْسَل إليها أَربعة آلاف تابوتٍ ، في كلِّ تابوتٍ رجلان ، وجعل شَمِرُ العلامَة بينه وبينهم أَن يضرب بالجُلْجُل ، فلما صاروا في المدينة ضرب بالجُلْجل ، فخرجُوا ، فأَخذوا الأَبوابَ ، ونهض شَمِرُ في النَّاس ، فدخل المدينة ، فقتل أَهلها وحوى ما فيها ، ثم سار إلى الصين .

* * * *

١٢ ـــ وقد كان كسرى من الذكاءِ على غاية ، فرُوِينا عنه أَنَّه نَمّ إليه رجلٌ بصديقٍ له ،

(١) « المَصْع » هو : تحريك الدابة بذنبها ، والمقصود هنا : الكناية عن العَدْوِ الشديد والسريع ، حيث هذا من صفة الدابة عند العجلة والفَرَق .

فكتب كسرى للنمَّامِ : قد اخترنا نُصْحَك ، وذَمَمْنا صاحِبَك لسُوءِ اختياره الإخوان .

* * * *

١٣ ــ وقال منجّمو كسرى : إنَّك تُقْتَل ، فقال : لأَقْتُلَنّ من يقتلُني ، فأمر بسُمٍّ ، فخُلِط في أُدوية ، ثم كُتب عليه : دَوَاءٌ للجِمَاع مُجَرّبٌ ، من أَخذ منه وزن كذا جامع كذا وكذا مرة ، فلما قتله ابنُه شِيرَوِيه وفتَّش خزائنه مَرّ به ، فقال في نفسه : هذا الدّواءُ الذي كان يَقْوَى به على السَّراري ؛ فأَخذ منه ، فقتله وهو ميّت .

* * * *

١٤ ــ وفي رواية أنَّ شيرويه لما أراد قتلَ أبيه بعث إليه من يقتلُه ، فلما دخل عليه ، قال : إنِّي أَدلُّك على شيءٍ لوجوب حقِّك يكون فيه غنَاك . قال : وما هو ؟ قال : الصُّنْدُوق الفلاني . فذهب الرجل إلى شيرويه ، فأَخبره الخبر ، فأَخرج الصُّندوقَ وفيه حُقٌّ ، وفي الحقّ حَبٌّ ، وثَمّ مكتوب : من أَخذ منه واحدةً افتضّ عشرة أَبكار ؛ فطمع شيرويه في صحّة ذلك ، فأَخذهُ ، وعوّض الرجلَ منه ، ثم أَخذ منه حَبَّةً فكان هلاكه ، وكان كسرى أوَّل ميت أخذ بثأره من حيّ .

* * * *

١٥ ــ هُزِم بعضُ الملوك ، فنثر لطالبيه زُجاجاً ملوَّناً شبيهاً بالجوهر الأحمر والأخضر ، ودنانير صُفْر مطليَّةً بالذَّهب ، فتشاغل طالبوه بلقطها ، فنجا .

* * * *

١٦ ــ علم بعضُ الملوك بعسكرٍ يطلبهُ ، فأَخذ شَعيراً ، فطبخه بالماء مع قضبان الدِّفْلَى ، ثم جفَّفه ، ثم جرّبه في دابّة ، فلمّا أَكلته نَفَقَتْ من يومها ، فخرج بعسكره ناحيةً ، ونثر الشعير والميرة ، فلما سار القوم إليه ترك ما في معسكره وتنحّى ، فجاؤوا ، فأَطلقوا دوابّهم في الشعير ، فهلكت كلُّها .

* * * *

١٧ ــ حارب قومٌ ومعهم فيلة ، فقهروا عدوّهم ، فأَشار على العدوّ رجلٌ أن يحملوا خنزيراً وأَن يضربوه ، فلما سمعت الفِيَلَةُ صوتَه هربَتْ .

* * * *

١٨ — جاءَ رجلٌ معه هِرٌّ تحت حِضْنِهِ ، ومشى بسيفه إلى الفيل وفي خرطومه السيف ، فلما دنا منه رمى بالهِرِّ في وجهه ، فأدبر الفيلُ هارباً ، وتساقط مَنْ فوقه ، فكبّر المسلمون ، وكان سبب الهزيمة .

* * * *

١٩ — قيل لأسلم بن زُرْعة : إن انهزمتَ من أصحاب مِرْدَاسِ بن أُدَيَّةَ يغضب عليك الأمير عبيد الله بن زياد ، قال : يغضبُ عليَّ وأنا حيٌّ أحبُّ من أن يرضى عنّي وأنا ميّت .

* * * *

٢٠ — خرج أميرٌ للقتال ومعه رجلٌ فيه ذكاءٌ ، فبينما هم على الغداء ، قال للأمير : اركب ، فقد لَحقَنا العدوُّ ؛ قال : كيف وما يُرى أحدٌ ؟ قال : اركب عاجلاً ، فإن الأمر أسرع مما تحسب ؛ فركب وركب النّاس ، فلاحت الغُبْرةُ ، وطلع عليهم سُرَعَانُ الخيل ، فعجب الأميرُ ، وقال : كيف علمتَ ؟ قال : أَمَا رأيتَ الوَحْشَ مُقْبِلةً علينا ؟ ومن شأن الوحوش الهربُ منّا ، فعلمتُ أنها لم تَدَعْ عاداتِها إلاَّ لأمرٍ قد دَهَمَها . والله الموفق .

* * * *

الباب السادس والعشرون
في
ذكر طرف من فطن المتطبّبين

١ — أنبأنا أبو بكر بن عبد الباقي ، قال محمد بن علي الأمين : حدّثنا بعضُ الأطبّاء الثّقات : أنَّ غلاماً من بغداد قدم الرَّيَّ ، فلحقه في طريقه أنَّه كان ينفثُ الدَّمَ ، فاستدعى أبا بكر الرازي الطبيب المشهور بالحذق ، فأراه ما ينفُثُ ، ووصف له ما يجد ؛ فنظر إلى نبضه وقارُورتِه واستوصف حالَهُ ، فلم يَقُم له دليلٌ على سِلٍّ ولا قُرْحَة ، ولم يعرف العلَّة ، فاستنظرَ العليل لينظرَ في حاله ، فاشتدّ الأمرُ على المريض ، وقال : هذا يأسٌ لي من الحياة لِحذْقِ المتطبِّبِ وجهله بالعلَّة ؛ فزاد ألمه ، ففكَّر الرازيُّ ، ثم عَادَ فسأله عن المياه التي شربها في طريقه ، فأخبره أنَّه قد شرب من صَهَارِيج[1] مستنقعات ، فثبت في نفس الرّازِيّ بحدّة خاطره وجَوْدَةِ ذكائه أن عَلَقَةً كانت في الماءِ وقد حصلَتْ في مَعِدَتِهِ ، وذلك الدَّمُ من فعلها . فقال : إذا كان في غد عالجتُك ، ولكن بشَرْطِ أن تأمُرَ غلمانَك أن يطيعوني فيك بما آمُرهم . قال : نعم ؛ فانصرف الرازيُّ ، فجمع مرْكَنَيْن كبيرين من طُحْلَب ، فأحضرهما في غدٍ معه ، فأراه إيّاهما ، قال : ٱبْلَعْ جميعَ ما في هذين المْركَنَيْن ؛ فبلَع شيئاً يسيراً ، ثم وقف ، قال : ابْلَعْ . قال : لا أستطيع ؛ فقال للغلمان : خُذُوه فأقيموه ؛ ففعلوا به ذلك ، وطَرَحُوه على قفاه ، وفَتَحُوا فاه ، فأقبل الرازيُّ يدسُّ الطُحْلَبَ في حلقه وَيَكْبِسُه كبساً شديداً ، ويطالبه ببَلْعِه ، ويتهدّده بأن يُضْرَبَ ؛ إلى أن بلَّعه كارهاً أحد المِرْكنين بأَسْرِه والرّجل يستغيث ، ويقول : الساعة أقذف ؛ فزاد الرازيُّ فيما يكبِسُه في حلْقِه ، فذَرَعَهُ القَيْءُ ، فتأمَل الرازِي ما قذف فإذا فيه عَلَقَة ، وإذا هي لما وصل إليها الطُحْلَبُ قذفت إليه بالطَّبْع ، وتركت موضعها ، فالتفَّت على الطُحْلَبِ ؛ ونهض العليل مُعَافى .

* * * *

(١) « الصهاريج » جمع صِهَرِيج : حَوْضٌ يجتمع فيه الماء .

٢ ــ أنبأنا أبو بكر ، عن أبي الحسن عليّ بن الحسين الصَّيدلاني ، قال : كان عندنا غلام حَدَث من أولاد النباهة ، فلحقه وَجَعٌ في مَعِدَتِهِ شَديدٌ بلا سبب يعرفُه ، فكانت تضربُ عليه أكثر الأوقات ضرباً عظيماً حتى يكاد يتلَف ، وقل أكله ونَحَل جسمُه ، فحمل إلى الأهواز ، فعُولج بكلّ شيء فلم ينجع فيه ، ورُدَّ إلى بيته وقد يُئِسَ منه ، فجاز بعضُ الأطباءُ ، فعرف حاله ، فقال للعليل : اشرح لي حالك من زمن الصحة ؛ فشرح ، إلى أن قال : دخلت بستاناً ، فكان في بيت البقر رمانٌ كثير للبيع ، فأكلت منه كثيراً ؛ قال : كيف كنت تأكله ؟ قال : كنت أعضُّ رأسَ الرّمانة بفمي وأرمي به ، وأكسرها قِطَعاً وآكلُ ؛ فقال الطبيبُ : غداً أُعالجُك بإذن الله تعالى ؛ فلما كان الغدُ ، جاءَ بقدرِ أُسْفِيدَاج[1] قد طبخها من لحم جَرْوٍ سَمِين ، فقال للعليل : كُلْ هذا ؛ قال العليلُ : ما هو ؟ قال : إذا أكلتَ عَرَّفْتُك . فأكل العليلُ ، فقال له : امتلىء منه ؛ فامتلأ ، ثم قال له : أتدري أيَّ شيءٍ أكلتَ ؟ قال : لا . قال : لَحْمَ كَلْبٍ ؛ فاندفع يقذف ، فتأمّل القذفَ إلى أن طرح العليل شيئاً أسْوَدَ كالنَّواة يتحرَّكُ ، فأخذه الطبيب ، وقال : ارفع رأسك فقد بَرَأْتَ ؛ فرفع رأسه ، فَسَقاهُ شيئاً يَقْطَعُ الغَثَيَانَ ، وصَبَّ على وجهه مَاءَ وَرْدٍ ، ثم أراه الذي وقع فإذا هو قُرَادٌ ، فقال : إنَّ الموضع الذي كان فيه الرُّمَّان كان فيه قِرْدَانٌ من البقر ، وأنه حصلتْ منهن واحدة في رأس إحدى الرمَّانات التي اقتلَعْتَ رُؤوسها بفيك ، فنزل القُرَادُ إلى حلقك وعَلِقَ بمعدتك يمتصُّها ، وعلمتُ أن القُرَادَ يَهَشُّ إلى لحم الكلب ، فإن لم يصِحَّ الظنُّ لم يَضُرَّك مَا أَكَلْتَ ، فصَحَّ ، فلا تُدْخِلْ فَمك شيئاً لا تدري ما فيه . والله الموفق .

* * * *

٣ ــ أنبأنا محمد بن عبد الملك ، عن الحلواني ، قال : سمِعتُ محمد بن إدريس الشافعي رضي الله تعالى عنه يقول : ما أفْلَحَ سَمِينٌ قطّ إلا أن يكون محمد بن الحسن ؛ قيل له : ولم ؟ قال : لا تَعْدُو العاقلَ إحدى خَصْلَتين ، إما أن يهتم لآخرته ومعاده أو لدنياه ومعاشه ، والشحم مع الهَمِّ لا ينعقد ؛ فإذا خلا من المعنيين صار في حَدّ البهائم فانعقد الشحم .

ثم قال : كان ملك في الزمن الأول ، وكان مُثْقَلاً ، كثير الشَّحْم ، لا ينتفعُ بنفسه ؛ فجمع المتطبِّبين وقال : احتالوا إليّ بحيلةٍ يخفُّ عني لحمي هذا قليلاً . قال : فما قَدَرُوا له على شيء . قال : فَنُعِتَ له رجلٌ عاقلٌ أديبٌ متطبب فارهٌ ، فبعث إليه وأشخصه ، وقال له : عالجني ولك

(١) « أسْفِيدَاج » : لفظ فارسي معرب ، يعني : الأبيض والمُبَيِّض ، وهو عادة بعض مركبات الرصاص والآنُك ؛ ويدعى في عصرنا : بودرة التالك Talc .

الغنَى ، قال : أَصلح الله الملك ، أَنا متطبِّبٌ منجِّم ، دَعْني حتى أَنظرَ الليلة في طَالِعِك ، أَيِّ هواءٍ يوافقُ طالعَك فأَسقيك ، قال : فَعَدا عليه ، فقال : أَيُّها الملك ! الأَمانَ ، قال : لك الأَمانُ ، قال : رأَيتُ طالعك يدلُّ على أَنَّ الباقي من عُمْرِك شَهْرٌ ، فإن أَحبَبْتَ عالجتُك ، وإن أَردتَ بيان ذلك فاحبِسْني عندك ، فإنْ كان لِقَولي حقيقةٌ فخلِّ عني وإلاَّ فاقتصَّ مني . قال : فحبسَهُ . قال : ثم رفع المَلِكُ الملاهِيَ ، واحتجب عن الناسِ ، وخلا وحدهُ مهتمَّاً كلما انسلخ يومٌ ازداد غَمّاً ، حتى هَزُل وخَفَّ لحمُه ، ومضى لذلك ثمانٍ وعشرون يوماً ، فبعث إليه وأَخرجه ، فقال : ما ترى ! قال : أَعزَّ الله الملك ! أَنا أَهونُ على الله عزَّ وجلّ من أَن أَعلمَ الغَيبَ ، والله ما أَعرفُ عُمري ، فكيف أَعرف عُمرك ؟ إنَّه لم يكن عندي دواءٌ إلاَّ الغَمَّ ، فلم أَقدرْ أَن أَجلب إليك الغَمَّ إلاَّ بهذه العلَّة ، فأَذاب شَحْمَ الكُلَى ؛ فأَجازه وأَحْسَنَ إليه .

* * * *

٤ ــ وأنبأنا أبو بكر ابن عبد الباقي ، حدثنا أَبو الحسن بن الحسين بن محمد الصالحي الكاتب ، قال : رأَيتُ بمصر طبيباً كان بها مشهوراً ، يُعرَف بالقَطِيعي ، وقال : إنَّه يكسب في كلِ شهر أَلفَ دينار من جرايات كان يُجريها عليه قومٌ من رؤساءِ العَسْكَر ومن السُّلطان ومما يأخذه من العامّة . قال : وكان له دارٌ قد جعلها شبه المَارِسْتَانِ من جملةِ داره يأْوي إليها ضعفاء المَرْضى ، فيداويهم ويقومُ بأَغذيتهم وأُدويتهم وخِدْمتهم ، ويُنْفِق أَكثر كسبه في ذلك ، فاتَّفق أَنَّ بعضَ فتيان الرُّؤساءِ بمصر أُسْكِتَ . قال : وكنت هناك ، فحُمل إليه أَهلُ الطِّب وفيهم القَطِيْعيّ ، فأَجمعوا على موته إلاَّ القطيعيَّ ، وعمل أَهله على غسله ودفنه ، فقال القطيعيُّ : أُعالجه ، وليس يلحقه أكثر من الموت الذي قد أَجمعَ هؤلاءِ عليه ؛ فخلاَّه أَهلُه معه ، فقال : هات غلاماً جلْداً ومقارع ؛ فأُتي بذلك ، فأَمر به ، فَمَدَّهُ وضربه عَشْر مقارعَ أَشدَّ الضَّرب ، ثم جَسَّ مَجَسَّهُ ، ثم ضربه عشراً أُخر ، ثم جسّ مَجَسَّهُ ، ثم ضربه عشراً أُخر ، ثم جسّ مجسه ، وقال : أَيكونُ للميِّت نَبْضٌ ؟ قالوا : لا . قال : فَجُسُّوا نبض هذا ؛ فجسُّوه ، فأَجمعوا أَنَّه نبضٌ متحرّكٌ ، فضربه عشر مقارع أُخرى ، ثم قال : جسّوه ؛ فجسّوه ، فقالوا : قد زادَ ؛ فضربَه عشراً أُخر ، فتقلَّب ، فضربه عشراً فتأَوّه ، فضربه عشراً فصاح ، فقطع عنه الضربَ ، فجلس العليلُ يتأَوّه ، فقال له : ما تجدُ ؟ قال : أَنا جائعٌ ، فقال : أَطْعِمُوه ؛ فجاءُوا بما أَكله ، فرجعتْ قوَّتُه ، وقمنا وقد برأَ ، فقال له الأَطباءُ : من أَين لك هذا ؟ قال : كنت مسافراً في قافلةٍ فيها أَعرابٌ يَخْفُروننا ، فسقط منهم فارسٌ عن فرسه ، فأُسْكت ؛ فقالوا : قد مات ؛ فعمَدَ شَيْخٌ

منهم ، فضربه ضرباً شديداً عظيماً ، وما رفع الضرب عنه حتى أفاق ، فعلمتُ أنَّ الضرب جلب إليه حَرَارةً أزالت سكْتَتَهُ ، فقِسْت عليه أمْرَ هذا العليل .

* * * *

٥ ــ أنبأنا أبو بكر ابن عبد الباقي ، قال أبو منصور بن مارمة ، وكان من رؤساء البصرة ، قال : أخبرني [أحد] شيوخنا ، قال : كان بعضُ أهلنا قد استسقى ، وأيِسوا من حياته ، فحمل إلى بغداد ، وشاوروا الأطباءَ فيه ، فوصفوا له أدوية كباراً ، فعرفوا أنه قد تناولها فلم تنجع ، فأيسُوا من حياته ، وقالوا : لا حيلة لنا في بُرْئِه ؛ فسمع العليل ، فقال : دَعُوني الآن أتزَوّدُ من الدنيا وآكلُ ما أشتهي ، ولا تقتلوني بالحِمْيَة ؛ فقالوا : كُلْ ما تريد ؛ فكان يجلس بباب الدّار ، فمهما اجتاز به اشتَراهُ وأكله ، فمرّ به رجلٌ يبيع جراداً مطبوخاً ، فاشترى منه عشرةَ أرطال ، فأكلها بأسْرِها ، فانحلَّ طبعه ، فقام في ثلاثة أيام أكثر من ثلاث مئة مجلسٍ ، وكاد يتلَفُ ، ثم انقطع القيام وقد زال كلُّ ما كان في جوفه ، وثابَتْ قُوّته ، فبرأ وخرج يتصرّف في حوائجه ، فرآه بعض الأطباءِ ، فعجب من أمره ، وسأله عن الخبر ، فعرّفه ، فقال : ليس من شأنِ الجراد أن يفعل هذا الفِعْل ، ولا بد أن يكون في الجراد الذي فعل هذا خاصيَّة ؛ فأُحبُّ أن تدلَّني على صاحب هذا الجراد الذي باعَهُ لك ؛ فما زالوا في طلبه حتى اجتازنا بالباب ، فرآه الطبيبُ ، فقال له : ممّن اشتريتَ هذا الجرادَ ؟ فقال : ما اشتريتُه ، أنا أصيدُه وأجمعُ منه شيئاً كثيراً ، وأطبخه وأبيعُه ؛ قال : من أين تصطادُه ؟ فذكر له مكاناً على فراسخ يسيرة من بغداد ، فقال له الطبيبُ : أعطيك ديناراً وتجيء معي إلى الموضع الذي اصطدتَ منه الجراد ؛ قال : نعم ! فخرجا ، وعاد الطبيب من الغد ومعه من الجراد شيء . ومعه حشيشة ، فقالوا له : ما هذا ؟ قال : صادفت الجراد الذي يصيده هذا الرجل يرعى في صحراءَ جميعُ نباتها حشيشة يقال لها : مازريون ؛ وهي من دواءِ الاستسقاءِ ، فإذا دُفع إلى العليل منها وزن درهم أسهله إسهالاً عظيماً لا يُؤمن أن ينضبط ، والعلاج بها خَطِرٌ ، ولذلك ما يكاد يصفُها الأطباءُ ، فلما وقع الجراد على هذه الحشيشة ، ونضجت في معدته ، ثم طبخ الجراد ؛ ضَعُفَ فعلُها بطبختين ، فاعتدلت بمقدار ما أبرأَتْ هذا .

* * * *

٦ ــ أنبأنا محمد بن عبد الباقي عن أبي بكر الجِعَابي قال : دخلتُ يوماً على القاضي أبي الحسين بن أبي عمرو وهو مغموم حزين ، فقلت : لا يَغُمُّ الله قاضي القضاة ، فما الذي أراه ؟

قال : مات يزيدُ المائيّ . فقلت : يُبْقِي الله قاضي القضاة أبداً ، ومن يزيد المائيّ حتى إذا مات يغتمّ عليه قاضي القضاة هذا الغَمَّ كُلَّه ؟ فقال : وَيْحَكَ ! مثلُك يقول هذا في رَجُلٍ أَوْحَدَ في صناعته قد مات ولا خلف له يقاربه في حذقه ؟ وهل فخر البلد إلا أن يكون رؤساءُ الصنَّاع وحُذَّاقُ أهل العلوم فيه ؟ فإذا مضى رجل لا مِثْلَ له في صناعةٍ لا بدّ للناس منها ، فهلاَّ يدلّ هذا إلا على نقصان العلم وانحطاط البُلْدانِ ؟ ثم أخذ يعدّدُ فضائلَهُ ، والأشياءَ الظَّريفة التي عالج بها ، والعِلَلَ الصَّعبَة التي زالتْ بتدبيره ؛ فذكر من ذلك أشياءَ كثيرة ، ومنها أنه قال : لقد أخبرني هذا من مدة مديدة عن رجلٍ من جلَّة هذا البلد ، أنَّه كان حدث بابنةٍ له علة ظريفة ، فكتمتْها عنه ، ثم اطَّلع عليها ، فكتمها هو مدّة ، ثم انتهى أمرُها إلى الموت . قال : فقلتُ : لا يَسَعُني كتمُ هذا أكثرَ من هذا ؛ قال : وكانت العلةُ أنَّ فَرْجَ الصَّبيَّةِ كان يَضْرِبُ عليها ضَرْباً عظيماً لا تكادُ تنام منه اللَّيْلَ ولا تهدأ بالنهار ، وتصرخ من ذلك أعظَم صُرَاخٍ ، ويَجْرِي في خلال ذلك منه دَمٌ يسيرٌ كماءِ اللَّحم ، وليس هناك جُرْحٌ يظهرُ ولا وَرَمٌ كثير ، فلما خِفْتُ المَأْثَم أحضرت يزيداً فشاورتُه ، فقال : تأذنُ لي في الكلام وتَبْسُطُ عُذري فيه ؟ فقلت : نعم ! فقال : إنَّه لا يمكنُنِي أن أصفَ شيئاً دون أن أشاهدَ الموضع وأُفَتِّشُهُ بيدي ، وأَسأَل المرأة عن أسبابٍ لعلَّها كانت الجالبة للعِلَّة ؛ وقال : فلِعِظَم الصُّورة وبلوغها حدَّ التَّلف أمكنته من ذلك ؛ فأطال مُسَاءَلَتها وحديثها بما ليس من جِنْس العِلَّة بعد أن جسَّ الموضع ، حتى عرف بقعة الأَلم ، حتى كدت أن أَثِب به ، ثم تصبَّرتُ ورجعتُ إلى ما أعرفه من سَتْرِه ، فصبرت على مَضَضٍ ، إلى أن قال : تأمُرُ من يمسكها ؛ ففعلتُ ، ثم أَدْخَلَ يده في الموضع دُخُولاً شديداً ، فصاحتِ المرأةُ وأُغمي عليها ، وانبعث الدَّمُ ، فأخرج في يده حيواناً أَقَلَّ من الخُنْفساءِ ، فرمى به ، فجلستْ الجارية في الحال واستَتَرَتْ ، وقالت : يا أَبي استرني ، فقد عُوفيت ؛ قال : فأخذ الحيوانَ في يده ، وخرج من الموضع ؛ فلحقْتهُ ، وأجلستُه ، وقلت : أَخبِرْني ! ما هذا ؟ قال : إن تلك المسأَلة التي لم أَشُكُّ أنك أنكرتَها إنما كانت لأَطلب شيئاً أَستدل به على العلة ، إلى أن قالت لي : إن يوماً من الأيام جلست في بيت دولاب البقر من بستانٍ لكم ، ثم حدثت العِلَّةُ بها من غير سبب تعرفه من بعد ذلك اليوم ؛ فتخايلت أنه قد دَبَّ إلى فرجها من القِرْدان ، وكلما امتص من موضعه وَلَّدَ الضَّرَبَانَ ، وأنه إذا شبع نَقَط من الفرج الذي يمتصُّ منه إلى خارج الفرج هذه النقطة اليسيرة من الدَّمِ ، فقلت : أُدْخِلُ يدي وأُفتِّشُ ؛ فأدخلت يدي ، فوجدتُ القُرادَ ، فأخرجتُه ، وهو هذا الحيوان ، وقد كَبِر وتَغَيَّرتْ صورته لكثرة ما يمصُّ من الدَّم على طول الأيام .

قال : فتأمَّلْتُ الحيوانَ فإذا هو قُرَاد ، قال : وبَرئت الصَّبِيَّة . قال : فقال لي أبو الحسين القاضي : هل ببغداد اليوم من له صناعةٌ مثل هذا ؟ فكيف لا أَغْتَمُّ بموت مَن هذا بعض حذقه ؟! .

* * * *

٧ — أنبأنا أبو بكر بن أبي طاهر ، قال : أنبأنا علي بن المحسن ، عن أبيه ، قال : قال جبريل بن بَخْتِيَشُوع : كنتُ مع الرشيد بالرَّقَّةِ ومعه محمد والمأمون ، وكان رجلاً كثيرَ الأَكلِ والشُّربِ ، فأكل يوماً أشياءَ خَلَّطَ فيها ، ودخل المستراح فغُشِيَ عليه ، فأُخْرِج ، وَقَوِيَ الأَمْرُ حتَّى لم يَشُكُّوا في موته ، فأُحْضِرْتُ ، وجَسَسْتُ عِرقه فوجدت نبضاً خفيّاً ، وقد كان قبل ذلك بأيام يشكو امتلاءً وحركة الدّمِ ، فقلتُ : الصَّواب أن يحتجم الساعة . فقال كوثرُ الخادم — لِمَا يُقَدِّرُ من أمر الخلافة وإفضائها إلى صاحبه محمد — : يا ابن الفاعلة ! تقول : احْجِمُوا رجلاً ميتاً ، لا نقبلُ قولَك ولا كرامة . فقال المأمون : الأَمرُ قد وقع ، وليس يضرُّ أن تَحْجُمَهُ ؛ فأُحضِرَ الحجَّامُ ، وتقدَّمْتُ إلى جماعةٍ من الغلمان بإمساكه ومَصَّ الحجام المحاجم ، فاحمرَّ المكان ، ففرحتُ ، ثم قلتُ : اشرط ! فشرط ، فخرج الدَّم ، فسجدت شكراً ؛ فكلَّما خرج الدم أصفرّ لونُه ، إلى أن تكلَّم ؛ وقال : أين أنا ؟ فعرّفناه وعُوفِيَ ، فسأل صاحب الحرس عن غلته ، فعرّفه أنها ألف ألف درهم في كلِّ سنة ، وسأل صاحب شرطته فعرَّفه أنَّها خمس مئة ألف ، فقال : يا جبريل ! كم غَلَّتُك ؟ قلت : خمسون ألفاً ؛ قال : ما أنصفناك ! إذ غلات هؤلاءِ وهم يحرسوني كذلك ، وغلتك كما ذكرت ! فأمر بإقطاعي ألف ألف درهم .

* * * *

٨ — أنبأنا محمد ابن أبي طاهر ، قال : أنبأنا علي بن المحسّن ، عن أبيه ، قال حدثني أبو الحسين بن المهديّ القزوينيّ ، قال : كان عندنا طبيب يقال له : ابن نوح ، فلحقتني سكتةٌ ، فلم يَشُكَّ أهلي في موتي ، وغسلوني ، وكفنوني ، وحملوني على الجنازة ، فمرّت الجنازةُ عليه ونساءٌ خلفي يَصْرُخن ، فقال لهم : إنَّ صاحبَكم حيٌّ ، فدعوني أُعالجْهُ ؛ فصاحوا عليه ، فقال لهم الناس : دَعوه يعالجْهُ ، فإن عاش وإلاَّ فلا ضررَ عليكمُ ؛ فقالوا : نخاف أن يصير فضيحة ؛ فقال : عليَّ ألاَّ تصير فضيحة ، قالوا : فإن صرنا ؟ قال : حُكْمُ السّلطان فيّ إذاً نافذٌ . قال : وإن بَرأَ ، فأيُّ شيء لي ؟ قالوا : ما شئتَ ؛ قال : دِيَتهُ . قالوا : لا نملك ذلك ؛ فرضي منهم بمال أجابه الورثةُ إليه ؛ وحَمَلَنِي ، فأدخلني الحمّام ، وعالجني ، وأفقت في الساعة الرابعة

والعشرين من ذلك الوقت ، ووقعت البشائر ، ودفع إليه المال ، فقلت للطبيب بعد ذلك : من أين عَرَفْتَ هذا ؟ فقال : رأيتُ رجليك في الكفن منتصبةً وأَرجُلُ الموتى منبسطة ولا يجوز انتصابها ، فعلمت أنك حيٌّ ، وخَمَّنتُ أنك أُسْكِتَّ ، وجرّبتُ عليك ، فصحّت تجربتي .

* * * *

٩ ــ أنبأنا محمد ، قال : أنبأنا علي بن المحسن ، عن أبيه قال : حدثني أبو أحمد الحارثيّ ، قال : كان طبيبٌ نصرانيٌّ يقال له : موسى بن سنان ، قد أُتِيَ برجُلٍ مُنْتَفِخِ الذَّكَرِ ، لا يَقْدر أن يبولَ ، قال : وهو يستغيثُ ويَصيحُ ، فسأله عن علَّته ، فذكر أنه لم يَبُلْ منذ أيام ، ورأى ذكره منتفخاً ، فنظر في حاله ، فلم يجد شيئاً يوجب عُسْرَ البول ولا حصاةً ، فتركه عنده يوماً يسائله ، إلى أن قال : حَدِّثني ، أَدخلتَ ذَكَرك في شيءٍ لم تجر عَادَةُ النَّاس به ، فلحقك هذا ؛ فسكتَ الرَّجُلُ واستحيا ، فلم يزل الطبيب يَبْسُطُهُ ويَشْرط له الكتمانَ إلى أن قال : نكحتُ حماراً ذَكَراً ، فقال الطبيب : هاتوا مطرقة وغلماناً ؛ فجاءُوه ، فأمسكوا الرجل ، وجعل ذَكَرَهُ على سِنْدانِ حَدّادٍ ، وطرقه بالمطرقة مَرةً واحدة وجيعة ، فبرزَتْ شَعِيرة ، وذاك أنه خَمَّن أن شعيرة من جَاعِرَةِ الحمار قد دَخَلَتْ في ثُقْبِ الذَّكر ، فلما طرقها خرجَتْ .

* * * *

١٠ ــ أنبأنا محمد بن أبي بكر ، عن أبي القاسم الجهني ، أن حَظيَّةً لبعض الخلفاءِ ــ أظنه الرَّشِيد ــ قامت لتتمطَّى ، فلما تمطَّتْ ، جاءَت لتردَّ يديها فلم تقدرْ ، وبقيتا حافَّتين ، فصاحت ، وآلمها ذلك ، وبلغ الخليفة ، فدخل وشاهد من أمرها ما أَقلقه ، وشاور الأَطباءَ ، فكلٌّ قال شيئاً ، واستعمله فلم ينجح ، وبقيت الجاريةُ على تلك الصورة أياماً ، والخليفةُ قَلِقٌ بها ، فجاءَه أَحد الأَطبّاء ، فقال : يا أَمير المؤمنين ! لَا دَواءَ لها إلاَّ أَن يدخل إليها رجل غريب فيخلو بها ويمرخها مروخاً يعرفه ، فأجابه الخليفة إلى ذلك طلباً لعافيتها ، فأحضر الطبيب رجلاً ، وأَخرج من كمه دُهناً ، وقال : أُريد أَن تأمرَ يا أَمير المؤمنين بتعريتها حتى أَمرخ جميع أَعضائها بهذا الدهن ؛ فشق ذلك عليه ، ثمّ أَمر أَن يفعل ذلك ، ووضع في نفسه قتل الرجل ، وقال للخادم : خُذْه فأدخله عليها بعد أَن تُعَرِّيَها ، فعُرِّيت الجارية ، وأُقيمتْ ؛ فلما دخل الرجلُ وقَرُب منها سعى إليها ، وأَومأَ إلى فرجها ليلمسهُ ، فغطَّت الجاريةُ فرجَها بيدها ، ولشدّة ما داخلها من الحياء والجزع حَمِيَ بدنها بانتشار الحرارة الغريزيّة فعاوَنَتْها على ما أَرادتْ من تغطية فَرْجها

واستعمال بدنها في ذلك ، فلما غطّت فَرْجَها قال لها الرّجل : قد بَرَأْت ، فلا تحرّكي يديك . فأخذه الخادم ، وجاءَ به إلى الرشيد ، وأخبره الخبر ، فقال له الرشيد : فكيف تعمل بمن شاهد فَرْجَ حُرَمِنا ؟ فجذب الطبيب بيده لحية الرجل ، فإذا هي مُلْصَقة ، فانقلعتْ ، فإذا الشخصُ جاريةٌ ؛ وقال : يا أمير المؤمنين ! ما كنت لأُبدي حُرَمَك للرّجال ، ولكن خشيت أن أعلمك الخبر فيتصل بالجارية ، فتبطل الحيلة ، لأني أردتُ أن أُدْخل إلى قلبها فزعاً شديداً يحمّي طبعها ويقودها إلى الحيلِ على يديها وتحريكها ، وإعانة الحرارة الغريزية على ذلك ، فلم يقع لي غير هذا ، فأخبرتك به . فأجزل الخليفةُ صلته وصَرَفه .

قال أبو القاسم : ولهذا استعملت الأطبّاءُ في علاج اللّقوة الصغيرة الصَّفْعةَ الشديدةَ على غَفْلةٍ من ضدِّ الجانب المَلْقُوِّ ، ليدخل قلب المصفوع من الأنفة والغمّ ما يحمِّيه ، فيحوِّل وجهه ضرورةً بالطبع إلى حيث صُفع ، فترجع لَقْوَتُه .

* * * *

١١ — روى الصَّلْتُ بن مسعود الجُحْدُريّ ، قال : حدّثني بشر بن الفضل ، قال : خرجنا حُجّاجاً ، فمررنا بماء من مياه العرب ، فوصف لنا فيه ثلاث أُخوات بالجمال ، وقيل لنا : إنهن يتطبّبن ويعالجن ، فأحببنا أن نراهُنّ ، فعمدنا إلى صاحب لنا ، فحككْنا ساقَهُ بعودٍ حتى أدْمَيْنَاه ، ثم رفعناه على أيدينا ، وقلنا : هذا سليمٌ ، فهل من راق ؟ فخرجت أُصغرهن ، فإذا جارية كالشمس الطالعة ، فجاءَتْ حتى وقعت عليه ، فقالت : ليس سليماً . قلنا : وكيف ؟ قالت : لأنه خدشه عودٌ بَالَتْ عليه حيَّةٌ ذكَر ، والدليلُ أنَّه إذا طلعت الشمس مات ؛ فلما طلعت الشمس مات ، فعجبنا من ذلك .

* * * *

١٢ — شكا رجلٌ إلى طبيب وَجَعَ بطنه ، فقال : وما الذي أكلتَ ؟ قال : أكلتُ رغيفاً محترقاً ؛ فدعا الطبيب بذرور ليكحله ، فقال الرجل : إنما أشتكي وجع بطني لا عيني ! قال : قد عرفتُ ، ولكن أُكحّلك لتبصرَ المحترقَ فلا تأْكله .

* * * *

الباب السابع والعشرون
في
في ذكر طرف من فطن المتطفلين

١ ــ قال الأَصمعيُّ : الطفيليُّ الدّاخلُ على القوم من غير أَن يُدْعَى ، مأْخوذٌ من الطَّفَل ، وهو إقبال اللَّيل على النَّهار بظلمَتِه ، وأَرادوا أَن أَمْرَه يُظْلِمُ على القوم ، فلا يدرُون مَنْ دَعاه ، ولا كيف دخل عليهم ؟!.

قال : وقولهم طفيليٌّ منسوبٌ إلى طُفَيْل ، رَجُلٌ من أَهل الكوفة من بني غطفان ، وكان يأْتي الولائم من غير أَن يُدعى إليها ، فكان يقال له : طفيل الأَعراس والعرائس ؛ فيه نظرٌ ، لأَن العرب تُسَمِّي الطُّفَيْلِيّ الوَارِشُ والرَّائِش ، والذي يدخل على القوم في شرابهم ولم يُدْعَ إليه الواغل .

* * * *

٢ ــ قال أَبو عبيدة : كان رجلٌ من بني هلال يقال له : طُفَيل بن زَلاَّل ، إذا سمع بقوم عندهم دعوةٌ أَتاهم فأَكل طعامهم ، فسُمِّيَ كلُّ من فعل ذلك به .

* * * *

٣ ــ قال عبد الله بن مسعود : كنّا ندعو الإِمَّعَة في الجاهلية الرجل يُدعى إلى الطعام ، فيذهب بالآخر معه لم يدعَ .

* * * *

٤ ــ قال ابن قتيبة : الضَّيْفَن الذي يَجِيءُ مع الضَّيْف ولم يُدْعَ .

* * * *

٥ ـ قال عبد الله بن مسعود : كان فينا رجلٌ يقال له أبو شُعَيب ، وكان له غلام لحّام ، فقال لغلامه : اجعل لي طعاماً لعلّي أدعو النبي ﷺ ، فدعا النبي ﷺ خامِسَ خمسة ، فتبعه رجلٌ ، فقال النبي ﷺ للرّجل : « إنك دَعَوْتَني خامسَ خَمْسة ، وإن هذا تَبِعَنا ، فإن أذِنْتَ له وإلاّ رجع » قال : بل أذنتُ له .

* * * *

٦ ـ أنبأنا أحمد بن علي بن ثابت ، عن أحمد بن الحسين المقرىء ، قال : مرّ بُنَانٌ بعرس ، فأرادَ الدخولَ ، فلم يقدرْ ، فذهب إلى بقّال ، فوضع خَاتَمَهُ عنده على عَشْرةِ أقداح عَسَلاً ، وجاءَ إلى باب العرس ، فقال : يا بوّاب ! افتح الباب ؛ فقال له البوابُ : مَنْ أنت ؟ قال : أراك لست تعرفني ، أنا الذي بعثوني أشتري لهم الأقداح ؛ ففتح له الباب ، فدخل ، فأكل وشرب مع القوم ، فلما فرغ أخذ الأقداح ، فقال : يا بوّاب ! افتح لي ، يريدون ناصِحيّة حتى أردّ هذه ؛ فخرج ، فردّها على البقال ، وأخذ خاتمه .

* * * *

٧ ـ قال : وجاءَ بُنَانُ إلى وليمة ، فأُغلق الباب دونه ، فاكترى سُلَّماً فوضعه على حائط الرجل ، فأشرف على عيال الرجل وبناته ، فقال له الرجل : يا هذا ! أما تخاف الله ؟ رأيتَ أهلي وبناتي ؛ فقال : يا شيخُ ! ﴿ لقد علِمْتَ مَا لَنا في بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ وإنك لَتَعْلَمُ ما نُريد ﴾ [١١ سورة هود/الآية : ٧٩] فضحك الرجل وقال : انزل فَكُلْ .

* * * *

٨ ـ أنبأنا أحمد بن أحمد المتوكلي ، قال محمد بن علي الجلّاب : جاءَ طفيليٌّ إلى عُرْسٍ ، فمُنِع من الدخول ، وكان يعلم أنّ أخاً للعروس غائبٌ ، فذهب وأخذ ورقة كاغد ، فطواها وختمها وليس في بطنها شيءٌ ، وجعل في ظاهرها : من الأخ إلى العروس ، وجاءَ ، فقال : معي كتاب من أخي العروس إليه ، فأُذِنَ له فدخل ودفع إليهم الكتاب ، فقالوا : ما رأينا مثل هذا العنوان ؟ ليس عليه اسم أحد ! فقال : وأعجب من هذا أنّه ليس في بطن الكتاب ولا حرفٌ واحد ، لأنه كان مستعجلاً ؛ فضحكوا منه ، وعرفوا أنه احتال لدخوله ، فقبلوه .

* * * *

٩ ــ أنبأنا أبو بكر ابن عبد الباقي ، قال أبو عمرو نصر بن علي الجهضميّ : كان لي جارٌ طفيليٌّ ، وكان من أحسن الناس منظراً ، وأعذبهم منطقاً ، وأطيبهم رائحةً ، وأجملهم لباساً ، وكان من شأنه أني إذا دُعِيتُ إلى دعوة تبعني ، فيكرمُه الناسُ من أجلي ، ويظنُّون أنه صاحبٌ لي ؛ فاتَّفَق يوماً أن جعفر بن القاسم الهاشمي أمير البصرة أراد أن يَخْتِنَ بعض أولاده ، فقلت في نفسي : كأنّي برسوله وقد جاءَ ، وكأنّي بهذا الرجل قد تبعني ، والله لئن تبعني لأفضحنَّه ؛ فأنا على ذلك إذ جاءَ رسوله يدعوني ، فما زدت على أن لبست ثيابي وخرجتُ فإذا أنا بالطُّفيلي واقفٌ على باب داره وقد سبقني بالتأهب ، فتقدَّمتُ وتبعني ، فلما دخلنا دار الأمير جلسنا ساعة ، ودعي بالطعام ، وحضرت الموائد ، وكان كلُّ جماعة على مائدة والطفيليّ معي ، فلما مدّ يده ليتناول الطعام ، قلتُ : حدثنا دُرُسْت بن زياد ، عن أبان بن طارق ، عن نافع ، عن ابن عمر ، قال رسول الله ﷺ : « من دخل دار قوم بغير إذنهم فأكَلَ طعامهم ، دخل سَارِقاً وخرج مغيراً » . فلما سمع ذلك قال : أنفتُ لك يا أبا عمرو والله من هذا الكلام ، فإنه ما من أحد من الجماعة إلا وهو يظنّ أنك تعرّض به دون صاحبه ، أو لا تستحيي أن تتكلم بهذا الكلام على مائدة سيّد من أطعم الطعام وتبخل بطعام غيرك على من سواك ؟ ثم لا تستحيي أن تحدّث عن دُرُسْت بن زياد ، وهو ضعيف ؛ عن أبان بن طارق ، وهو متروك الحديث ، يحكم برَفْعِه إلى النبيّ ﷺ والمسلمون على خلافه ، لأنَّ حكم السارقِ القطعُ ، وحكم المغير أن يعزَّرُ على ما يراه الإمام ؛ وأين أنت من حديث : حدثنا أبو عاصم النبِيل ، عن ابن جريج ، عن أبي الزبير ، عن جابر ، قال : قال رسول الله ﷺ : « طَعَامُ الواحد يكفي الاثنين ، وطعامُ الاثنين يكفي الثلاث ، وطعام الثلاث يكفي الأربعة ، وطعام الأربعة يكفي الثمانية » وهو إسناد صحيح ومَتْنٌ صحيح ! قال نصر بن عليّ : فأفحمني ، فلم يحضرني له جواب ؛ فلما خرجنا من الموضع للانصراف فارقني من جانب الطريق إلى الجانب الآخر بعد أن كان يمشي ورائي ، وسمعته يقول :

ومـن ظَـنَّ مِمَّـنْ يُلَاقِـي الحُـرُو … بَ بـألاَّ يُصَاب فَقَـد ظَـنَّ عَجْـزَا

* * * *

١٠ ــ أنبأنا محمد بن أبي طاهر ، عن أبي عبيد الله بن عمران المرزباني ، قال : كان طفيلُ العرائسِ الذي ينسب إليه الطفيليون يوصي ابنه عبد الحميد بن طُفَيل في علَّته التي مات فيها ، فيقول له : إذا دخلت عُرْساً فلا تلتفت تلفُّتَ المريب ، وتخيّر المجالس ، فإن كان العرس كثير الزحام فأمُرْ وانْهَ ، ولا تنظر في عيون أهل المرأة ولا في عيون أهل الرجل ، ليظنّ هؤلاءِ أنَّك

من هؤلاءِ ، فإن كان البوّاب غليظاً وِقَاحاً فابدأْ به ، ومُرْهُ وانْهَهُ ، من غير أَن تَعْنُفَ به ، وعليك بكلام بين النَّصيحة والإدلال ؛ ثم أَنشد وقال :

لا تَجْزَعَـنّ مِـنَ الغَرِيـ ـبِ وَلا مِنْ الرَّجُـلِ البَعِيـدْ
وَادْخُـلْ كَـأَنَّكَ طَابِـخٌ بِيَـدَيْكَ مِغْرَفَـةَ الثَّرِيْـد
مُتَدَلِّيـاً فَـوْقَ الطَّعَـا مِ تَدَلِّـيَ البَـازِي الصَّيُّـودْ
لِتَلُـفَّ مَا فِـي فَـوقَ المَـوَا ئِـدِ كُلِّهـا لَـفَّ الفُهُـودْ
وَاطْـرَحْ حَيـاءَكَ إنَّمَـا وَجْهُ المُطَفِّـلِ مِـن حَدِيْـدْ
لا تَلْتَـفِتْ نَحْـوَ البُقُـو لِ ولَا إلى غَـرْفِ الثَّرِيـدْ
حتَّـى إذَا جَـاءَ الطَّعَـا مُ ضَرَبْتَ فِيـهِ بالشَّدِيـدْ
وَعَلَـيْكَ بالفَالُوذَجَـا تِ فإنَّهـا عَيْـنُ القَصِيـدْ
هَـذَا إذا حَرَّرْتَهُـمْ وَدَعَوْتَهُـمُ هـل مـن مَزِيْـد
وَالعُرْسُ لاَ يَخْلُـو مِـن الْـ ـلَّوزِينَـجِ الـرَّطْب العَتِيـدْ
فَـإذا أَتَـيْتَ بِـهِ مَحَـوْ تَ مَحَاسِنَ الجَامِ الجَدِيـدْ

قال : ثم أُغمي عليه عند ذكر اللَّوْزِينَج ساعةً ؛ فلما أَفاق ، رفع رأْسه ، وقال :

وتَنَقَّلَـنْ على المَوائِـد فِعْـلَ شَيْطَـانٍ مَرِيْـد
وإذا انتقـلْتَ عَبَـثْتَ بالـ ـكَعْكِ المُجَفَّـفِ والقَدِيـدْ
يَـا رَبِّ أَنْتَ رَزَقْتَنِـي هَـذَا عَلى رَغْـمِ الـحَسُودْ
وَاعْلَـمْ بِـأَنَّك إنْ قُتِلْـ ـتَ نَعِمْتَ يا عَبْدَ الحَمِيـدْ

* * * *

١١ ــ أنبأنا أبو بكر محمد بن عبد الباقي ، قال علي بن المحسّن بن علي القاضي ، عن أَبيه ، قال : صحب طُفَيْلِيّ رجلاً في سَفَر ، فقال له الرجل : امْضِ فاشتر لنا لحماً ؛ قال : لا والله ما أَقدر ؛ فمضى هو فاشترى ، ثم قال له : قم فَاطْبُخ ، قال : لا أُحسنُ ؛ فطبخ الرجل ، ثم قال له : قم فاثْرِد ؛ قال : والله أَنا كسلان ؛ فثرد الرجل ، ثم قال له : قم فاغرف ، قال : أَخشى أَن ينقلب على ثيابي ؛ فغرف الرجل ثم قال له : قم الآن فكُلْ ؛ قال الطفيلي : قد والله استحييتُ من كثرة خلافي لك ؛ فتقدّم فأَكل .

* * * *

١٢ — قال الجاحظ : قلتُ لأبي سعيد الطفيلي : كم أربعة في أربعة ؟ قال : رغيفين وقطعة لحم .

* * * *

١٣ — وقال المبرّد : قيل لطفيلي : كم اثنان في اثنين ؟ فقال : أربعة أرغفة .

* * * *

١٤ — وقال مرّة : انتظرته مقدار ما يأكُل الإنسان رغيفاً .

* * * *

١٥ — وقال أبو هفَّان : قيل لطفيليٍّ : كم أربعةٌ في أربعة ؟ قال : ستة عشر رغيفاً .

* * * *

١٦ — قال : وتطفَّل رجلٌ مرةً على رجل ، فقال له صاحبُ المنزل : من أنت ؟ قال : أنا الذي لا يحوجك إلى رسول .

* * * *

١٧ — اجتمع جماعةٌ على عصيدة ، فأخذ بعضُهم لقمة وألقاها في السَّمْن ، وقال : ﴿ فكُبْكِبُوا فيها هُمْ والغَاوُون ﴾ [٢٦ سورة الشعراء/الآية : ٩٤] وجرّ السَّمْنَ إليه ، وقال الآخر : ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾ [٢٥ سورة الفرقان/الآية : ١٢] وجرَّ السَّمْن إليه ، وقال الآخر : ﴿ وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وقَصْرٍ مَشِيد ﴾ [٢٢ سورة الحج/الآية : ٤٥] وجرّ السَّمن إليه ، فقال الآخر : ﴿ أَغرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ؟ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْـرَا ﴾ [١٨ سورة الكهف/الآية : ٧١] وجرَّ السمن إليه ، وقال الآخر : ﴿ أَنَّا نَسُوقُ المَاءَ إِلى الأَرْضِ الجُرُزِ ﴾ [٣٢ سورة السجدة/الآية : ٢٧] وجرَّ السَّمْن إليه ، وقال الآخر : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَان تَجْرِيان ﴾ [٥٥ سورة الرحمن/الآية : ٥٠] وجرَّ السَّمن إليه ، وقال الآخر : ﴿ فِيهمَا عَيْنَان نَضَّاخَتَانِ ﴾ [٥٥ سورة الرحمن/الآية : ٦٦] وجرّ السمن إليه ، فقال الآخر : ﴿ فالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [٥٤ سورة القمر/الآية : ١٢] وجرّ السَّمن إليه ، فقال الآخر : ﴿ وَسُقْنَاهُ إلى بَلَدٍ مَيِّتٍ ﴾ [٣٥ سورة فاطر/الآية : ٩] وجرّ السمن إليه ، فقال الآخر : ﴿ وَقِيلَ يا أَرْضُ آبلَعِي

مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾ [١١ سورة هود/الآية : ٤٤] وخلط السَّمن بما بقي من العَصِيدة ، فأخذه كُلَّه .

* * * *

١٨ ــ جاءَ طفيليّ إلى بيت رجل مع جماعة ، فقال له الرجلُ : مَنْ أَنتَ ؟ فقال : إذا كنتَ لا تدعُونا ونحن لا نأتي ، صار في هذا نوعُ جَفَاء .

* * * *

١٩ ــ عرّس طفيلي ، فأتاه طفيليّان في أوّل الناس ، فأدخلهما ، وجاءَ إلى غرفةٍ لهُ يُرتقى إليها بسُلَّم ، فوضع السُّلّم ، وقال : اصعدا لتبعُدا من الأذى وأخصُّكما بفائق الطعام ؛ فصعدا ، فلما حصلا في الغرفة نحّى السُّلَّم ووضع المائدة وأطعم أصدقاءَه وجيرانه وهما مُطَّلعَان عليه ، فلما فرغ القومُ وضع السُّلَّم ، وقال : انزلا ؛ ودَفَعَ في أقفائهما ، وقال : انصرفا رَاشِدَيْن ، لا أصغر الله مَمْشاكما ، قد قضيتما حق أخيكما .

* * * *

٢٠ ــ دَخَلَ طفيليٌّ على قوم ، فبينما هو يأكُلُ سمع صوتَ السَّدَنة[1] ، فأمسك يده عن الطعام ، فقيل له : لم لا تأكُلُ ؟ قال : حتى تسكنَ هذه الأراجيفُ التي أسمعُها .

* * * *

٢١ ــ وقيل لطفيلّي مرةً : ما بالُك أصفرُ اللّون ؟ فقال : من الفَتْرة التي بين الغَضَارتَيْن أخافُ أن يكون الطعام قد فَنِي .

* * * *

٢٢ ــ وقال طفيلٌّي : لا تتكلّم على الطعام إلا أن تقول : نعم ، فإنها مضغة .

* * * *

٢٣ ــ أوصى طفيلٌّي غلامه ، فقال : إذا ضاق بك الموضعُ ، فقل للذي بجانبك : لعلّي

(١) « السَّدَنَة » جمع سادن ، وهو : الخادم والحاجب .

ضيّقتُ عليك ، فإنه سيوسّع لك المكان كموضع رجلٍ آخر .

*　*　*　*

٢٤ ــ وقال بُنان : حفظتُ القرآن كلّه ، ثم أنسيته إلّا حرفين : ﴿ آتِنا غَدَاءَنَا ﴾ [١٨ سورة الكهف/الآية : ٦٢] .

*　*　*　*

٢٥ ــ وقال بُنان : التمكُّن على المائدة خيرٌ لك من زيادة أَربعة أُلوان .

*　*　*　*

٢٦ ــ وعطش رجلٌ إلى جنبُ بُنَان في دعوة ، فقال بنان : ارفع رأْسك إلى فوق وتنفس ثلاثاً فإنه ينزل ما أُكلته من الطعام .

*　*　*　*

الباب الثامن والعشرون
في
ذكر طرف من فطن المتلصصين

١ ــ أخبرنا محمد بن ناصر ، قال : أخبرنا عبد الله الحميدي ، قال : أخبرنا أبو غالب محمد بن أحمد بن سهل بن بِشْران ، قال : أخبرنا أبو الحسين بن دينار ، قال : أنبأنا أبو طالب عبيد الله بن أحمد الأنباري ، قال : حدثنا يموت بن المزرّع ، عن المبرّد ، قال : حدثني أحمد ابن المعدّل البصري ، قال : كنتُ جالساً عند عبد الملك بن عبد العزيز المَاجِشُون ، فجاءَه بعض جلسائه ، فقال : أعجوبة ! قال : ما هي ؟ قال : خرجتُ إلى حائطي بالغابة ، فلما أن أصحرت وبعدت عن البيوت ، بيوتِ المدينة ، تعرّض لي رجلٌ ، فقال : اخلع ثيابك ! فقلت : وما يدعُوني إلى خَلْع ثيابي ؟ قال : أنا أولى بها منكِ ، قلت : ومن أين ؟ قال : لأني أخوك ، وأنا عُريان وأنت مكسوّ ؛ قلت : فالمواساةُ ! قال : كلاَّ ، قد لبستَها برهةً وأنا أريدُ أن ألبسَها كما لبستَها ؛ قلتُ : فتعرّيني وتُبْدي عورتي ؟ قال : لا بأس بذلك ، قد رُوينا عن مالك أنَّه قال : لا بأس للرجل أن يغتسل عُرياناً ؛ قلتُ : فيلقاني الناسُ فيرون عورتي ؟! قال : لو كان الناسُ يَرُونك في هذه الطريق ما عرضتُ لك فيها ؛ فقلت : أراك ظريفاً ، فدعني حتى أمضي إلى حائطي وأنزعُ هذه الثياب فأوجّهُ بها إليك ؛ قال : كلاَّ ، أردت أن توجّه إليّ أربعةً من عبيدك فيحملوني إلى السلطان ، فيحبسني ويمزّق جلدي ويطرحُ في رجلي القَيْد ؛ قلتُ : كلا ! أحلف لك أيماناً أني أفِي لك بما وعدتُك ولا أسوءُك ، قال : كلاَّ ، إنا روينا عن مالك ، أنه قال : لا تلزمُ الأيمان التي يُحْلَفَ بها للُّصوص ؛ قلتُ : فأحلف أنِّي لا أحتال في أيماني هذه . قال : هذه يمين مركَّبةٌ على أيمانِ اللّصوص ؛ قلت : فدع المناظرة بيننا ، فوالله لأوجهنّ إليك هذه الثياب طيِّبةً بها نفسي ؛ فأطرق ، ثم رفع رأسَه ، وقال : تدري فيم فكرتُ ؟ قلت : لا . قال : تصفَّحتُ أمرَ اللّصوصِ من عهد رسول الله ﷺ إلى وقتنا هذا ، فلم أجد لصّاً أخذ نسيئةً ، وأكره أن أبتدعَ في الإسلام بدعةً يكونُ عليَّ وِزْرُها ووِزْرُ من عَمِل بها بعدي إلى يوم القيامة ، اخلعْ ثيابك ؛

قال : فخلعتُها ودفعتُها إليه ، فأخذها وانصرف .

* * * *

٢ ــ أنبأنا محمد بن أبي طاهر ، قال : أنبأنا علي بن المحسّن التنوخي ، عن أبيه ، أن أبا القاسم عبيد الله بن محمد الخفَّاف ، حدّثه أنه شاهد لصّاً قد أخِذ وأشهد عليه أنه كان يفتح الأقفالَ في الدورِ اللّطَاف التي لجيراننا ، فإذا دخل حَفَرَ في الدار حُفْرةً لطيفة كأنها بِئر النَّردِ ، وطرح فيها جَوْزَاتٍ كأنَّ إنساناً يلاعبُه ، وأخرج منديلاً فيه نحو مئتي جَوْزة ، فتركه إلى جانبها ، ثم جاز فكَوَّرَ كلَّ ما في الدار مما يطيقُ حملَه ، فإن لم يفطن به أحدٌ خرج من الدار وحمل ذلك كلَّه ، وإن جاءَ صاحبُ الدار ترك عليه قماشه ، وطلب المُفَالتةَ والخُروج ، وإن كان صاحبُ الدار جَلْداً فواثَبهُ ومانعه وهمّ بأخذه وصاح : اللّصُوص ؛ واجتمع الجيرانُ ، أقبل عليه وقال : ما أبردك ! أنا أقامرُك الجوزَ منذ شهور ، وقد أفقرتَني ، وأخذتَ منّي كلَّ ما أملكه ، وأهلكتني ، لأفضحنَّك بين جيرانك ، أنت لمّا قامرتُك الآن تصيح ؟! ــ فما يشكُّ أحدٌ في قوله ــ ، وأنت تدّعي علي باللّصوصية ؟! يا غث ! يا بارد ! بيني وبينك دارُ القمارِ التي تعارفْنا فيها ، قل بحداهم وبحدا هؤلاء الحاضرين قد ضغوتُ ، حتى أخرج ، وأدع عليك قماشَك ؛ وكلّما قال الرجل : هذا لص ؛ قال الجيرانُ : إنما يريد ألاَّ يفضحَ نفسَه بالقمار ، وقد ادّعى عليه اللّصُوصية ؛ ولا يشكُّون في أنه صادقٌ وأن صاحب الدار مُقامر ، فيلعنونه ، ويحولون بينه وبين اللص حتى ينصرفَ ، ويأخذ الجوزَ ، ويفتح الباب وينصرف ، ويفتضح الرجل بين جيرانه .

* * * *

٣ ــ أنبأنا محمد ، قال : أنبأنا علي بن المحسّن ، قال : حدثني محمد بن عمر المتكلم ، ويلقب جنيد ؛ قال : حدثني رجل من الدقّاقين ، قال : أوردَ عليَّ رجلٌ غريب سُفْتَجة[1] بأجل ، وكان يتردّد عليّ إلى أن حلّت السفتجة ، ثم قال لي : وأدعُها عندَك حتى آخذها متفرّقة ، فكان

(١) « السفتجة » تعريب للكلمة الفارسية : « سَفْتَه » وهي : الورقة التي يكتبها المدين للدائن ويذكر فيها قيمة القرض وموعد أدائه ؛ و« السُّفْتَجَة » : أن يُعطِي الرجل مالاً لآخر ، وللآخر مالٌ في بلد المُعْطِي ، فَيُوَفِّيه إياه ثُمَّ ؛ فيستفيدُ أمْن الطريق .

يجيء كلّ يوم فيأخذ بقدر نفقتِه إلى أن نَفِدَت ، فصارت بيننا معرفة ، وألف الجلوس عندي ، وكان يراني أُخرج من صندوق لي فأُعطيه منه ، فقال لي يوماً : إن قُفلَ الرجل صاحبُهُ في سفره ، وأَمينه في حَضَره ، وخليفتُه على حفظ ماله ، والذي ينفي الظِّنة عن أهله وعياله ، فإن لم يكن وثيقاً تطرّقت الحِيلُ إليه ، وأرى قفلك وثيقاً ، فقل لي : ممن ابتعته لأَبتاع مثله لنفسي ؟ فقلت : من فلان الأَقفالي ؛ قال : فما شعرتُ يوماً وقد جئتُ إلى دكاني فطلبت صندوقي لأُخرج منه شيئاً من الدراهم ، فَحُمِل إلي ، ففتحتُه وإذا ليس فيه شيء من الدراهم ، وقلت لغلامي — وكان عندي غير متهم — : هل أنكرتَ من الدُّرابات[1] شيئاً ؟ قال : لا ! قلت : ففتِّش ، هل ترى في الدكان نقْباً ؟ ففتّش ، فقال : لا ! فقلت : فمن السقف حيلة ؟ قال : لا ! قلت : فاعلم أن دراهمي قد ذهبت . فقلق الغلام ، فسكّنتُه ، وأقمت من يومي لا أدري أي شيء أعمل ؛ وتأخر الرجل عني ، فاتهمته ، وتذكرت مسألته لي عن القفل ، فقلتُ للغلام : أخبرني ، كيف تفتح دكاني وتقفله ؟ قال : أحمل الدراب من المسجد دفعتين أو ثلاثة ، فأقفلها ، ثم هكذا أفتحها ؛ قلت : فعلى من تدع الدكان إذا حملتَ الدُّرَابات ؟ قال : خالياً . قلت : من ها هنا دُهيتُ . فذهبت إلى الصانع الذي ابتعتُ منه القُفل ، فقلت له : جاءَك إنسان منذ أيام اشترى منك مثل هذا القفل ؟ قال : نعم ، ورجل من صفته كيت وكيت ؛ فأعطاني صفة صاحبي ، فعلمت أنه احتال على الغلام وقت المساءِ لما انصرفتُ أنا وبقي الغلام يحمل الدُّرَابات ، فدخل هو إلى الدكان ، فاختبأ فيه ومعه مفتاح القفل الذي اشتراه يقع على قفلي ، وأنه أخذ الدراهم ، وجلس طول الليل خلف الدرابات ، فلما جاءَ الغلام ففتح درَابين وحملهما ليرفعهما ، خرج ، وأنه ما فعل ذلك إلاّ وقد خرج من بغداد ؛ قال : فخرجتُ ومعي قفلي ومفتاحه ، فقلت : أبتدىء بطلب الرجل بواسط ؛ فلما صعدتُ من السُّمَيْريَّة طلبت خاناً أنزله ، فصعدتُ ، فإذا بقفل مثل قفلي سواء على بيت ، فقلت لقيّم الخان : هذا البيت من ينزله ؟ قال : رجل قدم من البصرة أمس ، قلت : ما صفته ؟ فوصف صفة صاحبي ، فلم أشُك أنه هو ، وأن الدراهم في بيته ؛ فاكتريتُ بيتاً إلى جانبه ، ورصدت حتى انصرف قيمُ الخان ، ففتحت القفلَ ، ودخلت ، فوجدت كيسي بعينه ، فأخذتُه ، وخرجت ، وأقفلت الباب ، ونزلت في الوقت في السفينة ، وانحدرتُ إلى البصرة ، وما أقمتُ بواسط إلا ساعتين من النهار ، ورجعت إلى منزلي بمالي بعينه .

* * * *

(١) « الدُّرابات » : أجزاء الباب .

٤ — أنبأنا محمد بن عبد الباقي ، قال : أخبرنا علي بن المحسن ، عن أبيه ، قال : حدثني عبد الله بن محمد الصروري ، قال : حدثني ابن الدنانير التمار ، قال : حدثني غلام لي ، قال : كنت ناقداً بالأُبلَّةِ لرجل تاجر ، فاقتضيت له من البصرة نحو خمس مئة دينار عيناً وورقاً ، ولففتهما في فوطة ، وأمسيت على المسير إلى الأُبلَّة ، فما زلت أطلب ملاحاً ولا أجد ، إلى أن رأيت ملاحاً مجتازاً في خيطية خفيفة فارغة ، فسألته أن يحملني ، فخفَّف عليّ الأجرة ، وقال : أنا أرجع إلى منزلي بالأُبلَّة ، فانزل ؛ فنزلت ، وجعلت الفوطة بين يديّ ، وسرنا ، فإذا رجلٌ ضريرٌ على الشَّطِّ يقرأُ أحسن قراءَة تكون ، فلما رآه الملاح كَبّر ، فصاح هو بالمَلّاح : احملني فقد جَنَّني الليلُ ، وأخاف على نفسي ؛ فشتمه الملاحُ ، فقلت له : احمله ؛ فدخل إلى الشطِّ ، فحمله ، فرجع إلى قراءَته ، فخلب عقلي بطيبها ، فلما قربنا من الأُبلَّة ، قطع القراءَة وقام ليخرج في بعض المشارع بالأُبلة ، فلم أر الفوطة ، فاضطربت ، وصحت ، واستغاث الملاح ، وقال : الساعة تنقلب الخيطيّة ؛ وخاطبني خطابَ من لا يعلم حالي ، فقلت : يا هذا ! كانت بين يدي فوطة فيها خمس مئة دينار ! فلمّا سمع المَلّاح ذلك لطم وبكى وتعرى من ثيابه ، وقال : لم أدخل الشطَّ ولا لي موضع أخبىء فيه شيئاً ، فتتهمني بسرقته ولي أطفال وأنا ضعيف ؟ فالله في أمري ؛ وفَعَلَ الضريرُ مثل ذلك ؛ وفتشت السُّمَيْرِيّة فلم أجد فيها شَيئاً ، فرحمتُهما ، وقلت : هذه محنة لا أدري كيف التخلُّصُ منها ؟ وخرجنا فعملتُ على الهرب ، وأخذ كلُّ واحد منَّا طريقاً ، وبت في بيت ولم أمض إلى صاحبي ، فلما أصبحت عملت على الرجوع إلى البصرة لأستخفي بها أياماً ثم أخرج إلى بلد شاسع ، فانحدرتُ وخرجت في مشرعة بالبصرة وأنا أمشي وأتعثر وأبكي قلقاً على فراق أهلي وولدي وذهاب معيشتي وجاهي ، فاعترضني رجل ، فقال : مالك ؟ فأخبرته الخبر . فقال : أنا أردّ عليك مالَك ؛ فقلت : يا هذا ! أنا في شُغل عن طَنْزِك بي . قال : ما أقول إلاَّ حقّاً ؛ امض إلى السجن ببني نمير ، واشتر معك خبزاً كثيراً وشواءً جيداً وحلوى ، وسل السجَّان أن يوصلك إلى رجل محبوس هناك يقال له : أبو بكر النقاش ، قل له : أنا زائرُهُ ؛ فإنك لا تمنع ، فإن منعت فهب للسَّجَّان شيئاً يسيراً يُدخلْك إليه ، فإذا رأيته ، فسلِّم عليه ولا تخاطبْه حتى تجعل بين يديه ما معك ، فإذا أكل وغسل يديْه ، فإنَّه يسألُك عن حاجتك ، فأخبره خبرَك ، فإنه سيدلُّك على من أخذ مالك ويرتَجعُه لك ؛ ففعلتُ ذلك ، ووصلتُ إلى الرّجل ، فإذا شيخٌ مثقّل بالحديد ، فسَلَّمْتُ وطرحتُ ما معي بين يديه ، فدعا رفقاءَ له فأكلُوا ، فلما غسل يديْه ، قال : من أنت ؟ وما حاجتُك ؟ فشرحتُ له قصتّي ، فقال : امض الساعة إلى بني هلال ،

فادخل الدّربَ الفلاني حتى تنتهي إلى آخره ، فإنك تشاهدُ باباً شَعِثاً ، فافتحه وادخله بلا استئذان ، فستجد دهليزاً طويلاً يؤدّي إلى بابين ، فادخل الأيمن منهما ، فسيُدخلك إلى دار فيها بيتٌ فيه أوتاد وبواري ، وعلى كلّ وتد إزارٌ ومئزرٌ ، فانزع ثيابك وألقها على الوتد ، واتزرْ بالمئزر واتشح بالإزار ، واجلس ، فسيجيءُ قومٌ يفعلون كما فعلتَ ، ثم يُؤتَوْن بطعام فكلْ معهم ، وتعمّد موافقتهم في سائر أفعالهم ، فإذا أُتِيَ بالنبيذ فاشربْ ، وخذ قدحاً كبيراً واملأه ، وقم قائماً وقل : هذا ساري لخالي أبي بكر النقاش ؛ فسيفرحون ويقولون : أهو خالك ؟ فقل : نعم . فسيقومون ويشربُون لي ، فإذا جلسوا ، فقُل لهم : خالي يقرأ عليكم السلامَ ، ويقول لكم : يا فتيان ! بحياتي رُدّوا على ابن أختي المئزر الذي أخذتموه بالأمس في السفينة بنهر الأُبلة ؛ فإنهم يردونه عليك ؛ فخرجت من عنده ، وفعلتُ ما أمر ، فرُدّت الفوطةُ بعينها وما حُلّ شدّها ، فلما حصلتْ لي ، قلتُ : يا فتيان ! هذا الذي فعلتُموه بي هو قضاءٌ لحقّ خالي ، ولي أنا حاجةٌ تخصُّني ؛ قالوا : مقضيّة ، قلتُ : عرّفوني كيف أخذتم الفُوطة ؛ فامتنعوا ساعةً ، فأقسمتُ عليهم بحياة أبي بكر النقاش ، فقال لي واحدٌ منهم : أتعرفني ؟ فتأملتُه جيداً ، فإذا هو الضرير الذي كان يقرأ ، وإنما كان متعامياً ؛ وأومأ إلى آخرَ ، فقال : أتعرف هذا ؟ فتأملتُه ، فإذا هو الملاّح ؛ فقلت : كيف فعلتما ؟ فقال المَلاّح : أنا أدور المشارع في أول أوقات المساءِ ، وقد سبقت بهذا المتعامي ، فأجلسته حيث رأيتَ ، فإذا رأيتُ من معه شيء له قدر ناديته وأرخصت له الأجرة وحملته ، فإذا بلغتُ إلى القارىء وصاح بي شتمته حتى لا يشكّ الراكب في براءَة الساحة ، فإن حمله الراكب فذاك ، وإلاّ رفّقتُه عليه حتى يحمله ، فإذا حملتُه ، وجلس يقرأُ ذُهِل الرجل كما ذهلتَ ، فإذا بلغنا الموضع الفلاني ، فإنّ فيه رجلاً متوقعاً لنا يسبح حتى يلاصقَ السفينة ، وعلى رأسه قَوْصَرة ، فلا يفطن الراكب به ، فيسلُبُ هذا المتعامي الشيءَ الذي يخفيه ، فيلقيه إلى الرجل الذي عليه القوصرة ، فيأخذه ، ويسبح إلى الشطّ ، وإذا أراد الراكبُ الصعودَ وافتقد ما معه عملنا كما رأيت ، فلا يتهمنا ونفترق ، فإذا كان من غدٍ اجتمعنا واقتسمناه ، فلما جئت برسالة أستاذنا خالك سلمنا إليك الفوطة . قال : فأخذتها ورجعت .

* * * *

٥ ــ أخبرنا محمد بن ناصر ، قال : أنبأنا المبارك بن عبد الجبار ، قال : أنبأنا الجوهري ؛ وأخبرنا ابن ناصر قال : أخبرنا عبد المحسن بن محمد قال : أخبرنا أبو القاسم التنوخي ، قال : أخبرنا ابن حَيَّوَيْه ، قال : حدثنا محمد بن خلف ، قال : حدثني لصٌّ تائب ، قال : دخلتُ

مدينةً ، فجعلت أطلب شيئاً أسرقه ، فوقعتْ عيني على صيرفيٍّ موسر ، فما زلتُ أحتال حتى سرقتُ كيساً له وانسللتُ ، فما جُزْتُ غير بعيد إذ أنا بعجوز ومعها كلب قد وقعت في صدري تبوسُني وتَلْزَمُني ، وتقول : يا بُنَي ! فديتُك ؛ والكلب يبصبصُ ويلوذُ بي ، ووقف الناس ينظرون إلينا ، وجعلت المرأةُ تقولُ : بالله انظروا إلى الكلب كيف قد عرفه !؟ فعجب الناسُ من ذلك ، وتشككتُ أنا في نفسي ، وقلت : لعلّها أرضعتني وأنا لا أعرفها ! وقالت : معي إلى البيت أقم عندي اليوم ؛ فلم تفارقني حتى مضيتُ معها إلى بيتها ، وإذا عندها أحداث يشربون ، وبين أيديهم من جميع الفواكه والرياحين ، فرحّبُوا بي ، وقرّبوني ، وأجلسوني معهم ، ورأيتُ لهم بِزَّةً حسنة فوضعت عيني عليها ، فجعلتُ أسقيهم وأرفُق بنفسي إلى أن ناموا ونام كلُّ من في الدار ، فقمتُ وكوّرتُ ما عندهم ، وذهبتُ أخرج ، فوثب عليَّ الكلب وثبةَ الأسد ، وصاح ، وجعل يتراجع وينبح إلى أن انتبه كلُّ نائم ، فخجلتُ واستحييتُ ، فلمّا كان النهارُ فعل مثل فعلهم أمس ، وفعلتُ أيضاً أنا بهم مثل ذلك ، وجعلت أوقع الحيلة في أمرِ الكلب إلى اللَّيل ، فما أمكنني فيه حيلة ، فلما ناموا رمتُ الذي رمتهُ ، فإذا الكلبُ قد عارضني بمثل ما عارضني به ، فجعلت أحتالُ ثلاث ليالٍ ، فلما أيست طلبتُ الخلاصَ منهم بإذنهم ، فقلت : أتأذنون لي ؟ فإني على وَفَز ، فقالوا : الأمر إلى العجوز ؛ فاستأذنتُها ؛ فقالت : هاتِ الذي أخذتَه من الصَّيرفيِّ وامض حيثُ شئت ، ولا تقُم في هذه المدينة ، فإنه لا يتهيأُ لأحد يعمل فيها معي عَمَلاً ؛ فأخذت الكيسَ وأخرجتني ، ووجدتُ مُناي أن أسْلم من يدها ، وكان قصاراي أن أطلبَ منها نفقة ، فدفعت إليّ ، وخرجتْ معي حتى أخرجتْني عن المدينة والكلب معها ، حتى جزت حدود المدينة ، ووقفَتْ ومضيتُ والكلبُ يتبعني حتى بَعُدْتُ ، ثم تراجع ينظر إليّ ويتلفت ، وأنا أنظر إليه ، حتى غاب عني .

* * * *

٦ ــ أنبأنا محمد بن أبي منصور ، قال : أنبأنا أبو غالب محمد بن الحسن الباقلاوي ، قال : أنبأنا القاضي أبو العلاء الواسطي ، قال : أنبأنا أبو الفتح محمد بن الحسين الأزدي ، قال : حدثنا علي بن محمد القاري ، قال : حدثنا سهل الخلاطي ، قال : بلغني أن مُحْتالَيْن سرقا حماراً ، ومضى أحدُهما ليبيعَه ، فلقيه رجلٌ معه طبقٌ فيه سمك ، فقال له : تبيع هذا الحمار ؟ قال : نعم ، قال : أَمْسِك هذا الطبقَ حتى أركبَه وأنظرَ إليه . قال : فدفع إليه الطبقَ فيه السَّمك ، فركبه ورجع ، ثم ركبه ودخل زُقَاقاً ، ففرّ به ، فلم يدر أين ذهب ؛ قال : فرجع المحتالُ ، فلقيه رفيقُه ،

فقال : ما فعل الحمار ؟ قال : بعناه بما اشتريناه ، وربحنا هذا الطبق وهذا السمك .

* * * *

٧ ــ وقد روينا أن رجلاً سرق حماراً ، فأتى السوقَ ليبيعه ، فسُرِقَ منه ، فعاد إلى منزله ، فقالت له امرأته : بكم بعتَه ؟ قال : برأس ماله .

* * * *

٨ ــ أنبأنا محمد بن أبي طاهر ، قال : أنبأنا عليُّ بن المحسِّن ، عن أبيه ، قال : حدّثني عبد الله ابن محمد الصروري قال : حدثنا بعضُ إخواننا أنَّه كان ببغداد رجلٌ يطلب التلصُّص في حداثته ، ثم تاب ، فصار بزَّازاً ، قال : فانصرف ليلةً من دكانه وقد أغلَقَهُ ، فجاءَ لصّ محتال متزيٍّ بزيّ صاحب الدكان ، في كُمّه شمعة صغيرة ومفاتيح ، فصاح بالحارس ، فأعطاه الشَّمعة في الظلمة ، وقال : أشعلها وجئني بها ، فإن لي الليلة في دكاني شُغْلاً ؛ فمضى الحارسُ يشعلُ الشمعة ، وركب اللص المفاتيح على الأقفال ففتحها ، ودخل الدُّكانَ ، وجاءَ الحارسُ بالشمعة ، فأخذها من يده ، فجعلها بين يديه ، وفتح سَفَطَ الحساب ، وأخرج ما فيه ، وجعل ينظرُ في الدفاتر ويُري بيده أنه يحسبُ ، والحارس يتردّد ويطالعه ، ولا يشكُّ في أنَّه صاحب الدكان إلى أن قارب السَّحَرَ ، فاستدعى اللصّ الحارس وكلّمه من بعيد ، وقال : اطلب لي حَمّالاً ؛ فجاءَه بحمّالٍ ، فحمل عليه أربع رزم مثمنة ، وقفل الدكان وانصرف ومعه الحمّالُ ، وأعطى الحارسَ درهمين ؛ فلما أصبح الناس ، جاءَ صاحبُ الدكان ليفتح دكانه ، فقام إليه الحارس يدعو له ويقول : فعل الله بك وصنع كما أعطيتني البارحة الدرهمين ؛ فأنكر الرجلُ ما سمعه ، وفتح دكانه ، فوجد سيلانَ الشمعةِ وحسابَهُ مطروحاً وفَقْدَ الأربع رُزَم ؛ فاستدعى الحارسَ ، وقال له : من كان حمل الرُّزَم معي من دكاني ؟ قال : أما استدعيتَ منّي حمّالاً فجئتُك به ؟ قال : بلى ! ولكن كنتُ ناعساً وأُريد الحمّال ، فجئني به ؛ فمضى الحارسُ ، فجاءَ بالحمّال ، وأغلق الرجل الدكانَ ، وأخذ الحمّال معه ومضى ؛ فقال : له إلى أين حملت الرزم البارحة ؟ فإني كنت منتبذاً ؛ قال : إلى المشرعة الفلانية ، واستدعيت لك فلاناً الملاح ، فركبتَ معه ؛ فقصد الرجلُ المشرعة ، وسأل عن الملاح ، فحضر ، وركب معه ، وقال : أين عديت بأخي الذي كان معه الأربع رزم ؟ فقال : إلى المشرعة الفلانية ؛ قال : اطرحني إليها ، فطرحه ، قال : من حملها معه ؟ قال : فلانٌ الحمّال ؛ فدعا به ، فقال له : امْشِ بين يديّ ؛ فمشى ، فأعطاه شيئاً ، واستدلَّه برفق إلى الموضع الذي حَمَل إليه الرُّزَم ، فجاءَ به إلى باب غرفة في موضع بعيد من الشطّ قريب من الصحراء ،

فوجد الباب مقفلاً ، فاستوقف الحمّال ، وفشَّ القفل ، ودخل ، فوجد الرزم بحالها ، وإذا في البيت برْنكان [ثوب أو كساء أسود] معلَّق على حبل ، فلفّ الرزم فيه ، ودعا بالحمّال فحملها عليه ، وقصد المشرعة ، فحين خرج من الغرفة استقبله اللصُّ ، فرآه وما معه ، فأبلس ، فاتبعه إلى الشطِّ ، فجاءَ إلى المشرعة ، ودعا الملاحَ ليعبرَ ، فطلب الحمّال من يَحطُّ عنه ، فجاءَ اللصّ فحطَّ الكساءَ كأنه مجتازٌ متطوّع ، فأدخل الرزم إلى السفينة مع صاحبها ، وجعل البرنكان على كتفه ، وقال له : يا أخي ! أستودعك الله ، قد ارتجعتَ رُزَمَك فدع كسائي ؛ فضحك ، وقال : انزل ، فلا خوف عليك ؛ فنزل معه ، واستتابه ، ووهب له شيئاً ، وصرفه و لم يُسيء إليه .

* * * *

٩ ــ أنبأنا محمد بن أبي طاهر ، عن أبي القاسم التنوخيّ ، عن أبيه : أنَّ رجلاً من بني عقيل مضى ليسرقَ دابة ، قال : فدخلت الحيَّ ، فما زلت أتعرّف مكان الدابّة ، فاحتلتُ حتى دخلت البيت ، فجلس الرجلُ وامرأته يأكلان في الظلمة ، فأهويت بيدي إلى القصعة ، وكنت جائعاً ، فأنكر الرجلُ يدي وقبض عليها ، فقبضتُ على يد المرأة بيدي الأُخرى ، فقالت المرأةُ : مالك ويدي ؟ فظن أنه قابض على يد امرأته ، فخلى يديّ ، فخليت يد المرأة ، وأكلنا ، ثم أنكرتِ المرأةُ يدي ، فقبضَتْ عليها ، فقبضتُ على يد الرجل ؛ فقال لها : مالك ويدي ؟ فخلت يدي ، فخليت عن يده ، ثم نام وقمت فأخذت الفرس .

وقد رُوِيَت هذه الحكاية على صفة أُخرى : أنبأنا محمد بن أبي طاهر ، قال : أنبأنا التنوخيّ ، عن أبيه ، قال : حدثنا أبو الحسن محمد بن أحمد الكاتب ، قال : حدثني محمد بن بديع العقيلي ، أحد قوادهم ووجوههم في الحي ، كان ورد إلى معز الدولة فأكرمه وأحسن إليه ، قال : رأيت رجلاً من بني عقيل وظهره كله مشرّط كشرطات الحجّام ، إلاَّ أنَّها أكبر ؛ فسألته عن ذلك ، فقال : إني كنت هَوِيْتُ ابنة عمٍّ لي ، فخطبتها ، فقالوا : لا نزوِّجُك إلَّا أن تجعل في الصداق « الشبكة » فرس سابقة كانت لبعض بني أبي بكر ، فتزوّجتها على ذلك ، وخرجتُ في أن أحتال أن أسُلَّ الفرس من صاحبه لأتمكن من الدخول بابنة عمي ، فأتيت الحي الذي فيه الفرس ، وما زلت أداخلهم ، فمرةً أجيءُ إلى الخباء الذي فيه الرجل كأنِّي سائلٌ ، إلى أن عرفت مبيت الفرس من الخباء الذي فيه الرجل ، فاحتلت حتى دخلتُ البيت من خلفه ، وحصلت خلف النَّضَد تحت عِهنٍ كانوا نفشوه ليُغْزل ، فلما جاءَ الليلُ وافى صاحبُ البيت وقد ناولت له المرأةُ عَشَاءً ، وجلسا يأكلان ، وقد استحكمت الظلمةُ ولا مصباحَ لهم ، وكنت جائعاً ، فأخرجت

يدي وأهويتُ إلى القصعة فأكلتُ معهما ، وأحسّ الرجل بيدي ، فأنكرها ، فقبض عليها ، فقبضتُ على يد المرأة ، فقالت له المرأة : مالك ويدي ؟ فظنَّ أنه قابض على يد امرأته ، فخلّى يدي ، فخلّيتُ يد المرأة ، وأكلنا ؛ ثم أنكرتِ المرأةُ يدي ، فقبضَتْ عليها ، فقبضْتُ على يد الرجل ، فقال لها : ما لك ويدي ؟ فخلّت عن يدي ، فخليتُ عن يده ، وانقضى الطعام ، واستلقى الرجل نائماً ، فلما استثقل وأنا مراصدهم ، والفرس مقيّدة في جانب البيت ، والمفتاح تحت رأس المرأة ، فوافى عبدٌ له أسود ، فنبذ حصاةً ، فانتبهت المرأة ، فقامت إليه وتركت المفتاح مكانه ، وخرجت من الخباء إلى ظاهر البيت ، فإذا هو قد علاها ؛ فأخذتُ أنا المفتاح ، ففتحتُ القفل ، وكان معي لجامُ شعرٍ فأوْجَرْتُهُ الفرسَ ، وركبتُها ، وخرجتُ عليها من الخباء ، فقامت المرأةُ من تحت العبد ، ودخلت الخباءَ ، وصاحتْ ، وذُعِرَ الحيُّ ، فأحسّوا بي ، وركبوا في طلبي ، وأنا أكِدُّ الفرس ، وخلفي خلقٌ منهم ، فأصبحتُ وليس ورائي إلاَّ فارسٌ واحدٌ برُمح ، فلحقني وقد طلعت الشمسُ ، فأخذ يطعنني ، فهذه آثار طعناته في جسدي ، لا فرسه يُلْحِقُه بي حتى يتمكن من طعنته إياي ، ولا فرسي يُنجيني إلى حيث لا يمسُّني الرمح ، حتى وافينا إلى نهرٍ عظيم فصحتُ بالفرسِ فوثبه ، وصاح الفارسُ بالتي تحته فقصّرت ولم تثب ، فلما رأيته عاجزاً عن العبور وقفت لأريح الفرس وأستريح ، فصاح بي ، فأقبلتُ عليه بوجهي ، فقال : يا هذا ! أنا صاحبُ الفرس التي تحتك ؛ وهذه ابنتها ، وإذا قد ملكتَها فلا تخدَعَن فيها ، فإنها تساوي عشر ديّات ، وما طلبتُ عليها شيئاً قط إلاَّ لحقتْهُ ، ولا طلبني عليها أحدٌ إلاَّ فُتُّه ، وإنما سمّيت الشبكة لأنها لم تُرِدْ شيئاً إلا أدركتهُ ، فكانت كالشبكة في صيدها ؛ فقلت له : إذا نصحتني ، فوالله لأنصحنَّك ، كان من صورتي البارحة كيت وكيت ؛ فقصصتُ عليه قصة امرأته والعبد وحيلتي في الفرس ، فأطرق ، ثم رفع رأسه . فقال : ما لَكَ لا جزاك الله من طارق خيراً ؛ طلقتَ زوجتي ، وأخذتَ فرسي ، وقتلتَ عبدي ! .

* * * *

١٠ ــ أنبأنا محمد بن أبي طاهر ، قال : أنبأنا أبو القاسم التنوخيّ ، عن أبيه : أنَّ رجلاً نام في مسجد وتحت رأسه كيسٌ فيه ألْفٌ وخمس مئة دينار ؛ قال : فما شعرتُ إلاَّ بإنسان قد جذبه من تحت رأسي ، فانتبهتُ فزعاً ، فإذا شابٌّ قد أخذ الكيس ومَرّ يَعْدُو ، فقمت لأعْدُو خلفه ، فأذا رِجْلي مشدودةٌ بخيطِ قُنَّبٍ في وتدٍ مضروب في آخر المسجد ، فإلى أني أتخلّص غاب الرجل عن عيني .

* * * *

١١ ــ أنبأنا محمد بن أبي طاهر ، قال : أنبأنا أبو القاسم التنوخيّ ، عن أبيه ، قال : حدثني أبو الحسين عبد الله بن محمد البصري ، قال : حدّثني أبي ، قال : كان بالبصرة رجلٌ من لصوص الليل فَارِهٌ جداً ، مِقْدام ، يقال له : عبّاس بن الخياطة ، قد غلب الأُمراءَ وأشجى أهل البلد ، فلم يزالوا يحتالون عليه إلى أن وقع ، وَكُبِّلَ بمئة رطل حديد ، وحُبس ، فلما كان بعد سنةٍ من حبسه أو أكثر دخل قوم بالأُبُلَّةِ على رجل تاجر كان عنده جوهرٌ بعشرات أُلوف دنانير ، وكان متيقظاً جلداً ، فجاءَ إلى البصرة يتظلّم ، وأعانه خلقٌ من التجار ، وقال للأمير : أنت دسستَ على جوهري ، وما خَصْمي أحد سواك ؛ فورد عليه أمرٌ عظيم ، وخلا بالبوّابين ، وتوعدهم ، فاستنظروه فأنظرهم ، وطلبوا واجتهدوا ، فما عرفوا فاعلَ ذلك ، فعنَّفهم الرجل ، فاستأجلوا مدة أُخرى ، فجاءَ أحد البوّابين إلى الحبس ، فتخادم لابن الخياطة ، ولزمه نحو شهر ، وتذلّل له في الحبس ، فقال له : قد وجب حقك عليّ ، فما حاجَتُك ؟ قال : جوهر فلان المأخوذُ بالأُبُلَّةِ ، لا بدّ أن يكون عندك منه خبرٌ ، فإن دماءَنا مرتهنة به ؛ وحدّثه الحديث ، فرفع ذيله فإذا سَفَطُ الجوهر تحته ، فسلّمه إليه ، وقال : قد وهبتَهُ لك ؛ فاستعظم ذلك ، وجاءَ بالسَّفَط إلى الأمير ، فسأله عن القصة ، فأخبره بها ، فقال : عليّ بعبّاس ؛ فجاءوا به ، فأمر بالإفراج عنه وإزالة قيوده وإدخاله الحمام ، وخلع عليه ، وأجلسه في مجلسه مكرماً ، واستدعى الطعامَ ، فواكله وبيّته عنده ، فلما كان من الغد خلا به ، وقال : أنا أعلمُ إنك لو ضُربت مئة ألَف سَوْط ما أقررت كيف كانت صورةُ أخذ الجوهر ؟ وقد عاملتُك بالجميل ليجب حَقّي عليك من طريق الفُتُوّة ، وأريد أن تصدقَني حديثَ هذا الجوهر ؛ قال : على أنّني ومن عاونني عليه آمنون ؟ وأنك لا تطالبنا بالقوم الذين أخذوه ؟ قال : نعم ؛ فاستحلفه ؛ فقال له : إنَّ جماعة من اللصوص جاءُوني إلى الحبس ، وذكروا حال هذا الجوهر ، وأن دارَ هذا التاجر لا يتطرَّقُ عليها نـقبٌ ولا تسليق ، وعليها باب حديد ، والرجل متيقّظ ، وقد راعوه سنةً فما أمكنهم ، وسألـوني مساعدتهم ، فدفعتُ إلى السّجانِ مئة دينار ، وحلفتُ له بالشطارة والأيْمان الغليظة أنه إن أطلقني عدتُ إليه من غدٍ ، وإنّه إن لم يفعل ذلك اغتلتُه فقتلتُه في الحبس ؛ فأطلقني ، فنزع الحديد ، وتركتُه ، وخرجتُ المغرب ، فوصلنا إلى الأُبُلَّة العتمةَ ، وخرجنا إلى دار الرجل ، فإذا هو في المسجد وبابه مُغْلَق ، فقلتُ لأحدهم : تَصَدَّقْ مِنَ البابِ ؛ فتصدّق ، فلما جاءوا ليفتحوا ، قلت له : اختفِ ؛ ففعل ذلك مرّات والجارية تخرج ، فإذا لم تر أحداً عادت ، إلى أن خرجت من الباب ومشت خطوات تطلب السائل ، فتشاغَلَتْ بدفع الصَّدَقةِ إليه ، فدخلتُ أنا إلى الدار ، فإذا في الدهليز بيت فيه حمارٌ ، فدخلته ، ووقفت تحت الحمار ، وطرحت الجَلَّ عليّ وعليه ،

وجاءَ الرجل ، فغلَّق الأَبواب وفتَّش ، ونام على سرير عال والجواهر تحته ، فلما انتصف الليلُ ، قمت إلى شاة في الدار ، ففركتُ أُذنها ، فصاحت . فقال الرجل للجارية : اطرحي لها علفاً ؛ ففعلتْ ونامت ، ففركتُ أُذنها ، فصاحت ، فقال : ويلَك ! كم أَقولُ لك افتقديها ؟! قالت : قد فعلت ! قال : كذبت ؛ وقام بنفسه ليطرح لها علفاً ، فجالستُه على السرير ، وفتحت الخِزَانة ، وأَخذتُ السَّفَط ، وعدتُ إلى موضعي ، وعاد الرجل فنام ، فاجتهدتُ أَن أَجدَ حيلةً أَن أنتقبَ إلى دار بعض الجيران فأَخرج فما قَدرتُ ، لأَن جميع الدار مؤزَّرةً بالسّاج ، ورمت صعودَ السطح فما قدرت ، لأَنَّ الممارق مقفلة بثلاثة أَقفال ، فعملتُ على ذبح الرجل ، ثم استقبحت ذلك ؛ وقلت : هذا بين يدي إن لم أَجد حيلةً غيره ؛ فلما كان السّحر عدتُ إلى موضعي تحت الحمار ، وانتبه الرجل يريد الخروج ، فقال للجارية : افتحي الأَقفالَ عن الباب ودعيه مترساً ؛ ففعلت ؛ وقربت من الحمار ، فرفس ، فصاحت ، فخرجت أنا ، ففتحت المِتْرَسَ ، وخرجت أَعدو حتى جئت إلى المشرعة ، فنزلت في الخيطية ، ووقعت الصيحة في دار الرجل ، فطالبني أَصحابي أَن أَعطيهم شيئاً منه ، فقلت : لا ، هذه قصة عظيمة وأَخاف أَن يُنْتَبَه عليها ، ولكن دعوه عندي ، فإن مضى على هذا الحديث ثلاثةُ أَشهر وانكتم فصيروا إليّ أَعطيكُم النِّصفَ ، وإن ظهر خُفت عليكم وعلى نفسي وجعلته حِقْناً لدمائكم ؛ فرضوا بذلك ، فأَرسل الله هذا البواب بليّة يخدمني ، فاستحييتُ منه ، وخفت أَن يقتل هو وأَصحابه . وقد كنت وضعتُ في نفسي الصبر على كل عذاب ، فدخلتم علي من طريق أُخرى لم أَستحسن في الفتوّة معها إلاَّ الصدق . فقال له الأَمير : جزاؤك هذا الفعل أَن أُطلقك ، ولكن تتوب ؛ فتاب ، وجعله الأَميرُ من بعض أَصحابه ، وأَسنى له الرزق ، واستقامت طريقته .

* * * *

١٢ ــ قال أبو الحسن : وحدّثني أَبي ، عن طالوت بن عباد الصيرفي ، قال : كُنت ليلة نائماً بالبصرة في فراش وحرّاسٍ يحرسوني وأَبوابي مقفلة ، فإذا أَنا بابن الخياطة ينبّهني من فراشي فانتبهتُ فَزِعاً فقلت : من أَنت ؟ فقال : أنا ابن الخيَّاطة ؛ فتلفتُّ ، فقال لي : لا تجزع ، قد قُمِرْتُ الساعة خمس مئة دينار ، أَقْرِضْني إيّاها لأَردّها عليك ؛ فأَخرجتُ خمس مئة دينار ؛ فدفعتها إليه ، فقال : نم ولا تتبعني لأَخرج من حيث جئت وإلاَّ قتلتك .

قال : وأَنا والله أَسمع صوت حراسي ولا أَدري من حيث دخل ولا من أَين خرج ؛ وكتمتُ

الحديث خوفاً منه ، وزدت في الحراس . ومضت ليالٍ ، فإذا أنا به قد أنبهني على تلك الصورة ، فقلت : مرحباً ! ما تريد ؟ قال : جئت بتلك الدنانير ، تأخذها مني ؟ فقلتُ : أنت في حلّ منها ، فإن أردتَ شيئاً آخر فخُذ ؛ فقال : لا أُريد ، من نصح التجار شاركهم في أموالهم ، ولو كنت أردتُ أخذها منك باللصوصية فعلتُ ، ولكنك رئيسُ بلدك ، وما أُريد أذيّتك ، فإن ذلك يخرج عن الفُتُوّة ، ولكن خذها فإن احتجتُ بعد هذا إلى شيء أخذتُ منك ؛ فقلت : إنَّ عَوْدك إليّ يُفْزِعُني ولكن إذا أردت شيئاً فتعال إليّ نهاراً أو رسولك ؛ فقال : أفعل ؛ فأخذتُ الدنانير منه وانصرفَ ، وكان رسولُه يجيئني بعلامة بعد ذلك ، فيأخذ ما يريد ويردّه بعد مدة ، فما انكسر عنده شيء إلى أن قُبض عليه .

* * * *

١٣ ــ حكى لي أبو محمد عبد الله بن عليّ بن الخَشّاب النحوي ، أنَّ رجلاً اشترى من مخاطيٍّ قطعة صابون ، ومضى إلى النهر لغسل ثيابه ، فلما وصل أخرجها من كمه ، فإذا هي قطعةُ آجُرّ ، فصعُب الأمر عليه فمضى إليه ليردّها ، فلما وصل ، قال : وَيْحك ! أتبيع الناس آجراً وصابوناً ؟ قال : كيف أُبيعهم آجراً ؟ فأخرجها من كمه ، فإذا هي قطعة صابون ، فاستحى ورجع إلى النهر ، فأخرجها فإذا هي آجرّة ، فعاد إليه ووبخه ، وأخرجها فإذا هي قطعة صابون ، فعاد مرة أُخرى كذلك حتى ضَجِر ، فقال له المخاطيُّ : لا يضيق صدرك ، فإن لنا ولداً قد أخرجناه نعلمه أن يبُطَّ ويحتال ، وإنك كلّما مضيت فعل هذا ؛ فإذا رآك قد عدت لردّها أعادها في كمك وأنت لا تعلم .

* * * *

١٤ ــ دخل لصٌّ دار قوم ، فلم يجِدْ ما يسرقُ غير دواة مكسورة ، فكتب على الحائط : عزَّ عليّ فقرُكم وغناي .

* * * *

١٥ ــ دخل لصٌّ بيت رجل فأخذ متاعه وخرج ، فصاح الرجل : ما أنحس هذه الليلة ، فقال اللص : ليس على كلّ أحد .

* * * *

١٦ ــ حدثني بعضُ الإخوان أنَّ رجلاً جاءَ إلى بزَّاز ، فاستعرض منه ثياباً بثلاث مئة دينار ، ثم وزنها له ، فلما تسلَّمها قال الرجل : لقد غَبَنْتَنِي ! فعاد وجمع الدنانير وتركها في خرقة وختمها ، ورمى بها في كمّ غلامه ، ثم قال : ما أنا إلاَّ متردّد ، أفتأذَنُ لي أن أُري الثياب مَنْ اشتريتُها له ، فإن رضي وإلاَّ رددتُها ؟ قال : نعم ؛ فأدخل يده في كمّ غلامه فأخرج الخرقة فرمى بها إلى البزَّاز وأخذ الثياب ومضى ، ففتح البزاز الخرقة ، فإذا بها فلوس وقد جعل في كمّ غلامه مثلها وفيها وزن الثلاث مئة .

* * * *

١٧ ــ حدثني أبو الفتح البصري ، قال : اجتمع جماعةٌ من اللصوص ، فاجتاز عليهم شيخٌ صيرفيٌّ معه كيسُه ، فقال أحدهم : ما تقولون فيمن يأخذ كيس هذا؟ قالوا : كيف تفعل؟ قال : انظروا ؛ ثم تبعه إلى منزله ، فدخل الشيخ ، فرمى كيسه على الصُّفَّة ، وقال للجارية : أنا حاقن ، فالحقيني بماءٍ في الغرفة ؛ وصعد ؛ فدخل اللِّصُّ ، فأخذ الكيس ، وجاءَ إلى أصحابه فحدّثهم ، فقالوا : ما عملتَ شيئاً تركته يضرب الجارية ويعذِّبها وما ذا مليح ؛ قال : فكيف تريدون ؟ قالوا : تخلِّص الجارية من الضرب وتأخذ الكيس ؛ قال : نعم ؛ فمضى فطرق الباب ، فإذا به يضرب الجارية . فقال : من ؟ قال : غلام جارك في الدكان ؛ فخرج فقال : ماذا تقول ؟ فقال : سيّدي يسلِّمُ عليك ويقول لك : قد تغيّرت ، ترمي كيسَك في الدكان وتَمْضي ، ولولا أننا رأيناه كان قد أُخِذ ؛ وأخرج الكيس ، وقال : أليس هذا هو ؟ قال : بلى والله صدق ؛ ثم أخذه ، فقال له : بل أعْطنيه ، وادخل فاكتب في رقعة : قد تسلمتُ الكيسَ حتى أتخلَّص أنا ويرجعُ إليك مَالُك ؛ فناوله إياه ، ودخل ليكتب ، فأخذه ومضى .

* * * *

١٨ ــ قال أبو جعفر محمد بن الفضل الصيمري : كان في بلدنا عجوزٌ صالحةٌ كثيرة الصيام والصلاة ، وكان لها ابن صيرفيٌّ منهمك على الشرب واللَّعب ، وكان يتشاغل بدكّانه أكثر نهاره ، ثم يعود عشاء إلى منزله ، فيخبيء كيسه عند والدته ويمضي فيبيت في مواضع يشرب فيها ، فعيّن بعض اللصوص على كيسه ليأخذه ، فجاء وراءه ، ودخل إلى الدار وهو لا يعلم ، فاختبأ فيها ، وسلم هو كيسه إلى أمّه وخرج ، وبقيت وحدها في الدار ، وكان لها في دارها بيت مؤزَّر بالسَّاج ، عليه بابٌ حَدِيدٌ ، تجعل قماشها فيه والكيس ، فخبأت الكيس فيه خلف

الباب ، وجلست فأفطرت بين يديه ، فقال اللص : الساعة تقفله وتنام ، وأنزلُ وأقلع الباب ، وآخذ الكيس . فلما أفطرتْ ، قامت تصلي ، ومدّت الصلاة ، ومضى نصفُ الليل ، وتحيّر اللص ، وخاف أن يدركه الصبح ، فطاف في الدار ، فوجد إزاراً جديداً وبخوراً ، فأتّزر في الإزار ، وأوقد البخور ، وأقبل ينزل على الدرجة ويصيح بصوت غليظ ليُفْزِع العجوز ؛ وكانت جَلِدَة ؛ ففطنت أنه لصّ ، فقالت : من هذا ؟ بارتعادٍ وفَزَعٍ ، فقال : أنا جبريل ، رسول رب العالمين ؛ أرسلني إلى ابنك هذا الفاسق لأعظه وأعامله بما يمنعه عن ارتكاب المعاصي . فأظهرت أنها قد غُشِيَ عليها من الجزع ، وأقبلت تقول : يا جبريل ! سألتك بالله إلا ما رفقت به ، فإنه واحدي ؛ فقال اللُصّ : ما أرسلت لقتله ؛ فقالت : فيمَ أُرسلْتَ ؟ قال : لأخذ كيسه ، وأؤلم قلبَهُ بذلك ، فإذا تاب رَدَدْتُه عليه . فقالت : يا جبريل ! شأنك وما أُمِرْت به . فقال : تنحّي من باب البيت . فتنحّت ، وفتح هو الباب ، ودخل ليأخذ الكيس والقماش ، واشتغل في تكويره ، فمشت العجوز قليلاً قليلاً ، وجذبت الباب ، وجعلت الحلقة في الرزّة ، وجاءت بقفل فقفَلَتْه ، فنظر اللص إلى الموت ، ورام حيلة في ثقب أو منفذ فلم يجد ؛ فقال : افتحي الباب لأخرج ، فقد اتَّعظ ابنك ؛ فقالت : يا جبريل ! أخاف أن أفتح الباب فتذهب عيني من ملاحظة نورك ! فقال : إني أطفيء نوري حتى لا يَذهب بعينيك ، فقالت : يا جبريل ! مَا يعُوزك أن تخرج من السقف أو تخرق الحائط بريشة من جناحك ، ولا تكلفني أنا لتغوير بصري !؟ فأحسَّ اللص أنها جَلِدَة ، فأخذ يرفُق بها ويبذُل التوبة ، فقالت له : دعْ عنك ، لا سبيل للخروج إلاَّ بالنهار ؛ وقامت فصلّت وهو يسألها حتى طلعت الشمس ، وجاء ابنُها ، وعرف خبرَها ، وحدّثته بالحديث ، فأحضر صاحب الشرطة وفتح الباب ، وقبض على اللص .

* * * *

الباب التاسع والعشرون
في
ذكر طرف من أخبار فطناء الصبيان

١ ــ أنبأنا الحسين بن محمد بن عبد الوهاب النحويّ ، قال : أنبأنا أبو جعفر بن المسلمة ، قال : أخبرنا أبو طاهر المخلص ، قال : أنبأنا أحمد بن سليمان بن داود الطوسي ، قال : أخبرنا الزبير بن بكار ، قال : حدّثني محمد بن الضحّاك ، أنَّ عبد الملك بن مروان قال لرأس الجالوت أو لابن رأس الجالوت : ما عندكم من الفِرَاسة في الصبيان ؟ قال : ما عندنا فيهم شيءٌ ، يُخلقون خلقاً بعد خلق ، غير أنا نرمُقُهُم ، فإن سمعنا منهم من يقول في لعبه : من يكونُ معي ؟ رأيناه ذا همةٍ وخير وصدق فيه ، وإن سمعناه يقول : من أكونُ معه ! كرهنا منه ذلك . فكان أولُ ما عُلِم من ابن الزُّبير أنه كان حَدَثاً يلعب يوماً مع الصبيان وهو صبيٌّ ، فمر رجلٌ ، فصاح عليهم ، ففرُّوا ومشى ابن الزبير القَهْقَرى ، وقال : يا صِبيان ! اجعلوني أميرَكم وشُدُّوا بنا عليه . ومرّ به عمر بن الخطّاب وهو صبيٌّ يلعب مع الصبيان ، ففرّوا ووقف ، فقال له : ما لك لم تفرَّ مع أصحابك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ! لم أُجرِمْ فأخاف ، ولم تكن الطريق ضيّقةً فأوسّع لك .

* * * *

٢ ــ أنبأنا محمد بن عبد الباقي البزَّاز ، قال : أنبأنا الحسنُ بن عليّ الجوهريّ ، قال : أخبرنا ابن حيّويه ، قال : أخبرنا أحمدُ بن معروف ، قال : أنبأنا الحسين بن الفَهْم ، قال : حدّثنا محمد بن سعد ، قال : أنبأنا حجّاجُ بن نصر ، قال : حدّثنا قُرّة بنُ خالد ، عن هارون بن زياب ، قال : حدثنا سنان بن مسلمة وكان أميراً على البحرين ، قال : كنا أُغَيْلمة بالمدينة في أُصول النخل نلتقط البلَح الذي يسمّونه الخَلاَل ، فخرج إلينا عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه فتفرّق الغلمانُ ، وثبتُّ أنا مكاني ؛ فلما غشيني ، قلت : يا أمير المؤمنين ! إنما هذا ما ألقتِ الرِّيحُ ؛ قال : أرني أنظرْ ، فإنه لا يخفى عليّ ؛ قال : فنظر في حجري ، فقال : صدَقتَ ؛ فقلت : يا أمير

المؤمنين ! ترى هؤلاءِ الغلمان ؟ واللهِ لئن انطلقتَ لأغاروا عليّ فانتزعوا ما في يدي ، قال : فمشى معي حتى بلَّغَنِي .

* * * *

٣ ــ أخبرنا عبد الرحمن بن محمد ، قال : خرج سفيان بن عيينة إلى أُصحاب الحديث وهو ضجر ، فقال : أليس من الشقاء أن أكون جالست ضمرة بنَ سعيد وجالس ضمرةُ أبا مسعود البَدْري ؛ وجالستُ عَمْرَو بنَ دينار وجالس جابر بن عبد الله ؛ وجالستُ عبد الله بن دينار ، وجالس ابنَ عمرو ؛ وجالستُ الزهريَّ ، وجالس أنس بن مالك ؛ حتّى عدّ جماعةً ، ثم أنا أُجالسكم ؟! فقال له حَدَثٌ في المجلس : انتصف يا أَبا محمد ! قال : إِن شاء الله ، قال : والله لشقاء من جالسَ أصحاب رسول الله ﷺ بكَ أشدُّ من شقائك بنا ؛ فأَطرق ، وتمثّل بشعر أبي نواس :

خَـــلِّ جَنبَيـــكَ لِـــرَامٍ وَامْضِ عَنْـــــهُ بِسَلامِ
مُتْ بِـــــــدَاءِ الصَّمْتِ خَيْـــرٌ لَكَ مِـــنَ الكَـــلاَمِ

فسئل : مَنِ الحَدَثُ ؟ فقالوا : يحيى بن أَكثم . قال سفيان : هذا الغلام يصلح لصحبة هؤلاء . يعني : السلطان .

* * * *

٤ ــ أنبأنا محمد بن عبد الملك ، عن يحيى بن جعفر ، قال : سمعتُ أبـا عـاصم النبيلي يقول : رأيتُ أبا حنيفة في المسجد الحرام يفتي وقد اجتمع الناس عليه ، فآذوه ، وقال : ما ها هنا أَحدٌ يأتنا بشرطي ؛ فدنوت منه ، فقلتُ : يا أَبا حنيفة ! تريد شرطياً ؟! قال : نعم ؛ قلتُ : اقرأ علي هذه الأَحاديث التي معي ؛ فقرأها علي ، فقمت عنه ووقفت بحذائه ، فقال لي : أين الشرطي ؟ فقلت له : إنما قلت : تريد ، ولم أقل لك : أجيء به ؛ فقال : انظروا ! أنا أحتال للناس منذ كذا وكذا وقد احتال عليّ هذا الصبي !.

* * * *

٥ ــ أَخبرنا أبو منصور القزّاز قال : قال أَبو محمد اليزيدي : : كنتُ أُؤدّبُ المأمونَ وهو

في حجرِ سعيد الجوهري ، قال : فأُتيتُ يوماً وهو داخلٌ ، فوجهت إليه بعضَ خدمه يعلُمه بمكاني ، فأبطأ عليَّ ، ثم وجهتُ آخر فأبطأ ، فقلت لسعيد : إنَّ هذا الفتى ربما تشاغل بالبَطَالة وتأخُّر ؛ قال : أَجل ، ومع هذا إنه إذا فارقك تعرَّم على خدمه ولَقُوا منه أذى شديداً ، فقوّمه بالأدب ؛ فلمَّا خرج ، أَمرتُ بحمله ، فضربتهُ سبعَ دِرَر ، قال : فإنه ليدْلِكُ عينيه من البكاءِ إذ قيل : هذا جعفرُ بن يحيى قد أَقبل ؛ فأَخذ منديلاً فمسح عينيه من البكاءِ ، وجمع ثيابه ، وقام إلى مرتبته ، فقعد عليه متربعاً ، ثم قال : ليدخلْ ؛ فقمتُ عن المجلس ، وخفتُ أن يشكوَني إليه فألْقَى منه ما أكره . قال : فأقبل بوجهه ، وحدثه حتى أضحكه وضحك إليه ، فلما همّ بالحركة دعا بدابته ، ودعا غلمانه ، فسعوا بين يديه ، ثم سأل عني ، فجئت ، فقال : خُذ عليّ ما بقي من حِزْبي ؛ فقلت : أيها الأمير ! أطال الله بقاءَك ، لقد خفتُ أن تشكُوَني إلى جعفر ابن يحيى ، ولو فعلتَ ذلك لتنكَّرَ لي ؛ فقال : أتراني يا أبا محمد كنتُ أُطْلعُ الرّشيدَ على هذا ؟ فكيف بجعفر بن يحيى حتى أُطلعه ؟! إنني أَحتاج إلى أدب إذن ، يغفر الله لك بُعد ظنِّك ووجيب قلبك ، خذ في أمرك ، فقد خطر ببالك ما لا تراه أبداً ، ولو عُدْتَ في كلِّ يوم مئة مرّة .

* * * *

٦ — أخبرنا عبد الرحمن ، قال حسن القزويني : سمعت أبا بكر النحويّ يقول : من ألطف رُقعةٍ كُتِبَت في الاعتذار رقعةٌ كتبها الراضي إلى أخيه أبي إسحاق المتّقي ، وقد كان جرى بينهما كلامٌ بحضرة المؤدِّب ، وكان الأخ قد تعدّى على الراضي ، فكتب إليه الراضي : بسم الله الرحمن الرحيم ، أنا معترف لك بالعبودية فرْضاً ، وأنت معترف إليّ بالأخوة فضلاً ، والعبدُ يذنب والمولى يعفو ، وقد قال الشاعر :

يَا ذَا الَّذِي يَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ شَيْ ... آعْتِبْ فَعُتْبَاكَ حَبِيبٌ إِلَيّ
أَنْتَ عَلَى أَنَّكَ لِي ظَالِمٌ ... أَعَزُّ خَلْقِ اللهِ طُرّاً عَلَيّ

قال : فجاءَه أبو إسحاق ، فأكبّ عليه ، فقام إليه الرّاضي ، فتعانقا واصطلحا ، والله أعلم .

* * * *

٧ — أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك ، عن عبد الله بن المأمون ، قال : غضب المأمون على أُمّي أُمّ موسى ، فقَصَدَني لذلك حتى كاد يتلفُني ، فقلت له يوماً : يا أمير المؤمنين ! إن كنتُ غضبانَ على ابنةِ عمّك فعاقبْها بغيري ، فإنّي مِنْك قَبْلها ولك دُونَها ؛ قال : صدقتَ ، والله

يا عبدَ الله ، إنك منّي قبلها ولي دونها ، والحمدُ لله الذي أظهر لي هذا منك ، وبيَّن لي هذا الفضلَ فيك ، لا ترى واللهِ بعد يومك هذا مني سوءاً ولا ترى إلاَّ ما تحب ؛ فكان سببَ رضاه عن أمِّي .

* * * *

٨ ــ أخبرنا ابن ناصر ، عن الأصمعي قال : بينا أنا في بعض البوادي إذا أنا بصبيٍّ ــ أو قال : صبيّة ــ معه قِرْبة قد غلبتهُ ، فيها ماءٌ ، وهو ينادي : يا أبت أدرِكْ فاها ، قد غلبني فُوها ، لا طاقة لي بفيها . قال : فوالله لقد جمع العربيّة في ثلاث كلمات .

* * * *

٩ ــ أخبرنا أبو منصور ، قال : قال الصولي : قال الجاحظُ ، قال ثمامة : دخلتُ إلى صديقٍ لي أعودُه وتركتُ حماري على الباب ، ولم يكن معي غلام يحفظه ، ثم خرجتُ ، وإذا فوقه صبيٌّ ، فقلت : أتركبُ حماري بغير إذني ؟ قال : خفتُ أن يذهب فحفظته لك ؛ قلت : لو ذهب كان أحبَّ إليّ من بقائه ، قال : فإن كان هذا رأيك في الحمار ، فاعمل على أنه قد ذهب وَهَبْهُ لي وارْبح شُكري ؛ فلم أدرِ ما أقول .

* * * *

١٠ ــ أخبرنا القزّاز ، قال : قال رجلٌ من أهل الشام : قَدِمْتُ المدينة ، فقصدتُ منزلَ إبراهيم بن هَرْمة ، فإذا بُنَيّة له صغيرةٌ تلعب بالطِّين ، فقلت لها : ما فعل أبوك ؟ قالت : وَفَد إلى بعض الأجواد ، فما لنا به علمٌ منذ مدة ؛ فقلت : انْحَرِي لي ناقةً ، فإنَّا أضيافك ؛ قالت : واللهِ ما عندنا ؛ قلت : فشاةً ؛ قالت : والله ما عندنا ؛ قلت : فدجاجة ؛ قالت : والله ما عندنا ؛ قلت : فبيضة ، قالت : والله ما عندنا ، قلت : فباطلٌ ما قال أبوك :

كَمْ نَاقَةٍ قَدْ وَجَأْتُ مَنْحَرَهَا ... بِمُسْتَهَلِّ الشُّؤْبُوبِ أَوْ جَمَلِ

قالت : فذاك الفعل من أبي هو الذي أصَارنا إلى أن ليس عندنا شيء .

* * * *

١١ ــ أخبرنا القزّاز ، عن بشر بن الحارث الحافي ، قال : أتيتُ باب المُعافى بن عِمْران ،

فدققتُ البابَ ، فقيل لي : مَنْ ؟ قلت : بِشْرُ الحافي ؛ قالت لي بنيّة من داخل الدار : لو اشتريتَ نعلاً بدانقين ذَهبَ عنك اسمُ الحافي .

* * * *

١٢ — وبلغنا أن المعتصم ركب إلى خاقان يُعوده والفتحُ صبيٌّ يومئذ ، فقال له المعتصم : أيُّما أحسنُ ، دار أمير المؤمنين أو دار أبيك ؟ قال : إذا كان أميرُ المؤمنين في دار أبي فدارُ أبي أحسن ؛ فأراه فصّاً في يده ، فقال : هل رأيتَ يا فتحُ أحسنَ من هذا الفصّ ؟ فقال : نعم ! اليدُ التي هو فيها .

* * * *

١٣ — مَرَّ شَبيبٌ الخارجي على غلام في الفرات ، مستنقع في الماء ، فقال : اخرج يا غلام أسائلْكَ ؛ فعرف الغلامُ شبيباً ، فقال : إني أخاف ؛ قال : ومن أي شيء تخاف ؟ قال : فأنا آمن حتى ألبس ثوبي ؟ قال : نعم ؛ قال : فوالله لا ألبسه اليوم ؛ فقال شبيب : خدعني الغلام ؛ فأمر رجلاً من أصحابه أن يقف عليه لئلا يصيبه أحد بمعرّة ، ثم مضى ، وأقام الغلام إلى أن مضى شَبيبُ وأصحابُه ، ثم خرج .

* * * *

١٤ — قال أبو عليٍّ البصير : توفي أبي وأنا صغير ، فمُنِعْتُ ميراثي ، فقدمْت منازعي إلى القاضي ، فقال لي : بلغتَ ؟ قلت : نعم ؛ قال : ومَنْ يعلمُ بذاك ؟ قلت : من أُنعظ عليه ؛ فتبسّم وأمر بفكِّ حَجْري .

* * * *

١٥ — بلغنا أن إياس بن معاوية تقدّم وهو صبيٌّ إلى قاضي دمشق ومعه شيخٌ ، فقال أصلح الله القاضي ! هذا الشيخُ ظلمني واعتدى عليّ وأخذ مالي ؛ فقال القاضي : ارْفق به ولا تستقبل الشيخ بمثل هذا الكلام ؛ فقال إياس : أصلح الله القاضي ! إن الحقَّ أكبرُ مني ومنه ومنك ؛ قال : اسكت ! قال : إن سكتُّ فمن يقوم بحجّتي ؟ قال : تكلم ، فوالله ما تتكلم بخير ؛ فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ فرفع صاحبُ الخبر هذا الخبر إلى الخليفة ، فعزل القاضي وولّى إياس مكانه .

* * * *

١٦ — نظر المأمون إلى ابن صغير له في يده دفتر ، فقال : ما هذا بيدك ؟ فقال : بعضُ ما تُشحذ به الفطنة وينبّه من الغفلة ويُؤنس من الوحشة ، فقال المأمون : الحمد لله الذي رزقني من ولدي من ينظرُ بعين عقله أكثر ما ينظر بعين جسمه وسنّه .

* * * *

١٧ — وقال الفرزدق لغلام حدث : أيسرّك أني أبوك ؟ قال : لا ، ولكن أُمّي ! ليصيبَ أبي من أطايبك .

* * * *

١٨ — قعد صبيٌّ مع قوم يأكلون ، فبكى ، قالوا : ما لك تبكي ؟ قال : الطعام حارٌّ ؛ قالوا : فدعْه حتى يَبْرد ؛ قال : أنتم لا تدعونه .

* * * *

١٩ — وأُدْخَلَ الجامعَ صبيٌّ صغيرٌ سكّيناً ، فقال : افزعه وآخذها له ؛ ففزعه ، وصاح ، فقال : لا بأس ، ليس أذبحك بها .

* * * *

٢٠ — قال رجل لولد له خبيث : ما أطيب التثكّل ! قال : أطيب منه اليُتْم .

* * * *

٢١ — قال الأصمعي : قلتُ لغلام حدَثَ السِّنِّ من أولاد العرب : أيسرّك أن يكون لك مئة ألف درهم وأنك أحمق ؟ فقال : لا والله ؛ قلت : و لم ؟ قال : أخافُ أن يَجْنِي عليّ حُمقي جنايةً تُذْهب مالي ويبقى عليّ حمقي .

* * * *

٢٢ — بلغنا أن صبيّاً لَقِي رجلاً عاقلاً ، فقال له : إلى أين تمضي ؟ فقال : إلى المُطْبَق ، قال : أوْسِعْ خُطْوَتك .

* * * *

٢٣ — أُدخل على الرشيدِ صبيٌّ له أربعُ سنين ، فقال له : ما تحب أن أهب لك ؟ قال : حُسْنُ رأيك .

* * * *

الباب الثلاثون
في
ذكر طُرَف من فطن عقلاءِ المجانين

١ ــ أخبرنا ابن ناصر ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، قال : كان عندنا رجلٌ من جُهَيْنة يكنَّى أَبا نصر ، قد ذهب عقله ؛ فقلت له يوماً : ما السخاءُ ؟ قال : جُهْدُ مُقِلّ . قلت : فما البخل ؟ قال : أُفٍّ ؛ وحوّل وجهه ، فقلت : أَجبني ! قال : قد أَجبتُك .

* * * *

٢ ــ أنبأنا إبراهيم بن دينار ، عن الشبلي قال : رأَيتُ يوم الجمعة معتوهاً عند جامع الرصَافة قائماً عُرْيانَ ، وهو يقول : أَنا مجنونُ اللهِ ، أَنا مجنون اللهِ ؛ فقلت له : لِمَ لا تدخل الجامعَ وتتوارى وتصلِّي ؟ فأَنشأَ يقول :

يَقُولُون : زُرْنَا ، وَٱقْضِ وَاجِبَ حَقِّنَا ... وَقَدْ أَسْقَطَتْ حَالِـي حُقُوقَهُـمْ عَنِّـي
إِذَا هُمْ رَأَوْا حَالِـيْ وَلَـمْ يَأْنَفُـوا لَهَـا ... وَلَـمْ يَأْنَفُـوا مِنْهـا أَنِـفْتُ لهمْ مِنِّـي

* * * *

٣ ــ أخبرنا ابن ناصر ، عن ابن القَصّاب الصوفي قال : دخلنا المارستان ، فرأينا فيه فتى مصاباً فَوَلِعْنا به ، وزِدْنا في الوَلَع ، فاتَّبَعْناه ، فصاحَ وقال : انظروا إلى شعورٍ مُطَرّزة ، وأَجسادٍ مُعَطَّرة ، وقد جعلوا الوَلَع بضاعةً ، والسُّخْفَ صناعة ؛ فقلنا له : من السَّخِيُّ ؟ قال : الذي رُزِقَ أَمثالكم وأَنتم لا تُساوون قوتَ يوم ؛ قلنا : من أَقَلُّ الناس شكراً ؟ فقال : من عُوفِيَ من بليَّةٍ ثم رآها في غيره فترك الشُّكْرَ ؛ فانكسرنا بذلك ، وقلنا له : ما الظَّرْفُ ؟ قال : خلافُ ما أَنتم عليه .

* * * *

٤ — بلغني عن بعض أصحاب المبرّد ، أنه قال : انصرفتُ من مجلس المبرّد يوماً فعَبَرْت على خَرِبةٍ ، فإذا بشيخ قد خرج منها وفي يده حجرٌ ، فهمّ أن يرمِيَني به ، فتترّستُ بالمحبرة والدَفْتَر ، فقال : مرحباً بالشيخ ؛ فقلت : وبك ؛ قال : من أين أقبلت ؟ قلت : من مجلس المبرّد ؛ قال : البارد ! ثم قال : ما الذي أنْشَدَكُمْ ؟ وكانَ من عادته أن يختِمَ مجلسَه ببيت أو ببيتين من الشعر ؛ فقلت له : أنشدنا :

أعَـــارَ الغَـــيْثَ نَائِلَـــهُ ... إِذَا مَـــا مَـــاؤُهُ نَفِـــدَا
وَإِنْ أَسَدٌ شَكَـــا جُبْنَـــاً ... أَعَـــارَ فُـــؤَادَهُ الأَسَدَا

فقال : أخطأ قائلُ هذا الشعر ؛ قلت : كيف ؟ قال : أما تعلم أنه إذا أعار الغيثَ نائلَهُ بقي بلا نائل ، وإذا أعار الأسَدَ فؤادَه بقي بلا فؤاد ؟ قلت : فكيف كان يقول ؟ فأنشد :

عَلَّـمَ الغَـيْثَ النَّـدَى فَـإِذَا ... مَا وَعَـى وعَلَّـمَ البَـاسَ الأَسَدْ
فَـإِذَا الغَـيْثُ مُقِـرٌّ بالنَّـدَى ... وإِذَا اللَّـيْثُ مُقِـرٌّ بالجَلَـدْ

قال : فكتبتُها وانصرفت ؛ ثم مررتُ يوماً آخر بذلك المكان ، فإذا به وقد خرج وفي يده حَجَر ، فكاد يرميني بها ، فتترّست منه ، فضحك ، وقال : مرحباً بالشيخ ؛ فقلت : وبك ؛ قال : من مجلس المبرد ؟ قلت : نعم ، قال : ما الذي أنشدكم ؟ قلت : أنشدنا :

إنَّ السَّمَاحَـةَ والمَـرُوءَةَ والنَّـدَى ... قَبْـرٌ بِمَـرْوَ عَلى الطَّرِيـقِ الـوَاضِحِ
فَـإِذَا مَـرَرْتَ بِقَبْـرِهِ فَاعْقِـرْ بِـهِ ... كُـومَ الجِيَـادِ وَكُـلَّ طِرْفٍ سَابِـحِ

فقال : أخطأ قائلُ هذا الشعر ؛ قلت : كيف ؟ قال : وَيْحَك ، لو نَحَرْتَ بُخْتَ[1] خُراسان لما أبرّ في حقّه ، قلت : وكيف كان يقول ؟ فأنشد :

آحْمِلاَنِي إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمَا عَقْـ ... ـرٌ إلى حَـيْثُ قَبْـرِهِ فَآعْقِرانِـي
وَآنْضَحَا مِنْ دَمِي عَلَيْـهِ فَقَدْ كَـا ... نَ دَمِـي مَـنْ نَـدَاهُ لَـوْ تَعْلَمَـانِ

قال : فلما عدت إلى المبَرد ، قصصتُ عليه القصة ، فقال : أتعرفُه ؟ قلت : لا ، قال : ذلك خالد الكاتب ، تأخذه السَّوداءُ أيام الباذنجان .

* * * *

(١) « البُخْت »: نوع من الإبل .

٥ ــ أنبأنا محمد بن إسماعيل ، عن علي بن الحسين الرازي ، قال : مر بُهْلُولٌ بقوم في أصل شجرة ، وكانوا عشرة ، فقال بعضهم لبعض : تَعَالَوْا حتى نسخَر ببُهْلُول ؛ فسمع بهلول ما قالوا ، فجاءَهم ، فقالوا : يا بهلول ! تصعدُ لنا رأس هذه الشجرة وتأخذ عشرة دراهم ؟ قال : نعم ؛ فأعطُوه عشرةَ دراهم ، فصيّرها في كمه ، ثم التفت فقال : هاتو سُلَّماً ، فقالوا : لم يكن هذا في الشَّرْط ، فقال : كان في شرطي دون شرطكم .

* * * *

٦ ــ وروينا عن بُهْلُول أنّه اشتهى عسلاً ، فجاء إلى بعض أشراف الكوفة ، فقال : أتريد أن تأكل عسلاً بسِرْقِين[1]؟ قال : نعم ، فأدّعى بهما ، فأمعن في أكل العسل وحده ، فقال له الرجل : قد نقضت الشرط ! ما لك لا تأكل السرقين ؟ قال : هو وحده أطيب .

* * * *

٧ ــ ولد لبعض أُمراءِ الكوفة بنت ، فساءَه ذلك وامتنع عن الطعام ، فدخل عليه بهلولٌ فقال : ما هذا الحزن ؟ أجزِعْت لِخلقٍ سويٍّ وهبهُ رب العالمين ؟ أيسرُّك أن مكانها أبناءَ مثلي ؟ فسُرِّي عنه .

* * * *

٨ ــ وفرّ يوماً بهلولُ من الصبيان ، فالتجأ إلى دارٍ ، فوجد بابها مفتوحاً ، فدخلها وصاحبُ الدار قائم ، له ضفيرتان ، فصاح : ما أدخلك داري ؟ فقال : ﴿ يا ذَا القَرْنَيْنِ ! إنَّ يَأْجُوجَ ومَأْجُوج مُفْسِدونَ في الأَرْضِ ﴾ [١٨ سورة الكهف/الآية : ٩٤] .

* * * *

٩ ــ وحمل عليه الصّبيان يوماً ، فدخل دار رجل ، فدعا الرجل بالطعام ، فجعل الصّبيان يصيحون على الباب وهو يأكل ويقول : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ ، بَاطِنُهُ فيهِ الرَّحْمةُ وظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذَابُ ﴾ [٥٧ سورة الحديد/الآية : ١٣] .

* * * *

(١) « السرقين » : معرب سرجين ، وهو الفاكهة المختارة .

١٠ — وسئل بهلول عن رجل مات وخلَّف ابناً وبنتاً وزوجةً ولم يترك من المال شيئاً ، فقال : للابن اليُتم ، وللبنت الثُّكْل ، وللزوجة خراب البيت ، وما بقي فللعَصَبَة .

* * * *

١١ — قال : ودخل بهلول وعُلَيَّان المجنون على موسى بن المهدي ، فقال لعليّان : إيش معنى عليّان ؟ فقال عليّان : وإيش معنى موسى ؟ فقال : خُذُوا برجل ابن الفاعلة ؛ فالتفت عليّان إلى بهلول ، وقال : خذ إليك ، كنا اثنين صرنا ثلاثة .

* * * *

١٢ — كان في بني أَسد رجلٌ مجنونٌ ، فمرّ بقوم من بني تَيْم الله ، فعبثوا به وعذبوه ، فقال : يا بني تَيْم الله ! ما أَعلم في الدنيا قوماً خيراً منكم ؛ قالوا : وكيف ؟ قال : بنو أُسد ليس فيهم مجنونٌ غيري ، وقد قيدوني وسَلْسَلُوني ، وكلُّكم مجانين وليس فيكم مقيّد .

* * * *

١٣ — ومرّ مجنونٌ بمعتزليٍّ يناظر ، فقال له المجنون : أَنت القائل إنك مخيّر بين فعلين ، إن شئت فعلت أَحدهما دون الآخر ، قال : نعم ، قال : فاخْرَأْ ولا تَبُلْ ؛ فعجب النَّاس من قوله .

* * * *

١٤ — قال أَبو محمد بن عُجَيْف : مرّ بي مجنونٌ ، فقلت : يا مجنون ! قال : وأَنت عاقل ؟ قلت : نعم ؛ قال : كلانا مجنون ، ولكن جنوني مكشوفٌ وجُنونك مستور ؛ قلت : فَسِّر لي ، قال : أَنا أَخرقُ الثياب وأُرْجُم ، وأَنت تعمر داراً لا بقاءَ لها ، وتطيلُ أَملَك ، وما حياتُك بيدك ، وتعصي وليَّك ، وتطيع عدوَّك .

* * * *

١٥ — قال النَّظَّام : قلتُ لمجنونٍ : اجلس ها هنا حتى أَرجع ؛ فقال : أَمَّا أَن ترجع فلا أَضمن لك ، ولكنِّي أجلس إلى الليل .

* * * *

١٦ – ادّعى رجلٌ النبوة ، وزعم أَنَّهُ نوح ، فصُلِب ، فمرّ به مجنونٌ ، فقال : يا نوح ! لم تحصل من سفينتك إلاَّ على الدَّقَل[1] .

* * * *

١٧ – بعث بلالُ بن أَبي بردة إلى أَبي علقمة المجنون ، فلما أُتِي به ، قال : تدري لم أَحضرتُك ؟ قال : لا ، قال : لأَضحك منك ؛ قال : لقد ضحك أَحدُ الحكمين من صاحبه . يعرّض بجدّه أَبو موسى .

* * * *

(١) « الدَّقَل » : سهم السفينة .

الباب الحادي والثلاثون
في
ذكر طُرَف من أَخبار النساءِ المتفطنات

١ ــ حدّثنا عبد الأول ، عن هشام بن عروة ، عن أَبيه ، عن عائشة ، قالت : قلت : يا رسول الله ! أَرأَيت لو نزلت وَادِياً فيه شجرٌ أُكِل منها ، ووجدت شجراً لم يؤكل منها ، في أَيّها كنتَ تُرْتع بعيرك ؟ قال : « في التي لم يُرْتَع منها » تعني أَن النبيَّ ﷺ لم يتزوج بكراً غيرها .

* * * *

٢ ــ أخبرنا ابن ناصر ، عن القاسم بن محمد ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : كان النبي ﷺ إذا خرج في سفر أَقْرَعَ بين نسائه فصارت القُرْعَةُ على عائشة وحفصة ، فخرجنا معه جميعاً ، فكان النبيّ ﷺ إذا سار باللَّيل سار مع عائشَة يتحدّث معها ، فقالت حفصة لعائشة : أَلا تركبين بعيري وأَركبُ بعيرك ؛ فَتَنْظرين وأَنْظرُ ؟ قالت : بلى ؛ فركبت عائشةُ على بعير حفصة وركبت حفصةُ على بعير عائشة ، فجاءَ رسولُ الله ﷺ إلى جمل عائشة وعليه حفصة فَسَلَّم ، ثم سار معها حتَّى نزلوا ، ففقدت [عائشة] النبي ﷺ فغارت ، فلما نزلت ، جعلت تدخل رجليها بين الإِذْخِرِ[1] وتقولُ : يا ربِّ سَلِّطْ عَلَيَّ عقرباً يلْدَغني ، رَسُولُك ! ؛ لا أَستطيع أَن أَقول شيئاً .

* * * *

٣ ــ أخبرنا محمد بن ناصر ، عن عبد الله بن مصعب ، قال : قال عمرُ بن الخطاب : لا تزيدوا في مُهُورِ النساءِ على أَربعين أُوقية ، وإن كانت بنتَ ذي الغُصَّة ــ يعني يزيد بن الحصين الصحابي الحارثي ــ فمن زاد أَلقيتُ الزيادة في بيت المال . فقالت امرأَةٌ من صفّ

(١) « الإِذْخِر » : الحشيش الأخضر ، وحشيش طيِّبُ الريح .

النساءِ طويلةٌ ، في أنفها فَطَس : ما ذاك لك ! قال : ولم ؟ قالت : لأنَّ الله عزَّ وجلّ قال : ﴿ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنّ قِنطَاراً فلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً ، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ﴾ [٤ سورة النساء/الآية : ٢٠] قال عمر : امرأة أصابتْ ورجلٌ أخطأ .

* * * *

٤ ــ قال الزبير : وحدّثني إبراهيم الحزامي عن محمد بن مَعْن الغِفَاري ، قال : أَتَتْ امرأةٌ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه ، فقالت : يا أمير المؤمنين ! إنَّ زوجي يقومُ اللّيل ، ويصومُ النهار ، وأنا أكره أن أشكوَهُ وهو يعملُ بطاعة الله ؛ فقال لها : نِعْمَ الزوج زوجك ؛ فجعلت تكرّر عليه القولَ وهو يكرّر عليها الجواب ؛ فقال له كعبُ الأسدي : يا أمير المؤمنين ! هذه امرأةٌ تشكو زوجها في مباعدته إيّاها عن فراشه . فقال له عمر : كما فهمتَ كلامها فاقضِ بينهما ، فقال كعب : عليّ بزوجها ؛ فأُتي به ، فقال له : إن امرأتك هذه تشكوك ؛ قال : أفي طعام أو شراب ؟ قال : لا ، فقالت المرأة :

يَا أَيُّهَا القَاضِي الحَكِيمُ رُشْدُهْ ... أَلْهَى خَلِيلي عَنْ فِرَاشِي مَسْجِدُهْ
زَهَّدَهُ في مَضْجَعِي تَعَبُّدُهْ ... نَهَارُهُ ولَيْلُهُ ما يَرْقُدُهْ
وَلَسْتُ في حُكْمِ النِّساءِ أَحْمَدُهْ

فقال زوجُها :

زَهِدْتُ في فِرَاشِهَا وَفي الحَجَلْ ... إِنّي آمرؤٌ أَذْهَلَنِي مَا قَدْ نَزَلْ
في سُورَة النَّمْلِ وفي السَّبْعِ الطُّوَلْ ... وفي كِتَابِ اللهِ تَخْوِيفٌ جَلَلْ

فقال كعب :

إنَّ لَهَا حقّاً عَلَيْكَ يَا رَجُلْ ... نَصِيبُهَا في أَرْبعٍ لِمَنْ عَقَلْ
فأَعْطِهَا ذَاكَ وَدَعْ عَنْكَ العِلَلْ

ثم قال : إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أحلّ من النساءِ مَثْنَى وثُلاَثَ ورُبَاعَ ، فلك ثلاثةُ أيّام ولياليهن تعبد فِيهنّ ربَّك ، ولها يومٌ وليلة . فقال عمر : والله ما أدري ! من أيِّ أمرَيْك أعجب ؟ أمن فهمك أمرهما ؛ أم من حكمك بينهما ؟! اذهب فقد ولَّيتُك قضاءَ البَصْرة .

* * * *

٥ ــ أنبأنا محمد بن عبد الملك ، عن عبد الله بن الزُّبَيْر ، عن أَسماءَ بنت أَبي بكر رضي الله عنهم ؛ قالت : لما توجّه رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة ومعه أَبو بكر ، حمل أبو بكر رضي الله عنه جميع مالِه ، خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم ، فأَتاني جَدّي أَبو قُحافة وقد ذهب بصره ، فقال : أَرى هذا واللهِ قد فَجَعَكُم بمالِهِ مع نفسِهِ ؛ فقالت : كلا يا أَبت ، قد ترك لنا خيراً كثيراً ؛ فعَمَدْتُ إلى أَحجارٍ جمعتهنَّ في كُوَّةِ البيت ، كان أَبو بكر يجمع ماله فيها ، وغطيت على الأَحجار بثوب ، ثم جئتُ به ، فأَخذت بيده ، ووضعتُها على الثوب ، وقلت : ترك لنا هذا ؛ فجعل يجدُ مَسّ الحجارة من وراءِ الثوب ، فقال : إذا ترك لكم هذا فنعم . ولا واللهِ ما ترك لنا قليلاً ولا كثيراً .

* * * *

٦ ــ أخبرنا ابن ناصر ، عن الأَصمعي قال : أَتت امرأَةٌ حاتمَ بن عبد الله بن أَبي بكرةَ ، فقالت له : أَتيتُك من بلادٍ شاسعةٍ ، ترفعُني رافعةٌ ، وتخفضُني خافضة ، لملمَّاتٍ من الأُمور حَلَلْنَ بي ، فبرَيْنَ لَحمي ، وَوَهَّنَّ عظمي ، وتركْنَنِي والهةً كالحَرِيض ، وقد ضاق بي البلدُ العريض ، هلَك الوالد ، وغاب الوافدُ ، وعُدِمَ الطارفُ والتَّالد ، فسأَلْتُ في أَحياءِ العرب عن المرجوِّ سيْبُهُ ، المحمودِ نائلُه ، الكريم شمائلهُ ، فدُلِلت عليك ، وأَنا امرأَةٌ من هوازن ، فافعل بي أَحد ثلاثٍ : إمّا أَن تقيمَ أَوَدِي ، وإما أَن تُحسن صَفَدِي[1] ، وإما أَن تردَّني إلى بلدي . فقال : بل أَجمعهنَّ إليك وحبّاً وكرامةً .

* * * *

٧ ــ قال الأَصمعيّ : مات ابنٌ لأَعرابية ، فما زالت تبكي حتى خَدّد الدمع خدّها ، ثم استرجعت ، فقالت : اللَّهم إنك قد علمت فَرْطَ حُبِّ الوالدين لولدهما ، فلذلك لم تأْمُرْهُما ببرِّه ، وعرفتَ قدرَ عُقوق الولد لوالديه ، فمن أَجل ذلك حَضَضْتَه على طاعتهما ، اللَّهم إنَّ ولدي كان من البرّ بوالديه على ما يكون الوالدان بولدهما ، فاجزه منّي بذلك صلاةً ورحمة ، ولقِّه سروراً ونَضْرة ؛ فقال لها أَعرابيٌّ : نِعْم ما دَعوتِ له لولا أَنَّك شِبْتِه من الجزع بما لا يُجدي . فقالت : إذا وقعت الضَّرورات لم يَجْرِ عليها حكمُ المكتَسبات ، وجَزَعي على ابني غير ممكن في الطاقة صَرْفُه ، ولا في القدرة منعُه ، واللهُ وليُّ عذري بفضله ، وقد قال عزَّ وجلّ : ﴿ فَمَنِ

(١) « الصَّفَد » : العطاء .

آضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [٢ سورة البقرة/الآية : ١٧٣] .

* * * *

٨ — أنبأنا محمد بن ناصر ، عن أبي الحسن المدائني قال : دخل عِمرانُ بن حِطَّان يوماً على امرأته ، وكان عمرانُ دميماً قبيحاً قصيراً ، وقد تزيّنت ، وكانت امرأةً حسناءَ ؛ فلما نظر إليها ازدادتْ في عينه جمالاً وحسناً ، فلم يتمالك أن يديمَ النَّظر إليها ، فقالت : ما شأنُك ؟ قال : لقد أصبحتِ والله جميلة ؛ فقالت : أبشر ! فإنّي وإيّاك في الجنة ؛ قال : ومن أين علمتِ ذلك ؟ قالت : لأنَّك أُعطيتَ مثلي فشكرتَ ، وابتليتُ بمثلك فصبرتُ ، والصابر والشاكر في الجنة .

قلت : وكان عمرانُ بنُ حِطَّان أَحدُ الخوارج ، وهو القائل يمدح عبدَ الرحمنِ بن مُلْجَم على قتله عليَّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه :

يَا ضَرْبةً مِن تَقِيٍّ مَا أَرَادَ بِهَا ... إلاَّ لِيَبْلُغَ مِن ذي العَرْشِ رِضْوَانَا
إِنِّي لأَذْكُرُهُ يَومَاً فَأَحْسَبُهُ ... أَوْفَى البَرِيَّةِ عِنْدَ اللهِ مِيزانَا
أَكْرِمْ بِقَوْمٍ بُطُونُ الأَرْضِ أَقْبُرُهُمْ ... لَمْ يَخْلِطُوا دِينَهُم بَغْيَاً وعُدْوانا

فبلغت هذه الأبياتُ القاضي أبا الطيِّب الطَّبريّ ، فقال مجيباً له :

إِنِّي لأَبْرَأُ مِمَّا أَنْتَ قَائِلُهُ ... عن آبْنِ مُلْجَمِ الملعون بُهْتَانَا
إِنِّي لأَذْكُرُهُ يَوْماً فَأَلْعَنُهُ ... دِينَاً وأَلعنُ عِمْرَاناً وحِطَّانَا
عَلَيْكَ ثُمَّ عَلَيْهِ الدَّهْرُ مُتَّصِلاً ... لَعَائِنُ اللهِ إِسْرَاراً وَإِعْلانَا
فَأَنْتُم مِنْ كِلابِ النَّارِ جَاءَ بِهِ ... مِنَ الشَّرِيعَةِ تِبْيَاناً وَبُرهَانَا

أشار أبو الطيب إلى قول النبي ﷺ : « الخوارجُ كلابُ النَّارِ » .

* * * *

٩ — أخبرنا عبد الوهاب قال : قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : حدثني أبو المشيع ، قال : خرج كُثَيِّر يلتمس عَزَّة ومعهُ شُنَيْنةٌ فيها ماءُ ، فأخذه العطشُ ، فتناول الشُّنَيْنة ، فإذا هي عَظْمٌ ما فيها شيء من الماءِ ، فرُفِعتْ له نارٌ ، فأَمَّها ، فإذا بقُرْبها مظلَّة بفنائها عجوزٌ ، فقالت له : من أَنت ؟ قال : أنا كُثيِّر ؛ قالت : قد كنت أتمنَّى ملاقاتَك ، فالحمد لله الذي أرانيك ؛ قال : وما الذي تلتمسينه مني ؟ قالت : ألست القائل [« الديوان » ٣١/٢] :

إذَا مَـا أَتَيْنَـا خِلَّـةَ كَـيْ نُزِيلَهَـا أَبَيْنَـا وَقُلْنَـا الحَاجِبِيَّـةُ أَوَّلُ
سَنُولِـيكِ عُرْفـاً إنْ أَرَدْتِ وِصَالَنَـا وَنَحْـنُ لِتِـلْكَ الحَاجِبِيَّـةِ أَوْصَلُ

قال : بلى ! قالت : أفلا قلت كما قال سيِّدُك جَميل [« الديوان » : ١٧٨] :

يَـا رُبَّ عَـارِضَةٍ عَلَيْنَـا وَصْلُهَـا بالجِـدِّ تَخْلِطُـهُ بِقَـوْلِ الهَـازِلِ
لَـوْ كَـانَ في قَلْبِـي كَقَـدْرِ قُلاَمَـةٍ فَضْلاً لِغَيْـرِكِ مَـا أُتَـتْكِ رَسَائِلِي
فَأَجَبْتُهـا في القَـوْلِ بَعْـدَ تَأَمُّـلِ حُبِّـي بُثَيْنَـةَ عَـنْ وِصَالِكِ شَاغِلِي

قلت : دعي هذا واسقيني ماءً . قالت : واللهِ لا أسقيك شيئاً ؛ قلت : ويْحَك ! إن العطش قد أضرَّ بِي ؛ قالت : ثكلتْك بثينة إن طَعِمْت من عندي قطرةَ ماءٍ ؛ فكان جُهدُهُ أن ركض راحلته ومضى يطلبُ الماءَ ، فما بلغه حتى أُضحى النهار وقد كَرَبَ أن يقتلَهُ العطش .

* * * *

١٠ ــ أخبرتنا شَهْدَة بنت أحمد ، عن الغمري ، قال : دخل ذو الرُّمَّةِ الكوفة ، فبينما هو يسير في بعضِ شوارعها على نَجيبٍ له إذ رأى جارية سوداءَ واقفةً على باب دارٍ ، فاستحسنها ووقعتْ بقلبه ، فدنا إليها ، فقال : يا جارية ! اسقيني ماءً ؛ فأخرجتْ إليه كوزاً ، فشرب ، فأراد أن يمازحَها ويستدعي كلامها ، فقال : يا جارية ! ما أحرّ ماءَك ! فقالت : لو شئتَ لأقبلتَ على عيوب شعرِك وتركت حَر مائِي وبَرْده ؛ فقال لها : وأيُّ شعري له عيب ؟ فقالت : ألست ذا الرمة ؟ قال : بلى ، قالت :

فَـأَنْتَ الَّـذِي شَبَّـهْتَ عَنْـزاً ببقَـرَةٍ لَهَـا ذَنَبٌ فَـوْقَ آسْتِهَـا أَمّ سَالِـمِ
جَعَـلْتَ لَهَـا قَرْنَيْـنِ فَـوقَ جَبِينِهَـا وَطُبْيَيْـنِ مُسْوَدَّيْـنِ مِثْـلَ المَحَاجِـمِ
وسَاقَيْـنِ إنْ يَسْتَمْكِنَـا مِنْكَ يَتْرُكَـا بجِلْدِكَ يا غَيْـلاَنُ مثـل المَنَـاسِمِ
أيـا ظَبْيَـةَ الـوَعْسَاءِ بَيْـنَ حُلاَحِـلٍ وَبَيْـنَ النَّقَـا آأَنْتَ أَمْ أُمُّ سَالِـمِ

قال : نشدتك باللهِ إلاَّ أخذتِ راحلتي وما عليها و لم تُظْهري هذا ؛ ونزل عن راحلته فدفعها إليها ، فذهب ليَمْضي ، فدفعتْها إليه ، وضمِنتْ له أن لا تذكرَ لأحدٍ ما جرى .

* * * *

١١ ــ قال زُهير بن حسن مولى الربيع بن يونس : قدم الحجّاج على الوليد بن عبد الملك ،

فصلّى عنده ركعتين ، وركب الوليدُ فمشى الحجّاج بين يديه ، فقال له الوليد : اركب يا أبا محمد ، فقال : يا أمير المؤمنين ! دعني أستكثرُ من الجهاد فإن ابن الزُّبير وابن الأشعث شغَلاني عن الجهاد زمناً طويلاً ؛ فعزم عليه الوليد أن يركب ، ودخل فركب مع الوليد ، فبينما هو يتحدث ويقول : فعلتُ بأهل العراق وفعلتُ ، أقبلتْ جاريةٌ فنادت الوليد ثم انصرفتْ ، فقال الوليد : يا أبا محمد ! أتدري ما قالت الجارية ؟ قال : لا . قال : قالت : أرسلتني إليك أُمُّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان : إنَّ مجالستَك هذا الأعرابيّ وهو في سلاحه وأنت في غُلالة غَرَرٌ ؛ فأرسلتُ إليها إنه الحجاج بن يوسف ، فراعها ذلك ، وقالت : والله لأن يَخْلُو بكَ مَلَكُ الموت أحبُّ إليّ من أن يخلو بكَ الحجاج ، وقد قتل أحبّاء الله وأهل طاعته ظلماً وعدواناً ؛ فقال الحجاج : يا أمير المؤمنين ! إنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة ، لا تطلعهن على سرّك ، ولا تستعملهن بأكثر من وثبهن ، ولا تكثرنَّ مجالستهن صَغَاراً وذلاً ؛ ثم نهض فخرج ودخل الوليد على أُمّ البنين ، فأخبرها بمقالته ، فقالت : إني أحب أن تأمره بالتسليم عليّ ، فسيبلغك بالذي يكون بيني وبينه ؛ فَغَدا الحجاجُ على الوليد ، فقال الوليد : ائت أُم البنين ، فقال : اعفني يا أمير المؤمنين ، قال : فلتفعَلَنّ ؛ فأتاها فحجبتْه طويلاً ، ثم أذنت له ، ثم قالت له : يا حجّاج ! أنت تفتخرُ على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث ؟! أما والله لولا أن الله علم أنك أهون خلقه عليه ما ابتلاك بقتل ابن ذات النطاقين وابن حواريّ رسول الله ﷺ وابن الأشعث ، فلعمري قد استعلى عليك حتى عَجْعجتَ ، ووالى عليك الهَرارَ حتى عَويْت ، فلولا أن أمير المؤمنين نادى في أهل اليمن وأنت في أضيق من القرن فأظلّتك رماحُهم وعلاك كفاحُهم لكنت مأسوراً قد أُخذ الذي فيه عيناك ، وعلى هذا فإن نساءَ أمير المؤمنين قد نَفَضْن العطر عن غرائرهن وبعنه في أُعْطِيَة أوليائه ، وأمّا ما أشرت على أمير المؤمنين من قطع لذّاته وبلوغ أوطاره من نسائه ، فإن يكن إنما يَنْفَرِجْن عن مثل أمير المؤمنين فغير مجيبُك إلى ذلك ، وإن كنّ ينفرجن عن مثل ما انفرجت به أُمك البَظْراءُ عنك من ضعف [القوة] الغريزية وقبح المنظر في الخَلْقِ يا لُكع ، فما أحقَّه أن يقتدي بقولك ، قاتل الله الذي يقول [هو عمران بن حطّان] :

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي الحُرُوب نَعَامَةٌ   فَتْخَاءُ تَنْفِرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ
هَلَّا بَرَزْتَ إلى غَزَالَةِ في الوَغَى   قَدْ كَانَ قَلْبُكَ في جَنَاحَيْ طَائِرِ

ثم أمرت جاريةَ لها فأخرجتْه ، فلما دخل على الوليد ، قال : ما كنت فيه يا أبا محمد ؟

فقال : والله يا أمير المؤمنين ما سكتَتْ حتى كان بطنُ الأرض أحبَّ إليّ من ظهرها . قال : إنها بنت عبد العزيز .

* * * *

١٢ ــ أخبرنا عبد الرحمن ، قال ابن السكيت : عزم محمد بن عبد الله بن طاهر على الحجّ ، فخرجتْ إليه جاريةٌ شاعرةٌ ، فبكت لما رأت آلة السفر ، فقال محمد بن عبد الله :

دَمْعَــةٌ كاللُّؤْلُــؤِ الرَّطْــبِ عَلى الخَــدِّ الأَسِيــلِ
هَطَــلَتْ في سَاعَــةِ البَيْــنِ مِــنَ الطَّـرْفِ الكَحِيْـلِ

ثم قال : أجيزي ، فقالت :

حِين هَــمَّ القَمَــرُ البَــاهِــرُ عَنَّــا بالأُفُــولِ
إنَّمَــا يُفْــتَضَحُ الــعُشَّاقُ في وَقْتِ الرَّحيــلِ

* * * *

١٣ ــ أخبرنا ابن ناصر قال : قال أيوب الوزّان : قال المفضَّل : دخلتُ على الرشيد وبين يديه طبقُ وَرْدٍ وعنده جاريةٌ مليحة شاعرة أديبة ، قد أُهْدِيت إليه ؛ فقال : يا مفضّل ! قُل في هذا الورد شيئاً تشبّهه به ؛ فأنشدتُ أقول :

كأنَّــهُ خَــدُّ مَرْمُــوقٍ يُقَبِّلُــهُ فَمُ الحَبِيبِ وَقَدْ أَبْدَى بِهِ خَجَلا

فقالت الجارية :

كَأَنَّه لَونُ خَدِّي حِينَ يَدْفَعُنِي كَفُ الرَّشِيدِ لِأَمْرٍ يُوجِبُ الغُسْلَا

فقال : يا مفضَّل ! قُمْ فاَخرج ، فإن هذه الماجنة قد هيّجتنا . فقمتُ وأُرخيتِ الستور دوني .

* * * *

١٤ ــ أخبرنا ابن ناصر ، عن الأصمعي ، قال : لما قدم الرشيد البصرة يريد الخروجَ إلى

مكة فخرجتُ معه ، فلما صرنا بِضَرِيَّة[1] إذا أنا على شَفِير الوادي بصبيّة قُدّامها قصعةٌ لها ، وإذا هي تقول :

طَحَنَتْنَــا طحاطــح الأَعْــوَامِ   وَرَمَتْنَــا نَــوَائِبُ الأَيَّــامِ
فَأَتَيْنَاكُمُــو نَمُــدُّ أَكُفًّــاً   لِـفَضَالاتِ زَادِكُـمْ والطَّعَـامِ
فَاطْلُبُـوا الأَجْـرَ وَالمَثُوبَـةَ فِينَـا   أَيُّهـا الزَّائِـرونَ بَـيْتَ الحَـرامِ
مَـنْ رَآنِـي فَقَـدْ رَآني وَرَحْلِي   فَارْحَمُـوا غُرْبَتِـي وَذُلَّ مُقَامِـي

قال : فرجعتُ إلى أَمير المؤمنين ؛ فقلتُ : صبيةٌ على شفير الوادي ؛ وأَنشدتُه ما قالت ، فعجب . فقلت : يا أَمير المؤمنين ! أَفآتيك بها ؟ قال : لا ! بل نحن نذهبُ إليها .

قال الأَصمعي : فوقف عليها أَمير المؤمنين ، فقلت لها : أَنشديه ما كنت تقولينه ؛ فأَنشدته ، ولم تهبْهُ ، فقال : يا مسرور املأْ قصعتَها دنانير .

قال : فملأَها حتى فاضت يميناً وشمالاً .

* * * *

١٥ ــ أنبأَنا محمد بن عبد الباقي عن ابن الشيظمي ، قال : حججتُ في سنةٍ قحطةٍ جَدْبةٍ ، فبينما أَنا أَطوف بالكعبة إذ أَبصرتُ جاريةً من أَحسن الناس قَدًّاً وقواماً وخَلْقاً ، وهي متعلقة بأَستار الكعبة ، تقول : إلٰهي وسيّدي ، ها أَنا أَمَتُك الغريبةُ ، وسائلتُك الفقيرة ، حيث لا يخفى عليك مكاني ، ولا يستتر عنك سوءُ حالي ، قد هتكتِ الحاجةُ حجابي ، وكشفت الفاقةُ نِقابي ، فكشفتُ وجهاً رقيقاً عند الذُّلّ ، وذليلاً عند المسأَلة ، طال ــ وعزتك ــ ما حجبه عنه ماءُ الغِنَى ، وصَانَهُ ماءُ الحياءِ ، قد جمدتْ عني كفُّ المرزوقين ، وضاقت بي صدورُ المخلوقين ، فمن حرمني لم أَلمْهُ ، ومن وصلني وكلتُه إلى مكافأَتك ورحمتك ، وأَنت أَرحم الراحمين .

قال : فدنوت منها ، فبرَزْتُها ، ثم قلت لها : من أنت ؟ وممن أَنت ؟ فقالت : إليك عنّي ، من قلّ ماله وذهب رجاله كيف يكون حالُه ؟ ثم أَنشأَتْ تقول :

بَعْضُ بَنَاتِ الرِّجال أَبْرزَها الدَهْـ   ـرُ لِمَـا قَـدْ تَـرَىٰ وأَخْرَجَهَـا

(١) « ضريّة » : بلدة .

أَبْرَزَهَا مِنْ جَلِيلِ نِعْمَتِهَا فَٱبْتَزَّهَا مُلْكَهَا وَأَحْوَجَهَا
وَطَالَمَا كَانَتِ العُيُونُ إِذَا مَاخَرَجَتْ تَسْتَشِفُّ هَوْدَجَهَا
إِنْ كَانَ قَدْ سَاءَهَا وَأَحْزَنَهَا فَطَالَمَا سَرَّهَا وَأَبْهَجَهَا
الْحَمْدُ لِلّٰهِ رُبَّ مُعْسِرَةٍ قَدْ ضَمِنَ اللهُ أَنْ يُفَرِّجَهَا

قال : فسألتُ عنها ، فأُخبِرتُ أنها من ولد الحسين بن عليٍّ رضوان الله عليهم أجمعين .

* * * *

١٦ ــ أنبأنا ابن تامر ، عن ابن عائشة التيمي ، قال : مَدَحت امرأةٌ من العرب أباها ، فأطنبت في التقريظ ، فقال لها رجلٌ من العرب : فما بلغ من جوده ؟ قالت : رَسَمَ والله للكرام سبيلاً لا يعقبه اللئام بفيضها أبداً ، قال : فما بلغ من حلمه ؟ قالت : أخرس اللسان عند محاورة السفهاء ، وصفح وأغضى عن ذلة الجاهلين ؛ قال : فما بلغ من تأنّيه ؟ قالت : كان والله في جنب الله ليثاً عند منازلة الأقدار ، وكريماً في مجالسة الأحزان ؛ قال : لقد وصفتيه وأحسنت صفته ؛ قالت : والله ما جاوزت بوصفي له علمي به ، ولا تأتي معرفتي ، ففضله أقرب في التقصير في وصفه مني إلا الإغراق في تقريظه خوفاً أن يسألني الله عزّ وجلّ عن ذلك يوم تؤتى كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ؛ قال : فبكى الناس لقولها ؛ قال ابن عائشة : فما سمع المادحون من الشيب والشبان في زمانها لِمِدْحَةٍ هي أحسن مثلها .

* * * *

١٧ ــ أخبرنا المبارك بن علي الصيرفي ، قال : بلغني أن كُثَيِّر عَزَّةٍ لقيَ جميلاً ، فقال له : متى عهدُك ببثينة ؟ قال : ما لي بها عهدٌ منذُ عامِ أوّل وهي تغسل ثوباً بوادي الدَّوْم ؛ فقال له كثير : تحب أن أُعْهِدَها لك الليلة ؟ قال : نعم ؛ فأقبل راجعاً إلى بثينة ، فقال له أبوها : يا فلان ! ما ردّك ؟ أما كنتَ عندنا قُبيل ؟ قال : بلى ! ولكن حضرتْني أبياتٌ قلتُها في عزة ؛ قال : وما هي ؟ قلت :

فَقُلْتُ لَهَا : يا عَزُّ أَرْسَلَ صَاحِبِي عَلَى بَابِ دَارِي وَالرَّسُولُ مُوَكَّلُ
أَمَا تَذْكُرِينَ العَهْدَ يَوْمَ لَقِيتُكُمْ بِأَسْفَلِ وَادِي الدَّوْمِ وَالثَّوْبُ يُغْسَلُ ؟

فقالت بثينة : إخسأْ ؛ فقال أبوها : ما هاجَك يا بثينة ؟ قالت : كلبٌ لا يزال يأتينا من

وراءِ الجبل بالليل وأنصاف النهار . قال : فرجع إليه ، فقال : قد وَعَدَتْكَ من وراءِ هذا الجبل بالليل وأنصاف النهار ، فالقها إذا شئت .

* * * *

١٨ — قلتُ : ومن هذا الفن حُكيَ أنَّ أعرابيّاً بعث غلاماً له إلى امرأةٍ يواعدها موضعاً يأتيها فيه ، فذهب الغلامُ وأبلغها الرسالةَ ، فكرهت المرأةُ أن تَقَرَّ للغلام بما بينهما ، فقالت : واللهِ لئن أخذتُك لأعركنَّ أُذْنَك عَركةً تبكي منها وتستندُ إلى تلك الشجرة ويُغْشَى عليك إلى وقت العَتَمَة ؛ فلم يعرف الغلامُ معنى هذا الكلام ، وانصرف إلى صاحبه ، وحكى له ، فعلم أنَّها واعدتهُ تحت الشجرة وقت العتمة .

* * * *

١٩ — أخبرنا ابن الحصين عن الصوليّ قال : سمعتُ المبرّد يقول : كنّا عند المازني ، فجاءَتْه أعرابيَّةٌ كانت تَغْشاه ويَهَبُ لها ، فقالت : أَنْعَم اللهُ صباحَك أبا عثمان ، هل بالرمال أوشال ؟، فقال لها : يجيء الله بها ؛ فقالت :

تَعْلَمَنّ والّذي حَجَّ إليه القَوْم لَوْلا خَيَالٌ طَارِقٌ عِنْدَ النَّوْمْ
وَالشَّوْقُ من ذِكْرَاكَ مَا جِئْتُ اليَوْمْ

فقال المازنيُّ : قاتلها الله ما أفطنها ! جاءَتْني مستمنحة ، فلما رأت أن لا شيء جعلت المجيء زيارةً تمنُّ علينا بها .

قال اليَشكُري : الأَوْشال ، جمع وَشَلٍ ، وهو : الماء القليل ، وهو مثلها هنا ، أي : هل عندكم من ندى ؟

* * * *

٢٠ — أخبرنا عبد الرحمن بن محمد قال : قال إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة : ما ورد عليَّ مثلُ امرأةٍ تقدّمتْ فقالت : أيها القاضي ! ابن عمي زوّجني من هذا و لم أعلم ، فلما علمتُ رددتُ ؛ فقلت لها : ومتى رددتِ ؟ قالت : وقت علمت ؛ قلت : ومتى علمت ؟ قالت : وقت رددتُ . فما رأيتُ مثلها .

* * * *

٢١ ــ أخبرنا ابن ناصر ، عن الأصمعي ، قال : جاءت عجوز إلى عبد الله بن جعفر ، فقال : كيف حالك يا عجوز ؟ فقالت : ما في بيتي من جرذ ؛ قال : لطّفت المسألة ، لاملأن بيتك جرذاناً .

* * * *

٢٢ ــ أخبرنا عبد الرحمن بن محمد ، قال : قال لنا الجاحظ : كنت راكباً مجتازاً في بعض الطرقات ، فإذا أنا بامرأتين ، وكنت راكباً على حمارة ، فضرطت الحمارة ، فقالت إحداهما للأخرى : وَيّ ! حمارة الشيخ ضرطت ؛ فغاظني قولها ، فأعننت ، ثم قلت لها : إنه ما حملتني أنثى قط إلا ضرطت ، فضربت بيدها على كتف الأُخرى ، وقالت : كانت أُم هذا معه تسعة أشهر في جهد جهيد .

* * * *

٢٣ ــ قال : حدثنا عليُّ بن القاسم ، قال : سمعت أَبي يقول : كان موسى بن إسحاق لا يُرَى مبتسماً قطُّ ، فقالت له امرأَة : أَيها القاضي ! لا يحلُّ أَن تحكم بين اثنين وأَنت غضبان ؛ قال : ولِمَ ؟ قالت : لأَنَّ النبيّ ﷺ قال : « لا يَقْضِي القاضي بين اثنين وهو غضبان » فتبسّم .

* * * *

٢٤ ــ عن عبد الرحمن ابن أَخي الأَصمعي ، عن عمّه ، قال سليمانُ بن عبد الملك يوماً والشعراءُ عنده : قد قلتُ نصفَ بيت ، فأجيزوه ، قال :

يَـرُوحُ إِذَا رَاحُـوا وَيغْـدُو إِذَا غَـدُوا

فلم يصنعوا شيئاً ، فدخل إلى جارية له فأَخبرها ، فقالت : كيف قلت ؟ فأَنشدها ، فقالت :

وَعَمّـا قَلِيـلٍ لا يَـرُوحُ ولَا يَغْـدُو

* * * *

٢٥ ــ أخبرنا عبد الرحمن بن محمد ، عن الجاحظ ، قال : طلب المعتصم جارية كانت لمحمود الوراق ، وكان نخّاساً ؛ بسبعة آلاف دينار ؛ فامتنع محمود من بيعها ، فلما مات محمود اشتُرِيت للمعتصم من ميراثه بسبع مئة دينار ، فلما دخلت إليه ، قال لها : كيف رأيت ؟ تركتك

حتى اشتريتك من سبعة آلاف بسبع مئة ؛ فقالت : أجل ! إذا كان الخليفة ينتظر في شهواته المواريث ، فإن سبعين ديناراً كثيرةٌ في مثلي فضلاً عن سبع مئة ؛ فأخجلته .

* * * *

٢٦ ــ أنبأنا ابن ناصر ، عن الأَصْمعيّ قال : كنتُ عند أمير المؤمنين الرشيد ، إذ دخل عليه رجلٌ ومعه جارية للبيع ، فتأملها الرشيدُ ، ثم قال : خذ بيد جاريتك ، فلولا كَلَفٌ في وجهها ، وخَنَسٌ في أنفها لاشتريْتُها ، فانطلق بها ، فلما بلغت السِّتر ، قالت : يا أمير المؤمنين ! ارْدُدْني إليك أُنْشِدُك بيتين حضراني ؛ فردّها ، فأنشأت تقول :

ما سَلِمَ الظَّبْيُ عَلى حُسْنِهِ كَلَّا وَلاَ البَدْرُ الَّذِي يُوصَفُ
الظَّبْيُ فِيهِ خَنَسٌ بَيِّنٌ وَالبَدْرُ فِيهِ كَلَفٌ يُعْرَفُ

فأعجبته بلاغتُها ، فاشتراها ؛ وقرَّب منزلها ، وكانت أحظى جواريه عنده .

* * * *

٢٧ ــ أخبرنا أبو المعمّر الأنصاري ، عن الجاحظ قال : رأيت بالعسكر امرأةً طويلةَ القامة جدّاً ونحن على طعام ، فأردت أن أمازحها ، فقلت : انزلي حتى تأكلي معنا ؛ قالت : وأنت ، فاصعد حتى ترى الدنيا .

* * * *

٢٨ ــ قال : وسمعت الجاحظ يقول : رأيتُ امرأةً جميلةً ، فقلت : ما اسمك ؟ قالت : مكة ؛ فقلت : أتأْذنين لي أن أقبّل الحجَر الأسود منك ؟ قالت : لا ! إلاَّ بالزَّادِ والرَّاحلة .

* * * *

٢٩ ــ وقد رُويتْ لنا هذه الحكاية على وجه آخر : أنبأنا هبة الله بن الحصين ، قال : سمعت الجاحظ : رأيتُ جاريةً بسوق النَّخَّاسين ببغداد يُنادى عليها ، وعلى خَدِّها خَالٌ ، فدنوت منها وجعلت أُقلّبُها ، فقلت لها : ما اسمك ؟ قالت : مكة . فقلت : الله أكبر ! قَرُب الحجُّ ، أتأْذنين أَقبلُ الحجر الأسود ؟ قالت له : إليك عني ، أو لم تسمع قول الله تعالى : ﴿ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ ﴾ [١٦ سورة النحل/الآية : ٧] .

* * * *

٣٠ — أخبرنا ابن ناصر ، عن ابن أبي طرفَة ، قال : قال الأَصمعي : أُتي المنصورُ بسارقٍ فأمر بقطعه ، فأنشأ يقول :

يَـدِي يَا أَمِيـرَ الْمُؤمِنيـنَ أُعِيذُهَـا بِخَفْـقِ سِكِّين عَلَيْهَـا يَشِينُهَـا
فَلا خَيرَ في الدُّنْيَا وَلا فِي نَعِيمِهَا إِذَا مَا شَمَـالٌ فَرَقَتْهَـا يَمِينُهـا

فقال : يا غلام ! اقطع ، هذا حدٌّ من حدود الله ، وحقٌّ من حقوقه لا سبيل إلى تعطيله ؛ فقالت أُم الغلام : واحدي وكادّي وكاسبي ؛ قال : بئس الواحدُ واحدَك ، وبئس الكادُّ كادُّك ، وبئس الكاسِبُ كاسبَك ، يا غُلامُ ! اقطع . فقالت أُمُّ السارق : يا أَمير المؤمنين ! أَما لك ذنوبٌ تستغفر الله منها ؟ قال : بلى : قالت : هبه لي واجعل هذا من ذنوبك التي تستغفر الله منها .

وقد رويت لنا هذه الحكاية عن عبد الملك بن مروان ، فإنه أُتي بسارق وثبتتْ عليه البينة فأَنشد هذا الشعر وقالت أُمه هذا الكلام فقال : خلُّوا سبيلَه .

* * * *

٣١ — أنبأنا أبو بكر محمد بن الحسين الحاجي ، عن عبد الواحد النحوي ، قال : أنشدنا ثعلبٌ ، عن ابن الأَعرابي :

وَسَائِلَةٍ عَـنْ رَكْبِ حَسَّانَ كُلِّهِـمْ لِيَبْلُـغَ حَسَّانَ بْـنَ زَيْـدٍ سُؤَالُهـا

قال : وهي تحبُّ حسّان ، فكرهت أَن تَخُصَّه فسأَلت عن الركبِ جميعاً حتى صارت إليه .

* * * *

٣٢ — أنبأنا محمد بن علي ، قال هارون بن عبد الملك بن المأْمون : لما عُرضت الخيُزرَانُ على المهديّ قال لها : واللهِ يا جارية إنك لعلى غايةِ التمني ، ولكنك حَمْشَةُ السّاقين[1] ، فقالت : يا أَمير المؤمنين ! إنَّك أَحوج ما يكون إليهما لا تراهما ؛ فقال : اشتروها . فحظيتْ عنده ، فأَولدها موسى وهارون .

* * * *

(١) « حَمْشَةُ السَّاقين » : دقيقة الساقين .

٣٣ ــ وحكى أبو بكر الصوليّ : أَن المهديَّ اشترى جاريةً ، فاشتدّ شغفُه بها ، وكانت به أُشغف ، وكانت تتجافاه كثيراً ، فدسَّ إليها من عَرَف ما في نفسها ، فقالت : أُخاف أَن يملّني ويدعَني فأَموت ، فأَنا أَمنع نفسي بعضَ لذَّتها منه لأَعيش ؛ فقال المهديُّ :

ظَفِرَتْ بِالْقَلْبِ مِنِّي غَادَةٌ مِثْلُ الْهِلَالِ
كلَّمَا صَحَّ لَهَا وُدِّي جَاءَتْ بِاعْتِلَالِ
لا تُحِبُّ الهَجْرَ مِنِّي وَالتَّنَائِي عَنْ وِصَالِي
بَلْ لِمَأْمَنِهَا عَلَى حُبِّي لَهَا خَوْفَ المَلَالِ

* * * *

٣٤ ــ أخبرنا إبراهيم بن دينار الفقيه عن أبي نواس أنه قال : استقبلتْني امرأةٌ ، فأَسفرت عن وجهها ، فكانت على غاية الحُسن ، فقالت : ما اسمك ؟ قلت : وَجْهُكِ . فقالت : الحَسَنُ إذن .

* * * *

٣٥ ــ أخبرنا ابن ناصر ، قال : كان بالكوفة رجل له جَمَال وهيئة ، وكان يقول لامرأته : ليس بالكوفة أجمل مني ؛ فأتى يوماً رجلٌ يطلبه من بعض أخوانه ، فأَشرفت امرأته فرأته ، وكان الرجل موصوفاً بالجمال ، فأَعجبها ، فقالت لزوجها : هذا الرجل أجمل منك ؛ فقال : هذا يصرع في كل يوم ثلاث مرات ؛ فقالت : لعن الله جنيّته ، لو كنت أنا مكانها لصرعته في كل يوم خمسين مرة .

* * * *

٣٦ ــ أخبرنا عبد الرحمن عن الزبير بن بكار ، قال : قالت أختي لأهلنا : خالي خير رجل لأهله ، لا يتخذ ضرّة ولا يشتري جارية ؛ قال : تقول المرأة : والله لَهذه الكتب أشدّ عليّ من ثلاث ضرائر .

* * * *

٣٧ ــ أنبأنا محمد بن أبي طاهر قال : حدّثني رجل من تغلب يدعى : زيد بن عمرو ، قال : كان فينا رجلٌ له ابنةٌ شابّة ، وكان له ابن أخ يهواها وتهواه ، فمكثا على ذلك دهراً ، ثم إنّ الجارية خطبها بعضُ الأشراف ، فأرغب في المهر ، فأنعم أبو الجارية ، واجتمع القوم للخِطْبة ، فقالت الجارية لأُمّها : يا أُمّاه ! ما يمنعُ أبي أن يزوّجني من ابن عمي ؟ قالت : أمر كان مُقْضيّاً ! قالت : واللهِ ما أحسَبُه ربّاه صغيراً ثم يَدَعه كبيراً ؛ ثم قالت لها : يا أُماه ! إني والله حاملٌ ، فاكتمي إن شئت أو بوحِي ؛ فأرسلت الأُمُّ إلى الأب فأخبرته الخبر ، فقال : اكتمي هذا الأمر ؛ ثم خرج إلى القوم ، فقال : يا هؤلاء ! إني كنت أجبتكُم وإنه قد حدث أمرٌ رجوتُ أن يكون فيه الأجر ، وأنا أُشهدكم أني قد زوّجتُ ابنتي فلانة من ابن أخي فلان ؛ فلما انقضى ذلك ، قال الشيخ : أُدخلوها عليه ؛ فقالت الجارية : هي بالرّحمن كافرةٌ إن دخل عليها من سنة ، أو تبيّن حملها . قال : فما دخل عليها إلاّ بعد حَولٍ ، فعلم أهلها أنها احتالتْ على أبيها .

* * * *

٣٨ ــ أنبأنا محمد بن أبي منصور ، قال : قال الصولي : قال العُتْبي : رأيتُ امرأة أعجبتْني صورتُها ، فقلت : ألك بَعْلٌ ؟ قالت : لا ، قلت : أفترغبين في التّزويج ؟ قالت : نعم ، ولكن لي خَصْلَةٌ أظنُّك لا ترضاها ؛ قلت : وما هي ؟ قالت : بياضٌ برأسي ، قال : فثنيْتُ عنانِ فَرسي وسرتُ قليلاً ؛ فنادتْني : أقسمتُ عليك لتقفنّ ، ثم أتت إلى موضع خالٍ ، فكشفتْ عن شَعْرٍ كأنه العناقيد السُّود ، فقالت : والله ما بلغتُ العشرين ، ولكنني عرّفتك أنّا نكرهُ منك ما تكره منّا ؛ قال : فخجلتُ وسرت وأنا أقول :

فجعلتُ أطلبُ وَصْلَها بتملُّقٍ ... والشيبُ يَغْمِزُها بأن لا تَفْعَلِي

* * * *

٣٩ ــ أخبرنا محمد بن أبي منصور ، قال : حدثنا العُتبي ، قال : قال رجلٌ من ولد علي ابن أبي طالب لامرأة : أمرُك بيدك ؛ ثم ندم ، فقالت : أما والله لقد كان بيدك عشرين سنةً فأحسنت حفظه وصُحبته ، فلن أُضيّعه إذا كان بيدي ساعة من نهار ، وقد رددتُه إليك ؛ فأعجب بذلك من قولها وأمسكها .

* * * *

٤٠ ــ أخبرنا عبد الرحمن بن محمد القزّاز ، قال : أراد شعيب بن حرب أن يتزوج امرأة ، فقال لها : إنّي سيّىءُ الخُلُق ؛ فقالت : أسْوَأُ منك خُلُقاً من أحوجك إلى أن تكون سيّئاً . قال : أنت إذن امرأتي .

* * * *

٤١ ــ أخبرنا علي بن أحمد الموحد ، عن الفضل بن إبراهيم ، قال : مر شاعرٌ بِنسْوَةٍ ، فأعجبه شأنُهُنّ ، فجعل يقول :

إنَّ النِّسَاءَ شَياطِينٌ خُلِقْنَ لَنَا نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شَرِّ الشَّيَاطِينِ

قال : فأجابته واحدة منهن فقالت :

إنَّ النِّسَاءَ رَيَاحِينٌ خُلِقْنَ لَكُمْ وَكُلُّكُمْ يَشْتَهِي شَمَّ الرَّيَاحِينِ

* * * *

٤٢ ــ أنبأنا محمد بن عبد الملك ، قال أبو عبد الله محمد بن العباس اليزيديّ : كان لرجل من الأعراب ابنة ، وكان له غلام ، فراودها عن نفسها ، فوعدتهُ الليلَ ، وأعدت له شَفْرة وشحذتْها ، فلما جاءَها للميعادِ جَبَّتْه[1] ، فخرج يعوي ، فسمعه مولاه ، فقال : ما بك ؟ قال : ابنتُك ؛ فدخل عليها ، فقال : ما صنعت بهذا الغلام ؟ فقالت : يا أبت ! إنَّ العبد من نُوكِهِ[2] يشربُ من سَقَاءٍ لم يُوكِهِ[3] ، ومن ورد غير مائه صَدَرَ بمثل ما بِهِ ؛ فقال لها : لا شللاً .

* * * *

٤٣ ــ قال الشرقيُّ بن قَطَامِي : كان شَنٌّ من دُهاة العرب ، فقال : والله لأطوِّفنّ حتى أجد امرأةً مثلي فأتزوجها ؛ فسار حتى لقي رجلاً يريد قَرْية يريدُها شَنٌّ ، فصحبه ، فلما انطلقا ، قال له شنٌّ : أتحملُني أم أحملُك ؟ فقال الرجل : يا جاهل ! كيف يحمل الراكبُ الراكبَ ؟!

---

(١) « الجَبّ » : القطع وهنا : استئصال الخصيتين .

(٢) « النَّوك » : الحُمْق .

(٣) « الوكاء » : ما يُشدُّ به رأس القِرْبة .

فسارا حتى رأيا زرعاً قد استحصد ، فقال شَنّ : أترى هذا الزرع قد أُكِلَ أم لا ؟ فقال : يا جاهلُ ! أما تراه قائماً ؟! فمرَّا بجنازة ، فقال : أترى صاحبها حيّاً أو ميتاً ؟ فقال : ما رأيتُ أجهلَ منك ! أتُراهم حملوا إلى القبور حيّاً ؟! ثمّ سار به الرجلُ إلى منزله ، وكانت له ابنة تسمى طَبَقة ، فقصّ عليها القصة ، فقالت : أمّا قوله : أتحملُني أم أحملُك ؟ فأراد أتحدّثني أم أُحدِّثك حتى نَقطَع طريقَنا ؛ وأما قوله : أترى هذا الزرعَ قد أُكل أم لا ؟ فأراد أباعه أهلُه فأكلوا ثمنَه أم لا ؛ وأمّا قوله في الميت ؛ فإنه أراد أتَرَكَ عَقِباً يحيا به ذكْرُه أم لا ؟ فخرج الرجلُ ، فحادثه ، ثم أخبره بقول ابنته ، فخطبها إليه ، فزوّجه إيّاها ، فحملها إلى أهله ، فلما عرفوا عقلَها ودهاءَها ، قالوا : وَافَق شَنٌّ طَبَقَة .

* * * *

٤٤ ــ أنبأنا محمد بن طاهر قال : حدّثني أبو محمد بن داسه ، أنَّ رجلاً اعترض جاريةً في الطريق ، فقال لها : أبيدك صنعة ؟ قالت : لا ولكن برجلي . تعني : أنّها رَقّاصة .

* * * *

٤٥ ــ قال المحسّن : وحدثني من سمع امرأةً تخاصم زوجها بالحيلة ، فقالت له : طَلِّقْني ، فقال لها : أنت حُبْلى ! حتى إذا ولدتِ طلَّقْتُكِ . قالت : ما عليك منهُ ؛ قال : فإيش تعملين به ؟ قالت : أُقْعِدُه على باب الجنة فُقاعيّ[1] ؛ فقلت لعجوزٍ كانت تتوسّط بينهما : إيش معنى هذا ؟ قالت : تريد أنها تشرب ماءَ الشُّذَاب[2] وتتحمل شَذَاباً عليه أدوية لِتُسْقِط ، فيَلحقَ الصبيُّ بالجنة ، فيكون كالفقاعي .

* * * *

٤٦ ــ وروى أبو بكر ابن الأزهر : حدّثني رجل من أصحابي ، أنَّ رجلاً كان بالأهواز ، وكان له ثروةٌ ونعمة وأهل ، فسار مرةً إلى البصرة فتزوج بها ، فكان يأتي تلك المرأة في السنة مرة أو مرتين ، وكان للبصريّة عمّ يكاتبه ، فوقع كتاب منه في يد الأهوازيّة ، فعرفت الحالَ فعملت كتاباً إليه من حميِّه البصريِّ ، بأن امرأتَك قد ماتَتْ فالحق ، فقرأه ، ثم أخذ في إصلاح

(١) « الفقاعي » : الجنين الذي يسقط من رحم أمه .

(٢) « الشُّذَاب » : اسم نبات ، من خواصه إسقاط الحمل .

أمره ليخرج ، فقالت الأهوازيّة : إني أراك مشغول القلب ، وأظن أن لك بالبصرة امرأة . فقال : معاذ الله ! فقالت : لا أقنع بقولك دون يمينك فتحلف بطلاق كلّ امرأةٍ لك غيري غائبةً أو حاضرة ؛ فحلف لها ظنّاً أنّ تلك قد ماتت ، فقالت : لا حاجة لك في الخروج ، فإن تلك قد بانَتْ منك ، وهي في الحياة .

* * * *

٤٧ ــ وقال عليُّ بن الجهم : اشتريتُ جاريةً ، فقلت لها : ما أحسبك إلاّ بكراً ! فقالت : يا سيدي ! كَثُرتِ الفتوحُ في زمان الواثق . وقلت لها ليلةً : كم بيننا وبين الصبح ؟ قالت : عِناقُ مُشتاقٍ ؛ ونظرتُ إلى الشمس كاسفة ، فقالت : احتشمتْ محاسني ، فانتقبت . وقلت لها ليلة : نجعل مجلسنا الليلة في القَمَر ؟ فقالت : ما أُوْلَعَكَ بالجمع بين الضرائر ! وكانت تكره الحُلِيّ ، وتقول : تستُر المحاسنَ كما تُغَطّي القبائح .

* * * *

٤٨ ــ عرض على المتوكّل جاريةٌ ، فقال لها : أبكرٌ أنت أم إيش ؟ فقالت : أم إيش يا أمير المؤمنين . فضحك وابتاعها .

* * * *

٤٩ ــ وضع المعتضدُ رأسَه في حِجْرِ بعض جواريه ، فجعلت تحت رأسه مخدّة ونهضت ، فلمّا انتبه ، قال : لِمَ فَعَلتِ ذاك ؟ وأكْبَرَه ؛ فقالت : كذا عُلِّمْنا ، أن لَا يَقْعُد قاعدٌ بحضرة من ينام ، ولا ينام بحضرة قاعد ؛ فاستحسن المعتضدُ ذلك منها واستعقلها .

* * * *

٥٠ ــ بلغنا عن عَرِيب ، وكان يقال : إنها ابنة جعفر بن يحيى البرمكي ، وكانت مغنية ذكية شاعرة اشتراها المعتصم بمئة ألفٍ وأعتقها ، فكتبت إلى بعض الناس : « أردتُ » و« لولا » و« لَعَلّي » ؛ فكتب تحت أردت : ليت : وتحت لولا : ماذا ؟ وتحت لعلّي : أرجو ؛ فمضت إليه .

* * * *

٥١ ــ قال أبو الحسن بن هلال الصّابي : حدثنا أبو أحمد الحارثي ، قال : كان عندنا

بواسط رجل موسرٌ يقال له : أبو محمد ، وكانت عنده مغنية تغني :

خَلِيلَـيَّ هَيّـا نَصْطَبِـحْ بِسَوَادِ

فقال لها : بالله غَنّي :

خَلِيلَـيَّ هَيّـا نَصْطَبِـحْ بِسُهَـادِ

فقالت له : إذا عَزَمْتَ فَوَحْدك .

* * * *

٥٢ ــ وقال أبو حنيفة : خَدَعتْني امرأةٌ أشارت إلى كيسٍ مطروحٍ في الطَّريق ، فتوهمتُ أنه لها فحملتُه إليها ، فقالت : احتفظْ به حتَّى يجيء صاحبُه .

* * * *

٥٣ ــ روى أبو محمد بن قتيبة في كتاب « عيون الأخبار » ، قال : قرأت في كتب الهند ، أنه أُهْدِي لملكِ الهند ثياب وحلي ، فدعا امرأتين له ، وخيّر أخصّهما عنده بين اللباس والحلية ، وكان وزيره حاضراً ، فنظرت المرأة إليه كالمستشيرة له ، فغمزها باللباس تعضيضاً بعينه ، ولحظَهُ الملك ، فاختارت الحلية لئلا يفطن لغمزه ، ومكث الوزير كاسراً عينه أربعين سنة لئلا يقرّ ذلك في نفس الملك ، وليظنّ أنّها عادة وخِلقة ، وصار اللباس للأخرى .

* * * *

٥٤ ــ لما قتل كسرى بُزُرَجمهَرَ أراد أن يتزوّج ابنته ، فقالت للثّقات : لو كان مَلِككم حازماً لما أدخل بين شعاره ودثاره مَأْثُورَة[١] .

* * * *

٥٥ ــ قال رجل لجارية أراد شراءَها : لا يريبُك هذا الشَّيب الذي ترينه ، فإنَّ عندي قُرَّةَ عَيْن ؛ فقالت الجاريةُ : أيسرُّك أنَّ عندك عجوزاً مغتلمة ؟ .

* * * *

(١) « مأثورة » أي : صاحبة ثار .

٥٦ ــ روى رفيقنا عبد الكريم بن منصور ، قال : سمعت المبارك بن أحمد بن الإخوة يقول : خرج رجلٌ على سبيل الفُرْجة ، فقعد على الجسر ، فأقبلت امرأةٌ من جانب الرّصَافة متوجهةً إلى الجانب الغربيّ ، فاستقبلها شابٌّ ، فقال لها : رحم الله عليَّ بن الجَهْم ؛ فقالت المرأة في الحال : رحم الله أبا العلاءِ المعرِّي ؛ وما وقفا ، ومرّا مُشَرِّقَةً ومُغَرِّباً ، فتبعتُ المرأة ، وقلت لها : إن لم تقولي معنى ما قلتما وإلاَّ فضحتك وتعلقتُ بك ؛ فقالت : قال لي الشابّ : رحم الله علي بن الجهم : أراد به قوله :

عُيُـونُ المَهَـا بَيْـنَ الرُّصَافَـةِ والـجِسْرِ جَلَبْنَ الهَوَى مِنْ حَيْثُ أَدْرِي وَلا أَدْرِي

وأردت أنا بترحّمي على المعرّي قوله :

فَيَـا دَارَهَـا بِالحَـزْنِ إِنَّ مَزَارَهَـا قَـرِيبٌ وَلَكِـنْ دُونَ ذَلِكَ أَهْـوَالُ

* * * *

٥٧ ــ قال ابن الزبير لامرأة من الخوارج : أَخْرجي المال من تحت اسْتِك ؛ قال : فالتفتت إلى من بحضرتها ، وقالت : أنشدكم الله ! أهذا من كلام الخلفاء ؟ قالوا : لا ! قالتْ لابن الزُّبير : كيف ترى هذا الخلعَ الخَفِيّ .

* * * *

٥٨ ــ قال المتنبي : حدّثني رجل من الهاشميّين ، قال : كتبت إلى امرأتي وأنا في السفر كتاباً تمثلتُ فيه ببيتك ، قال :

بِـمَ التَّعَلُّـلُ لَا أَهْـلٌ وَلا وَطَـنُ وَلا نَدِيـمٌ وَلاَ كَـأْسٌ وَلا سَكَـنُ

فكتبت إليّ : والله ما أنت كما ذكرتَ في هذا البيت ، بل أنت كما ذكر الشّاعر في هذه القصيدة :

سَهِـرْتُ بَعْـدَ رَحِيلِي وَحْشَةً لَكُـم ثُمَّ اسْتَمَرَّ مَرِيـرِي وَآرْعَـوَى الوَسَنُ

* * * *

٥٩ ــ ونقلتُ من خطِّ الشيخ أبي الوفاءِ بن عقيل ، قال : كان بعضُ قضاة الحنفيّة من مذهبه أنه إذا ارتاب بالشهود فرّقهم ، فشهد عنده رجلٌ وامرأتان فيما يشهدُ فيه النساءُ ، فأراد

أن يفرّقَ بين المرأتين على عادته ، فقالت إحدهما : أخطأتَ ، لأنَّ الله تعالى قال : ﴿ فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُما الأُخْرَى ﴾ [٢ سورة البقرة/الآية : ٢٨٢] فإذا فرّقتَ زال المعنى الذي قَصَدَهُ الشَّرع ؛ فأَمْسكَ .

* * * *

٦٠ — ذكر أن رجلاً دعا المبرِّد بالبصرة مع جماعةٍ ، فغنَّت جاريةٌ من وراءِ الستارة ، وأنشأت تقول :

وَقَالُوا لَهَا : هَذَا حَبِيبُكِ مُعْرِضٌ ... فَقَالَتْ أَلاَ إِنَّ إِعْرَاضَهُ أَيْسَرُ الخَطْبِ
فَمَا هِيَ إِلاَّ نَظْرَةٌ بِتَبَسُّمٍ ... فَتَصْطَكُّ رِجْلاَهُ لِلْجَنْبِ

فَطَرِبَ كُلُّ من حضر إلاَّ المبرد ، فقال له صاحبُ المجلس : كنتَ أحقَّ الناس بالطَّرب ؛ فقالت الجارية : دعه يا مولاي فإنَّه سَمِعَني أقول : هذا حبيبُك مُعْرِضٌ فظنني لحنتُ ، ولم يعلم أن ابنَ مسعود قرأ ﴿ وهذا بَعْلِي شَيْخٌ ﴾ [١١ سورة هود/الآية : ٧٢] قال : فطرب المبرّد من قولها إلى أن شَقَّ ثَوْبَه .

* * * *

٦١ — قال بعضهم : حضرتُ قينتين ظريفتين ، وكانت إحداهما تعبثُ بكلّ من تقدرُ عليه والأُخرى ساكنة ، فقلت للساكنة : رفيقتُك هذه ما تستقرُّ مع واحد ؛ فقالت : نعم ! هي تقول بالسُّنَّة والجماعة وأنا أقول بإثبات القدر .

* * * *

٦٢ — غضب المأمونُ يوماً على عبد الله بن طاهر ، فأراد ابن طاهر أن يقصده ، فورد عليه كتاب من صديق له مقصور على السَّلام وفي حاشيته : يا مُوسى ، فجعل يتأمله ولا يعلم معنى ذلك ، فقالت له جارية كانت فَطِنة : أراد ﴿ يَا مُوسَى إِنَّ المَلأَ يأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ [٢٨ سورة القصص/الآية : ٢٠] فتيقظ عن قصد المأمون .

* * * *

٦٣ — عُرض على رجل جاريتان بكر وثيّب ، فمال إلى البكر ، فقالت الثيب : لم رغبتَ

فيها وما بيني وبينها إلاَّ يومٌ ؟ فقالت البكر : ﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [٢٢ سورة الحج/الآية : ٤٧] فأعجبتاه ، فاشتراهما .

* * * *

٦٤ — خاصمتْ امرأةٌ زوجها في تضييقه عليها وعلى نفسه ، فقالت : والله ما يقيمُ الفأر في بيتك إلاَّ لحبّ الوطن ، وإلا فهو يسترزقُ من بيوت الجيران .

* * * *

٦٥ — قال الجاحظ : قلت لجارية ببغداد : أبكْر أنت ؟ فقالت : نعوذُ بالله من الكساد . يعني : الثيوبة .

* * * *

٦٦ — جاءَت دلاَّلة إلى قومٍ ، فقالت : عندي زوجٌ يكتب بالحديد ويختم بالزجاج ، فرضُوا به وزوّجوه ، فإذا هو حجّام .

* * * *

٦٧ — قالت دلاَّلة لرجل : عندي امرأة كأنها طاقة نَرْجِس ؛ فتزوجها ؛ فإذا هي عجوزٌ قبيحة ، فقال للدلاّلة : كذبتِ علي وغَشَشْتيني ؛ فقالت : لا والله ما فعلت ، وإنّما شبّهتها بطاقة نرجس لأن شعرها أبيضُ ، ووجهَها أصفرُ ، وساقَها أخضر .

* * * *

٦٨ — أعطت امرأةٌ جاريتها درهَماً ، وقالت : اشتري به هريسةً ؛ فرجعتْ ، وقالت : يا سيّدتي ! سقط الدرهمُ منّي فضاع ؛ فقالت : يا فاعلة ! تكلّميني بفمك كلّه وتقولين : ذهب الدرهم ؟ فأمسكت الجاريةُ نصفَ فمها ، وقالت بالنصف الآخر : وانكسرت يا سيدتي الغضارة .

* * * *

٦٩ — كان رجل يقف تحت روشن امرأة وهي تكره وقُوفَه ؛ قالت : فجاءَ في بعض الأيّام وعليه قميصٌ دَبِيقِيٌّ قد غسله عند المطريّ ، وسقاه نشاءً ، وتحته قميصٌ روميّ كذلك ،

قالت : وكان للناس أُتْرُجٌّ سوسيّ ، في الأُترُجّة ثلاثون رطلاً ، فأَخرجَتْ بطيخة كافور وأَشارت إليه : تَعَال خذ هذه ؛ فجاءَ ، فوقف تحت الرَّوشن ؛ فقالت : أَمسك حِجْرك صَلْباً حتى لا تقع فتنكسر ؛ فلزم حجره ، فأَخرجت البطيخة كأَنها ترمي بها ، وأَخذت أُترجّة فرمت بها في حجره ، فلم يردّها شيءٌ سوى الأَرض ، فجمعَهُ وهرب مستحياً وما عاد بعدها .

* * * *

٧٠ — كانت جاريةٌ لبعض الأكابر ، وكانت عفيفةً ، إلاَّ أَنها كانت تفحش في مجونها ، فقال لها مولاها : أَقصري عن هذا الفحشِ بمحضَرٍ من الرّجال ؛ فقالت : أُفحشُ منه عندهُم أَخذُك دراهمَ بسببي .

وقال لها بعض الحاضرين وكان شيخاً :

يَــا أَحْسَنَ النَّــاسِ وَجْهــاً ... مُنِّـــي عَلَـــيَّ بِقُبْلَـــهْ

فأَجابتْ مسرعة :

يَـا أَسْمَـجَ النَّـاسِ وَجْهَـاً ... وَأَسْخَـــنَ الخَلْــقِ مُقْلَــهْ
إِذَا سَمَـــحْتُ لِمَــا رُمْـــ ... ـتَـــهُ فَإِنِّـــي بَذْلَـــهْ
وَكَيْــفَ يُوجَـــدُ بَيْـــنَ الـــ ... ـحِمَـارِ والـخِشْفِ وُصْلَــهْ
فَـــلا تَطُـــفْ بِالْغَوَانِـــي ... فَمَـــا يُـــرِدْنَكَ جُمْلَـــهْ
وَكُـــلُّ شَيْـــخٍ تَصَابَـــى ... عَلَى الصَّبَايَـــا فَأَبْلَـــهْ

* * * *

٧١ — قال رجلٌ لجارية أَراد شراءَها ، فسأَلها عن ثمنها ، فقال : يا جاريةُ ! كم دفعُوا فيك ؟ فقالت : ﴿ ومَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلاَّ هو ﴾ [٧٤ سورة المدثر/الآية : ٣١] .

* * * *

٧٢ — أنبأنا محمد بن أبي طاهر ، قال : حدثني أبو القاسم عبد الله بن محمد الكاتب ، قال : حدّثني بعضُ الأَشراف بالكوفة أَنه كان بها رجل حَسَنِيٌّ يعرف بالأَدْرَعِ ، شديدِ القلب جدّاً .

قال : وكان في خرائب الكوفة شيء يظهر للمجتازين فيه نارٌ ، يطول تارةً ويقصر أُخرى ، يقولون : هو غُولةٌ ، يفزعُ منه النَّاس ؛ فخرج الأَدرَعُ ليلةً راكباً في بعض شأْنه ؛ قال لي الأَدرع : فاعترضَ لي السَّوادُ والنَّار ، فطال الشخصُ في وجهي ، فأَنكرتُه ، ثم رجعتُ إلى نفسي ، فقلت : أَمَّا شيطانٌ وغُولة فهَوَسٌ وليست إلاَّ إِنسانٌ ، فذكرت الله تعالى وصلَّيت على نبيّه ﷺ ، وجمعتُ عنان الفرس ، وقرعتُه بالمقرعة ، وطرحتُه على الشخص ، فازداد طولُه وعَظُم الضوءُ فيه ، فنفر الفرسُ ، فقرعتُه ، فطرح نفسَه عليه ، فقصُر الشخص حتى عاد على قدر قامة ، فلما كاد الفرسُ يخالطه ولّى هارباً ، فحركت فرسي خلفه ، فانتهى إلى خَرِبة ، فدخلها ، فدخلتُ خلفه ، فإِذا هو قد نزل سِرداباً فيها ، فنزلتُ عن فرسي ، وشددتُه ، ونزلت وسيفي مجرّد ، فحين حصلتُ في السّردابِ أحسستُ بحركة الشخص يريد الفرار منِّي ، فطرحتُ نَفْسي عليه ، فوقعتْ يدي على بَدَنِ إنسانٍ ، فقبضتُ عليه ، فأَخرجته ، فإذا هي جاريةٌ سوداءُ ، فقلتُ : أَيُّ شيء أنت ؟ وإلاَّ قتلتُك الساعة . قالت : قبل كلِّ شيء أَنت إنسيٌّ أَم جنِّي ؟ فما رأَيت أَقوى قلباً منك قط ؛ فقلت : أَيُّ شيء أَنت ؟ قالت : أَمَةٌ لآلِ فلان ، قوم بالكوفة ، أَبقْتُ منهم منذ سنين ، فتغرَّبت في هذه الخربة ، فولّد لي الفكرُ أَن أَحتال بهذه الحيلة ، وأُوهم الناسَ أَنِّي غولةٌ حتى لا يقرُبَ الموضعَ أَحدٌ ، وأَتعرّض ليلاً للأَحداث ، وربما رمى أَحدُهم منديلاً أَو إِزاراً ، فآخذه فأَبيعه نهاراً ، وأَقتات به أَياماً ؛ فقُلْت : فما هذا الشخص الذي يطولُ ويقصرُ والنارُ التي تظهر ؟ قالت : كساءٌ معي طويل أَسود ؛ فأَخرجتْه من السرداب ، وقضبان مهندمة أُدخل بعضُها في بعض في الكساءِ ، وأَرفعه فيطول ، فإِذا أَردتُ تقصيره رفعتُ من الأَنابيب واحدةً واحدةً فيقصُر ، والنار فتيلةُ شمعٍ معي في يدي ، لا أُخرج إلا رأْسَها مقدار ما يضيءُ الكساءُ ؛ وأَرتني الشمعةَ والكساءَ والأَنابيب ، ثم قالت : قد جاوزت هذه الحيلة نيفاً وعشرين سنة ، واعترضتُ فرسانَ الكوفة وشجعانها وكلّ أَحد ، فما أَقدم أَحدٌ عليّ غيرك ، ولا رأَيتُ أَشد قلباً منك ؛ فحملها الأَدرعُ إلى الكوفة ، فردّها إلى مواليها ، فكانت تحدّث بهذا الحديث ، ولم يُر بعد ذلك أَثر غولة ، فعلم أَنَّ الحديث حقٌّ .

* * * *

٧٣ ــ أنبأنا محمد بن أَبي طاهر ، قال : قال لنا أَبو حامد الخراساني القاضي : بنى ابن عبد السلام الهاشميّ بالبصرة داراً كبيرة سنية ، ولم يتم له تربيعها إلاَّ بِمَسْكنٍ لطيفٍ كان لعجوزٍ في جواره امتنعت من بيعه ، فبذل لها أُضعاف ثمنه ، فأَقامت على الامتناع ، فشكا إِليّ ذلك ،

فقلت : هذا من أيسرِ الأمر ، أنا أوجب عليها بيعه فأضطرّها إلى أن تسألك وزنَ الثَّمَنِ ؛ ثم استدعيتُها ؛ فقلتُ : يا هذه ! إنَّ قيمةَ دارِك دون ما دَفَع لك ، وقد ضاعفها أضعافاً ، فإن لم تقبليه حَجَرتُ عليك لأن هذا تضييعٌ منك ؛ فقالت : جُعِلتُ فداك ! فهلاً كان هذا الحجرُ منك على من يَزِنُ فيما يساوي درهماً عشرة وتركت منزلي ؛ فما أختارُ بيعَه ؛ فانقطعتُ في يدها .

* * * *

٧٤ ــ أنبأنا محمد بن ناصر ، قال : نزل رجلٌ من أهل الحجاز ماءً ، فسأل : أيُّ ماءٍ هذا ؟ فقيل له : مَلَلٌ . وإذا بين يديه صَبِيّةٌ سوداءُ تلقطُ العَجَمَ ، يُريد النوى ؛ فقال : قاتل الله الذي يقولُ :

أَخَـذْتُ عَلى مَـاءِ العَشِيـرَةِ وَالهَـوَى ... عَلى مَلَـلٍ يَا لَهْـفَ قَلْبِـي عَلَـى مَلَـلْ

وأيّ شيء كان يعشق من هذه ؟ إنَّما هي حَرَّةٌ سوداءُ ! فقالت الصبية : أي بأبي ، إنَّه والله كان له بها شَجَنٌ لم يكن لك .

* * * *

٧٥ ــ أنبأنا محمد بن عبد الملك ، قال : أنبأنا محمد بن علي ، قال : حدثني المبرد ، قال : كان يسار الكَوَاعِبِ عبداً لأُناسٍ من بني الحارث بن سعد بن قُضاعة ، وكان راعياً في إبلهم ، قال : فعبث ببعضِ نسائهم ، وكان أسودَ أعجمياً ، فخدعتهُ امرأةٌ منهم ، وأَرَتْهُ أنها قد قبلتْهُ وواعدتْه ليومٍ ، فعلم به بعضُ أصحابه من الرِّعاءِ ، فنهاهُ عنها ، وقال له : يا يسار ! كُلْ من لحم الحُوَارِ ، واشرب من لبن العِشَارِ[1] ، ودع عنك بنات الأحرار ؛ فقال له يسار : إني إذا جئتها دَحِكَتْ ــ أراد ضحكت ــ ولاعبتني ؛ فأتاها في اليوم الذي واعدتهُ فيه ، فقالت : مكانَكَ حتى أُطيِّبَك ؛ فعمدت إليه ، فجدعت أنفَهُ وأُذُنَهُ ، فرجع إلى صاحبه الذي نهاه ، فأنكره ، فقال : من أنت ؟ ويْلَكَ ! قال : يسار ، قال : فيسارٌ كان لا أنف له ولا أذنين ؟ قال : أفما ترى وَيْحَكَ وبيصَ العينين ؟ فذهبتْ مثلاً ، وسمي يسار الكواعب وذكرته الشعراء ، وممن ذكره جرير حين تزوج الفرزدق إحدى نساء بني شيبان ، وزاد في مَهْرها ، فعيَّرهُ جريرٌ بذلك ، فقال :

---

(١) « الحُوار » : وَلَدُ الناقة ؛ و« العِشَار » جمع عُشَرَاء ، وهي : الناقة التي أتى عليها من وقت الحمل عشرة أشهر .

وإنّي لأخشى إن خطبتَ إليهمو عليك الذي لاقى يَسارُ الكَواعبِ

* * * *

٧٦ — قال ابن قتيبة : جَاءَتْني جاريةٌ بهديّة ، فقلت لها : قد عَلِم مولاك أنّي لا أقبل الهديّة ، قالت : ولِمَ ، قلت : أخشى أن يستمدّ مني علماً لأجل هديته ، فقالت : ما استمدّ الناسُ من رسول الله ﷺ أكثرَ وقد كان يقبل الهدية ؛ فقبلتُها ، فكانت الجاريةُ أفقَهَ منّي .

* * * *

٧٧ — قال : وبلغنا أنَّ رجلاً ابتُلِي بمحبَّةِ امرأةٍ ، فأتى أبا حنيفة ، فأخبره أنَّ مالَه قليلٌ ، وأنهم إن علموا بذلك لم يزوّجوه ؛ فقال له أبو حنيفة : أتبيعني إحليلك باثنَيْ عشرَ ألفِ درهم ؟ قال : لا . قال : فأخبر القوم أنّي أعْرِفُك ؛ فمضى ، فخطبَها ، فقالوا : مَنْ يعرفُك ؟ فقال : أبو حنيفة ؛ فسألُوا أبا حنيفة عنه ، فقال : ما أعرفه ! إلاَّ أنه حضر عندي يوماً فسُووم في سلعةٍ له باثني عَشْرَ ألفِ درهم فلم يبعْ ؛ فقالوا : هذا يدلّ على أنَّه ذو مالٍ ؛ فزوّجوه ؛ فلما تيقنت المرأةُ حالَه ، قالت : لا يَضيقُ صدرُك ، وهذا مالي بحكمك . ثم مضتْ إلى أبي حنيفة في حُليِّها وحُلَلِها ، فقالت : فتوى . فدخلتْ ، فأسفرتْ عن وجهها، فقال : تَسَتَّرِي ؛ فقالت : لا يمكن ، قد وقعتُ في أمرٍ لا يخلِّصُني منه إلا أنت ؛ أنا بنتُ هذا البقَّال الذي على رأس الدَّرْب ، وقد بلغت عُمراً ، واحتجتُ إلى الزَّوج وهو لا يزوّجني ، ويقول لمن يخطبني : ابنتي عوراءُ قَرْعاءُ شَلاَّءُ ؛ ثم حَسَرتْ عن وجهها ورأسها ويديها ؛ ويقول : بنتي زَمِنَة — وكشفت عن ساقيها — ، وأُريد أن تُدَبِّرَني ؛ فقال : تَرْضين أن تكوني لي زوجة ؟ فقبّلتْ قدميه ، وقالت : من لي بغلامك ؟ فقال : امضي في دَعَةِ اللهِ ؛ فخرجتْ ، فأحضر البقالَ ، ودفع إليه خمسين ديناراً ، وقال : زوّجْني ابنتَك ؛ فكتب كتاباً بمئة دينار ؛ فقال البقَّال : يا سيّدي ! استُر ما ستر الله ، أنا لي بنت أزوّجُك ! قال : دَعْ هذا عنك ، رضيتُ بابنتِك القَرْعَاءِ الشَّلاَّءِ الزَّمنة ؛ فزوّجه على المئة والخمسين ومضى ؛ فحدّث زوجتَه ، فقالت : والله لا كان هلاكنا إلاَّ على يدي أبي حنيفة ؛ فلما كان عشيَّةَ تلك الليلة أجلسها أبوها في صَنٍّ[1] ، وحملها بَيْنَهُ وبين غُلامه ، فلما رآها أبو حنيفة ، قال : ما هذا ؟ فقال البقَّالُ : آشهد عليّ بطلاق أُمها إن كانت لي بنتٌ غيرها ؛ فقال أبو حنيفة : هي طالق ثلاثاً ، أعد عليّ الكتاب وأنت في حلٍّ من الخمسين ؛ وبقي أبو

(١) « الصنّ » نوع من السلال المطبقة .

حنيفة متفكراً شهراً ، ثم جاءَتْ تلك المرأةُ إليه ، فقال : ما حمَلك على ما فعلتِ ؟ فقالت : وأنتَ ما حملك على أن غَرَرْتَنا برجلٍ فقير ؟ ثم دفعت إليه خمسين ديناراً عِوَض ما ذهب منه وانصرفت .

* * * *

٧٨ ــ قال أبو الحسن السَّبِّي مؤذنُ المسترشد بالله : حدّثني بعضُ التجار المسافرين ، قال : كنا نجتمعُ من بلاد شَتَّى في جامع عمرو بن العاص نتحدّث ، فبينما نحن جلوسٌ يوماً نتحدّثُ وإذا بامرأةٍ بِقُرْبنا في أصل سارية ، فقال لها رجل من التجار البغداديّين : ما شأْنُكِ ؟ فقالت : أنا امرأةٌ وحيدة ، غاب عنّي زوجي منذ عشر سنين و لم أَسمع له خبراً ، فقصدتُ القاضي ليزوِّجَني ، فامتنع ، وما ترك لي زوجي نفقةً ؛ وأُريدُ رجلاً غريباً يشهد لي هو وأصحابُه أَنَّ زوجي مات أو طلقني لأتزوج ؛ أو يقول : أنا زوجُها ويطلّقني عند القاضي لأصبر مدة العدّة وأتزوج ؛ فقال لها الرجلُ : تعطيني ديناراً حتى أَصير معك إلى القاضي وأَذكر له أنّي زوجُك وأُطلّقك ؟ فبكتْ ، وقالت : واللهِ ما أملكُ غير هذه ؛ وأَخرجت أَربع رباعيات ، فأَخذها منها ، ومضى معها إلى القاضي ، وأَبطأَ علينا ، فلما كان من الغد لقيناه ، فقلنا : ما أَبطأَك ؟ فقال : دَعُوني ، فإني حَصَلْتُ في أَمر ذكرُهُ فضيحة ؛ قلنا : أَخبرنا ، قال : حضرتُ معها إلى القاضي ، فادّعتْ عليّ الزوجية والغيبةعشرَ سنين ، وسأَلت أَن أُخَلِّي سبيلَها ، فصدّقتُها على ذلك ؛ فقال لها القاضي : أَتبرئينه ؟ قالت : لا والله ، لي عليه صداقٌ ونفقةُ عشر سنين وأَنا أَحقُّ بذلك ؛ فقال لي القاضي : أَدِّيها حقَّها ولك الخيار في طلاقها أَو إمساكها ؛ فورد عليّ ما أَبلسني ، و لم أَتجاسرْ أَن أَحكيَ صُورتي معها فلا أُصَدَّق ، فتقدّم القاضي بتسليمي إلى صاحبِ الشُّرطة ، فاستقرّ الأَمرُ على عشرة دنانير أَخَذَتْها منّي وَغُرِمْتُ للوكلاءِ وأَعوان القاضي الأَربع رباعيّات التي أَعطتْني ومثلها من عندي ؛ فضحكْنا منه ، فخجلَ وخرج من مصر ، فلم يُعرف له خبر .

* * * *

٧٩ ــ نقلتُ من خط الشيخ أَبي الوفاءِ بن عقيل ، قال : حكى لي بعضُ الأَصدقاءِ أَنَّ امرأَةً جلستْ على باب دكَّانِ بَزَّازٍ أَعزب إلى أَن أَمست ، فلما أَراد غَلْق الدكان تراءَتْ له ، فقال : ما قعودك في هذا المساءِ ؟ فقالت : والله مالي مكانٌ أَبيت فيه ، فقال لها : تَمْضِي معي إلى البيت ؟ فقالت : نعم ؛ فمضى بها إلى بيته ، وعَرَض عليها التَّزويجَ ، فأَجابتْ ، فتزوّجها ،

وبقيتْ عنده أياماً ، وإذا قد جاءَ في اليوم الرابع رجلٌ ومعه نسوةٌ فطلبوها ، فأدخلهم وأكرمهم ، وقال : من أنتم منها ؟ فقالوا : أقاربُها ، ابنُ عمٍّ وبناتُ عمّ ، وقد سُررنا بما سمعناه من الوُصْلة ، غير أنَّا نسألُك أن تتركَها تزورنا لعُرْسِ بعض أقاربنا ، فدخل إليها ، فقالت : لا تُجبْهم إلى ذلك ، واحلِفْ بطلاقي أنَّكِ لا خَرَجْتِ من داري شهراً ليمضي زمنُ العُرس ، فإنه أصلحُ لي ولك ، وإلاَّ أخذوني ، وأفسدُوا قلبي عليك ، فإنِّي كنتُ غَضْبى ، وتزوّجتُ إليك بغير مشاورتِهم ، ولا أدري من قد دلَّهم إليك ؛ فخرج ، فحلف كما ذكَرتْ له ، فخرجوا مأيوسين ، وأغلق الباب ، وخرج إلى الدَكان وقد عَلِق قلبُه بالمرأة ، فخرجتْ ولم تستصحبْ من الدار شيئاً ، فجاءَ فلم يجدْها ، فقال قائلٌ : ترى ما الذي قصدتْ ؟ قال أبو الوفاءِ : لعلها مستحلَّة به لأجل زوجٍ طلقها ثلاثاً ؛ فليتخوَّف الإنسانُ من مثل هذا ، وليطَّلع به على غوامض حِيَلِ النَّاس .

* * * *

الباب الثاني والثلاثون
في
ما ذكر عن الحيوان البهيم مما يشبه كلام الآدميين

١ ــ أخبرنا محمد بن عبد الباقي ، عن سعيد بن أبي سعيد ، رضي الله عنه ، عن أبي هُرَيْرَة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ ، قال : « إنَّ في أحدِ جَنَاحَي الذُّبابِ داءً وفي الآخر شفاءً ، وإنَّه ليُتَّقى بالذي فيه الداءُ ، فإذا وقع في إناء أحدكم فليغمسْه كُلَّه ثم لينزعه » .

* * * *

٢ ــ أخبرنا ابن الحصين ، عن أبي صالح ، عن أبي هُرَيْرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، أنَّ رجلاً كان يُبيع الخمر في سفينة ، وكان يَشُوبُه بالماءِ ، وكان معه في السفينة قردٌ ، فأخذ القرد الكيسَ الذي فيه الدّنانير ، فصعد ذِرْوَة الدَّقَلِ ، ففتح الكيسَ ، فجعلَ يُلقي في البحر ديناراً وفي السفينة ديناراً ، حتى لم يبقَ فيه شيءٌ .

* * * *

٣ ــ أخبرنا محمد بن ناصر ، عن محمد بن خلاّد ، قال : قدم رجلٌ على بعض السّلاطين ، وكان معه عاملُ أرمينية منصرفاً إلى منزله ، فمرّ في طريقه بمقبرةٍ ، وإذا قبرٌ عليه قُبّة مبنية مكتوبٌ عليها هذا قبرُ الكلب ، فمن أحبَّ أن يعلم خبره ، فليمض إلى قرية كذا وكذا ، فإنَّ فيها من يُخبره . فسأل الرجلُ عن القرية ، فدلّوه عليها ، فقصدها وسأل أهلَها ، فدلّوه على شيخٍ قد جاوز المئة ، فسأله ، فقال : كان في هذه الناحية مَلِكٌ عظيمُ الشأن ، وكان مشتهراً بالنزهة والصّيد والسّفر ، وكان له كلبٌ قد ربّاه لا يفارقه ، فخرج يوماً إلى بعض متنزّهاته ، وقال لبعض غلمانه : قُل للطبّاخ يُصلح لنا ثَرْدَة لبنٍ فقد اشتهيتُها ، فأصلحوها ؛ ومضى إلى متنزّهَهُ ، فوجّه الطباخ ، فجاءَ بلبنٍ ، وصنع له ثَرْدَةً عظيمةً ونسي أن يُغطيَها بشيءٍ ، واشتغل بطبخ أشياءَ أُخر ، فخرج من بعض شقوق الحيطان أفعى ، فكَرَعَ في ذلك اللبن ، ومَجّ في الثَّرْدَة

مِن سُمِّهِ والكلبُ رابضٌ يرى ذلك كلَّه ، ولو كان في الأفعى حيلةٌ لدفعها ، وكانت هناك جاريةٌ طِفلة خرساءُ زَمِنة قد رأَتْ ما صنع الأفعى ، ووافى المَلِكُ من الصّيد في آخر النهار ، فقال : يا غلمانُ ! أوّل ما تقدِّمون إليّ التَّردَة ؛ فلما وُضعت بين يديه أومأتِ الخرساءُ إليه ، فلم يفهم ما تقول ، ونبح الكلبُ وصاح ، فلم يلتفت إليه ، ولَجّ في الصِّياح ، فلم يَعْلم مرادَه ، فأَخذ ورَمَى إليه بما كان يُرمى في كلّ يوم ، فلم يقربْه ولجّ في الصياح ، فقال للغلمان : نَحُّوه عنَّا فإنَّ له قصة ، ومدّ يده إلى اللَّبن ، فلما رآه الكلبُ يريد أن يأْكلَ طَفَر إلى وسط المائدة وأَدخل فمه في الغَضَارةِ ، وكَرَعَ من اللّبن ، فسقط ميتاً وتناثر لحمُه ، وبقي الملك متعجباً منه ومن فعِله ، فأَومأَت الخرساءُ إليهم ، ففهموا مرادها بما صنع الكلب ، فقال الملك لنُدمائه وحاشيته : إنَّ من فداني بنفسه لحقيقٌ بالمكافأة ، وما يحملُه ويدفنُه غيري ؛ فدفنه وبنى عليه قبة ، وكتب عليها ما قرأْت .

* * * *

٤ ـ أنبأنا محمد بن أَبي طاهر ، قال : أنبأنا علي بن المحسن التنوخي ، عن أبيه ، قال: حدّثني بشر الرومي مولى أبي أنه سمع مولى كان له قبل أبي يعرف بأبي عثمان المدائني ، كان في جواره ببغداد رجل يلعب بالكلاب ، فأَسحر يوماً في حاجة ، وتبعه كلبٌ كان يختصّه من كلابه ، فردّه فلم يرجع ، فمشى حتى انتهى إلى قوم كان بينه وبينهم عداوة ، فصادفوه فقبضوا عليه والكلبُ يراهم ، فأدخلوه وقتلوه ، ودفنوه في الدار ، والكلب يراهم ، فخرج الكلبُ وقد لحقتْه جِراحة ، فجاءَ إلى بيت صاحبه يعوي ، وافتقدتْ أُمُّ الرجل ابنها ، فأَثبتت أَنَّ الجراح التي بالكلب من فِعْل مَنْ قَتَل ابنها ، وأَنه قد تلف فأَقامت عليه المأْتم ، فطردت الكلب عن بابها ، فلزم ذلك الكلب الباب فمرّ القاتلُ . فعرفه ، فنهشَهُ وعَلِق به ، فاجتهد المجتازُون في تخليصه منه فلم يُمكنهم ، وارتفعت ضَجَّةٌ ، وجاءَ حارسُ الدَّرْب ، فقال : إنه لم يَعْلَق هذا الكلبُ بالرجل إلاَّ ولهُ معه قصة ، ولعله الذي جَرَحه ؛ وخرجت أُمُّ القتيل ، فرأَت الكلبَ متعلِّقاً بالرجُل ، وسمعت كلامَ الحارِس ، فذكرت بأَن هذا الرجلَ ممن كان يُعادي ابنها ، فوقع في نفسها أَنَّهُ قاتلُه ، فتعلَّقت به ، وادّعت عليه القتلَ ، وارتفعا إلى صاحب الشرطة ، فحبسه بعد أَن ضُرِب ولم يُقِرَّ ، ولزم الكلبُ باب الحبس ، فلما كان بعد أَيام أُطلق الرجلُ ، فلما خرج عَلِق به الكلبُ ، ففُرِّق بينهما ، وما زال يسعى خلفه ويَصيح إلى أَن دخل بيته ، فدخل خلفه ومعه صاحبُ الشرطة من حيث لا يعلم ، فكبس الدّار ، فأَقبل الكلبُ يبحث بمخاليبه موضعَ القتيل ، فنبش ، فوُجِد الرجل ،

فضُرب المتهم ، فأُقرّ على نفسه وعلى الباقين ، فقُتِلَ وطُلِبُوا .

* * * *

٥ ــ قال أبو بكر بن خلف : وأخبرني علي بن محمد ، قال : حدّثني محمد بن الحسين ابن شَدّاد ، قال : رأيت رجلاً له كلبٌ يُقَرِّبُه ويغطّيه بديباجٍ كان عليه ، فسأَلْتُه عن السبب ؟ فقال : كان لي رفيقٌ يعاشِرُني ، فخرجنا في سَفَر ، وكان في وَسَطِي هِمْيَانٌ فيه جملةُ دنانير ، ومعي متاع كثير ، فنزلنا في موضع ، فعمد إليّ ، فأَوثقَني كتافاً ، ورمى بي في وادٍ ، وأخذ ما كان معي ومضى ، وقعد هذا الكلبُ معي ، ثم تركني ومضى ، فما كان بأَسرع من أَن وافاني ومعه رغيفٌ ، فطرحه بين يدي فأَكلتُه ، ولم أَزل أَحبُو إلى موضع فيه ماءٌ ، فشربتُ منه ، ولم يزل الكلبُ معي باقي ليلتي ، ثم نمتُ ، ففقدتُه فما كان بأَسرع أَن وافاني ومعه رغيفٌ ، فأَكلتُه ، فلما كان في اليوم الثالث غاب عنّي ، فقلت : يمضي ويَجيئني بالرّغيف ، فجاءَ ومعه الرغيف ، فرمى به ، أَستتم أُكلَه إلا وابني على رأسي يبكي ، وقال : ما تصنع هاهنا ؟ وما قصتك ؟ ونزل فحلّ كتافي ، وأَخرجني ، فقلت له : أين علمتَ بمكاني ، ومن دَلَّك عليّ ؟ فقال : كان الكلبُ يأْتينا في كلّ يوم ، فنطرح له الرغيف على رسمه فلا يأْكُله ، وقد كان معك ، فأَنكرْنا رجوعَه ولست معه ، وكان يحمل الرغيف بفمِه ولا يَذُوقه ويغدو ، فأَنكرْنا أَمره ، فاتَّبعتُه حتى وقفتُ عليك ، فهذا خبري وخبر الكلب .

* * * *

٦ ــ قال ابن خلف : وأخبرونا عن المدائني يرفعه ، عن عمرو بن شهد ، قال : كان للحارثِ بن صَعْصعة ندماءُ لا يفارقهم ، فعبث أَحدُهم بزوجته وراسلها ، وكان للحارث كلبٌ قد ربّاه ، فخرج الحارثُ في بعض منتزهاته وتخلَّف عنه ذلك الرجلُ ، وجاءَ إلى زوجته فأَقام عندها ، فلما جامعها وثب الكلبُ عليهما فقتلهما ، فلما رجع الحارثُ نظر إليهما فعرف القصة ، فهجر من كان يعاشره واتخذ كلبه نديماً . فتحدثت به العرب ، فأَنشأَ يقول :

فَلَلْكَلْبُ خَيْرٌ مِنْ خَلِيلٍ يَخُونُنِي ... ويَنْكِحُ عِرْسِي بَعْدَ وَقتِ رَحِيلي
سَأَجْعَلُ كَلْبِي مَا حَيِيتُ مُنَادِمِي ... وَأَمْنَحُهُ وُدِّي وَصَفْوَ خَلِيلِي

* * * *

٧ ــ قال ابن خلف : قال أبو عُبيدة : خرج رجل من البصرة ، فاتّبعه كلبٌ ، فوثب بالرجل قوم فجرحوه ورموه في بئر ، وحَثَوْا عليه التراب ، فلما انصرفوا ، أتى الكلبُ رأسَ البئر ، فبحث حتى ظهر رأسُ الرجل وفيه نَفَسٌ يتردّد ، فمرّ قومٌ ، فأخرجوه حيّاً .

* * * *

٨ ــ قال ابن خلف : وحدّثني بعضُ أصدقائي ، قال : دخلتُ بستاناً ومعي كلبان لي قد ربيتهما ، فنمتُ ، فإذا هما ينبحان ، فانتبهتُ ، فلم أر شيئاً أُنْكِرُه ، فعاودُوا النباح ، فضربتُهما ونمت ، فإذا بهما يحرّكاني بأيديهما وأرجلهما كما يُوقَظ النّائم ، فوثبت ، فإذا أسودُ سَالِخٌ[1] قد قَرُب مني ، فوثبتُ فقتلته ، فكانا سبب سلامتي .

* * * *

٩ ــ قالت الحكماءُ : ومن فِطْنَةِ الكلب أنه إذا عاين الظّباءَ قريبةً كانت أو بعيدة ، عرف المعتلَّ وغير المعتلِّ ، والذكر من الأُنثى ، فلم يقصد الصيد إلاَّ في الذكر ، وإن علم أنه أشدُّ عَدْواً وأبعدُ وثْبة ؛ ويدع الأُنثى على نقصان عَدْوِها ، وسبب ذلك أنه قد علم أنَّ الذكَر إذا عدا شوطاً أو شوطين حُقِن ببوله ، وكذا كلُّ حيوان إذا اشتد فزعُه فإنه يدركه الحَقْن ، وإذا حُقِنَ الذكرُ لم يستطع البولَ مع شدّة العَدْوِ حينئذ يضعف عَدْوُه ، ويَقْصُر مدى خُطاه ، فيلحقُهُ الكلبُ ؛ وأما الأُنثى ، فإنَّها تحذفُ بولَها لسَعَةِ السَّبِيلِ وسهولة المخرج ، فتصير بذلك أدوم عدواً ، ومن فَهْم الكلبِ أنه إذا خرج الجليدُ والثلجُ وقد تراكم على الأَرض ، والكلابُ لا تدري حينئذٍ أين كُناسُ الظباء وأين جُحر الأرانب[2]، فيشمّ الكلب وينظرُ إلى أن يقفَ على تلك الحجرة ، وطريق معرفتِهِ أنَّ أنفاسَ الحيواناتِ وبُخارَ أجوافها يذيبُ ما لاقى من فم الجُحْر من الثّلجِ الجامد حتى يرقَّ ، وذلك خَفِيٌّ غامضٌ لا يقع عليه إلّا الكلب ؛ وإنَّ الكلب إذا ظفر بشخص لم يُنَجِّهِ منه إلّا أن يقعدَ بين يديه ذليلاً ، فحينئذٍ لا يَنْبَحُه ، لأنَّه يراه تحت قدرته ، فَيِسمُه بِميسَم ذُلّ .

* * * *

١٠ ــ أنبأنا محمد بن ناصر ، قال : سمعت أبا بكر بن الحَضْنَةِ عن مؤدّبه أبي طالب

---

(١) « السَّالِخ » : اسم الأسود من الحيات .

(٢) « الكناس » : مُستتَر الظبي في الشجر ؛ و« الجحر » : البيت الذي يحفره الحيوان ، والضب خاصة .

المعروف بابن الدَّلْو ، وكان رجلاً صالحاً يسكن نهر طابق ، أنه كان ليلةً من الليالي قاعداً يَنْسَخُ ، قال : وكنتُ ضَيِّقَ اليدِ ، فخرجتْ فأرةٌ كبيرةٌ ، فَجَعَلَتْ تعدو في البيت ، ثم خرجتْ أُخرى ، وجعلا يلعبان بين يدي ، وكان بين يدي طَاسَةٌ ، فكبَّبْتُها على إحداهما ، فجاءَت الأُخرى ، فجعلت تدورُ على الطَّاسَةِ وأنا ساكت ، فدخلَتِ السَّرَبَ[1] ، فخرجتْ وفي فيها دينارٌ صحيحٌ ، وتركَتْهُ بين يدي ، فاشتغلت بالنسخ ، وقعدتْ ساعةً تنتظرُ ، ثم رجعتْ فجاءَت بدينار آخر ، وقعدتْ ساعةً ؛ إلى أن جاءَت بأربعة أو خمسة ، وقعدَتْ زمناً أطولَ من كل نَوْبة ، ورجعتْ فأخرجَتْ جِلْدَةً كانت فيها الدنانيرُ ، وتركتْها فوق الدنانيرُ ، فعرفتُ أنه ما بقي شيءٌ ؛ فرفعتُ الطّاسة ، ففرَّتا ، فدخلتَا البيت وأخذتُ أنا الدنانير .

* * * *

١١ ــ أخبرنا محمد بن عبد الباقي ، عن محمد بن عجلان مولى زياد ، قال : دخل زيادٌ مَجلسَهُ ذات يوم ، فإذا هرٌّ يهرُّ في زاوية البيت ، فذهبت أزجرُه ، فقال : دعْه فأرب له ؛ ثم صلَّى الظهر ، ثم عاد إلى مجلسه ، ثم صلَّى العصر فعاد إلى مجلسه . كلُّ ذلك يلاحظ الهرَّ ، فلما كان قبل غروب الشمس خرج جُرَذٌ ، فوثب عليه الهرُّ ، فأخذه ، فقال زياد : من كانت له حاجةٌ فليواظبْ عليها مواظبةَ الهرِّ ، فإنه يظفرُ بها .

* * * *

١٢ ــ أنبأنا محمد بن أبي طاهر ، قال : أنبأنا أبو القاسم علي بن أبي طالب المحسن التنوخي ، قال : كنتُ ماضياً إلى الأنبار في رفقة بَازْيارية[2] للسُّلْطان ، فأطلقوا بازاً على دُرَّاجٍ ، فطار فلحق الدرّاج ، فانتهى الدرّاج إلى غَيْضة ، فدخلها ، فألقى نفسه بين شَوْكٍ كان فيها ، وأخذ من ذلك الشَّوك أصلينِ كبيرين في رجليه ، ونامَ على قفاه ، ورفع رجليه ، فاستتر بذلك من البازيّ ، فلمّا قرب منه البَازيارية طار ، فصادَهُ البازيُّ ، فقالوا : ما رأينا درّاجاً قطُّ أحذر من هذا .

* * * *

١٣ ــ قلت : والعربُ تقول : أَحْذَرُ من غُراب ، وأحذَرُ من عقْعقٍ ، وأحذرُ من ذئب ،

(١) « السَّرَب » : الحفير تحت الأرض .

(٢) « بازيارية » جمع بازيار ، وهو : صاحب البازي ، أي : المهتم به وسائسه ومروضه والمعتني بشؤونه .

ويزعمون أنَّ الذئب يبلغُ من حَذَرِهِ أنه يُراوِحُ بين عينيه إذا نام ، فيفتح إحداهما لتكون حارسة . قاله حميد بن هلال في الذئب :

يَنَامُ بِإِحْدَى مُقْلَتَيْهِ وَيَتَّقِي ... بِأُخْرَى الأَعَادِي فَهُوَ يَقْظَانُ هَاجِعُ

وقيل : إن الأرنب يفعل كذلك .

قال العسكري : هذا محال ، لأنَّ النومَ يأْخذ جملة الحيّ .

قلت : أرادوا بذلك أنَّه يغْمض عيناً عند بداية النوم ويفتح عيناً إلى أن يغْلِبَ عليه ، فيكون في صورة اليقظان وفي صورة الهاجع فيكون الكلامُ صحيحاً .

ويقولون : أحذرُ من ظَلِيم ، وهو ذكر النَّعام .

* * * *

١٤ ـــ روى ابن الأعرابي ، عن هشام بن سالم ، قال : أكلتْ حيّةٌ بيضَةَ مكَّاءٍ[1] ، فجعل المكاءُ يشرشر على رأسِها ويدنُو منها ، حتى إذا فتحت فاها تريدُه وهمّت به ، أَلقى في فيها حَسَكَةً ، فأَخذتْ بحلقها حتى ماتت .

* * * *

١٥ ـــ وروينا أنَّ الهدهدَ قال لسليمان عليه السلام : أُريدُ أن تكون في ضيافتي ؛ قال سليمانُ : أنا وحدي ؟ قال : لا ، بل العسكرُ كلُّه في جزيرة كذا في يوم كذا ، فمضى سليمانُ إلى هناك ، فصعد الهُدْهُدُ إلى الجوِّ ، فصاد جرادةً ، وخنقها ، ورمى بها في البحر ، وقال : يا نَبيَّ اللهِ ! إن كان اللحمُ قليلاً فالمَرَقُ كثير ، فكلوا ، من فَاتَهُ اللحمُ ناله المرق ؛ فضحك سليمان وجنودُه من ذلك حولاً كاملاً .

* * * *

١٦ ـــ قلت : من أَحوال الحيوان البهيم وأفعاله الدالَّة على الفطنة ، أنَّ العصافيرَ لا تقيمُ إلَّا في دار مسكونة ، فإنْ هجرها الناسُ لم تُقِم ، وأَما الهِرَّة فإنها تأْلفُ الدارَ وإن رحل أَهلُها ، والكلبُ يرحل مع أَهل الدار ولا يلتفتُ إلى الدار ، ومتى طرقت العصافير آفة استغاثت ، فأَغاثها

(١) « المُكاء » : طائر .

كلُّ عصفور يسمعُ ، حتى إنه قد يقع فرخها فيستغيثُ فلا يبقى عُصفورٌ يسمع إلَّا جاءَ ، فيطيرون حول الفرخ ، ويحرّكُونه بأفعالهم ، فيحدثون له بذلك قوة وحركةً حتى يطيرَ معهم .

* * * *

١٧ — قال بعض الصيادين : ربَّما رأيتُ العصفورَ على حائطٍ ، فأُومي بيدي ، فكأنَّني أرميه ، فلا يطير ؛ فأُومي بيدي إلى الأرض كأنني أتناول شيئاً فلا يتحرك ، فإن مسستُ بيدي حصاةً طار قبل أن تتمكنَ منها يدي .

* * * *

١٨ — والحمام ، إذا عَلِم أن الأُنثى قد حملتْ اشتغل هو وهي بعمل العُشِّ ، وأَشخصا لها حُروفاً تحفظُ البيضَ ، ثم سخَّناها ونفيا عنها طباعَها ، وأَحدثا لها طبيعةً أُخرى مستخرجةً من رائحةِ أبْدَانِهما ، ثم يقلبان البيضَ في الأيَّام ، فتأْخذُ البيضة نصيبها من الحَضنِ ، وساعاتُ الحضنِ أَكثرُها على الأُنثى كالمرأَةِ التي تكفل الحضانة ، فإذا صار البيض فراخاً كان أكثر الزَّقِّ على الذَّكر ، ومتى انصدع البيضُ عَلِما أن حواصل الفراخ لا تتَّسع للغذاءِ ، فينفُخان الريحَ في حُلُوقهما لتنتفخَ الحوصلة وتتسع ، ثم يعلمان أنه لا يَصلُحُ أن يُزَقَّ الطعام ، فيزقَّان اللعابَ المختلَط بقواهما وقوى الطعام كاللِّبأ ، ثم يعلمان أنَّ الحوصلة تحتاجُ إلى دَبْغ وتقوية ، فيأْكلان من سورج الحيطان ، وهو شيء بين الملح الخالص وبين التَّراب المالح ، فيزقَّانِه ، فإذا علما أنَّه قد اشتدَّ زَقَّاه الحبَّ ، فإذا علما أنه قد أطاق أن يَلْقُط ، منعاه بعض المنع ليحتاجَ إلى اللقط فيتعوّده ، فإذا علما أنه قد قوي على ذلك ضَرَباه إذا سألهما الكفاية ومنعاه ، ثم يبتدئان العمل لجلب غيره ، فيبتدىء الذَّكَرُ بالدعاءِ ، وتبتدىء الأُنثى بالتأني والاستدعاءِ ، ثم تزِيفُ وتتشكَّل ، ثم تمتنع فتجيبُ ، ثم يتعاشقان ويتطاوعان ، ويُحدث لهما من الغَزَل والتَّقبيل والرَّشْف .

وترى الحمام إذا أُرسِلَ ليلاً لزم بطن الفرات أو بطن دجلة أو بطون الأَودية التي مرّها نهاراً ، ويفهم انحدار الماء ، ويعلم أن طريقه وطريق الماء إذا انحدر سواء ، فينحدر معه ، وكثيراً ما يستدلّ بالجوّ إذا أعيته بطون الأودية ، فإن لم يدر أمصعد هو أو منحدر يعرف ذلك بالريح ، وبموضع قرص الشمس في السماء ، وهذا كله يفعله إذا ضلّ ، فأما إذا عرف الطريق فإنه لا يعرج ؛ والشفيق إذا هلكت زوجته لم يتزوج ، وكذلك هي إذا هلك هو .

* * * *

١٩ – والعنكبوتُ تنسِجُ بما هو يَسْكُنُها شبكةً للذّباب ، فإذا تعرقَلَتْ فيها صَادَها .

ويروى أَنَّ الليث – وهو صنف من العَناكِب – يَلْطَأُ بالأَرضِ ، ويجمعُ نَفْسَه ، ويُري الذُّبابَ أنه لاهٍ عنها ، ثم يثبُ وثوب الفَهْد فيصيدُها .

* * * *

٢٠ – والثعلبُ إذا أَعوزه القوتُ تماوت ونَفَخَ بطنَه ، فيحسَبَهُ الطَّيرُ ميتاً ، فإذا وقع عليه وثب عليها .

* * * *

٢١ – والخفَّاش ضعيفُ البصر ، فلا يطيرُ إلَّا عند الغروب ، لأَنَّه وقتٌ لا ضوءَ فيه يَغْلِبُ بَصَرَهُ ولا ظُلْمةً .

* * * *

٢٢ – والنملة والذَّرّةُ تدَّخِرُ في الصيف للشتاءِ ، ثم تخافُ على المدَّخَرِ من الحبوبِ العَفَنَ ، فتُخْرِجُه فتنشُرُه ليضربَه الهواءُ ، وربّما اختارت ذلك في ليالي القَمرِ لأَنَّها فيه أَبصر ، فإن كان مكانها نَدِيّاً وخافت أَن تنبتَ نقَرتْ وسطَ الحبَّةِ كأَنَّها تعلمُ أَنها تنبتُ من ذلك المكانِ ، وفَلَقَتْها نصفين ، فإن كانت كزبرةً فلقتها أَربعاً ، لأَنَّ أَنصاف الكزبرة تنبُتُ من بين جميع الحبوب ، فهي من هذا الوجه مجاوزة لفطنة جميع الحيوان ، ولها مع لطافةِ شَخْصِها من الشَّمِّ ما ليس لشيءٍ ، وربما أَكل الإنسان الجرادَ أَو ما أَشبهه ، فتسقط من يده الواحدةُ أَو بعضُها ، وليس بقربه ذَرَّة ، فلا تلبثُ أَن تُقبِلَ ذَرَّةٌ أَو نملة قاصدة إلى تلك الجرادة ، فتحاول نَقْلها إلى موضعها فتعجز ، فتكرُّ راجعةً إلى بيتها ، فلا تلبثُ أَن تقبل وخلفها كالخيط الأَسودِ ، فتتعاونَ فتحملَها ، فانظرْ إلى صدق الشَّمِّ لما لا يشمّه الإنسان ، ثم إلى بعد الهمة ، ثم إلى الجرأَة في محاولة نقل شيءٍ وزنُها مئة مرّة أَو أَكثر أَو أَقل ، وقلّ أَن تلقى أُخرى إلَّا وقفت معها أخبرتها بشيء ، ويدلُّ على كلامها قوله تعالى : ﴿ قالت نَمْلَةٌ : يا أَيُّها النَّمْلُ ! ٱدْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ ﴾ [٢٧ سورة النمل/الآية : ١٨] .

* * * *

٢٣ – ومن الحيات ما يغمِسُ ذَنَبَهُ في الرَّمل وينتصبُ قائماً نصف النهار في شدة الحرِّ ،

فيجيءُ الطائرُ ، فيكره الوقوعَ على الرّملِ لحرِّه ، فيقعُ على رأْسِ الحيّة على أَنها عودٌ ، فتقبضُ عليه .

وَزَعَمَ قومٌ أَنَّ الحيةَ في بلادهم تأْتي البَقَرة ، فتنطوي على فَخِذِها ، وتَلْتَقِمُ الثَّدْيَ ، فلا تستطيعُ البقرة أَن تَتَزَمْزَمَ فتمتصُّ اللَّبن .

* * * *

٢٤ — ومن فَهْم اليربوع أَنه لا يتّخذُ جحره إِلّا في كَدْوَةٍ ، وهو الموضعُ الصُّلْبُ ، ليرتفعَ عن السَّيْلِ ، فيسلمَ من مجاري المياهِ ومدقّ الحافِرِ ، فيحفرُ في الصلابة ويعمّق ، ثم يتخذُ في زوايا بيته القَاصِعَاءَ والنَّافِقَاءَ والرَّامِقَاءَ والرَّاهِطَاءَ ، وهي بيوتٌ قد اتَّخذها ورقّق أَبوابها ، فإِذا أَحسَّ شرّاً دفع بعضَها وخرج ، ولما علم من نفسه أَنه كثيرُ النسيان لم يحفر بيته إِلّا عند أَكمة أَو صخرةٍ أَو شجرة ، ليكون إِذا تباعد عن جُحْرِهِ لطلب طُعْمه أَو خوفٍ حَسُنَ اهتداؤُه إِليه .

* * * *

٢٥ — والضَّبَّةُ تبيض ستين بيضةً ، ثم تسدُّ عليهن باب جُحرها ، ثم تدعهن أَربعين صَبَاحاً ، ثم تحفر عنهن وقد انشقّ البيضُ .

* * * *

٢٦ — والنسرُ كثير الشَّرهِ ، فإِذا امتلأَ من الجِيفِ لم يستطع الطيران ، فيثبُ وَثَبَاتٍ ويدورُ حول مسقطه مرات ، ثم يرفع نفسَهُ طبقةً طبقةً في الهواءِ حتى يدخلَ الريحُ تحته فيرفعَهُ .

* * * *

٢٧ — والسِّنَّوْرُ يرى الفأْرة في السقف ، فيحرّك يده كالمشير لها بالعَوْدِ فتعود ، ثم يشير إِليها بالرجوع فترجع ، وإِنما يطلب أَن تَزْلَقَ ، فلا يزال يفعل ذلك حتى تسقُطَ .

* * * *

٢٨ — والأَسد ربما حَبَس العَنْز بيمينه وطعن بمخلب يساره في لَبَّتِهِ وقد أَوقفه على مُؤَخّرته ، فيتلقَّى دَمَه شاخباً في فيه ، كأَنَّه ينصبُّ من فوّارة ، حتى إِذا شربه واستفرغه شقَّ بطنه .

* * * *

٢٩ ـ والبقُّ يخرجُ لطلب الرِّزْق ، فيعرفُ أنَّ الذي يعيّشُه الدَّمُ ، فإذا أبصر الجاموس علم أن خلف جِلْده غذاءَهُ ، فسقط عليه ، وطعن بخرطومه وهو واثق بنفوذ سلاحه .

* * * *

٣٠ ـ والعُقَاب لا تكاد تعاني الصيد ، بل يقف على موضع عالٍ ، فإذا اصطاد بعضُ الطير شيئاً انقضَّت عليه ، فإذا أبصره لم يكن له همةٌ إلّا الهرب وترك صيدَه في يدها .

* * * *

٣١ ـ وكذلك الحية لا تحفر موضعاً تسكنه ولا تهتم بذلك ، بل تأتي إلى المكان الذي حَفَرَهُ غيرُها فتسكنُه ، فينفرُ عن ذلك المكان .

* * * *

٣٢ ـ والأيِّل يذهب قرنُه في كلِّ عام ، فإذا علم أنه قد هلك سلاحُه لم يظهرْ من مخافة السَّبُع ، فإذا قام في موضعه سَمُن ، فيعلم أنَّ حركتَه تُبطىءُ ، فيزيد في استخفائه ، فإذا ظهر قرنُه تعرض للشمس والريح ، وأكثر الحركةَ والذَّهاب ليذهبَ شحمُه ويشتدّ لحمُه ، فإذا استقام قرنُه عاد إلى عادته الأُولى ؛ وهو يأكل الحيّات فيعتريه عَطشٌ شديد ، فيدورُ حول الماءِ ، ولا يحجزه عن ذلك إلّا علمُه بأن الماءَ يَنْفِذُ السُّمُومَ فيسرعُ هلاكُه .

* * * *

٣٣ ـ وبيوت الزَّنابير مبنية من زبد الدُودِ .

* * * *

٣٤ ـ والقنفذ وابن عرس إذا ناهشا الأفعى والحيات الكبار تعالجا بأكل الصَّعْتر البرّيّ .

* * * *

٣٥ ـ والعُقاب إذا اشتكت كبدها من رفعِها الأرنبَ والثعلب في الهواءِ وحطِّها لذلك مراراً فإنها لا تأكلُ إلّا من الأكبادِ حتى يبرأ وجَعُها .

* * * *

٣٦ – وإذا جمعتَ الفأْرةَ والعقربَ في إناءِ زُجَاج ، قرضت الفأْرةُ طرفَ إبرة العقرب فسلمتْ من شَرِّها ، ثم قتلتها كيف شاءَت .

* * * *

٣٧ – وإذا وَضَعتِ الدُّبُّ الأُنثى ولدَها كان حينئذ كِفِدْرة لحمٍ ، غيرِ مفهومِ الجَوَارح ، فخافتْ عليه الدبَّ ، فرفعتْه في الهواءِ أَياماً ، وتحوِّله من موضع إلى موضع إلى أن يشتدّ .

* * * *

٣٨ – والسمكُ إذا حصلت في الشبكة ، ولم تستطع الخروجَ ، علمت أَنه لا يُنْجِيها إلَّا الوثوب ، فتتأَخر قدر رُمح ، ثم تقبل واثبةً نحو عشرة أَذرع ، فتخرقُ الشبكة .

* * * *

٣٩ – والفهد إذا سمن علم أَنه مطلوبٌ ، وأَن حركتَه قد ثَقُلَت ، فهو يخفي نفسه بجُهده حتى ينقضي ذلك الزّمان الذي يسمُن فيه الفُهُود .

* * * *

الباب الثالث والثلاثون
في
ذكر ما ضربته العرب الحكماءُ مثلاً على ألسنة الحيوان البهيم
مما يدل على الذكاء

١ ــ تقول العربُ : أَحذَرُ من غُراب ؛ ويقولون : قال الغرابُ لابنه : إذا رُمِيتَ فتَلَوَّص ، أي : تَلَوّى ، قال : يا أبت ! إنّي أتَلَوَّصُ قبل أن أُرْمى .

* * * *

٢ ــ أخبرنا أبو المعمر المبارك بن أحمد الأنصاري ، عن الشَّعبي ، قال : مرض الأَسدُ ، فعاده السِّباعُ ما خلا الثَّعلَبَ ، فقال الذئب : أيها الملكُ ! مرضتَ فعادك السباعُ إلّا الثعلب ؛ قال : فإذا حضر فأَعْلِمني ؛ فبلغ ذلك الثعلبُ ، فجاءَ ، فقال له الأَسد : يا أَبا الحصين ! مرضتُ فعادني السِّباعُ كلُّهم ولم تَعُدْنِي أَنت ؛ قال : بلغني مرضُ الملك ، فكنتُ في طلب الدّواءِ له ؛ قال : فأَيَّ شيءٍ أَصبْتَ ؟ قال : قالوا لي : خَرَزَةٌ في ساقِ الذئب ينبغي أَن تخرجَ ؛ فضرب الأَسدُ بمخالبه ساقَ الذئب ، فانسلَّ الثعلبُ وخرج ، فقعد على الطريق ، فمر به الذِّئبُ والدمُ يسيلُ عليه ، فقال له الثعلبُ : يا صاحبَ الخُفِّ الأَحمر ، إذا قعدتَ بعد هذا عند سلطان فانظر ما يخرجُ من رأْسك .

* * * *

٣ ــ أخبرنا محمد بن القاسم عن الشعبي ، قال : أُخبِرْتُ أَن رجلاً صاد قنبرة ، فلما صارت في يده ، قالت : ما تريد أَن تصنع بي ؟ قال : أَذبحك وآكلُك ؛ قالت : ما أُشْفي من قَرَمٍ ولا أُشْبع من جوع ، ولكن أُعَلِّمُك ثلاث خِصَالٍ خيرٌ لك من أَكلي ، أَمّا واحدة : أُعلِّمك وأَنا في يدك ؛ والثانية على الشجرة ، والثالثة على الجبل ؛ فقال : هات الواحدة ؛ قالت : لا تَلَهَفَنّ على ما فاتك ؛ قال : فلما صارت على الشجرة ، قال لها : هات الثانية ؛ قالت له: لا تصَدِّقْ

بما لا يكون أن يكون ؛ فلما صارت على الجبل ؛ قالت له : يا شقيُّ ! لو ذبحتَني أخرجتَ من حوصلتي دُرَّتَيْن في كلٍّ واحدةٍ عشرون مثقالاً ؛ قال : فعضَّ على شفتيه وتلَهَّفَ ، ثم قال لها : هات الثالثة ، قالت : أنت قد نسيتَ اثنين ، فكيف أُحدِّثك بالثالثة ؟ أَلم أَقل لك : لا تلهفنّ على ما فاتك ، ولا تصدّق بما لا يكون أن يكون ، وأنا وريشي ولحمي لا أكون عشرين مثقالاً ! قال : وطارت ، فذهبت .

* * * *

٤ — أخبرنا عبد الوهاب ، عن عطاء ، عن أبيه ، قال : صادَ رَجُلٌ من بني إسرائيل عصفوراً ، فلما صار العصفور في يده ، أنطق الله عزّ وجلّ العصفور ، فقال : ما تريد مني ؟ قال : أريد أن أذبحك فآكلك ؛ فقال له العصفور : والله ما في ما يشبعك ، ولكن ، هل لك في خصلة أعلمك ثلاث كلمات خير لك من أكلي وتخلي سبيلي ؟ قال له الرجل : نعم ؛ قال له العصفور : لا تيأس على ما فاتك ، ولا تطلب ما لا تدرك ، ولا تصدق بما لا يكون ؛ فقال : إن هؤلاء الكلمات أحب إلي من أكلك أو ذبحك ، فخلّى عنه وسرّحه ، وطار العصفور ، فوقع على حائط بحداه ، فقال له : أيها الرجل ! لو أتممت علي ما أردته من ذبحي لاستخرجت من حَوْصلتي درة كبيضة الوزة ؛ فأضمر الرجل في نفسه ندامة ؛ فقال له : أيها العصفور ! ارجع لي حتى أطعمك السمسم المقشّر والماء البارد ؛ فقال له العصفور : أيها الجاهل ! لا أنت ذبحتني فأكلتني ، ولا أنت انتفعت بالكلمات التي علمتك ؛ أليس قلت : لا تطلب ما لا يدرك ؟ وأنت تطلبني ؛ ولا تصدق ما لا يكون ؟ وقد صدقتني أن في حوصلتي درة كبيضة الوزة وأنا لا أكون كبيضة الوزة ؛ ثم طار وتركه .

* * * *

٥ — قال أبو عثمان الخياط ، عن مجاهد ، قال : انطلق غلام من بني إسرائيل بفخٍّ ، فنصبه ناحيةً من الطريق ، فجاءَ عصفورٌ فسقط ، ثم انطلق إلى الفخِّ ، فقال للفخ : ما لي أراك متباعداً عن الطريق ؟ قال : أَعْتَزِلُ شُرورَ النَّاس ؛ قال : فما لي أراك ناحل الجسم ؟ قال : أنهكتني العبادة ؛ قال : فما هذا الحَبْل على عِطْفَيْك ؟ قال : المُسُوحُ والشَّعْرُ لِبْسِ الرّهْبانِ والزُّهَّادِ ؛ قال : فما هذه العَصَا في يدك ؟ قال : أتوكأُ عليها ؛ قال : فما هذه الحبَّة في فيك ؟ قال : رصدتُها لابن السَّبيلِ أو مُحتاج ، قال : فأنا ابن سبيل ومحتاج ؛ قال : فَدُونَك . قال : فوضع العصفورُ

رأسَه في الفَخِّ ، فأُخذ بعُنُقِه ، فقال العصفورُ : سِيْق سِيْق . ثم قال : لا غرّني بَعدك قارىءُ مرائي مرة أُخرى .

قال مجاهدُ : هذا مَثَلٌ ضربه الله عز وجل لقراءٍ مرائين في آخر الزمان .

* * * *

٦ ــ أخبرنا أبو بكر بن حبيب العامري ، قال : قال مالك بن دينار : مَثَلُ قُراءِ هذا الزَّمان كَمَثَلِ رَجل نَصَب فخّاً ، ونصَب فيه بُرّة ، فجاءَ عصفور ، فقال : ما غيّبك في التراب ؟ قال : التواضع ؛ قال : لأيِّ شيءٍ أُنحلت ؟ قال : من طول العبادة ؛ قال : فما هذه البُرّةُ المنصوبةُ فِيك ؟ قال : أعددتُها للصّائمين ؛ فقال : نعم الخير أنت ؛ فلما كان عند المغرب دنا العصفورُ ليأُخذَها ، فخنقه الفخ ؛ فقال العصفورُ : العبادةُ تخنق كخنقِك ؟ فلا خير حينئذ في العبادة اليوم ! .

* * * *

٧ ــ أخبرنا عبد الوهاب بن المبارك ، قال : حدثنا المعافى بن زكريا ، قال : زَعَمُوا أَنَّ أَسداً وذئباً وثعلباً اصطحبُوا ، فخرجوا يتصيّدُون ، فصادُوا حماراً وظبياً وأَرنباً ، فقال الأَسدُ للذئب : اقْسِمْ بيننا صَيْدَنا ؛ قال : الأَمْرُ أَبْين من ذلك ، الحمارُ لك ، والأَرنبُ لأَبي معاوية ، والظبْيُ لي ؛ قال : فخبطَهُ الأَسدُ فاندقّ رَأْسَه ، ثم أَقبل على الثعلب ، وقال : قاتله الله ، ما أَجهله بالقسمة ؟ ثم قال : هات أَنت ؛ قال الثعلب : يا أَبا الحارث ! الأَمْرُ أَوضح من ذلك ، الحمار لَغَذَائك ، والظَّبْيُ لعَشائِك ، وتخلّلْ بالأَرنب فيما بين ذلك ؛ قال الأَسدُ : وَيْحَك ! ما أَقضاك ! من علَّمك هذه القسمة ؟ قال : رأْسُ الذئب النادر بين عينيّ .

وأنبأنا بهذه الحكاية إسماعيل بن أحمد ، قال : أخبرنا رزق الله بن عبد الوهاب التميمي ، عن الشعبي ، قال : اجتمع أسد وذئب وثعلب ، فوجدوا بقرة وكبشاً وحَمَلاً ، فقال الأَسد للذئب : آقسم هذا بيننا ؛ فقال الذئب : البقرة لك ، والشاة لي ، والحَمَل للثعلب ؛ فضرب الأَسد جَسَدَ الذئب ، ورفسه ، فجعل يضطرب حتّى مات ؛ ثم قال للثعلب : آقسم هذا بيننا ، فقال : البقرة لك تتغذّى بها ، والشاة تتعشى بها ، والحَمَل تأكله فيما بين ذلك ، فقال له الأَسد : قاتلك الله ! ما أبصرك بالقضاء والقسمة ! من أين تعلّمتَ هذا ؟ قال : مما رأيت مما أضرَّ بالذئب .

* * * *

٨ – وذكر الحكماءُ في أمثالهم ، قالوا : قيل للثعلب : ما بالك تعدو أسرع من الكلب ؟ فقال : لأنّي أعدُو لنفسي والكلبُ يعدُو لصاحبه .

* * * *

٩ – وذكر أبو هلال العسكريّ ، قال : قالت العربُ : وَجَدت الضَّبُعُ تمرةً ، فاختلسها الذئبُ ، فلطمتْهُ لطمةً ، فتحاكما إلى الضَّبِّ ، فقالت : يا أبا الحُسَل ! قال : سميعاً دعوتِ ، قالت : جئناكَ نحتكمُ إليك ؛ قال : في بيتِهِ يُؤتَى الحَكَمُ ؛ قالت : إنِّي التقطتُ تمرةً ، فقال : حُلْواً جنيتِ ؛ قالت : إنَّ الذئب أخَذَها ؛ قال : حَظَّ نَفْسِهِ بَغَى ؛ قالت : لَطَمْتُه ؛ قال : أشْفَيْتِه والبَادِي أظْلم ؛ قالت : فلَطَمَنِي ؛ قال : حرٌّ انتصرَ لنفسِه ؛ قالت : اقْضِ بيننا ، قال : قضيتُ .

* * * *

١٠ – قالوا : حدِّث المخاطَب حديثين فإن لم يفهمْ فأَرْبَعَةً .

* * * *

١١ – قال العسكريُّ : المعنى إن لم يفهم حديثين كان ممن لا يفهمُ أربعةً أقرب .
قال : وقال بعضُ العلماءُ : إنما هو فَأَرْبِعْ ، أي : أَمْسِكْ ، وذلك غَلَطْ .

* * * *

١٢ – قالوا : وصادت حِدَأةٌ سمكةً ، فهمّتْ ببلعها ، فقالت : لا تفعلي فإنَّك إن أكلتيني لم أُشْبِعْكِ ، ولكن استحْلِفِيني بما شئتِ أنَّني آتيكِ كلَّ يوم بسمكةٍ ؛ ففتحت فاها لتُحَلِّفَها فانسابَتْ منها ، فقالت : ارجِعي ، فقالت : ما رأيتُ في مجيئي إليك خيراً فأعود .

* * * *

١٣ – قالوا : وكان رجلٌ في صحراءَ فَعَرَضَ له الأسدُ فهرب منه ، فوقع في بئرٍ فوقع الأسد خلفه ، فإذا في البئر دُبٌّ ، فقال له الأسدُ : منذ كم أنت ها هنا ؟ قال : منذ أيّام ، وقد قتلني الجوعُ ؛ فقال الأسدُ : أنا وأنت نأكُل هذا وقد شبعنا ؛ فقال الدُّبُّ : فإذا عاودنا الجوعُ فما نصنع ؟ وإنما الرأْيُ أن نَحْلِفَ له أنَّنا لا نؤذيَه ليحتالَ لخلاصِنا وخَلَاصِه ، فإنَّه أقدرُ على الحيلة منَّا ، فحلفنا له ؛ فأخذ في التحيُّلِ ، فلاح له ضوءٌ ، فَنقب ، فخرج به إلى فضاءٍ ، فتخلَّص وخلَّصهُما .

* * * *

١٤ — وروى أبو بكر محمد بن علي الصولي ، قال : كان أبو أيوب المورَيَانِيّ — وهو وزير المنصور — إذا دعاه المنصورُ يَصْفرُّ ويرعد ، فإذا خرج من عنده عاد لَوْنُه ، فقالوا له : إنا نراكَ مع كثرةِ دخولك إلى أمير المؤمنين وأُنسِهِ بك تتغيَّرُ إذا دخلتَ عليه ؛ فقال : مَثَلِي ومَثَلُكم في هذا مَثَل بازِيٍّ وديكٍ تناظرا ، فقال البازيُّ للدِّيك : ما أعرف أقلَّ وفاءً منك ! قال : وكيف ذلك ؟ قال : تؤخذ بيضةً ، فيحضنك أَهلُك ، وتخرج على أيديهم ، فيطعمونَك بأكفّهم ، حتى إذا كَبِرتَ صار لا يدنُو منك أَحدٌ إلّا طِرْت ها هنا وصِحْت ها هنا ، فإن علوتَ حائطاً كنت فيها سنين طِرتَ منها وتركتَها وصرتَ إلى غيرها ؛ وأنا أُوخذ من الجبال ، وقد كَبِرتُ ، فأُطْعَمُ الشيءَ اليسيرَ وأُوثق يوماً أو يومين ، ثم أُطْلَق على الصيد فأَطيرَ وحدي ، فآخذه وأجيءَ به إلى صاحبي ؛ فقال له الدِّيكُ : ذهبتْ عنك الحجة ، أمّا أنك لو رأيت بازين في سَفُّودٍ ما عدتَ إليهم أبداً ، وأنا كلَّ وقتٍ أرى السَّفَافيد مملوءَةً دُيوكاً وأَبيتُ معهم ، فأنا أوفى منك ؛ ولكن لو عرفتُم من المنصور ما أَعرفُ ، لكنتم أسوأ حالاً منّي عند طَلَبِه إيّاكُم .

* * * *

١٥ — قالوا : ورأت الضَّبُعُ ظبيةً على حمار ، فقالت : أَرْدِفِيني ؛ فأَرْدَفَتْها ، فقالت : ما أَفْرَه حِمَارَكِ ؟ ثم سارت يسيراً ، فقالت : ما أَفرَه حِمارَنا ! فقالت الظبية : انزلي قبل أن تقولي : ما أَفْرَه حِمَارِي .

* * * *

١٦ — قالوا : وصادت الضّبع ثعلباً ، فقالت الثعلب : مُنِّي عليّ أُمَّ عامر ، فقالت : خيَّرتك خَصْلَتَيْن إمّا أن آكلك ، وإما أن أُوكلَك ، فقال الثعلبُ : أما تذكرين أُمَّ عامر التي نُكِحَت في دارها ؟ فقالت الضَّبعُ : متى هذا ؟ فانفتح فوها ، فأفلت الثعلبُ .

* * * *

١٧ — قالوا : وأَولم طائرٌ فأَرسل يدعو ، فغلِط بعضُ رُسُلِهِ ، فجاءَ إلى الثعلب فقال : أخوك يدعوك ، فقال : السمع والطاعة ؛ فلما رجع أخبر الطائر ، فاضطربت الطيورُ ، وقالوا : أَهلكْتَنا وعرَّضْتَنا للحتْف ، فقالت القنبرة : أنا أَصرفه عنكم بحيلة ؛ فمضتْ ، فقالت : أخوك يقرأُ عليك السّلام ، ويقول لك : الوليمةُ يوم الاثنين ، فأين تحبُّ أن يكون مجلسك مع الكلاب السَّلُوقية أو مع الكلاب الكُرْدِيّة ؟ فتجرّعها الثعلبُ وقال : أَبلغي أَخي السلام وقولي له : أَبو

سرور يقرئك السّلام ، ولكن قد قُدِّمَ لي نَذْرٌ منذ دهر بصوم الاثنين والخميس .

* * * *

١٨ ــ قالوا أَبو عمير الصوري : مرَ تَيْسٌ بِزِقٍّ ففرّ منه ، فقال له الزِّقُ : تنفرُ منِّي ، مثلُك كنتُ ومثلي تكونُ .

* * * *

١٩ ــ أخبرنا أبو المعمر بن أحمد الأنصاري ، قال : أخبرنا أَبو سليمان الخَطَّابي : من أَمثلتهم ، قولهم : لا أُريد ثوابَك اكفني عَذابَك ، ومثله قول الشاعر :

كفـــــاني الله شرّك يا خلـــــيلي فأَمّـا الخيـرُ مـنك فقــد كَفَانِـــي

* * * *

٢٠ ــ قال أبو سليمان : نظيرهُ قولهم : يَدَكَ عنّي وأَنا في عافية ، وأَصلُ هذا فيما يتكلّم به الناس على أَلسنة البهائم : أَنَّ فأْرةَسقطتْ من السقف ، فظفرت الهِرَّة بحمْلِها ، تقول : بسم الله عليك ؛ فقالت الفأْرة : يَدَكِ عنّي وأَنا في عافية .

* * * *

٢١ ــ سمعتُ علي بن الحسين الواعظ يحكي أَنَّ عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام مرّ على حوّاءٍ يطاردُ حيَّةً ليأْخذَها ، فقالت الحيةُ : يا رُوحَ اللهِ ! قل له : لئن لم يلتفتْ عني لأَضربنّه ضرباً أُقطِّعُه قِطعاً ؛ فمرّ عيسى عليه السلام ، ثم عاد ، وإذا الحيّة في سلّته ، فقال لها عيسى : أَلست القائل : كذا وكذا ؟ فكيف صِرْتِ معه ؟ فقالت : يا روح الله ! إنه حلف لي ، فلئن غَدَرَنِي فسُمُّ غَدْرِه أَضرُّ عليه من سُمّي .

تمّ وكمل

كَمُلَ الكتاب والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين ، وعلى آله وأصحابه وأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين ، وجميع الأنبياء والصالحين ، والملائكة المقربين ، وجميع المؤمنين ، وسَلَّمَ تسليماً كثيراً إلى يوم الدين ، ووافق الفراغ من نسخه يوم الثلاثاء سابع شهر رجب الفرد سنة ثمان وعشرين وثمان مئة .

حسبنا الله ونعم الوكيل .

طالعه أجمع صرغتمش الزيني غفر الله له ولمالكه وللمسلمين في رمضان سنة ٨٣٨ .

الفهرس

أخبار الأذكياء

صدر عن الجفان والجابي للطباعة والنشر

أخبار الظِّرَاف والمتماجنين

لأبي الفرج جمال الدِّين عبد الرَّحمن بن علي بن محمد الجوزي
القرشي البغدادي
(٥٠٨ — ٥٩٧ هـ = ١١١٤ — ١٢٠١ م)

(ضمن كتب : الملح والسمر)

يقول الأستاذ العلَّامة علي الطنطاوي في تقديمه للطبعة الأولى لهذا الكتاب :

إن الفكاهة والسرور أمر لا بدَّ منه للإنسان في هذه الحياة ... ولأن يَتفكَّه المَرْء بقراءة كتاب من كتب السَّلَفِ ، كـ « أخبار الظِّرَاف » لِعَظيمٍ من عُظماء هذه الأمّة كابن الجَوْزي ؛ خيرٌ له من أن يتَفَكَّهَ بغير ذلك .

هذا ما كان داعياً إلى إخْراج هذا الكتاب ، وإنّهُ لَيُغْني كثيراً من النَّاسِ عمّا لا خير فيه من رواياتٍ مُضرَّةٍ وأحاديث تافهةٍ ... ويُسَلِّي المريض الممنوع من المطالعات الجَدِّيَة ، وليسَ له إلى تَرْكِها من سبيلٍ بما ينسيه مرضهُ ، ويدفَعُ عَنْهُ ضَرَرَ ما مُنِعَ عَنهُ .

ويُفِيدُ العاقِلَ الذي يعرف كيف يستفيد من كل شيء في هذا العالم ، وليس اتِّباع صالح الأعمال بأكبر أثراً في إصلاح الأخلاق من اجتناب سَيِّئها . ولقد قال ابْنُ المُقَفَّع : ما أَدّبني غير نفسي ، إن رأيت من غَيْري حَسَنَاً أَتَيْتُهُ ، وإن رأيتُ سَيِّئاً اجْتَنَبْتُهُ . اهـ .

ضُبِطَ نصُّ الكتاب ، ورُقِّمَ وفُصِّلَ وشُكِّلَ شَكْلاً تامّاً ، وحلّت معضلاته ، وشرحت ألفاظه ، وأوضحت غوامضه ؛ لتكون هذه الطَّبعة على أفضل ما يمكن من حيث الشَّكل والمضمون .

زُوِّدت هذه الطَّبعة بالفهارس اللازمة ، وصُدِّرت بمقدِّمة عن الكتاب ومؤلِّفه .

تحفة المودود بأحكام المولود

لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب
الزُّرَعي الدِّمَشقي المعروف بابن قيِّم الجَوْزية
(٦٩١ – ٧٥١ هـ = ١٢٩٢ – ١٣٥٠ م)

يقول المؤلف :

« هذا كتابٌ قَصَدْنا فيه أحكامَ المولود المُتَعَلِّقَة به بعد ولادتِهِ ما دام صغيراً : من عَقيقَتِهِ وأحكامِهَا ، وحَلْقِ رَأْسِهِ ، وَتَسْمِيَتِهِ ، وخِتَانِهِ ، وبَوْلِهِ ، وثَقْبِ أُذْنِهِ ، وأحكام تَرْبِيَتِهِ ، وأطْواره من حين كونه نُطفةً إلى مستقره في الجنَّة أو النَّار ؛ فجاء كتاباً نافعاً في معناه ، مشتملاً من الفوائد ما لا يكاد يوجد بسواه : مِن نُكَتٍ بديعة من التَّفسير ، وأحاديث تدعو الحاجة إلى معرفتها وعللها والجمع بين مختلفها ، ومسائل فقهيَّة لا يكاد الطالب يَظفر بها ، وفوائد حكمية تشتدُّ الحاجة إلى العلم بها . فهو كتابٌ مُمْتِعٌ لقارئِهِ ، مُعْجِبٌ للنّاظِر فيه ، يصْلُحُ للمعاش والمعادِ ، ويحتاج إلى مضمونه كلُّ مَنْ وُهِبَ له شيءٌ من الأولاد ... » .

ضُبِطَ نَصُّ الكتاب ، ورُقِّمَ وفُصِّلَ ؛ وخُرِّجت الآيات والأحاديث بالدّلالة على أماكن ورودها ، واعتُمِدَ في إصداره على نسخة مخطوطة وروجعت كلّ الطبعات السابقة لهذه الطبعة ؛ لتكون على أفضل ما يمكن من حيث المضمون والشكل .

هذا ، وَأُلحِقَ بالكتاب مسردٌ لأجمل الأسماء العربية مع بيان معانيها استكمالاً لموضوع الكتاب .

وزُوّدت هذه الطبعة بالفهارس اللازمة ، وصُدِّرت بمقدّمة عن الكتاب ومؤلّفه .

علم الفلك

تاريخه عند العرب في القرون الوسطى

ملخص المحاضرات التي ألقاها بالجامعة المصرية المستشرق
الإيطالي : كرلو نلّينو **Carlo Nallino**
(١٢٨٨ – ١٣٥٧ هـ = ١٨٧٢ – ١٩٣٨ م)

يقول المؤلف عن كتابه :

مدار كتابي على « تاريخ علم الهيئة عند العرب في القرون الوسطى ، أعني به البحث عن أوائل ذلك العلم عندهم ، وأسباب نشأته ونموّه ، وكيفيّة ارتقائه إلى ذروته في بلاد الإسلام المختلفة ، وعلل انحطاطه بعد إدراكه ما قد أدرك من الكمال والارتفاع فيها ؛ وكذلك أريد بيان ما أضافت العرب من الفوائد والإكمال إلى معارف القدماء من اليونان والهند والفرس في ذلك الفنّ ، وشرحَ آرائهم في المسائل المهمة ، ثمّ إبانة ما انتَفَعتْ به أهل الغرب عند مراجعتهم كتب العرب الفلكية ، بحيث أن يظهر ما نالت أهل الشَّرق من البراعة والفضيلة بنقلهم علم الهيئة من اليونان القدماء إلى الأمم الأوروباوية » .

والمؤلّف كرلو نلّينو ، مستشرق إيطالي عظيم ، بَرَعَ في تخصّصِهِ في الجغرافية الرِّياضية والفلك عند العرب ، وهو أكبر حجّة في تاريخ الفلك عند العرب ، وكتابه هذا هو أقوم وأفضل ما كتب في بابه .

ضُبِط نصُّ الكتاب ، ورُقِّمَ وفُصِّلَ ، وزُوِّدَ بالفهارس اللازمة ، وصُدِّر بمقدِّمة عن الكتاب ومؤلّفه .

أخبار الأذكياء

لأبي الفرج جمال الدِّين عبد الرّحمن بن علي بن محمد الجوزي

القرشي البغدادي

(٥٠٨ ــ ٥٩٧ هـ = ١١١٤ ــ ١٢٠١ م)

(ضمن كتب : الملح والسمر)

يعدُّ هذا الكتاب من كتب الأدب الفريدة ، إذْ جَمَعَ بَيْنَ دفَّتيه قصص الأذكياء وطرائفهم وروعة إجاباتهم وحسن تخلُّصهم ، وما حباهم الله سبحانه وتعالى به من ذكاء حاذق وبديهة حاضرة .

وقد هَدَفَ المؤلف من كتابه أغراضاً ثلاثة :

الأول : معرفة أقدار الأذكياء بذكر أحوالهم .

الثاني : تلقيح لباب السَّامعين إذا كان فيهم نوع استعداد لنيل تلك المرتبة ؛ فإن كانت رؤية العاقل ومخالطته تفيد ذا اللُّبِّ ، فسماع أخباره تقوم مقام رؤيته .

الثالث : تأديب المُعْجب برأيه إذا سمع أخبار من تعسر عليه لحاقه .

وسبق لهذا الكتاب أن طبع عدّة مرات ، لكنّنا أخرجنا طبعتنا هذه بالاعتماد على مخطوطات جديدة ، زادت في مضمون الكتاب بحدود ١٥٪ ، بالإضافة إلى حلّ الكثير من المعضلات التي كانت تعترض القارىء ، فتقف دون فهمه للخبر .

ضُبِطَ نصُّ الكتاب ، ورُقِّمَ وفُصِّلَ ، وزُوِّدَ بالفهارس اللازمة ، وصُدِّر بمقدِّمة عن الكتاب ومؤلِّفه .

أخبار الحمقى والمغفّلين

لأبي الفرج جمال الدِّين عبد الرَّحمن بن علي بن محمد الجوزي

القرشي البغدادي

(٥٠٨ ــ ٥٩٧ هـ = ١١١٤ ــ ١٢٠١ م)

(ضمن كتب : الملح والسمر)

يقول المؤلف :

آثرت أن أجمع «أخبار الحمقى والمغفّلين » لثلاثة أشياء :

الأوّل : إن العاقل إن سمع أخبارهم عرف قدر ما وهب له ممّا حرموه ، فحثّهُ ذلك على الشكر .

الثاني : إن ذِكر المغفّلين يحثُّ على اتِّقاء أسباب الغفلة .

الثالث : أن يروح الإنسان قلبه بالنظر إلى سير هؤلاء ؛ فإن النفس قد تملُّ من الدؤوب في الجدّ ، وترتاح إلى بعض المباح من اللهو . اهـ .

سبق لهذا الكتاب أن طُبع عدة مرات ، لكننا أخرجنا طبعتنا هذه بالاعتماد على مخطوطات جديدة ، زادت من مضمون الكتاب ، ووثّقته بالأسانيد ، بالإضافة إلى حلّ الكثير الكثير من المعضلات ، وتفسير الكثير من الغفلات كي يدرك القارىء معناها .

ضُبِطَ نصُّ الكتاب ، ورُقِّمَ وفُصِّلَ وزُوِّدَ بالفهارس اللازمة ، وصُدِّر بمقدِّمة عن الكتاب ومؤلِّفه .

التَّطفيل وحكايات الطُّفيليين وأخبارهم
ونوادر كلامهم وأشعارهم

لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي

(٣٩٢ – ٤٦٣ هـ = ١٠٠٢ – ١٠٧٢ م)

(ضمن كتب : الملح والسمر)

الخطيب البغدادي من كبار الحفّاظ المحدثين والمؤرّخين ، وأحد الأئمة المشهورين المصنفين المكثرين المتقنين المتبحرين ؛ ألّف هذا الكتاب لإملاح القارىء بالفائدة العلمية والخبر الطريف والتحقيق المفيد ؛ فهو يقول للقارىء :

« وقد جَمَعت لك في هذا الكتاب من ذكر التَّطفيل ومعناه ، وأول من نُسب إليه وعُرف به ، وبيان حكمه وحَمده وذمه ؛ ما يستروح قلبُ العالم إليه من ثِقَلِ الجدِّ ، ويتروح بالنَّظر فيه من دوام الدَّرس والكدِّ » .

ثم يقول :

« ولم تزل أفاضِل الناس وأكابرهم تعجبهم المُلَحُ ، ويؤثرون سماعها ، ويهشُّون إلى الذاكرة بها ؛ لأنها جمام النفس ، ومستراح القلب ، وإليها تصغى الأسماع عند المحادثة ، وبها يكون المؤانسة » .

ضُبِطَ نصُّ الكتاب ، ورُقِّمَ وفُصِّلَ ، وزُوِّدَ بالفهارس اللازمة ، وصُدِّر بمقدِّمة عن الكتاب ومؤلِّفه .

عقلاء المجانين

لأبي القاسم الحسن بن محمد بن الحسن بن حبيب

النِّيسابوري المتوفى سنة ٤٠٦ هـ

(ضمن كتب : الملح والسمر)

يبحث هذا الكتاب في كلِّ ما يتصل بالجنون ، ويضمُّ بين دفَّتيه ما وقع لمؤلّفه من أخبار وآثار وقصص وروايات عن المجانين ، وما يخصّ عقلاءهم .

فهو يُطرِف بنُكاتِ المجانين ، وحِكَمِ البله والمتباهين .

أما مؤلّفه فهو إمام من أئمة القراءات وعلم من أعلام المفسّرين ، ومن المحدّثين .

يندرج هذا الكتاب مع أخوته ضمن كتب الملح والسمر .

ضُبِطَ نصٌّ الكتاب ، ورُقِّمَ وفُصِّلَ ، وزُوِّدَ بالفهارس اللازمة ، وصُدِّر بمقدِّمة عن الكتاب ومؤلِّفه .